رضى القدوس

تهذيب رياض النفوس

في طبقات علماء القيروان وإفريقية

تأليف

الشيخ الإمام أبي بكر عبدالله بن محمد المالكي

(توفي سنة ٤٧٤)

تهذيب

محمد بن موسى الشريف

دار أمجاد حنين

جدة

رضى القدوس

تهذيب

رياض النفوس

في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم
ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم

تاليف
الشيخ الإمام أبي بكر عبد الله بن محمد المالكي
(ت ٤٧٤)

تهذيب
محمد بن موسى الشريف



الطبعة الأولى للناشر

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

رقم الإيداع: ٢٠١٣/٢١٤٣١

الترقيم الدولى: I.S.B.N

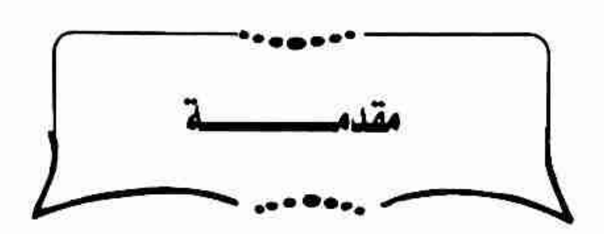
978-977- 456 – 379 - 2

مركز السلام للتجهيز الفني

عبد الحميد عمر

٠١٠٠٦٩٦٢٦٤٧





مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذا كتاب عظيم، أقدمه إلى القراء هديةً فاخرة، ودُرّةً نادرة، فيه تراجم تونسية جليلة، تستدرّ شئون العيون، وتخفق لها القلوب، وتخشع لها النفوس، وتحار فيها العقول، وقد سماه مصنفه «رياض النفوس» فحبذا هي من تسمية طابقت المسمى، وجاءت على ما يريده المصنف، رحمه الله تعالى.

هذا وقد قرأت كثيرًا جدًّا من كتب التراجم -بفضل الله تعالى- لكنني لم أقف على كتاب في جلالة هذا الكتاب، ولا في عظمة رجاله، ولا في جمال أخباره، وذلك للأسباب التالية:

أولاً: جاء حاويًا لتراجم القرون الثلاثة والنصف الأول من القرن الرابع، ومعلوم أن تلك القرون هي المفضلة، وأهلها خير الناس كما جاء في حديث رسول الله ﷺ: **«خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»**[1].

فإذا أفرد كتاب ما تراجم أولئك فسيكون له أثر أقوى بكثير من خَلْطِ تراجمهم بتراجم القرون مِن بعدهم.

ثانيًا: فيه أخبار كثيرة عن الورع والزهد والتقوى والرقائق التي لم تخلط بتُرّهات الصوفية الغالين وشطحاتهم، ورموزهم وأسرارهم،

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه عن عبدالله بن مسعود ﷺ.

وغموضهم وعجائبهم وغرائبهم، إنما هي تراجم على نهج تراجم الصدر الأول التي يستشفي بها المرء من أمراض السلوك والأخلاق ويرتقي بها إلى طاعة الخلّاق، سبحانه وتعالى.

والناظر في هذا الكتاب سيدرك هذا جليًا واضحًا -إن شاء الله تعالى- فهو ظاهر مبثوث في كل صفحات الكتاب تقريبًا.

ثالثًا: معظم المترجم لهم في هذا الكتاب هم من أهل الجهاد، ومن المرابطين في ثغور تونس، وأخبار المجاهدين لها من الأثر في النفوس والأرواح، وفي القلوب والعقول ما ليس لغيرها، ولا جرم فإن المجاهدين - في الجملة- هم إلى الله أقرب، ولطاعته ألزم، وما أحسن ما قاله الإمام الكبير عبد الله بن المبارك: إذا اختلفتم أنتم وأهل الثغر فخذوا بقولهم.

فقيل له: من أين لك هذا؟

فقال: إن الله -تعالى- قال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩].

فما أجمل هذا الاستنباطَ وأحسنه!

رابعًا: إن معظم قصص وأخبار هذه التراجم جديدة على أكثر القراء؛ وذلك لأن التراجم المغربية تخفى أكثر تفاصيلها ودقائقها فلا تكاد تُعرف، وقد خفيت عليّ أكثر تلك القصص والأخبار الواردة في هذا الكتاب على أني قد قرأت من التراجم قدرًا كبيرًا، ولله الحمد والمنة، وأنا أعمل في هذا الكتاب اختصارًا وتهذيبًا بعد فراغي من خمسة كتب مهمة في التراجم وهي: «نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء»، و«الأخبار العليات من الوافي بالوفيات»، و«كتاب الروضتين في أخبار الدولتين»، وكتاب «المختار من طبقات الشافعية الكبرى»، وكتاب «المختار المصون من أعلام القرون»، وغيرها من كتب التراجم المفردة، فأشهد أني لم أقرأ في

تلك الكتب -في مجموعها- أحداثًا وأخبارًا مثل ما في كتاب «رياض النفوس» من أخبار، فقد أورد فيه مصنفه أخبارًا جليلة رائعة لأهل القرون الأربعة الأولى من صلحاء وأولياء ومجاهدي ومرابطي وعلماء ومشايخ تونس، وهي متكئة -في أغلبها- على الكتاب والسنة، وبعيدة في أكثرها عن البدع والشطح اللذين يكثران في أهل القرون التالية لتلك القرون، وهي أخبار تفجؤ القارئ الجيد المتابع بجدتها وروعتها مهما قرأ من أخبار السلف فما بالك بغيره؟

ثم إن المرء إذا قرأ القصص والأخبار التي لا عهد له بها من قبل كان لها من الفعل في نفسه وروحه وعقله ما ليس للأخبار والقصص التي يعرفها من قبل وطرقت سمعه كثيرًا، وهكذا هو هذا الكتاب؛ فإن قارئه ينتقل من خبر إلى آخر، ومن قصة إلى أخرى، فيتشوف للمزيد، وترتقي روحه إلى درجات عالية من الرقة والخِفّة، وتهز قلبه هزًّا، وتدخل في نفسه إلى خبايا الزوايا، فإذا أتى على الكتاب قراءةً ترك فيه من الأثر ما لا يمكن أن يوصف، وهذا هو الذي فعله بي هذا الكتاب، فقد أبكاني مرات كثيرة، هذا وأنا صاحب قلب قاسٍ وعين جافة والله، لا أقول ذلك تواضعًا إنما هذا هو ما أعرفه عن نفسي، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولما قرأت أخبار الكتاب مرات عديدة ازددت يقينًا أن أولئك العظماء لا سبيل للوصول إلى ما كانوا عليه، وأن محاول ذلك إنما هو محاول أمرًا لا سبيل إليه، وقد بينت ذلك في مكان آخر مفصلًا فلا أعيده هاهنا، لكن أردت أن أذكر هذا في هذا الموضع لمناسبته هذا السياق، وإنا لله وإنا إليه راجعون؛ فما أبعد سيرنا من سيرهم، وأحوالنا من أحوالهم، والله لو بكينا على أنفسنا حتى نموت كان ذلك قليلًا في جنب مصيبتنا، فاللهم عوِّضنا خيرًا عما فقدناه يا كريم.

عملي في الكتاب:

إن عملي في هذا الكتاب لا يكاد يخرج عن عملي في كتب التراجم قبله التي هذبتها واختصرتها، فإني أختار من الكتاب ما هو نافع لعموم القراء، وأترك من

الحكايات المنكرة -وهي قليلة في هذا الكتاب- والأخبار الضعيفة، والأحوال المرجوحة، ما لم يكن في إيرادها فائدة.

والكتاب في مجلدين كبيرين، وقد حُقق تحقيقًا جيدًا، من قِبَل الأستاذ محمد العروسي المطوي وبشير البكوش ونشرته «دار الغرب الإسلامي» نشرًا حسنًا، لكني قد قربته إلى القراء وأوجزت ما استطعت الإيجاز في إيراد التراجم والتخيُّر منها، حتى جاء الكتاب سهل التناول، يمكن قراءته بلا كُلفة مانعة ولا تطويل ممل.

ولعل هذا الكتاب أن يكون فاتحة لعمل طويل -إن شاء الله- في التراجم المغربية والأندلسية، فإني قد أيقنت بأهميتها، وأن مؤرخي المشرق لم يوردوا منها إلا نِتَفًا قليلة، وتراجمهم بحر خِضم مليء بالدرر والكنوز التي لا بد من إبرازها وإظهارها، والله المستعان.

وقد أبقيت على بعض تعليقات المحققين، فإذا أوردت شيئًا لهما صدرته بقولي: قال المحقق.

وخرجت الأحاديث والآثار، وإذا كان الحديث في صحيح الإمام البخاري اكتفيت بتخريجه منه.

وشرحت بعض الكلمات والمصطلحات التي قد تغمض.

- وعملت فهرست للفوائد، وهذا فهرست مرهق لي، لكني أيقنت بفائدته الكبرى في الوقوف على أهم ما في الكتاب من فوائد، وهو الفهرست الثامن؛ إذ إني عملت قبل ذلك فهرست لفوائد «نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء»، وفهرست لفوائد « المختار المصون من أعلام القرون» ، وفهرست لفوائد «الأخبار العليات من الوافي بالوفيات» وفهرست لفوائد «كتاب الروضتين في أخبار الدولتين»، وفهرست لفوائد كتاب «مظهر التقديس في زوال دولة الفرنسيس»، وفهرست لفوائد «الرحلات الحجازية إلى مكة المكرمة والمدينة النبوية»، وفهرست لفوائد «المختار من طبقات الشافعية الكبرى».

وهذه الفهارس تفيد الدعاة وطلبة العلم في جمع كلام السلف والخلف في موضوع بعينه، وأسأل الله الأجر العظيم على ما أنفقت من أوقات في صنع هذه الفهارس، وألا يجعل ذلك هباء منثورًا ذاهبًا أدراج الرياح بمنه وفضله.

هذا والله – تعالى – الموفق، وهو المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به.

وصلِّ اللَّهم وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه حامدًا مصليًا

العبد المذنب الضعيف

محمد بن موسى الشريف

mmmalshareef@hotmail.com
www.altareekh.com
http://www.youtube.com/maltareekh
TWITTER.com/DRMOHAMMEDMH
www.facebook.com/mhmaltareekh

مؤلف الكتاب

ليس لصاحب الكتاب – فيما أعلم – ترجمة مطولة، إنما هي أخبار قليلة جاء فيها أن اسمه أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله محمد بن عبد الله المالكي.

ولد في أوائل القرن الخامس الهجري، وأخذ عن علماء عصره.

أقام مدة في صقلية ودرّس بها.

وأقام في القيروان، وشهد تخريبها على أيدي الأعراب.

توفي في حدود سنة ٤٧٤هـ رحمه الله تعالى[1].

- ويبدو – جليًا – من كتاب المؤلف، رحمه الله تعالى، أنه عالم بالشرع المطهر، يميل إلى الرقائق ولهذا يكثر من إيرادها في كتابه.
- وقد اعتمد في كتابه أسلوب السرد القصصي المؤثر، وأكثر من إيراد الكرامات وأخبار جهاد العلماء والشعب التونسيّ لبنى عبيد الشيعة الباطنيين الذين استولوا على مقاليد الحكم في تونس.
- لكن المصنف – رحمه الله تعالى – لم ينقد ما أورده إلا قليلًا، ولم يبين رأيه فيما أورده غالبًا، وإن ظهر من سياق ما أورده موافقته مطلقًا على كل ما ساقه في كتابه، والحق أن كتابه يكاد يخلو من المؤاخذات العقدية، والشطحات السلوكية، والغموض والرموز والأسرار، التي امتلأت بها أكثر كتب التراجم في أواخر العصر الوسيط وما بعده.

---

(١) انظر «الأعلام»: ٤/١٢١، ١٢٢.

مقدمة المؤلف

الحمد لله الأعزّ الأقدر، الحكيم الأكبر، ذي الجلال والكبرياء، والمجد والسناء، والقدرة العلياء، أحمده على السراء والضراء، والشدة والرخاء، وأستعينه على أداء طاعته واتباع طريقته، وأتوكل عليه وأبرأ من الحول والقوة إليه.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، صلى الله عليه وعلى إخوانه من النبيين وعلى آله الطيبين وسلّم وشرف وكرم وعظم.

أفرد أهل خاصته بخالص معاملته وصحيح معرفته، اختصهم بالاجتباء واصطفاهم بالاحتباء، وكشف عن أنفسهم أدران الصداء، وأجزل لهم من معارفه العطاء فهم أهل جد واجتهاد، ونسك وانفراد، قد أزعجهم الخوف وأقلقهم الوجف، وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون، قد صغرت عندهم أعمالهم وعظمت عليهم خواطرهم، ونصبوا ذنوبهم بين أعينهم حسرات، وتوالت عليهم أهوالهم فهم خائفون حذرون، وجلون مشفقون، يبادرون الفوت، ويراقبون نزول الموت، قيامهم في الدياجي، ولذتهم في التناجي، يعتبر بمرآهم الناظرون، ويبادر إلى مجالستهم المريدون، جعلهم - الله جل جلاله - أهلًا لمعاملته وأدِلّةً لخلقه: لمعرفتهم به وبشريعته، فهم المختارون من خلقه لمعاملته، الفائزون بقربه ومعرفته، العارفون بربوبيته، جعلنا الله – تعالى – فيهم ومنهم، ونفعنا بمحبتهم وموالاتهم، وحشرنا في زمرتهم، ولا قطع بنا عنهم، ولا طردنا عن التأسي بطريقتهم، بفضله ومنه.

أما بعد:

حفظكم الله من الشيطان وعمله، فقد شهدتكم سألتموني أن أجمع كتابًا أذكر فيه مَن كان بالقيروان وإفريقية من العلماء، والمتفقهين، والأولياء والعبّاد والمجتهدين، ومن كان بمراسي إفريقية وسواحلها ومراسيها وحصونها منهم، فاستخرت الله ربي واستهديته

واستعنته، وذكرت ما بلغني من أخبار نساكهم وعبّادهم وفضائلهم وأوصافهم وتاريخ وفاتهم، بحسب ما انتهى إليه علمي وبلغته معرفتي وطاقتي، ورأيت في جمع ذلك إحياء لذكرهم ونشرًا لفضائلهم، فيتذكر بذلك متذكر، ويقتدي مقتدٍ ومزدجر، فلعل الله - عز وجل - يوفقه بفضله لسلوك طريقهم والتمسك بهديهم فيكون في ذلك حياة لقلبه، وافتقار إلى ربه - جل جلاله- ومعرفة بنفسه، واحتقار لعمله وزيادة في اجتهاده، فقد كان بمغربنا منهم فقهاء وعلماء ومتعبدون أهل فضل كامل وبرهان شامل، تواترت الأخبار بالصفات الجليلة عنهم.

***

الجـــزء الأول

ذكر الطبقة الأولى من الصحابة من أهل القيروان

- **منهم أبو عبد الرحمن المِسوَر بن مَخرمة ﷺ**[١]:

صحب النبي ﷺ وروى عنه، وهو صاحب ابن صاحب، أسلم أبوه يوم فتح مكة، وولد المسور في السنة الثانية من الهجرة، وتوفي النبي ﷺ وهو ابن ثماني سنين، وأمه أخت عبد الرحمن بن عوف.

دخل إفريقية[٢] غازيًا مع ابن أبي سرح، وشهد معه المغازي والمعارك، وهو الذي حرّض عثمان ﷺ على غزوها.

[١] قال المسور: لقد وارت الأرض أقوامًا لو رأوني معكم لاستحييت منهم.

[٢] وعن جعفر بن عبد الرحمن: أن المسور كان إذا قدم مكة لم يخرج منها حتى يطوف لكل يوم غاب عنها أسبوعًا[٣].

[٣] عن عمر بن شداد الليثي قال:

والله إني لأصلي أمام المسور، فصليت صلاة الشاب كنقر الديك، فزحف إليّ المسور وقال لي: قم صلِّ!

فقلت: قد صليت عافاك الله.

فقال: كذبت، والله ما صليت، ولا تَرِيْمُ[٤] حتى تصلي.

---

(١) قد أورد المصنف جماعة من الصحابة المشهورين فلم أرَ أن آتي بهم جميعهم إنما اخترت بعضهم ممن لم يشتهر، وأورد تفاصيل لفتح تونس وفضلها لم أرَ أن أوردها، وإنما فعلت ذلك إرادة الإيجاز.

(٢) إفريقية المراد بها تونس.

(٣) أي سبعة أشواط.

(٤) أي لن تتحرك وتغادر.

فقمت فصليت، فأتممت الركوع والسجود.

فقال لي المسور: والله لا تعصون الله - عزّ وجلّ - ونحن ننظر، ما استطعنا.

[٤] حدثنا زيد بن أبي الزرقاء أن المسور احتكر طعامًا كثيرًا، فخرج من المسجد يومًا، فرأى سحاب الخريف فكرهه، فشق عليه ما وقع في نفسه من كراهية ذلك، فأمر بالطعام إلى السوق، وقال: من جاءني وَليته كما أخذت، فأتى عمر بن الخطاب ﷺ فخاطبه في ذلك وقال له: ما السبب يا مِسْور؟

فقال: رأيت سحاب الخريف فكرهته، فرأيت أني قد كرهت ما ينفع المسلمين فأجمعت على ألا أربح فيه شيئًا.

فقال له عمر: جزاك الله عن نفسك خيرًا وعن المسلمين خيرًا.

قال البرقي: وكانت سن المسور يوم مات ثلاثًا وستين سنة، وكانت وفاته سنة أربع وستين.

-ومنهم أبو سعيد المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة البهراني، ﷺ:

شهد مع رسول الله ﷺ بدرًا وغيرها من المغازي.

وهو أول من عدا به فرسه في سبيل الله، تعالى، وروى عن النبي ﷺ حديثًا كثيرًا.

وهو الذي أمره علي ﷺ أن يسأل النبي ﷺ عن المَذْي يعرض للرجل، ماذا عليه؟ قال علي عليه السلام: وعندي ابنته، فأنا أستحيي أن أسأله بنفسي.

أدخله مالك في موطئه وسماه المقداد بن الأسود، وإنما نسب إلى الأسود بن عبد يغوث ابن وهب بن زهرة، كان قد تبناه ورباه فنسب إليه، قال ابن قتيبة: ثم رجع المقداد إلى نسبه.

[٥] وغزا إفريقية مع ابن أبي سرح، وكانت له بها مقامات مشهورة، ذكر سفيان بن الحارث أنهم قالوا للمقداد: إنك ثقلت، وتخرج في هذه المغازي؟

فقال: خفيفًا كنت أو ثقيلًا، لا أتخلف عنها، لأن الله -تعالى- يقول في كتابه العزيز:

﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١].

[٦] قال عبد الله بن وهب في جامعه: أخبرني عبد الله بن لهيعة أنه سمع يزيد بن أبي حبيب يذكر أن المقداد بن الأسود كان قد غزا مع عبد الله بن سعد إفريقية، فلما رجعوا قال عبد الله بن سعد للمقداد في دار بناها بمصر: كيف ترى بنيان هذه الدار؟

فقال له المقداد: إن كانت من مال الله فقد أفسدت، وإن كانت من مالك فقد أسرفت.

فقال له عبد الله: لولا أن يقول قائل: أفسد مرتين، لهدمتها.

توفي المقداد سنة ثلاث وثلاثين بالجرف، وحمل على رقاب الرجال حتى دفن بالمدينة، وصلى عليه عثمان، رضي الله تعالى عنهم أجمعين؛ وتوفي وهو ابن سبعين سنة.

- ومنهم عقبة بن نافع بن عبد القيس، رضي الله تعالى عنه:

ذكر أبو سعيد وغيره أنه معدود من جملة الصحابة الذين دخلوا إفريقية.

ولي الإمارة على إفريقية وبلد المغرب لمعاوية ولولده يزيد، وهو الذي اختط مدينة قيروان إفريقية، وبنى دار الإمارة التي في قبليِّ الجامع.

[٧] وقد مر من أخباره وندائه بالسباع والحيَّات وغيرها: اظعنوا...، وذكر زياد بن عجلان أن أهل إفريقية أقاموا بعد ذلك أربعين سنة ولو التُمست حية أو عقرب بألف دينار ما وُجِدت.

وذكر أبو العرب بن تميم هذه الحكاية بإسناده عن سحنون عن ابن وهب عن الليث بن سعد، إلا أنه ذكر أن الذي جرى له هذا عقبة بن عامر، قال أبو العرب: وغير ابن وهب يقول بل هو عقبة بن نافع، وهو الصحيح، ولا يوجد في شيء من مغازي إفريقية أن ابن عامر غزا إفريقية ولا وُلي عليها.

[٨] عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم قال:

لما فتح عقبة بن نافع وَدان وفَزان وأسلموا على يديه، سألهم: هل من ورائكم أحد؟

قالوا: نعم، أهل جاوان، وهو قصر عظيم على رأس المفازة في وعورة على ظهر الجبل، وهو قصبة كوار فسار إليهم خمس عشرة ليلة، فحاصرهم فلم يستطع فتح الحصن، فصالحهم

ثم انصرف راجعًا، فأقام بموضع اسمه اليوم ماء فرس، ولم يكن به ماء فأصابهم عطش شديد أشرف منه عقبة وأصحابه على الموت، فصلى عقبة ركعتين، ودعا الله تبارك وتعالى، فجعل فرسه يبحث بيديه في الأرض حتى كشف عن صفاة، فانفجر منها الماء، وجعل الفرس يمص من ذلك الماء، فانصرف عقبة فنادى في الناس أن احتفروا، فاحتفروا سبعين حِسيًا، فشربوا وسقوا وصار ذلك ماء معينًا، فسمي لذلك ماء فرس إلى اليوم.

-ومنهم أبو مسعود سعد بن مسعود التُجِيبي، رضي الله تعالى عنه:

كان رجلًا فاضلًا مشهورًا بالدين والفضل، قليل الهيبة للملوك في حق يقوله، لا تأخذه في الله لومة لائم، صحب جماعة من الصحابة وروى عنهم، منهم أبو الدرداء وغيره، وروى عنه جماعة.

وهو من العشرة الذين بعثهم عمر بن عبد العزيز -رضي الله تعالى عنه- ليفقِّهوا أهل القيروان.

[٩] عبد الأعلى بن عقبة الغفاري، قال: لما ثارت الخوارج على حنظلة بن صفوان بطنجة، جمع حنظلة علماء إفريقية، وهم الذين بعثهم عمر بن عبد العزيز إلى إفريقية ليفقِّهوا أهلها في الدين، منهم سعد بن مسعود وحِبّان بن أبي جبلة، وطَلْق ابن جابان وغيرهم، فكتبوا له هذه الرسالة ليقتدي بها المسلمون ويعتقدوا ما فيها وهي:

بسم الله الرحمن الرحيم

من حنظلة بن صفوان إلى جميع أهل طنجة:

أما بعد، فإن أهل العلم بالله وبكتابه وسنّة نبيّه محمد ﷺ يعلمون أنه يرجع جميع ما أنزل الله عزّ وجلّ إلى عشر آيات: آمرة، وزاجرة، ومبشرة، ومنذرة، ومخبرة، ومُحْكَمَة، ومشتبهة، وحلال، وحرام، وأمثال، فآمرة بالمعروف، وزاجرة عن المنكر، ومبشرة بالجنة، ومنذرة بالنار، ومخبرة بخبر الأولين والآخرين، ومحكمة يعمل بها، ومتشابهة يؤمن بها، وحلال أَمَر أن يُؤتى، وحرام أمر أن يُجتَنَب، وأمثال واعظة، فمن يطع الآمرة وتزجره الزاجرة فقد استبشر

بالمبشرة وأنذرته المنذرة، ومن يحلل الحلال ويحرم الحرام ويردّ العلم فيما اختلف فيه الناس إلى الله، مع طاعة واضحة ونية صالحة، فقد فاز وأفلح وأنجح وحيا حياة الدنيا والآخرة، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

[١٠] أبو عثمان سعيد بن محمد بن صبيح، صاحب سحنون - رضي الله تعالى عنه- قال: حدثني شيخ يكنّى بأبي مسعود قال:

بعث زبّان بن عبد العزيز بن مروان رسولًا إلى سعد بن مسعود فوجده في مجلسه في جامع الفسطاط مع أصحابه، فقال له: الأمير يقرأ عليك السلام، ويقول لك: إن رأيت أن تؤنسنا بنفسك العشية، فافعل.

فقال للرسول: اقرأ على الأمير السلام، وقل له: ليس لي إليك حاجة فآتي لها، فإن تك لك حاجة فأت لها.

فأتاه الرسول فأخبره فقصد إليه زَبّان حتى لقيه وسلم عليه، وقال: يغفر الله لك يا أبا مسعود! أتاك رسولنا، فكان من إغلاظك له ما كان.

فقال له: أصلح الله الأمير؛ دعوتني إلى ما يشينني، ودعوتك إلى ما يزينك.

فقال له: فكيف ذلك؟

فقال له -أصلح الله الأمير-:إنه من رآك ماشيًا إليّ مدحك، وقال: ذاك طالب علم وخير، ومن رآني ماشيًا إليك رآني طالب حطام وعَرَض من أعارض الدنيا، فشانني.

فقال له زَبّان: سَلّيت والله ما كان بقلبي ونورته، نور الله قلبك وعلمك.

[١١] وعن فرات بن محمد العبدي أن سعدًا بن مسعود صاح يوم الجمعة على أمير إفريقية في مظلمة، وقد خرج الأمير من الجامع: إني بالله لا بك؛ أنا بالله لا بك! فقضى الأمير حاجته.

[١٢] عن سعد أنه كان يقول: إذا أتاك الشيطان من قبل الصمت فقال لك: إن الناس

يعدون ذلك عَيًّا[1] منك، فأته أنت من قبل السلامة، فقل له: صامت سالم خير من ناطق آثم.

[١٣] قال سعد بن مسعود:

إذا رأيتم العبد دنياه تزداد وآخرته تَنقص، مقيمًا على ذلك راضيًا به، فذلك المغبون الذي يُنتقص دينه وهو لا يشعر.

[١٤] وسئل - رحمه الله تعالى - عن علامة وليّ الله عزّ وجلّ، فقال:

من استفرغت آخرته دنياه، ومن كان الحق هواه، ولم يكن له في شيء مما يسخط الله - تعالى- رضاه، ومن كان الذكر قوله، والعلم بغيته، وفي بيوت الله -عزّ وجلّ- مجلسه.

[١٥] وسئل أيضًا عن علامة المتوكل فقال:

من رضي بحكم الله واطمأن إلى موعد الله، وكان عنده ما تكفل الله عزّ وجلّ له به من رزقه بمنزلة ما قد بلغه وملكته يده.

[١٦] وسئل أيضًا عن علامة الحكيم فقال:

من كان مصيبًا في قوله، حليمًا في غضبه، ذا عفو في قدرته، راضيًا بمنزلته، غير مفتون بما ليس له، فقد استغنى بأمر آخرته عن دنياه.

[١٧] وسئل أيضًا: أي الجلساء أشر مجالسة؟

فقال: من يُغْفِلُكم قوله، ومن تفتنكم رؤيته، ومن يدعوكم إلى دنياكم فعله.

[١٨] وسئل أيضًا عن الذي يزين العالم عند من جالسه، فقال: كثرة صمته، وقلة غضبه، وحسن خلقه ولينه، وخشوعه وتواضعه.

- ومنهم إسماعيل بن عبيد الأنصاري، رضي الله تعالى عنه:

مولى لهم، يعرف بتاجر الله، من أهل الفضل والعبادة والنسك والإرادة، كثير الصدقة والمعروف مع علم وفقه، صحب جماعة من الصحابة وروى عنهم.

---

(١) أي عدم قدرة على التعبير الجيد.

وكان من سكان القيروان، انتفع به خلق كثير من أهلها وغيرهم، وبث فيها علمًا كثيرًا.

وكان رجلًا صالحًا يقال له تاجر الله، وهو الذي بنى المسجد الكبير بالقيروان الذي يعرف الآن بمسجد الزيتونة، وكان يصلي به ويعمره، وإليه ينسب السوق الذي بجواره يسمى سوق إسماعيل.

ولم يزل مقيمًا بالقيروان حتى حضرته نية في الجهاد، فخرج في مركب مُطَّوِّعًا في غَزاة عطاء بن رافع فغرق ﷺ وهو متقلد المصحف، وختم الله -عزّ وجلّ- أعماله بالشهادة، وكان ذلك في سنة سبع ومائة.

[١٩] وعن ابن أنعم، قال: قلت لابن المسيب: إن عندنا رجلًا من الأنصار يقال له إسماعيل بن عبيد، من العباد إذا سمعنا نذكر شعرًا صاح علينا، فقال سعيد: ذاك رجل نَسَكَ نُسُكَ العجم[١].

[٢٠] وكان - رحمه الله تعالى- يلبس جبة من صوف وكساء من صوف وقلنسوة صوف، وإنما سمي تاجر الله -عزّ وجلّ- لأنه جعل ثلث كسبه لله، تعالى، يصرفه في وجوه الخير.

[٢١] وكان يوجه المولدات والأحمال إلى المشرق، فوجه رفقة كلها له، فخرج يشيعهم إلى قصر الماء[٢] فسمع بكاء فقال: ما هذا؟

فقيل له: هؤلاء المولدات الذين وجِّهتَ يبكون مع آبائهم وأمهاتهم وإخوانهم.

فبكى إسماعيل وقال: إن دنيا بلغت بي إلى أن أفرق بين الأحبة إنها لدنيا سوء؛ أشهدكم أن من كان له أب أو أم أو أخ أو أخت في هذه الرفقة فهي حرة لوجه الله عزّ وجلّ.

قال: فأنزل من المحامل سبعين مولدة، فأعتقهن كلهن.

[٢٢] حدث علي بن المطلب، وكان من فضلاء الناس، قال: بار على إسماعيل طيقان

---

(١) قلت: يعني أنه زَهِد في الشعر زُهدَ العجم الذين لا يفقهون تمام الفقه أن في الإسلام فسحة كبيرة لقول الشعر وسماعه.

(٢) قال المحقق: موضع يبعد عن القيروان مقدار ميل.

ساج سبعمائة، وكان بالغرب بإفريقية، فقال: لأتجرن في هذه، فاشترى مع كل ساج جبة وكساها المجاهدين في سبيل الله تعالى.

[٢٣] قالت امرأة من قريش من بني أمية لإنسان كان يتَّجر لها: ما منعك أن تكون مثل إسماعيل؟

فقال: أتريدين أن تجعلي فلانًا تاجر فلانة مثل إسماعيل تاجر الله؟

[٢٤] كانت له جارية تخرج إلى السوق، وكان لها جار يتبعها إذا خرجت، فشكت ذلك إلى مولاها إسماعيل، فأرسل إليه فأحضره فقال له: ما حملك على أن تتعرض جاريتي؟

فقال له: سلها، هل كلمتها بكلمة قط؟

فسألها. فقالت: لا، صدق، ما كلمني بكلمة قط، إلا أني إذا خرجت أتبعني.

فقال له: ما حملك على هذا؟

قال: المحبة لها.

قال: فأمر بالجارية فأصلح من شأنها، ووهبها له، وأعطاه ثلاثين دينارًا، وقال له: إذا فرغت فارجع إليَّ.

[٢٥]حدث غير واحد قالوا:

كان بالقيروان رجل خياط له بنات، وكان ليس يقوم به عمله إلا عن جهد، فلما كان ليلة عيد الفطر دخل على بناته، فوجدهن في الظلام، وليس في البيت شيء يرد يده إليه، فخرج من بيته هائمًا محزونًا، وشق عليه أن يرى بناته منكسرات القلوب بين أترابهن من بنات الجيران، اللاتي يلبسن يوم العيد الثياب الحسان والزينة مع ما عند آبائهن من كفاية العيش، فسوَّلت له نفسه الخروج من القيروان حتى ينقضي العيد، فمر بمسجد إسماعيل تاجر الله، وقد حضرت صلاة العشاء الآخرة، فصلى معه، فلما انصرف الناس ولم يبقَ في المسجد إلا الرجل، رآه إسماعيل، فعلم أن له قصة، فمضى الشيخ إلى داره وبعث وراءه، فأدخله وسأله عن قصته، فذكرها له، فتوجع إسماعيل لذلك وبكى، وقال له: كم عندك من البنات؟

فقال: خمس.

فصاح إسماعيل لأمهات أولاده وقال لهن: إيتينني بحلي بناتكن وما صنعتن لهن في هذا العيد من الثياب والزينة، فأتينه بجميع ذلك، وقال لهن: إيتينني بمائدة العيد فأتينه بها وفيها أنواع الأطعمة والحلوى، وقال لهن: إيتينني بما عندكن من الطيب والحناء، فدفع جميع ذلك إلى الخياط، ودفع إليه دنانير كثيرة، وقال له: اكسُ بناتك من هذه الثياب والحلي، وطيبهن بهذا الطيب وكل معهن هذه المائدة، وأوسع على نفسك وعليهن بهذه الدنانير، ثم أمر عبيده، فحملوا ذلك إلى دار الخياط، فضرب الباب عليهن ففتحن الباب، فوجدهن في الظلام على حالهن، فأدخل العبيد جميع ذلك إلى داره وذهبوا، ففرح بناته بذلك فرحًا شديدًا، وكان في داره سرور كثير، ولبس بناته الحلي النفيس والثياب الجليلة واجتمعن حول المائدة ووسع عليهن في النفقة.

- **ومنهم أبو عبد الحميد إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر القرشي المخزومي، مولى لهم:**

كان ﷺ من أهل الدين والزهد، ذكر أبو سعيد بن يونس أنه روى عن عبد الله بن عمرو، وفضالة بن عبيد، وروى عن جماعة من التابعين، وروى عنه الأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز وابن أنعم.

استعمله عمر بن عبد العزيز على أهل إفريقية ليحكم بينهم بكتاب الله -عزّ وجلّ- وسنة نبيه ﷺ ويفقههم في الدين، وهو أحد العشرة التابعين، سكن القيروان وسار في المسلمين بالحق والعدل، وعلمهم السنن وكانت وفاته بالقيروان: سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وأسلم على يديه خلق كثير من البربر.

[٢٦] ذكره أبو جعفر الطبري، قال: كان خيرَ والٍ وخير أمير، سار فيهم بالعدل والحق، وكان حريصًا على دعاء البربر إلى الإسلام.

قال معن التنوخي:

ما رأيت زاهدًا في هذه الأمة غير اثنين: عمر بن عبد العزيز، وإسماعيل بن عبيد الله المخزومي.

[٢٧] وكان خالًا لهشام بن عبد الملك، قال رجاء: وكان إسماعيل إذا قفل من الصائفة[1] من الغزو افترش ذراعه فنام عليه، وكان هو وأم ولده وفرسه في بيت واحد زهدًا في الدنيا وتواضعًا.

[٢٨] ذكر أشهب وابن نافع عن مالك أن إسماعيل أوصى أن يُتصدق عنه بكل شيء تركه بعد موته، فرُفِع ذلك إلى هشام فأجاز منه الثلث ورد ثلثيه.

قال أبو بكر عبد الله المؤلف: وإنما فعل ذلك رجاء منه أن يجيز ذلك ورثته، أو يكون لم يترك وارثًا، وخاف أن يوضع في غير موضعه ويُسلك به غير سبيله لتغير أحوال الأئمة.

-ومن هذه الطبقة:

أبو عبد الله علي بن رباح بن قصير اللخمي:

كان فاضلًا جليلًا من جملة التابعين، يروي عن جماعة من الصحابة، رضي الله تعالى عنهم.

وقدم إفريقية غازيًا مجاهدًا وسكن القيروان واختط بها دارًا ومسجدًا، وانتفع به وتفقه على يديه أهل القيروان.

[٢٩] وذكر أن موسى بن نصير لما وصل من الأندلس إلى القيروان قعد يومًا في مجلسه، فجاءه العرب يسلمون عليه، فلما احتفل[2] المجلس قال: إنه قد صحبتني ثلاث نعم: أما واحدة فإن أمير المؤمنين كتب إليَّ يهنئني في كتابه، وأمر بقراءة كتاب أمير المؤمنين، فهنِّئ بذلك، وأما الثانية فإن كتاب ابني[3] قدم علي بأنه فُتح له بالأندلس فتح عظيم، فأمر بكتاب ابنه فقرئ فهنئ بذلك، أما الثالثة فما صحبني في مقدمي هذا من الأموال والسبي من الأندلس، فهنِّئ بذلك.

وعلي بن رباح اللخمي التابعي ساكت، وكان علي راوية ابن عباس وأبي هريرة، فقال له موسى: ما لك يا علي لا تتكلم؟

---

(١) الصائفة هي الغزوة في الصيف.

(٢) أي امتلأ واكتمل.

(٣) هو عبدالعزيز بن موسى بن نُصير، وكان واليًا على الأندلس بعد أبيه.

فقال: أصلح الله الأمير، قد قال القوم.

فقال: وقل أنت أيضًا.

فقال: أنا أقول، وأنا أنصح القائلين لك، إنه ما من دار امتلأت حَبْرة[١] إلا امتلأت عبرة، وما انتهى شيء إلا رجع، فارجع قبل أن يُرجع بك، قال: فانكسر موسى بن نصير وخشع، ثم التفت ففرق جواري عدة، فكان موسى بعد ذلك إذا مر بخربة عادية[٢]، أو مدينة من مدائن الأولين نزل وركع ركعتين ومشى فيها وفكر في معالمها وفي آثارها، ثم بكى بكاء كثيرًا ثم يركب.

[٣٠] ذُكر أن الناس قحطوا، فخرج موسى بالناس فاستسقى، وأمر رجلًا يصلي بالناس وخطب بهم، ثم أخذ في الدعاء للوليد وأكثر، فأرسل إليه موسى: إنَّا لم نأتِ لذلك، فاقبل على ما قصدنا إليه، وجلسنا من أجله، فلم يلتفت إلى كلامه، وتمادى على حاله رجاء أن يبلغ ذلك الوليد فينال عنده منزلة، فأمر به موسى فسُحب حتى أخرج من بين الناس، ثم قام موسى فأخذ في الدعاء والتضرع إلى - الله عز وجل - واللَّجأ إليه، فما برح الناس حتى أمطرت السماء بماء كأفواه القرب، قال: فأُتي موسى بدابته فقال: لا والله لا أركب، ولكن أخوض في هذا الطين.

فانصرف ماشيًا، ومشى الناس معه، قال: فسُمع يومئذٍ وهو يقول: أسألك شهادة في سبيلك، أو موتة في بلد نبيك، يردّد ذلك، فاستجاب الله تعالى دعاءه، فتوفي بالمدينة متوجهًا إلى الحج، واستجاب - الله عز وجل - دعاءه ودفن بالمدينة، ونفعه - الله عزّ وجلّ - بموعظة أبي عبد الله بن رباح، فصغرت عنده الدنيا وما فيها ونبذها وانخلع مما كان فيه من الإمارة.

- ومنهم أبو رِشد بن حنش بن عبد الله السبائي الصنعاني، ﷺ:

من أهل الفضل والدين، يروي عن جماعة من الصحابة، وولد بصنعاء.

---

(١) الحبرة والحبور: السرور.

(٢) أي خرابة قديمة.

غزا المغرب مع رُوَيفع، شهد غزو الأندلس مع موسى بن نصير، وله بإفريقية آثار ومقامات، سكن القيروان واختط بها دارًا ومسجدًا ينسب إليه الآن في ناحية باب الريح، وتوفي بإفريقية في سنة مائة.

[٣١] ابن وهب قال: كان حنش إذا فرغ من عشائه وحوائجه وأراد الصلاة من الليل أوقد المصباح وقرب المصحف وإناء فيه ماء، فإذا وجد النعاس استنشق الماء، يريد بعد تسليمه(١)، وإذا تعايا(٢) في آية نظر في المصحف.

[٣٢] وكان كثير الصداقة لا يرد سائلًا، وإذا استطعمه السائل على باب داره لم يزل يصيح بأهله: أطعموا السائل أطعموا السائل! حتى يطعم.

- ومنهم أبو الأشعث ربيعة بن يزيد، مولى أبي سفيان بن حرب بن أمية والد معاوية، ﷺ:

كان معدودًا في التابعين، وكان يعرف بربيعة بن يزيد الدمشقي، لأن أصله كان من دمشق.

قال سعيد بن عبد العزيز: لم يكن عندنا بدمشق أحسن سمتًا في العبادة من مكحول وربيعة بن يزيد.

قال أبو زرعة: خرج ربيعة بن يزيد غازيًا إلى إفريقية، بعثه هشام بن عبد الملك.

[٣٣] عبد الرحمن بن عامر اليحصبي قال: سمعت ربيعة بن يزيد يقول: ما أذن المؤذن لصلاة الصبح منذ أربعين سنة إلا وأنا في المسجد، إلا أن أكون مريضًا أو مسافرًا.

***

(١) أي بعد تسليمه من الصلاة.

(٢) أي نسي آية أو بعضها.

ذكر الطبقة الثانية من فقهاء مدينة القيروان وما يليها من البلدان ومحدثيهم وعبادهم ونساكهم

- منهم أبو خالد عبد الرحمن بن زياد بن أنعم المعافري الشعباني قاضي إفريقية ﷺ:

كان من جلة المحدثين منسوبًا إلى الزهد والورع، صلبًا في دينه؛ متفننًا في علوم شتى، وكان أول مولود ولد في الإسلام بعد فتح إفريقية، روى عن جماعة من التابعين، وكان مشهورًا، أدخله المؤلفون في كتبهم.

وكان سفيان الثوري يعظمه ويعرف حقه.

وكان مسكنه بالقيروان، ومولده بإفريقية، وتوفي بالقيروان سنة إحدى وستين ومائة.

[٣٤] وكان قد أسره الروم، فرُفع إلى الطاغية مع جماعة من المسلمين، قال: فبينا نحن في حبسه إذ غشيَه عيد له، فأقبل علينا فيه من الحار والبارد ما يفوق المقدار، إذ خطرت امرأة نفيسة على الطاغية، فأُخبرت بحسن صنيع الملك بالعرب، فخرقت ثيابها ونشرت شعرها وسوَّدت وجهها، فقال لها: ما لك؟

فقالت: العرب قتلوا ابني وزوجي وأخي وأنت تفعل بهم هذا الذي رأيت؟

فنخر وصَلّب[١]، وقال: عليَّ بهم، فصرنا بين يديه سماطين، وأمر سيافه بضرب عنق واحد واحد حتى قرب الأمر مني، فحركت شفتي، وقلت: الله، الله، الله، ربي لا أشرك به شيئًا، ولا أتخذ من دونه وليًا؛ ثلاثًا، وأبصر فعلي، فقال: قدموا شماس العرب[٢] -يريد عالمهم- فقال لي: لعلك قلت: الله، الله، الله ربي لا أشرك به شيئًا؟

فقلت: نعم.

---

(١) أي على عادة النصارى في الإشارة باليد على الصدر إلى الصليب.

(٢) أي عالمهم؛ لأن شماسًا لقب لأحبار النصارى.

فقال: ومن أين علمته؟

قلت له: نبينا، عليه الصلاة والسلام، أمرنا به.

فقال لي: وعيسى أمرنا به في الإنجيل، فأطلقني ومن معي.

وقيل: فداه أبو جعفر المنصور، وولاه قضاء إفريقية.

[٣٥] ودخل يومًا على المنصور، فقال: يا ابن أنعم: ألا تحمد الله الذي أراحك مما كنت فيه، ومما كنت ترى بباب هشام وذوي هشام؟ فقال له عبد الرحمن: ما أمر كنت أراه بباب هشام إلا وأنا أرى اليوم منه طرفًا.

قال: فكبا لها أبو جعفر، ثم قال له:

فما منعك أن ترفع ذلك إلينا، وأنت تعلم أن قولك عندنا مقبول؟

فقال: إني رأيت السلطان سوقًا، وإنما يرفع إلى كل سوق ما يجوز فيها.

قال: فكبا لها أبو جعفر، ثم رفع رأسه فقال: كأنك كرهت صحبتنا؟

فقال: ما يُدرك المال والشرف إلا في صحبتك، ولكني تركت عجوزًا وإني أحب مطالعتها.

فقال: اذهب فقد أذنّا لك.

[٣٦] وحدثوا أنه لما غلب البربر على القيروان وفد على الخليفة رجال، قال عبد الرحمن ابن زياد: فكنت أنا فيهم، فلما صرت إليه قال: كيف رأيت ما وراء بابنا؟ فقلت: رأيت ظلمًا فاشيًا وأمرًا قبيحًا.

قال: فقال لي: لعله فيما بَعُدَ من بابي؟

قال: فقلت له: كلما قربت من بابك استفحل الأمر وغلظ.

فقال لي: أنت لا تهوى الدخول في شيء من أمرنا.

فقلت له: عجوز خلّفتها بالقيروان وأنا أحب الرجوع إليها، قال: فأذن لي.

قالوا: ولما توجه إلى إفريقية كتب إلى ولده وخاصته بهذه الأبيات:

ذكرت القيروان فهاج شوقي … وأين القيروان من العراق
مسيرة أشهر للعيس نصًا[١] … على الإبل المضمرة العتاق
فأبلغ أنعمًا وبني أبيه … ومن يُرجى له ولنا التلاقي
بأن الله قد خلى سبيلي … وجد بنا المسير إلى مُزاق

ومزاق هذا فحص إفريقية[٢]، وإنما سمّي بذلك لتمزق السحاب عنده.

[٣٧]عن قبيصة بن عقبة: سمعت سفيان الثوري يقول: لما قُدم بابن أنعم على المنصور قال:

ما رأيتَ في طريقك؟

قال: ما زلت في منكر وجور عظيم حتى قدمت عليك.

فقال له أبو جعفر: ما نعمل؟ ما نصنع؟ لا يلي لنا مثلك.

فقال له: أتدري ما قال عمر بن عبد العزيز؟ قال: الملك سوق، وإنما يُجلب إلى السوق ما يَنْفُقُ فيها.[٣]

[٣٨]ولقي ابن أنعم عيسى بن موسى الهاشمي[٤] بالكوفة، فقيل لعيسى: إن من حال هذا الرجل كذا ومن حاله كذا، فقال له عيسى: ما منعك من إتياننا؟

---

(١) النص: السير السريع.

(٢) قال المحقق: في المعالم: فحص القيروان، وينظر تعقيب ابن ناجي على تعريف الدباغ، ويقول ابن عبد الحكم فتوح مصر ص ١٩٨ عند حديثه عن خروج عقبة بن نافع إلى السوس واستخلافه زهيرًا على القيروان: وكانت إفريقية يومئذٍ تدعى مزاق، وضبطها ابن الشباط: بضم الميم والزاي المعجمة، قيل: هو فحص القيروان، وقيل: هو اسم إفريقية وإنها كانت تدعى به.

(٣) قال المحقق: وتتمة قول عمر بن عبد العزيز كما في رواية تاريخ بغداد: فإن كان بَرًّا أتوه ببرهم، وإن كان فاجرًا أتوه بفجورهم.

(٤) قال المحقق: عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس. من قواد العباسين ورجالاتهم. كان واليًا على الكوفة مدة السفاح وصدرًا من دولة المنصور إلى أن صرفه سنة ١٣٩، وكان على ولاية عهد المنصور ثم خلعه وبايع لابنه المهدي سنة ١٤٧.

فقال له: وما أصنع عندك؟ إن أتيتك فأدنيتني فتنتني، وإن أقصيتني أحزنتني، فليس عندك ما أرجوه، ولا عندي ما أخافك عليه.

[٣٩] وعن ابن أنعم قال: من دخل على سلطان ظالم يتقيه فقال: اللّهم إني أستعينك عليه وأدفع بك في نحره وأعوذ بك من شره، إلا صنع - الله تعالى - به ذلك.

[٤٠] سمعت أبا موسى عيسى بن مسكين يقول: كان ابن أنعم بالعراق، فأرسل إليه أهله كتابًا من إفريقية، فلما فتح الكتاب تغير لونه واصفر، فما فرغ من قراءة الكتاب حتى رؤي السرور في وجهه واحمر ورجع إليه لونه، فقال له أصحابه الذين حوله: أصلحك الله، لقد رأينا منك عجبًا: رأيناك لما فتحت الكتاب وقرأته تغير لونك، ثم لم تفرغ من قراءته حتى رجع إليك لونك.

فقال لهم: نعم، لما قرأت أول الكتاب قرأت سلام أهلي ومالي وولدي فتغير لذلك لوني واغتممت؛ إذ لم يذكرني - الله عزّ وجلّ - بمصيبة، ثم قرأت آخر الكتاب فذكروا: إنك ابتليت بكذا ومات لك كذا، ففرحت بذلك.

ولما ولي القضاء وسار بالعدل لم يقبل من أحد صلة ولا هدية، نزّه نفسه عن ذلك، فرفع الله قدره وأعلى مناره.

[٤١] أبو عثمان المعافري قال: كنت يومًا عند ابن أنعم وهو يتنفس الصُّعَداء[١] حتى أتاه شاب ومعه مِخْلاة بصل، فأسر إليه كلامًا، فأسفر وجهه -يعني استبشر- وقال لمن كان بحضرته: قل لهم - يعني أهله- يبعثوا إلينا بشيء من البصل مع الفول الذي كنتم طبختموه البارحة، فبعثوا إليه بذلك، فقال لي: يا أبا عثمان، كل.

فقلت له: لا.

فقال لي: ولِمَ يا أبا عثمان؟ أظننت ظنًّا؟

فقلت: نعم.

(١) أي يتنفس بصعوبة لضيقه وانزعاجه.

فقال: أحسنت، يا أبا عثمان، إذا رأيت الهدية دخلت دار القاضي من باب الدار، فاعلم أن الأمانة قد خرجت من كوة داره، وليس هذا هدية، إنما أتاني به مولاي من ضيعتي.

قال أبو عثمان: فقلت له: إني رأيتك مغمومًا، فلما أتاك هذا الغلام انطلقت واستبشر وجهك.

فقال لي: إني أصبحت فذكرت بعد عهدي بالمصائب فخفت أن أكون نقصت من عين الله -عزّ وجلّ- فلما أتاني هذا الغلام ذكر لي أن أكفأ عبيدي وأقومهم بضيعتي توفي، فزال عني الغم واسترحت(١).

[٤٢] وقيل: إنه ولي القضاء مرتين: الأول في أيام بني أمية، ولاه عليها مروان بن محمد المعروف بالجعدي -وهو آخر مَن ملك من بني مروان- وكتب بذلك كتابًا يقول في بعضه:

وقد ولاك أمير المؤمنين الحكومة والقضاء بين أهل إفريقية، وأسند إليك أمرًا عظيمًا، وحَمّلك خطبًا جسيمًا، فيه دماء المسلمين وأموالهم، وإقامة كتاب الله -عزّ وجلّ- وسنة نبيه ﷺ والذبّ عن ضعيفهم من قويهم وإنصاف مظلومهم من ظالمهم، والأخذ من شريفهم بالحق لخاملهم، وقد رجاك أمير المؤمنين لذلك لفقهك وعدلك وخيرك وحَسَبك وعلمك وتجربتك، فعليك باتقاء الله -عزّ وجلّ- وحده لا شريك له، وإيثار الحق على ما سواه، وليكن جميع الناس: قويّهم وضعيفهم، في الحق، عندك سواء.

فأقام قاضيًا إلى سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وفيها زال ملك بني أمية، فعزل عن القضاء إذ كان من قِبَل مروان، وولي بعده أبو كُريب، وكان فاضلًا ورعًا، قتلته الصُفْرية(٢) سنة أربعين ومائة، حين تغلبوا على القيروان وملكوها، فلما رأى ذلك علماء إفريقية بعثوا إلى المشرق جماعة من شيوخهم إلى أبي جعفر المنصور، وكان رئيسهم ابن أنعم، مستغيثين به، فوجه معهم

---

(١) هذا الفرح بالمصائب مذهب جرى عليه جماعة من العباد والزهاد، وإنما يفرحون لأن النبي ﷺ أخبر أن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، كلٌّ يبتلى على قدر دينه، لكن يبقى طلب المصائب والفرح بها مخالفًا لسنة النبي ﷺ والصدر الأول من السلف الصالحين، ومخالف للفطرة البشرية، والله أعلم، فقد كان النبي ﷺ يسأل -الله تعالى- العافية، لكن إذا وقع البلاء فهناك التسليم والصبر الجميل والرضى بقضاء الله -تعالى- وقدره.

(٢) أي الخوارج.

محمد بن الأشعث بجيش كبير، وأمره إذا وصل وملكها وأخرج البربر منها، أن يولي عبد الرحمن بن أنعم قضاء إفريقية.

وفي هذه السفرة سمع سفيان الثوري من ابن أنعم وكبار أصحاب أبي حنيفة وابن أبي زائدة، وأجمع أهل القيروان على ولايته؛ لِما علموا من دينه وفضله وزهده، فسار فيهم بسيرة أهل العدل، وأقام فيهم الكتاب والسنة.

- **ومنهم أبو محمد خالد بن أبي عمران التُّجِيبي، مولى عمرو بن حارثة التجيبي:**

كان من العلماء الراسخين، في العلم، والعبّاد المجتهدين، اشتهرت إمامته بالمشرق والمغرب.

سمع من جماعة من التابعين.

كان مشهورًا بإجابة الدعوة، وكان أكثر إقامته بتونس، وكانت وفاته بها سنة خمس، وقيل: سنة سبع وعشرين ومائة، والله أعلم.

[٤٣] وعن خالد بن أبي عمران أنه أتى القاسم وسالمًا[١] بمسائل من المغرب فذهب يسائلهما عنها، فأبيا عليه أن يجيباه، فقال لهما خالد: إنا بموضع جفاء في هذا المغرب، وإنهم حَمّلوني هذه المسائل، وقالوا لي: إنك تقدم على المدينة وبها أبناء أصحاب رسول الله ﷺ فسلهم لنا، وإنكما إن لم تفعلا كانت حجة لهم، فما شئتما، فقال له القاسم: سل، فسألهما خالد، فأجاباه فيما سألهما فيه، وكثير منها في مدونة سحنون.

وكان أهل إفريقية وجهوا به إلى يزيد بن عبد الملك، وهو الخليفة يومئذٍ، يخبره بقتل يزيد ابن أبي مسلم عامله على إفريقية، فلما وصل إليه قرّبه وأدنى مجلسه واستشاره فيمن يوليه، فأشار عليه، فقبل قوله.

وكانت له - رحمه الله - مقامات في الدين، شهد بها مغازي كثيرة وأبلى فيها بلاء كبيرًا.

(١) هما القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وسالم بن عبد الله بن عمر ﷺ.

[٤٤] قال موسى بن نصير – وكان من التابعين- لأم ولده: اتخذي خالدًا بن أبي عمران ولدًا.

قال: فأرسلت إليه بوصائف ووصفاء، فرد هديتها.

فقال له الرسول: ومن يجترئ يرد على فلانة -أم ولد الأمير- هديتها؟

فأغلق الباب في وجهه.

فلما رأى ذلك الرسولُ رجع بالهدية إليها، فقالت للرسول: ويحك! لعله استقلّها؟

ثم أرسلت إلى ابن أبي عمران فجاء، فقالت له:

لم رددت علينا هديتنا، لعلك استقللتها؟ ثم قالت له: إن سيدي أمرني أن أتخذك ولدًا، لأنفعك.

فقال لها: فمن أين هذا الذي بعثتِ به؟

فقالت له: أكلّم سيدي في الرجل فيعقد له الولاية، فيرسل إليَّ بالرأس والرأسين.

فقال لها خالد: بخ! خالد بن أبي عمران يغزو فلا يدركه في سهمه إلا كذا وكذا -بشيء يسير سماه- وأنتم تأتيكم الدنيا هكذا؟

ثم أفرغ عليها المواعظ، فوعظها، قال: فجاء موسى بن نصير فدخل عليها فلم تأخذ له أهبة.

فقال لها موسى: لعل خالد بن أبي عمران دخل عليك؟

فقالت: نعم.

فقال: إن الحق ما قاله لك، فاقبليه.

[٤٥] وعن حيوة: أن خالدًا بن أبي عمران كان له جيران، وكانوا مُخَلِّطين، فاستأذن عليهم يومًا، وضرب عليهم الباب، فغيبوا ما كان بين أيديهم وأخفوه، فدخل منزلهم، فجلس في قبلة البيت ثم قال لهم: يا بَنيَّ: كم بين قرية فلانة إلى قرية فلانة؟

فقالوا: يغدو الرجل من فلانة ويقيل بفلانة.

قال: فإن قصّر؟

قالوا: يروح من فلانة ويبيت بفلانة.

فقال لهم: فإذا ترك الغدو والرواح؟

قالوا: فبعيد عليه أن يبلغ.

فقال لهم: يا بني أخي! تؤملون التوبة وأنتم مقيمون على المعصية؟

ثم أقبل عليهم بالمواعظ، فوعظهم حتى تابوا وحسن حالهم.

[٤٦] وعن عبد الملك بن أبي كريمة، قال: صحبت خالدًا ابن أبي عمران وأنا صغير، ومشيت خلفه وأنا بقرطاجنة فسكتَ وسكتُّ؛ ثم التفت إلي وقال: يابني، إن للصحبة أمانة ولها خيانة، وإني أذكر الله -عزّ وجلّ- في السر، فاذكره.

[٤٧] وقال حَيْوة: اجتمعنا مع خالد بن أبي عمران في مجلس، قال: فدعا الله - تعالى- وأمَّنّا، ثم قرأ سجدة، فسجد وسجدنا معه، فقال: اللّهم إن كنت استجبت لنا فأرنا علامة ذلك، فرفع رجل من القوم رأسه فإذا بنور ساطع؛ قال إدريس: فظننت أن الرافع رأسه حيوة.

[٤٨] قال عبد الله: ورأيت لخالد ابن أبي عمران دعاء كان يدعو به لا يكاد يفارقه، وجدته بالمنستير بخط محمود المتعبد وهو:

الحمد لله الذي فتق عن أكمام الغفلة بنور الإخلاص، والحمد لله الذي كشف رَيْنَ القلوب بنور اليقين، والحمد لله حمدًا دائمًا بدوام ربوبيته، والحمد لله كما يجب له على جميع خلقه.

سبحان الله وبحمده تسبيحًا يبلغ أقطار السماوات ويبلغ الرمل والثرى وما بين ذلك، وسبحان الله وبحمده تسبيحًا تخشع له السماوات السبع ومن فيهن، والأَرَضون ومن فيهن، وسبحان الله وبحمده من حيث علم ربي وعلى لسان كل قائل.

ربِّ إني إن انقطع أملي من عملي لم ينقطع أملي منك، فحقق رجائي ولا تحقق حذري،

واستر عورتي وسكّن روعتي.

أنت دليلي، إليك أشكو بثي وحزني وفاقتي وفقري، فيا حزني في قلة شكري، ويا حزني إن أُصبت بنفسي وأنت غير راضٍ عني، فلا تعذبني بالنار بعد إذ أسكنت توحيدك قلبي، فإنك إن عذبتني بالنار جمعت بيني وبين قوم عاديتهم فيك.

اللّهم ارحم في الدنيا غربتي، وفي القبر وحشتي، وبين يديك ذل مقامي.

اللّهم إني أعوذ بك أن يُفرط عليَّ وعلى ولدي وأهلي، أو أن يُطغى علينا، جل جلالك، وعز جارك، وتبارك اسمك، هذا مقام العائذ بك، والهارب إليك.

يا وارث أيام الجبارين، يا رحمن الدنيا والآخرة، اكفنا البلاء كله، عاجله وآجله، وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله وسلم.

-ومنهم أبو كريب جميل بن كريب المعافري، القاضي، ويقال: اسمه عبد الرحمن:

من أهل الفضل والعلم.

سكن تونس، وكان من أجلاء شيوخ إفريقية، وأُشخص إلى مدينة القيروان بأمر بعض ولاة إفريقية، وولاه على قضائها بعد امتناعه منه وكراهيته فيه.

وكان حسن السيرة في قضائه، ولم يزل على ذلك حتى قتلته الخوارج بوادي أبي كريب من ناحية القيروان سنة تسع وثلاثين ومائة.

ذكر فضله ومناقبه:

[٤٩] حدث أحمد بن بهلول الزيات أن يزيد بن حاتم -وهو يومئذٍ أمير إفريقية- بعث إلى والي تونس يقول له: ابعث إليَّ بأبي كريب أوليه القضاء.

قال: فتمارض أبو كريب، فكتب والي تونس إلى الأمير إن أبا كريب مريض، فكتب إليه يزيد: أن ابعث إليّ به في قطيفة، فبعث والي تونس بأبي كريب، فلما قدم على يزيد كلمه يزيد فلم يرد عليه جوابًا، ثم كلمه الأمير وأبو كريب ساكت فأنبّه جُلاّس يزيد فقالوا له: الأمير يكلمك وأنت صامت؟ فقام الأمير يزيد على قدميه وأمر جُلاّسه أن يتفرقوا عنه، وجعل يقول له: والله يا أبا كريب ما أردت إلا الله، عزّ وجلّ، وأن أجعلك حسنة بيني وبين الله -عزّ وجلّ-

للمسلمين، وتكون لي عونًا على هذا الأمر، وتحكم بالحق علي وعلى من حولي، فاتقِ الله، عز وجل، فيما دعوتك إليه من القيام بالحق فيّ وفي المسلمين.

فقال له أبو كريب: آللهَ عز وجل أردت بذلك؟

فقال: نعم.

فكررها عليه ثلاثًا، فقال: نعم.

فقال أبو كريب: قد قبلت.

[٥٠] وجلس في جامع القيروان يحكم بينهم، فما مرت إلا أيام يسيرة حتى أتاه رجل فقال:

أصلح الله القاضي، لي قِبل الأمير حق ومطلب دفعني عنه، وقد وقفتُ له وسألته المجيء إليك فلم يفعل، فأعطاه القاضي طابعًا، ومضى الرجل إلى باب الأمير، فأعلم بذلك الأمير يزيد، وقيل: بل مضى معه أبو كريب بنفسه إلى باب الأمير يزيد، فقال للحاجب: أعلم الأمير بمكاني، إن هذا الرجل يذكر أن له حقًّا قِبَله، فأعلمه الحاجب، فلبس يزيد ثيابه وخرج إلى الجامع، فادّعى الخصم على الأمير يزيد بدعوى، فقال أبو كريب ليزيد: ما تقول فيما ادعاه بحضرتك؟ فأنكر يزيد دعواه، فطلب خصمه يمينه، فاستحلفه أبو كريب فأبى يزيد أن يحلف، فقال له أبو كريب: إني أحكم عليك بنكولك عن اليمين، فأنصفه يزيد من دعواه، ثم انصرف يزيد وهو يقول: الحمد لله الذي لم أمت حتى جعلتُ بيني وبين الله -عزّ وجلّ- من يحكم بين عباده بالحق.

فقال أبو كريب: وأنا أقول الحمد لله الذي لم أمت حتى رأيت أميرًا يشكر الله - عزّ وجلّ - بالقضاء بالحق عليه.

هكذا ذكر أبو بكر بن اللباد وأبو العرب أنها كانت مع يزيد، والصواب من ذلك أن يكون هذا المجلس إنما جرى مع عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري أمير إفريقية، ويشهد بصحة ذلك أن أبا كريب استشهد في سنة أربعين ومائة في دولة مروان بن محمد، ويزيد بن حاتم إنما ولي إفريقية في سنة خمس وخمسين ومائة في دولة المنصور، فلا شك أن

ذكر يزيد بن حاتم هنا غلط.

[٥١] ومر يومًا بمدينة القيروان ببئر أم عياض فعرض له خصمان فنزل عن حماره وقعد إلى حائط ونظر بينهما فيما اختصما فيه، ثم قام ليركب، فأراد أحدهما أن يمسك برسن الحمار حتى يركب فمنعه أبو كريب من ذلك وأمسكه هو لنفسه، وهذا من محاسبته لنفسه واجتهاده.

[٥٢] ومثل هذه الحكاية، قال: أقبل غوث بن سليمان القاضي، وهو يريد المسجد، فلما كان عند السراجين لقيته امرأة في محفتها، كما قدمت من الريف، فشكت مظلمة، فنزل في حانوت من حوانيت السراجين، كما هو ولم يبلغ المسجد، وكتب لها بحاجتها، ثم ركب دابته إلى المسجد فانصرفت المرأة وهي تقول: أصابت والله أمك حين سمتك غوثًا، فأنت والله غوث عند اسمك.

[٥٣] ومن مناقبه: أنه كان -إذ كان قاضيًا بالقيروان- ساكنًا في الدرب المعروف بالسنجاري، وأنه كان إذا أراد أن يتوجه إلى الجامع ساق حماره بين يديه، وإذا انصرف من الجامع ركبه، فربما لقيه في مسيره إلى الجامع بعض الناس وهو يخوض الطين إلى أنصاف ساقيه، فيقال له: لو ركبت الحمار! فيقول: لا أفعل، هكذا حال من يسير إلى ربه - عزّ وجلّ - يسير ذليلًا متواضعًا.

[٥٤] وربما وُجد في الجامع وحده فيقال له: أتقعد وحدك؟

فيقول: إن الناس قد ذهبوا إلى جنازة.

فيقال له: لو أنك انصرفت إلى دارك!

فيقول: ومَن لي بالملهوف المضطر إذا قصدني فلم يجدني؟

[٥٥] قال أحمد: وكان ربما تبين له الحكم بالليل، فيأتي دار من ثبت الحق له، فيقرع عليه بابه فيستخرجه ويأمره بأن يحضر له صالحي جيرانه ليشهدهم له، فيقول له: لو تركت هذا إلى الغد!

فيقول القاضي: فلو مت أنا في ليلتي هذه، أما أكون أنا الذي أضعتُ عليك حقك؟

[٥٦] ولم يزل قاضيًا حتى ثار عاصم بن جميل على حبيب بن عبد الرحمن، فخرج إليهم حبيب، فقاتلهم فهُزم هو ومن معه من عسكره، فلما صار إلى مدينة القيروان أمر أبو كريب بقتالهم، فاجتمع إلى أبي كريب أهل البصائر وخرجوا لقتالهم، إذ كانوا يستحلون سفك دماء المسلمين، واجتمع إليه من الناس ألف رجل وتخاذل الباقون من أهل القيروان، فالتقوا على الوادي المعروف بـ «وادي أبي كريب»، فسمي به إلى اليوم، فاقتتلوا قتالًا شديدًا، فقتل أبو كريب وجميع من معه، رحمة الله عليهم، وذلك سنة تسع وثلاثين ومائة.

- **ومنهم أبو محمد عبد الله بن فَرُّوخ الفارسي:**

كان فاضلًا صالحًا متواضعًا في نفسه.

قليل الهيبة للملوك في حق يقوله، لا يخاف في الله لومة لائم.

مباينًا لأهل البدع ومعاديًا لهم، حافظًا للحديث والفقه.

رحل إلى المشرق فسمع من جماعة من العلماء، منهم زكريا بن أبي زائدة، تابعي، ومالك، وسفيان الثوري، وغيرهم، وكان اعتماده على مالك لكنه يميل إلى طريقة أهل النظر والاستدلال، وكان مالك يكرمه ويرى له فضلًا ويقول لأصحابه: هذا فقيه أهل المغرب.

ويقال: إن مولده كان بالأندلس سنة خمس عشرة ومائة، ثم سكن القيروان وأوطنها، ثم رحل إلى المشرق فلقي مَن ذكرنا ونفعه الله - عزّ وجلّ - بهم.

[٥٧] وكان ابن فروخ قد كتب إلى مالك يخبره: إن بلدنا كثير البدع، وأنه ألف لهم كلامًا في الرد عليهم.

فكتب إليه مالك في الرسالة: إنك إن ظننت ذلك بنفسك خفت أن تزل أو تهلك، لا يرد عليهم إلا من كان ضابطًا عارفًا بما يقول لهم، ليس يقدرون أن يعرجوا عليه، فإن هذا لا بأس به، وأما غير هذا فإني أخاف أن يكلمهم فيخطئ فيمضوا على خطئه، أو يظفروا منه بشيء فيتعلقوا به ويزدادوا تماديًا على ذلك.

قال عبد الله: أشفق مالك، رضي الله تعالى عنه، أن يكون ذلك سببًا لإظهار طريقة الجدل

بإفريقية فيؤدي ذلك إلى أسباب يخاف من غوائلها ولا يؤمن شرها، فأراد حسم الباب.

ولما رحل إلى المشرق ولقي مَن ذكرناه من أهل العلم ونفعه الله -عزّ وجلّ- بهم رجع إلى إفريقية فأوطنها وأقام بها يعلم الناس العلم ويحدثهم بسنة رسول الله ﷺ حتى انتفع به كثير.

[٥٨] ثم رحل إلى المشرق لما ألح عليه عبد الله بن عمر بن غانم قاضي إفريقية في المشاورة في بعض أقضيته وأحكامه، وأن يتقلد له ما يراه صوابًا، فأشفق من ذلك ابن فروخ وخاف من التقليد(١)، فأراد السلامة والهروب من الرئاسة فرحل إلى المشرق فوصل إلى مصر، ثم تمادى إلى مكة فحج، فرجع إلى مصر فتوفي بها ودفن بسفح المقطم سنة ست وسبعين ومائة، وكانت لوفاته بمصر فجعة عظيمة في قلوب أهل العلم، وقالوا: طمعنا أن يكون خلفًا لنا من الليث وكانوا يعظمونه ويعتقدون إمامته، رحمه الله تعالى.

[٥٩] قال سحنون:

اختلف ابن فروخ وابن غانم في مسألة، فقال ابن فروخ: لا ينبغي للقاضي إذا ولاه أمير غير عدل أن يلي، وقال ابن غانم: يجوز له أن يلي، وإن كان الأمير غير عدل، فكتب بها إلى مالك إلى المدينة، فلما أتى الرسول إلى مالك، فأصاب مالكًا على دكان كبيرة مرتفعة كثيرة الارتفاع، والناس مجتمعون عليه فقعد حتى تفرق الناس عنه، فقام إلى مالك وأعطاه الكتاب، فقرأه مالك وقال للرجل: أَوُلِّيَ ابن غانم؟ فقال الرجل: نعم؛ فقال مالك: إنا لله وإنا إليه راجعون! فألا هرب، فألا فرَّ حتى تقطع يده! ثم قال: أصاب الفارسي، يعني ابن فروخ، وأخطأ الذي يزعم أنه عربي، يريد ابن غانم، رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

ومن فضائله -رضي الله تعالى عنه- ومناقبه وتعظيم العلماء له وثنائهم عليه وأنواع من أخباره:

سنان بن أبي سنان الأسدي الكوفي، قال: سمعت أبي يقول: قدم عبد الله بن فروخ المدينة حاجًا، فلما نزل المدينة لبس ثيابه ثم توجه إلى قبر النبي ﷺ فسلم عليه، ثم أتى مالكًا بن أنس

(١) أي خاف أن يقلده القضاء أي يوليه القضاء.

للسلام عليه، فلما رآه مالك تلقاه بالسلام وقام إليه، وكان لا يكاد يفعل ذلك بكثير من الناس، وكان لمالك موضع من مجلسه يقعد فيه وإلى جانبه المخزومي[1] معروف له ذلك لا يستدعي مالك أحدًا إلى القعود فيه، فأقعده فيه وساءله عن أموره وأحواله، وقال له: متى كان قدومك يا أبا محمد؟ فأعلمه أن قدومه كان في الوقت الذي أتى إليه فيه، فقال له: صدقت؛ لو كان قدومك تقدم إذًا لعلمت بك، ولو علمت لأتيتك، وجعل مالك لا ترد عليه مسألة وعبد الله حاضر إلا قال: أجب يا أبا محمد فيجيب عبد الله، ثم يقول مالك للسائل: هو كما قال لك، ثم التفت مالك إلى أصحابه وقال: هذا فقيه أهل المغرب.

[٦٠] وذكر بعض المصنفين عن أبي عمرو ميمون بن عمرو بن المغلوب صاحب سحنون، قال: حدثني أبو زكرياء القصير عن عبد الله بن فروخ أنه قال: أتيت الكوفة وأكبر أملي السماع من سليمان بن مهران الأعمش، فسألت عنه، فقيل لي: إنه غضب على أصحاب الحديث، فحلف أنه لا يُسمعهم إلى وقت ذكروه.

قال: فكنت أختلف إلى داره طمعًا أن أصل إليه، فلم أقدر على ذلك، فجلست يومًا على بابه وأنا مفكر في غربتي وما حُرِمته من السماع منه، إلى أن فتح الباب، فخرجت جارية، فقالت: ما بالك على بابنا؟ فقلت: أنا رجل غريب، وأعلمتها بخبري، فقالت: وأين بلدك؟، فقلت: إفريقية، فانشرحت لي وقالت: أتعرف القيروان؟ قلت لها: ومن أهلها أنا! قالت: لعلك تعرف دار ابن فروخ؟ ثم تأملتني وقالت: عبد الله؟ قلت: نعم! فإذا هي جارية كانت ببلادنا -أو قال من بلادنا، وأظنه قال: كنت رضيعًا لها فأبعناها وهي صغيرة- فصارت إلى الأعمش، وكانت لها دالة عليه، فدخلت عليه، فقالت له: ابن مولاي، الذي كنت أخبرك بخبره، بالباب فأمرها بإدخالي، وأسكنني في بيت قبالته، فكنت أسمع منه وحدي وقد حرم سائر الناس، إلى أن قضيت أَرَبي منه.

قال: وكان مالك يكرمه ويعظمه، وفي هذه السفرة اجتمع مع أبي حنيفة؛ وذاكره وكتب عنه مسائل كثيرة غير مدونة يذكر أنها نحو عشرة آلاف مسألة، وقد لقيه قبل أن يدون كتبه.

---

(١) قال المحقق: هو المغيرة بن عبد الرحمن المخزومي، من كبار أصحاب مالك المدنيين. توفي سنة ١٨٨هـ.

[٦١] ويروى أنه ناظر زُفَر في مجلس أبي حنيفة، فازدراه زفر للمغربية، فلم يزل ابن فروخ يناظره حتى علا على زفر، وقطعه بالحجة، فقال أبو حنيفة لزفر: لا خفف الله ما بك! معاتبة من أبي حنيفة لزفر إذ ازدرى ابن فروخ.

[٦٢] ويذكر أنه قال: كنت يومًا عند أبي حنيفة، فسقطت آجرة من أعلى داره على رأسي فَدُمي، فقال لي: اختر: إن شئت أَرْش الجرح[1]، وإن شئت ثلاثمائة حديث فقلت: الحديث خير لي، فحدثني ثلاثمائة حديث.

وفي هذه السفرة لقي مالكًا بن أنس وسمع منه وتفقه، وعليه اعتمد في الحديث والفقه، وبصحبته اشتهر، وكان ربما مال إلى قول أهل العراق إذا تبين له أن الصواب في قولهم.

[٦٣] ذكر أبو عثمان سعيد بن محمد أنه قال: حدثني من أثق به أن روح بن حاتم أرسل إلى عبد الله بن فروخ ليوليه القضاء فلما جاءه عرض عليه القضاء فأبى من ذلك وامتنع، فأقعده في الجامع، وأمر الخصوم أن يكلموه وهو يبكي ويقول لهم: ارحموني يرحمكم الله! ولما أبى من ذلك أمر به أن يربط ويُصعد به على سقف الجامع فإن هو قبل وإلا طرح من أعلاه، فصعد به إلى سطح الجامع، وقيل له: تفعل؟ قال: لا! وحُلَّ على أن يطرح، فلما رأى العزيمة جدًا، وكان يظن أنه لن يطرح حقًّا، فقال: قد قبلته، فأُجلس للناس وجُعل معه حرس، فتقدم إليه خصمان فلما صارا بين يديه نظر إليهما، فبكى وطال بكاؤه فأقام طويلا باكيًا، ثم رفع رأسه إليهما وقال: سألتكما بالله إلا أعفيتماني من أنفسكما ولا تكونا أول مشئومين علي، فرحماه وقاما من بين يديه، فأعلم الحرس بذلك روحًا، فقال: امضيا إليه فقولا له: فأشر علينا بمن نولي أو اقبل فقال: إن يكن أحد فعبد الله بن عمر بن غانم، فإني أراه شابًّا له صيانة، فقبل ذلك منه روح، وولى عبد الله بن غانم القضاء.

[٦٤] وكان ابن فروخ أشد الناس كراهة في القضاء، وكان يقول: قلت لأبي حنيفة: ما منعك أن تلي القضاء؟ فقال لي: يا ابن فروخ، القضاء على ثلاثة أوجه، مثل رجل

(١) الأَرْش: العِوَض.

يحسن العوم فأخذ البحر طولًا، فما عسى أن يعوم يوشك أن يَكِلّ فيغرق، ورجل لا بأس بعومه فعام يسيرًا فغرق، ورجل لا يحسن العوم فألقى بنفسه في البحر فغرق من ساعته، فهذا يمنعني من القضاء والدخول فيه.

[٦٥] وأرسل يزيد بن حاتم إلى ابن فروخ يسأله عن دم البراغيث في الثوب، هل تجوز الصلاة به؟

فقال: ما أرى به بأسًا، وقال بحضرة الرسول: يسألوننا عن دم البراغيث ولا يسألوننا عن دماء المسلمين التي تسفك!

[٦٦] وعن عبد الله بن فروخ أنه خرج يومًا يصلي على جنازة، فلما تابع[1] رأى إسحاق ابن الأمير يزيد بن حاتم وقد أغرى كلابًا كانت معه على ظبي ليضربها به، فنهشت الظبي ومزقت جلده، فلما انصرف من الجنازة لقي إسحاق ابن الأمير الذي كانت الكلاب معه فاستوقفه ابن فروخ، فوقف له إسحاق، فما كناه ابن فروخ ولا زاده على أن قال له: يا فتى، إني رأيتك آنفًا تغري كلابك بشيء من البهائم، وما أحب لك ذلك، لأن النبي ﷺ نهى عن ذلك فقبل منه إسحاق وقال له: صدقت يا أبا محمد، جزاك الله خيرًا، مكنيًا له ومعظمًا، ثم قال: والله لا فعلت ذلك بعدها أبدًا، ثم مضى لوجهه.

[٦٧] ذكر محمد بن وهب، قال: حدثني عمران بن يحيى بن قادم، وكان جارًا لابن وهب، قال: كنت أصحب ابن فروخ، وكان ابن فروخ ربما غسل الأموات الغرباء ومَن لا أحد له تواضعًا لله - عزّ وجلّ - ورغبة منه في الأجر، وكان يتولى ذلك بنفسه ولا يوليه غيره، قال: فصليت يومًا الظهر في الجامع ثم نظر إليّ عبد الله بن فروخ وقال لي: اتبعني، فاتبعته، ولم يزل يتسلسل في الأزقة حتى أتى بعض خرائب باب نافع فدخل حجرة خربة ودخلت وراءه، فإذا رجل أسود ميت على مغسل، وإذا بقصرية مملوءة ماء وكساء أسود معلق على وتد، فتشمر عبد الله بن فروخ وجمع ثيابه إلى

---

(١) أي تابع الجنازة.

حجره ولم ينزعها، ثم قال لي: يا ابن أم قادم، صبّ عليّ صبًّا رفيقًا، قال: فصببت عليه فجعل يغسل حتى فرغ، ثم أخذ الكساء فكفنه فيه ثم وضعناه على سرير نعشه، ثم قال: اخرج بنا إلى الطريق، فحملناه حتى أخرجناه إلى الطريق فمر بنا رجل فقال له ابن فروخ: الجنازة يرحمك الله، قال: فحملناه وحمل معنا ابن فروخ حتى صلّينا عليه ودفناه.

[٦٨] وكان الناس يتبركون بصحبة ابن فروخ ويجلسون له على طريقه إذا خرج من بيته، فإذا مشى مشى الناس معه، واغتنموا منه دعوة وذكرًا وموعظة حتى يأتي الجامع، ثم يتشاغل بمسح رجليه خارج الجامع ويقول للناس: ادخلوا رحمكم الله، حتى لا يبقى من الناس الذين كانوا معه أحد، فإذا انفرد وبقي وحده دخل، رحمه الله.

[٦٩] قال ابن قادم: وخرج يومًا من الجامع، فمر في زقاق بني غانم فنظر إلى دار عبد الله بن عمر بن غانم القاضي، وهو إذ ذاك على القضاء، ونظر إلى غرفة مبنية بالطوب على بعض داره، فرفع رأسه إليها وردد النظر إليها ثم قال: يا ابن غانم؛ ما ظننت أنه يبلغ بك الأمر إلى هذا كله! وأقبل يتعجب من ذلك ويستعظمه[١].

[٧٠] عن إبراهيم الجرمي، قال: خاصم إلى ابن غانم رجل من صدف أعور، فقال له ابن غانم في بعض خصومته إذ أمره بشيء، فقال له الصدفي: قد سألت العلماء فقالوا خلاف هذا: والله ما رأيت بعينك هذه العوراء عالمًا قط.

قال فأتى ابن فروخ فقال له: يا أبا محمد، إني خاصمت إلى ابن غانم فقال لي شيئًا، فقلت: إني سألت العلماء فقالوا لي كذا وكذا، فقال لي: والله ما رأيتَ بعينك عالمًا قط، وهذا أنت يا أبا محمد وغيرك من العلماء، فكيف يحلف على هذا؟

فقال له ابن فروخ: إنما العلماء الذين يخشون الله عزّ وجلّ.

وهذا من إشفاق ابن فروخ وتواضعه، لم يرَ نفسه أهلًا أن يتسمى بعالم.

وكان ابن فروخ كثير التهجد، وكان تهجده في آخر الليل.

---

(١) كان بعض السلف يكرهون البناء العالي.

[٧١] قال أحمد بن يزيد: كان ابن فروخ إذا أخذ الجند أعطياتهم أغلق حانوته تلك الأيام حتى يذهب ما في أيديهم، فإذا ذهب ما في أيديهم فتح حانوته[١].

- **ومنهم أبو زكريا يحيى بن السلام بن أبي ثعلبة البصري التيمي، تيم ربيعة، مولى لهم، رحمة الله عليه:**

[٧٢] كان يحيى بن السلام يقول: أحصيت بقلبي من لقيتُ من العلماء فعددت ثلاثمائة وثلاثة وستين عالمًا، سوى التابعين، وهم أربعة وعشرون، وامرأة تحدث عن عائشة، رضي الله تعالى عنها.

روى عنه جماعة بالمشرق والمغرب.

قال أبو العرب: كان مولده سنة أربع وعشرين ومائة، سكن القيروان وأقام بها مدة من الزمان، ثم خرج إلى المشرق فتوفي بمصر سنة مائتين، ودفن بالمقطم بجوار قبر عبد الله بن فروخ.

ذكر فضله ومناقبه:

[٧٣] أحمد بن محمد بن كدنة قال: سمعت محمدًا بن يحيى يقول: قال لي أبي -وأنا زميله في سفري إلى الحج-: يابني: رويتُ ستة آلاف حديث، أو ثمانية آلاف حديث، لم يسألني عنها أحد ولم أحدث بها أحدًا.

[٧٤] قال أبو العباس بن حمدون: سمعت محمدًا بن يحيى يقول: كنت أمشي مع أبي -رحمه الله تعالى- إلى أن انتهينا إلى موقف الخيل، فبينا نحن نمشي إذ جبذني جبذة شديدة ثم دخل إلى سقيفة وأدخلني معه، فقلت له: يا أبي: ما قصتك؟ فقال: يا بني إني رأيت غريمًا لي فخفت أن يراني فيرتاع مني أو يخاف، وذكرت قول الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨].

فقعدنا ساعة، ثم خرج أبي فخرجت معه؛ فلما أن مشينا قليلًا قال:

يا بني، إنه جاء في الحديث: من رحم يرحم.

---

(١) هذا من ورعه حتى لا يبيعهم شيئًا.

[٧٥] أبو العباس تميم بن أبي العرب عن أبيه، قال: كان يحيى بن السلام من خيار خلق الله تعالى: دعا الله -تعالى- أن يقضي عنه الدين فقضى دينه، ودعا الله -عزّ وجلّ- أن يورث ولده العلم فكان كما دعا، ودعا الله -عزّ وجلّ- أن يكون قبره بمقطم مصر فكان ذلك، وقبره إلى جانب قبر ابن فروخ.

[٧٦] حدث عون بن يوسف قال: كنت عند عبد الله بن وهب وهو يُقْرأ عليه، فمر حديث ليحيى بن السلام فقال: امحه!

فقال عون، فقلت له: لم تمحوه أصلحك الله؟

فقال: بلغني أنه يقول بالإرجاء.

فقلت له: فأنا كشفته عن ذلك.

فقال لي: أنت؟

فقلت له: نعم!

فقال لي: فما قال لك؟

قال: قلت له: فقال: معاذ الله أن يكون ذلك رأيي، أو أدين الله به، ولكن أحاديث رويتها عن رجال يقولون: الإيمان قول، وآخرين يقولون: الإيمان قول وعمل؛ فحدثنا بما سمعنا منهم.

فقال لي ابن وهب: فرجت عني، فرج الله عنك.

قال عون: فلما قدمت القيروان -وكان يحيى باقيًا بعد- أتاني فسلم علي وقال لي: يا أبا محمد، قد بلغني محضرك فجزاك الله خيرًا، والله ما قلت إلا حقًّا وما دنت الله به قط.

***

ذكر من كان في هذه الطبقة وهي الطبقة الثانية من أهل القيروان، من أهل العبادة والنسك

- **ومنهم أبو عيسى مروان بن عبد الرحمن اليَحصُبيّ ﷺ**:

كان من أهل الفضل والدين والزهد والعبادة.

قال سحنون: كان أبو عيسى اليحصبي رجلًا صالحًا ناسكًا، وكان لا ينام أكثر ليله، لشغله بصلاته وإقباله على مناجاة ربه جل وعلا.

[٧٧] زياد بن سفيان، قال:

سرق رجل حمار أبي عيسى، فكان يقول في دعائه: اللّهم وصاحب الحمار فتب عليه! قال: فلما كان بعد ذلك إذا برجل قد جاء فسلم عليه، فقال له: من أنت رحمك الله؟

قال: أنا والله سارق الحمار، فاجعلني في حلّ، وهذا حمارك.

[٧٨] حدث سعيد الأدم عن سُكّر الناظرين قال: كنت مع أبي عيسى مروان بإفريقية قبل انتقاله إلى الإسكندرية، وكان يقال إنه مجاب الدعوة، فأخرج دينارًا يشتري به طعامًا في سنة مجاعة وشدة، فلقي سائلًا يقول: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [الحديد: ٥٧] فقال في نفسه: لك ثلثه، فجاءه إبليس فوسوس إليه وقال له: وما عسى أن يقع منك ثلثه في هذا الغلاء؟ فأراد أن يرغم الشيطان، فقال في نفسه: لك ثلثاه، قال: فجاءه إبليس ووسوس إليه وقال له: وما عسى أن يقع منك ثلثاه؟ قال: فأعطى السائل الدينار كله.

ثم عمد إلى جرابه فملأه نشارة، ثم جاء به إلى زوجته، فألقاه إليها ثم مضى إلى المسجد، فأقام فيه حتى صلى العشاء الآخرة، ثم أقام في المسجد حتى ظن أن عياله قد ناموا ثم انصرف إلى منزله، فرأى أثر نار فقالت له زوجته: يا أبا عيسى، لقد جئتنا اليوم بحُوّارى[1] ما رأينا مثلها

---

(١) هو الدقيق المنقى.

قط! فلما أصبح قال: يا سكر الناظرين، تعال حتى أطعمك من طعام لم يزرعه زارع ولم يحصده حاصد.

- **ومنهم أبو حفص عمر بن عبد الله الفتال، من الأبدال:**

وكان من فضلاء المؤمنين، ومن الأصفياء المخبتين.

[٧٩] عن عبد الله بن الوليد، صاحب سحنون: كان أبو حفص قد جعل على نفسه ألا يضحك أبدًا ولا ينام مضطجعًا، ولا يأكل سمينًا، فما رُئي ضاحكًا ولا مضطجعًا ولا آكلا سمينًا، حتى مات رحمه الله تعالى(١).

[٨٠] قال عبد الله بن الوليد: أصاب الناسَ ريح وظلمة، فخرج الناس إلى الجامع فوجدوه ساجدًا وهو يبكي ويقول في سجوده: اللَّهم احفظ محمدًا ﷺ في أمته، ولا تشمت بنا أحدًا من الأمم، وإن كنت أخذت القوم بذنبي فهذه ناصيتي بين يديك.

[٨١] وكان يقول في مناجاته:

إلهي، أسألك مسألة مدهوش بهره وقار جلالك، وأسألك حيرة لبيب حصرته رؤية إفضالك، وأسألك إطراق مفكر لا يدري ما الجواب وقد تقدم إليه إعذارك، وأسألك إخبات خاشع قد ملك عقله إعظامك، وأسأل قلق الوجلين، وروعة الخائفين، وخلوة المستكينين، وأسألك دمعة مشربها من ماء معين، لا يفنى مددها، ولا تنفد مجاريها الأحزان، كمثل شجرة ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥].

وكان يقول: اللَّهم إن كنت تعلم أني أعبدك حبًّا لك وشوقًا إلى رؤية وجهك الكريم في الجنة، فأبحنيه مرة في الجنة واصنع بي ما شئت.

[٨٢] وكان كثيرًا ما يقول: نزلنا حيث رحل الناس.

***

(١) هذا الحال - وإن كان دالًا على خوف من الله وتحفّظ وأخذ بالعزائم - مخالف لما كان عليه النبي الأعظم محمد ﷺ في هديه وسمته، والله أعلم.

ذكر الطبقة الثالثة

- منهم البهلول بن راشد الحجري الرُعيني، مولى لهم، فضله أشهر من أن يُذكر:

قال القَعْنَبي: حدثني البهلول، وهو وتد من أوتاد المغرب.

كان مولده ومولد عبد الله بن غانم وعبد الرحمن بن القاسم في سنة واحدة، سنة ثمان وعشرين ومائة، وتوفي -رحمه الله تعالى- سنة ثلاث وثمانين ومائة. ودفن بباب سلم وقبره هناك مشهور.

وألَّف ديوانًا في الفقه والغالب عليه مذهب مالك، وربما مال إلى قول الثوري.

ذكر فضله ومناقبه:

فمن ذلك ما حدث به الشيخ الفقيه أبو عبد الله بن الأجدابي، رحمه الله تعالى، عن سليمان بن سالم، قال:

[٨٣] نظر مالك إلى البهلول فقال: هذا عابد بلده.

ونظر إلى عبد الله بن غانم فقال: هذا قاضي بلده.

ونظر إلى عبد الله بن فروخ فقال: هذا فقيه بلده، فكان كما قال.

وكان البهلول من الفقهاء لكن غلب عليه العبادة، وابن غانم فقيه لكن لما ولي القضاء غلب عليه اسمه.

وقال سحنون: مثل العلم القليل في الرجل الصالح مثل العين العذبة في الأرض العذبة يزرع عليها صاحبها زرعًا فينتفع به، ومثل العلم الكثير في الرجل غير الصالح مثل العين الخرّارة في الأرض السبخة تهدر الليل والنهار لا ينتفع بها.

[٨٤] وكان سحنون يقول على إثر هذا: هذا البهلول كان رجلًا صالحًا ولم يكن عنده من الفقه ما عند غيره نفع الله -تعالى- به، وذكر رجلًا آخر صحب السلطان فقال: إنه

بحر من البحور ما نفعه الله بعلمه.

[٨٥] قال سحنون: ولقد أتيت يومًا إلى البهلول فوافاني رجل من أهل الأهواء على بابه، وسألني عن الشيخ، فما رددت عليه جوابًا، والشيخ يسمع ذلك، فلما دخلت على الشيخ سلّمت عليه، فلم يرد علي السلام، وأعرض عني، فلما خرج الناس من عنده تقدمت إليه، فجثوت على ركبتي بين يديه، فقلت له: ما خبري وما قصتي؟

فقال: يسلم عليك رجل من أهل الأهواء ويسألك عني!

فقلت له: والله ما رددت عليه جوابًا.

قال: فقام لي عند ذلك وقال لي: مرحبًا وأهلًا، وسلم علي وقال لي: إن هذا الذي أمرتك به تعرف به الحق من الباطل.

[٨٦] وقال بعض أصحابه: كنت يومًا جالسًا عنده ومعه رجل عليه لباس حسن وهيئة، فقال له البهلول:

أحب أن تذكر لي ما تحتج به القدرية.

فسكت الرجل حتى تفرق الناس ثم قال له: يا أبا عمرو؛ إنك سألتني عما تحتج به القدرية، وهو كلام تصحبه الشياطين، لأنه سلاح من سلاحهم، فتزينه في قلوب العامة، وفي مجلسك من لا يفهم ما أتكلم به من ذلك، فلا آمن أن يحلو بقلبه منه شيء، فيقول: سمعت هذا الكلام في مجلس البهلول.

فقال له: والله لأقبلن رأسك، أحييتني أحياك الله.

[٨٧] سعدون بن أبان، عن دحيون، قال: كنت بالمدينة فإذا برجل يسأل ويقول:

أهاهنا أحد من أهل إفريقية؟

فقلت له: أنا!

فقال: من أهل القيروان؟

قلت: نعم.

قال: أتعرف البهلول بن راشد؟

قلت: نعم.

قال: فدفع إليّ كتابًا وقال: أوصله إليه، فدفعت إليه الكتاب، ففضه فإذا فيه:

من امرأة من أهل سمرقند خراسان، إني امرأة مجنت مجونًا لم تمجنه إلا هي، قالت: ثم إني تبت إلى الله -عزّ وجلّ- وسألت عن العُبّاد في أقطار الأرض، فوصف لي أربعة، بهلول بإفريقية رابع الثلاثة، فسألتك بالله يا بهلول إلا سألت الله -عزّ وجلّ- أن يديم لي ما فتح لي فيه.

قال: فسقط الكتاب من يده وخر على وجهه، فما زال يبكي حتى لصق الكتاب بطين دموعه، ثم قال: يا بهلول؛ سمرقند خراسان! الويل لك يا بهلول من الله إن لم يستر الله -تعالى- عليك يوم القيامة[1]!

[٨٨] قال أبو زرجونة: استُقفيت ليلة جمعة وضربت بمقرعة، فأخبرت البهلول من الغد، فقلت له: إني استقفيت، ونزعت عني أسمالي.

قال: فأكب عليّ يسألني أن أجعل من فعل ذلك بي في حل.

فقلت له: يا أبا عمرو: فعلوا بي وفعلوا، وأجعلهم في حل؟

فقال: أيسرك أن يحال بين أخيك المسلم وبين الجنة بسببك؟

قال: فلم يزل يلطف بي ويسألني، حتى جعلتهم في حل.

[٨٩] حدث أحمد بن إبراهيم، قال: دفع بهلول دينارين إلى رجل وأمره أن يشتري له بهما زيتًا من الساحل يستعذبه له، فلما انتهى الرجل إلى الموضع سأل عن الزيت العذب فذُكر له أنه عند رجل نصراني، وليس بالموضع زيت أعذب منه، فانطلق إليه فسأله أن يبيع منه بالدينارين، وقال: إنما أردته للبهلول.

فقال له النصراني: فنحن نتقرب إلى الله بالبهلول كما تتقربون به إلى الله تعالى، فأعطاه

---

(١) وهو يبكي لأن شهرته وصلت إلى سمرقند فخاف من تزيين الشيطان.

بديناريه من ذلك الزيت الذي ليس بالموضع أعذب منه مقدار ما يباع بأربعة دنانير من الزيت الدون، ثم قدم على بهلول فأخبره بجميع ما صنع مع النصراني، وما سمح له به، وما قال له، فقال له البهلول: قد قضيت حاجة فاقضِ الأخرى: اردد عليَّ الدينارين.

فقال له الرجل: ولم، أصلحك الله؟

قال: ذكرت قول الله عزّ وجلّ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢] فخشيت أن آكل من زيت النصراني فتحدث له مودة في قلبي، فأكون ممن وادّ من حادّ الله ورسوله على عرض من الدنيا يسير.

[٩٠] عن أبي عثمان قال: أتى هَرثمة بن أَعْيَن، وهو والي إفريقية، إلى البهلول برجاله وألويته وكان في مسجده مستندًا إلى عمود، فمال هَرثمة عن السرج لينزل، فلما رآه لم يرفع رأسه إليه ولم ينهض إلى القيام رجع إلى سرجه وقال لبعض أعوانه: ادفع هذا المِزْوَد الدراهم[1] إليه، وقل له: يأمرك الأمير أن تفرقه.

فقال له البهلول: قل له أنت أعرف بموضعه مني، وأبى أن يقبله.

[٩١] عبد الله بن سعيد الحداد، عن أبيه عن جده، قال:

كان لقوم من النخاسين على بهلول عشرون دينارًا، وكان لبهلول مع دحيون عشرون مثلها، فوقف ببهلول سائل، فقال لدحيون: ادفع إليه دينارًا من العشرين.

ثم أقبل إلى بهلول أصحاب العشرين، فقال لهم بهلول: حضر منها تسعة عشر دينارًا ثم قال لدحيون: عدّها عليهم، فعدّها، فأصاب عشرين دينارًا، فقال لبهلول: أراها عشرين!

فقال له بهلول: لا إله إلا الله! أراك لا تحسن العدد، وإنما قال هذا مخافة أن يُظهر الله – تعالى– عليه هذا الأمر.

ومما يسند هذه الحكاية: أن عامر بن عبد قيس[2] كان يأخذ عطاءه فيجعله في ردائه، فلا

---

(١) أي كيس الدراهم.

(٢) هو أحد كبار عُباد البصرة، من التابعين الكبار، وهو أحد الثمانية الزهاد في عصره.

يلقى أحدًا من المساكين فيسأله إلا أعطاه، فإذا دخل على أهله رمى به إليهم، فيعدّونه، فيجدونه سواء كما أُعطيه.

[٩٢] حدث بعض مشايخنا قال: دخل مُعَتِّب بن رباح على البهلول في مسجده فقال له البهلول:

يا أبا أحمد، ما جاء بك؟

فقال: يا أبا عمرو، قد عزمتُ العام على الخروج إلى الحج.

فقال له: يا أبا أحمد: أما كنت حججتَ؟

فقال: نعم، قد حججتُ، ولكني اشتقتُ إلى بيت الله الحرام وإلى قبر النبي عليه الصلاة والسلام.

فقال له البهلول: فكم هيأت لخروجك؟

فقال: مائة دينار.

فقال له البهلول: فهل لك أن تأتيني بها، فأصرفها في مواضع، وأضمن لك على - الله عزّ وجلّ - عشر حجج مقبولة؟

فقام معتِّب سريعًا فأتى بالصرة، فأفرغها البهلول تحت جلد كان قاعدًا عليه، وقعد معتب ابن رباح، فلم يزل يدخل الرجل فيعطيه خمسة، وآخر يعطيه ثمانية، وآخر يعطيه عشرة، فواحد يقول له: تزوج منها وعش بالباقي، وآخر يقول له: وسع بها على عيالك وصبيانك، وآخر يقول له: استر بها وجهك، فلم يقوما حتى نفدت المائة.

وكان بالقيروان رجل صالح يقال له أبو سليمان الأعمى، وكان من أهل الدين والفضل، وكان ربما أدلج إليه صقلاب بن زياد الهمداني ودنيج وأبو الغصن، وهم من أصحاب البهلول، يتبركون بالصلاة خلف أبي سليمان، فأخبر أبو سليمان أنه أتاه آتٍ في تلك الليلة فقال له:

يا أبا سليمان، امضِ إلى مُعَتِّب بن رباح فأخبره أن الله -تبارك وتعالى- قد وفى له بما ضمنه له بهلول.

قال أبو سليمان: فغلب عليّ النوم، ثم أتاني الثانية فقال:

يا أبا سليمان، امضِ إلى معتِّب الساعة، قبل أن يطلع الفجر، فأخبره أن الله -عزّ وجلّ- وفاه ما ضمن له البهلول.

فقام أبو سليمان تلك الساعة، فأتى إلى باب معتِّب بن رباح، فدق عليه الباب، فخرج إليه معتِّب فقال: يا أبا سليمان، ما جاء بك في هذه الساعة؟

فقال: أُرسلت إليك أخبرك أن الله -عزّ وجلّ- قد وفى لك ما ضمن لك البهلول عند الله تعالى.

[٩٣] عبد الله بن الوليد قال: كان عند البهلول شاب يطلب عليه العلم، ثم أقبل على المجانة، فأُعلم البهلول بذلك، فساءه ما بلغه، فبينما هو يومًا جالس إذ خطر به الشاب وتحت ثوبه طنبور، فقيل للبهلول: انظر أصلحك الله إليه وإلى ما تحت ثوبه! فتأمله البهلول، فعرف تصديق ما قالوا، فقال للقائل: لعله إنما ذهب به ليكسره!

فلما كان بعد ذلك بقريب مضى البهلول بنفسه إلى دار الشاب، فقرع الباب، فقالت له أمه: من هذا؟

فقال لها: بهلول.

فقالت له: ما تريد؟

قال: ولدك!

فلم يزل بها حتى خرج عليه الشاب، فسلم البهلول عليه وقال له:

يا ابن أخي: ما لك اشتغلت عنا؟ أكل هذا زهادة منك في الخير؟ وأخذ يعظه ويرفق به ويتعاهده بذلك، حتى رجع الفتى عما كان عليه من المجانة، وعاود مجلس البهلول، وكان له شأن، ونفعه الله -تعالى- ببهلول وصحبته.

وكان رحمه الله متواضعًا:

[٩٤] حدث أبو محمد عبد الله بن يوسف الجبّي قال: بلغني أن رجلًا قال لبهلول: يا بهلول، يا مرائي!

فقال له بهلول: قد أخبرتها بذلك - يعني نفسه- فأبت عليّ ولم تقبل مني، فاجتمع عليها شهادتك وعلمي بها، فشهادة اثنين خير من شهادة واحد.

[٩٥] أبو زكريا الحفري قال:

كنت عند بهلول وهو يتفلّى، إذ أقبلت امرأتان فقالت إحداهما للأخرى:

أتريدين أن أريك بهلولًا؟

فقالت لها صاحبتها: نعم.

فقالت لها: هذا الذي يتفلّى.

فقالت: لأن تسمع بالمُعَيْدِي خير من أن تراه.

قال أبو زكريا: فأقبل عليّ بهلول فقال لي: أتريد أن أريك مَن عَرفني؟ هذه المرأة التي عرفتني.

[٩٦] دعاء:

وكان رحمه الله تعالى كثيرًا ما يدعو بهذا الدعاء، قال عبد الله: رأيته بخط محمود المتعبد بالمنستير[١] وهو:

اللّٰهم إني أسألك باسمك العظيم الأعظم، وأسألك باسمك الكبير الأكبر، يا ألله، يا ألله، يا ألله، أنت نور كلِّ نور، بنور وجهك، وأنت نور السماوات والأرض، أسألك يا كريم، يا فتاح، يا فتاح، يا فتاح، يا قادر، يا قادر، يا قادر، وبنور وجهك يا قادر، وبنور وجهك يا قادر، وبنور وجهك يا قادر، وبنور وجهك يا قادر، يا حليم، وبنور وجهك يا حليم، وبنور وجهك يا حليم، أسألك أن توجب لنا رضوانك الأكبر، والدرجات العلى من الجنة، وتعفينا من النار، ومن سخطك، وتمن علينا بحفظ كتابك حتى نتلوه على الوجه الذي يرضيك عنا.

قال البهلول: وإياك أن تدعو به في شيء من أمور الدنيا، اللّٰهم إني قد بلغت.

وكان -رحمه الله تعالى- يقول في دعائه:

---

(١) بلدة بتونس على البحر، كانت مُرابَطًا للمجاهدين.

اللّهم رضّني بقضائك وبارك لي في قدرك، حتى لا أحب تعجيل ما أخرت، ولا تأخير ما عجلت.

[٩٧] ذكر محنته رضي الله تعالى عنه:

كان - رحمه الله تعالى- في زمان محمد بن مقاتل العكي أمير إفريقية، وكان يلاطف الطاغية(١) ويبعث إليه بالألطاف ويكافئه الطاغية، فكتب الطاغية إلى العكي أن ابعث إلي بالنحاس والحديد والسلاح، فلما عزم العكي على ذلك وأن يبعث إليه بما طلب لم يسع البهلول السكوت، فتكلم وعارض العكي، ووعظه، لتزول عنه الحجة من الله - عزّ وجلّ- فلما ألح عليه في ذلك بعث العكي إليه فضربه.

وقيل: إنه لما قيده ومُدّت رجلاه للقيد قال البهلول: إن هذا الضرب من البلاء الذي لم أسأل الله -عزّ وجلّ- العافية منه قط.

وقيل: إنه لما بعث وراءه ليضربه تحاشد إليه الناس والجماعات، فزاد العكي ذلك حنقًا عليه، فأخرج إلى الناس أجناده ففرقوهم، وأمر بتجريده وضربه، فرمى عليه بأنفسهم جماعة، فضُربوا، ثم ضرب أسواطًا دون العشرين، وحبسه ثم أخرجه فبرأ الضرب من جسمه إلا أثر سوط واحد فنَغِل(٢)، فكان سبب موته.

[٩٨] بهلول قال:

أقمت ثلاثين سنة أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت:

بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، فلما كان يومي مع العكي أُنسيت أن أقولها، فابتُليت به.

[٩٩] أبو زرجونة قال:

لما ضرب بهلول دخلتُ عليه، فبينا أنا عنده إذ سمعت بكاء رجل داخل من الباب وهو يبكي، فإذا هو عبد الله بن فروخ، فأتى فجلس قدام بهلول وهو يبكي، فقال له بهلول: سبحان

---

(١) قال المحقق: هو ملك الروم كما صرح به عياض.

(٢) أي فسد.

الله يا أبا محمد، ما يبكيك؟

قال: أبكي لظهر ضُرب في غير حق.

فقال له: يا أبا محمد: قضاء وقدر.

قال أبو زرجونة: فنحن جلوس حتى أرسل إليه العكّي بكسوة وكيس، فأبى البهلول أن يقبله ورده مع الرسول.

فردّ العكي الرسول إليه وقال له: يقول لك العكي: إن كنت لم تقبل مني فاجعلني في حل.

فقال له البهلول: قل: له ما حللتُ يدي من العقالين حتى جعلتك في حل، فاغتم العكي لذلك وندم[1].

ونظر العكي إليه من حيث لا يشعر البهلول فجعل يقول: تبارك الله، كأنه والله سفيان الثوري.

[١٠٠] عن أبي جعفر أحمد الكوفي، الذي كان يسكن بالمنستير قال: كنا مع بعض الخلفاء في غزاة، وكنا معه من أهل الثغور اثنا عشر ألف فارس، وكان يقضي لنا كل يوم حاجتين نكتب بهما إليه في رقعة يوصلها الحاجب إليه، فلما بلغنا أن البهلول ضُرب بإفريقية تخلخل العسكر، فأتينا بأسرنا إلى باب الخليفة، فقال لنا الحاجب:

ما بالكم؟

فقلنا: قد جعلنا حوائجنا كلها في نصرة البهلول.

فقال لنا الحاجب:

اتقوا الله في دم العكّي، ليس يبلغ الخليفة أن العكّي ضرب البهلول إلا قتله، وكيف يُضرب البهلول بإفريقيه، إلا أن يكون أهل إفريقية ارتدوا عن الإسلام؟ ولكن اصبروا، فإن صح الخبر رفعت أمركم، فرجعنا من الغزو قبل أن يتبين لنا صحة الخبر.

فرضي الله عن البهلول، ختم - الله عزّ وجلّ - أعماله بالشهادة بهذا الابتلاء الذي اختاره

---

(١) سبحان الله ما أجمل نفوسهم!

الله له ليوصله الله -عزّ وجلّ- بذلك إلى أعلى الدرجات وأكرم المقامات.

- ومنهم أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن غانم الرُّعَيْني:

قاضي إفريقية، وصاحب مالك بن أنس، رضي الله تعالى عنهم.

كان فضله وعلمه وورعه أشهر من أن يُذكر، وهو أحد الثقات والأثبات.

روى عن مالك وعليه معتمده، وروى عن سفيان الثوري وجماعة يطول ذكرهم.

وكان مولده ومولد البهلول في ليلة واحدة سنة ثمانٍ وعشرين ومائة.

وكانت وفاته سنة تسعين ومائة، وصلّى عليه إبراهيم بن الأغلب أمير إفريقية، ودفن بباب نافع وكانت وفاته في ربيع الآخر من فالج أصابه.

ذكر مناقبه:

[١٠١] بإسناد إلى عبد الله بن فروخ قال: دخلنا على سفيان الثوري -أنا وابن غانم والبهلول- فسألناه في السماع، فأجاب إلى ذلك وقال: يقرأ عليّ أعربكم كلامًا فإنه ربما قرأ علي القارئ فيلحن في قراءته فأُحرم نومي وطعامي.

قال: فقرأ لنا عليه ابن غانم شهورًا كثيرة فما رأينا الثوري رد عليه في قراءته شيئًا، ولا أخذ عليه لحنة واحدة.

[١٠٢] ولما ولي قضاء إفريقية بشر مالك بذلك أصحابه، وقال لهم: أعلمتم أن الفتى الرُّعَيْنِي الذي كان يأتي إلينا قد استُقضي على إفريقية؟ وكان يسره ذلك.

[١٠٣] وذكر بعض قرابته أن مالك بن أنس عرض عليه أن يزوجه ابنته ويقيم عنده، فامتنع من المقام وقال: إن أخرجتها معي إلى القيروان تزوجتها.

ولما بلغ ابن وهب موته غمه ذلك غمًّا شديدًا، وقال:

إنا لله وإنا إليه راجعون، رحمك الله يا أبا عبد الرحمن، فلقد كنت قائمًا بهذا الأمر، يريد الفقه والعلم.

[١٠٤] سحنون، قال: قرأ علينا ابن غانم كتابًا من الموطأ، فقال له رجل:

يا أبا عبد الرحمن: أيعجبك هذا من قول مالك؟

فقام ابن غانم، وألقى الكتاب من يده، وقال:

أو ليس وصمة عليّ في ديني وعقلي أن أرد على مالك قولة قالها؟ والله لقد أدركت العُباد الذين يتورعون عن الذر فما فوقه -سفيان ودون سفيان- فما رأيت بعيني أورع من مالك؛ وهذا من حسن أدبه.

[١٠٥] وحدث بعض مشايخنا، قال: مر رباح بن يزيد بعبد الله بن غانم، وبيد رباح قِسْط زيت، فقال له ابن غانم: أحمله لك يا أبا يزيد؟

فقال له رباح: شأنك به، وابن غانم إذ ذاك على القضاء، فدفع القسط إليه، وجعل رباح يشق به مجامع الناس، فسلك به على حوانيت البزازين والمواضع المشهورة، حتى انتهى إلى داره.

قال له رباح: أتدري لم فعلت هذا بك؟

قال: لا.

قال له: بلغني أنك تجد في نفسك فأحببت أن أضع منك.

فقال له ابن غانم: جزاك الله عني خيرًا.

[١٠٦] حدث بعض أهل العلم، قال: خرج ابن غانم القاضي مع جماعة من أصحابه إلى منزله، وكان فيمن خرج معه سليمان بن زُرعة، وخرج بزوامله ومطابخه، فلما نزل نزع ثيابه واشتمل بردائه، وفعل مثل ذلك بجميع من معه، وكان في صيف ووقت حر، ثم أمر بالطعام فقرب إليهم، وفيه كنافة، وكان ابن غانم يحبها، فلما وضعت بين أيديهم خرق رجل من القوم موضع الزبد من وسط القصعة، فقال له سليمان: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ [الكهف:٧١].

قال له ابن غانم: أتهزأ بكتاب الله تعالى؟ عليَّ ألا كلمتك أبدًا! ثم أمر بدابته فقربت إليه، وانصرف راجعًا إلى القيروان.

[١٠٧] عن أبي عثمان، قال: حُدِّثت عنه أن ابنه دخل عليه وقد انصرف من المكتب، فسأله عن سورته فقال له الصبي: حوَّلني المعلم من سورة الحمد.

فقال له: اقرأها فقرأها.

فقال له: تهجها، قال: فتهجاها.

فقال له: ارفع ذلك المقعد، فرفعه فإذا تحته دنانير كثيرة، قال: وأبو عثمان شاك في عددها، إلا أنها أكثر من العشرة ودون العشرين، قال: فحملها إلى معلمه فدفعها له، فأنكر المعلم ذلك، وأتى بها إلى ابن غانم وأخبره أن الصبي أتاه بها، فقال له ابن غانم كالمعتذر:

لم يحضرني غيرها يا معلم، أتدري ما علّمته؟ علمتَه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] لحرف واحد مما علمته خير من الدنيا وما فيها.

ذكر ولايته القضاء وسيرته فيه:

[١٠٨] كان -رحمه الله تعالى- إذا جلس للخصوم رمى إليه الخصماء الشِقاف[1] فيها قصصهم مكتوبة؛ فقعد يومًا للخصوم، فرموا إليه شقافهم، فدعا بها، فإذا في شقفة منها مكتوب: نخاسي البغال، فدعاهم وسألهم عن قصصهم.

فقالوا له: اشترى منا أبو هارون موسى، مولى إبراهيم بن الأغلب وصاحب أمره بغالًا بخمسائة دينار ولم يدفع إلينا شيئًا.

فضم ديوانه، ثم قام إلى إبراهيم، وكان قد أباح له الدخول، فقال له إبراهيم:

ما قصة القاضي؟

فذكر له أمر المتظلمين من أبي هارون، قال: فأحضر ابن الأغلب أبا هارون فسأله عما ذكر ابن غانم، فأقر به وقال: إنما أخرته ليجيء خراج قصطيلية، فإذا جاء دفعت إليهم.

فقال ابن غانم:

---

(١) قال المحقق: شرحها دوزي (ملحق القواميس: شقف) اعتمادا على هذا النصّ بأنها قطع من الورق، ونحن نرجح أنها قطع من الفخار، ينظر القاموس: شقف.

إنما ظننت أنه يجحد فأوقفه معهم موقف الخصوم، فأما إذ أقر فإني لا أبرح حتى تدفع إليهم أموالهم.

[١٠٩] ونظر ابن غانم إلى قارورة في يد إبراهيم[١] فيها دهن يسير، فقال له: ما هذا؟ قال: دهن، ثم قال للقاضي:

كم تظن يساوي هذا؟

فقال له: يسير.

فقال له إبراهيم: فإن ثمنه كثير: كذا وكذا، وذكر ثمنًا كثيرًا.

فقال ابن غانم: وما هو هذا؟

قال: السم القاتل.

قال ابن غانم: أرنيه فدفع إليه القارورة، فلما أخذها ابن غانم ضرب بها عمودًا كان في المجلس، فكسرها وأراق ما فيها.

فقال له إبراهيم: هاه! ماذا صنعت؟

قال: أفأترك معك ما يقتل الناس؟

[١١٠] وكان إبراهيم بن الأغلب يصلي بالجامع المكتوباتِ كلها، فخرج ليلة من الليالي من داره، دار الإمارة، فدخل الجامع لصلاة العَتَمة[٢]، وكان مشغول القلب فعثر على حصير فسقط، فلما صلى بالناس وانصرف، بعث في طلب ابن غانم، فأتاه الرسول وقال له: الأمير يدعوك.

فتغير ابن غانم عند ذلك وقال: في مثل هذا الوقت يوجه ورائي؟ ثم لم يجد بدًا من أن قام إليه.

فلما دخل عليه قال له: يا أبا عبد الرحمن، إني لم أبعث إليك إلا لخير، إني لما دخلت المسجد

---

(١) هو إبراهيم بن الأغلب أمير تونس.
(٢) أي صلاة العشاء.

اشتغل قلبي عن حفظ نفسي، فعثرت على حصير فسقطت، فظننت بالناس أنهم حسبوا أني متنبذ فأحببت أن تكون براءتي عندك، ولا أبالي بغيرك، فاستنكهني[1]، فاستنكهه ابن غانم فوجده بريئًا مما قال؛ فشكر له ذلك.

[١١١] أبو محمد بن أبي زيد، رضي الله تعالى عنه، عن عبد الله بن سعيد بن الحداد، عن أبيه، قال: حُدثت عن القاضي ابن غانم أن اليوم الذي كان يجلس فيه للنظر بين النساء يلبس فيه فروًا دنيًا ويلقى عينيه بالأرض، والذي لم يكن رآه قبل ذلك الوقت يتوهم أنه مكفوف البصر، وكان يزيل الكُتّاب والحجّاب من بين يديه إذا جلس للنظر بين النساء.

[١١٢] قال ابن الحداد: وبلغني أنه كان إذا أشرف على إنفاذ حكم لأحد يصلي حزبه من الليل، فإذا جلس في آخر صلاته عرض من أراد أن يحكم له، على الله -عز وجل- ويقول: اللّهم إن فلانًا خاصم إلي فلانًا وادعى عليه بكذا وكذا، فسألت فلانًا عما ادعى عليه فأنكر، فسألت فلانًا: هل عنده فيما يدعيه بينة؟ فأحضرني بينة، فرضيت حالها وصحت عندي عدالتها بكشفي عنها سرًا وعلانية، وقد أشرفت على أن أدفع من مال فلان إلى فلان كذا وكذا، اللّهم إن كنت أشرفت من ذلك على حق وأمر ترضاه فسددني له ووفقني، وإن كنت لم أوفق ولم يكن ذلك كذلك فاصرفه عني، اللّهم لا تُسْلمني! اللّهم سلمني! فلا يزال يعرض الخصوم على ربه -عز وجل- ويسأله التوفيق والتسديد حتى يطلع الفجر.

[١١٣] وذكر سليمان بن عمران -في صبره وحلمه- أن رجلًا يقال له ابن زرعة له جاه ورئاسة لقي يومًا ابن غانم، فشتمه في وجهه في موضع خال ليس فيه أحد، وذلك لأنه حكم عليه بوجه حق ترتب عليه، فاستعداه لذلك، فأعرض عنه ابن غانم ولم يرد عليه شيئًا، فلما كان بعد ذلك، لقيه بطريق الرَّيدان فسلم عليه ابن زرعة، فرد ابن غانم السلام ورحب به، ومضى به معه إلى منزله بالرَّيدان، وأكرمه وعمل له طعامًا كثيرًا، ثم رجع ابن غانم إلى القيروان ومعه ابن زرعة، فلما أراد مفارقته

---

(١) أي شُم فمي.

قال ابن زرعة لابن غانم: يا أبا عبد الرحمن: اغفر لي واجعلني في حِلٍّ مما كان من خطابي.

فقال له ابن غانم:

أما هذا فلست أفعله حتى أوقفك بين يدي الله -تعالى- وأما أن ينالك في الدنيا منّي مكروه أو عقوبة فلا.

وكان سبب موته - رحمه الله- الفالج.

[١١٤] أخبر أبو الوليد عبد الملك بن قطن المهري، قال: مرض عبد الله بن عمر بن غانم مرضه الذي توفي منه، فدخلت عليه عائدًا فقلت: رفع الله -تعالى- ضجعتك من هذه العلة إلى إفاقة وراحة، وأعاد عليك ما عودك من الصحة والسلامة، فلطالما صححت وعوفيت، أصلحك الله، فاصبر لحكم الله عز وجل، فإن الله يحب أن يُصبر على بلواه كما يحب أن يُشكر على نعماه.

فقال: هو الموت والغاية التي إليها نهاية الخلق، فصبر جميل يؤجر صاحبه خير من جزع لا يغني عنه.

[١١٥] وبكى عليه الأمير إبراهيم بن الأغلب، وأقبل مع خال إبراهيم يبكي وينتحب حتى فرغوا من دفنه ﷺ.

-ومنهم أبو خارجة عنبسة بن خارجة الغافقي، من أنفسهم[١]، رضي الله تعالى عنه:

قال أبو العرب: كان ثقة مأمونًا، وله سماع من مالك ومن الثوري.

وقال غيره: كان مستجابًا عالمًا باختلاف العلماء واتفاقهم، أكثر اعتماده على مذهب مالك.

وكان مقام أبي خارجة في حصن على البحر يقال له يُنْقَه في ناحية سفاقس في الغربي منها، توفي في شهر ربيع الآخر سنة عشر ومائتين، وهو ابن ست وثمانين سنة.

---

(١) يعني أنه ليس مولى.

ذكر مناقبه وفضائله:

[١١٦] فمن ذلك: قال سليمان بن محمد الأندلسي عن الحسن بن نصر السوسي، قال: حدثنا نصر بن خالد: عطش الناس بسفاقس وغافق وأجدبوا ونزل بهم القحط والجهد، فأتوا إلى أبي خارجة عنبسة، وكان مجاب الدعوة، وكان أَسَنَّ من سحنون، فقالوا: نزل بنا الجوع والقحط فاستسق لنا.

فقال لهم: تأتون غدًا ببناتكم وصبيانكم وبهائمكم وتُبَيِّتون الصيام الليلة، فإذا كان الليل، فقفوا بين يديه، وتضرعوا إليه واعرضوا أعمالكم عليه فإنه يرقّ لحالكم.

قال: ففعل الناس ذلك، واجتمعوا من كل مكان من الغد، وخرج بهم أبو خارجة، فصلى بهم صلاة الاستسقاء، ثم خطب بهم، ثم جلس إلى صلاة الظهر، واشتد الحر عليهم فصاح الأطفال والبهائم من شدة الحر، فقام أبو خارجة وصلّى بهم الظهر، ثم بسط يديه وقال:

أنت مولانا ما لنا غيرك ولا سواك، بك نالوا الدرجات الرفيعة والمواهب العالية، ولولاك ما نالوها، وأنت ذو رحمة واسعة، وأنت العالم بأحوالنا وقبيح أعمالنا وما لنا غيرك ولا سواك، وقد قامت آمالنا بك، وقد جثونا بين يديك، بهائمنا جائعة، وأرضنا سوداء يابسة، وقلوبنا خائفة، وبيوتنا فارغة، وسماؤك عامرة، وخزائنك واسعة، فاسقنا سقية نافعة تجدد الإيمان في قلوبنا ولا نبرح من بين يدي كريم حتى تسقينا، ووسيلتنا إليك نبينا الذي جعلته رحمة لنا ﷺ.

قال نصر بن خالد: فرأيت سحابة بيضاء رقيقة، ثم رأيت السماء اندفقت بالغيث، فرأيت أبا خارجة وهو يرفع ثيابه وهو يقول: بهذا يُعرف الكريم، هذا فعلك فيمن قصدك، فبهذا تُعرف وتوصف.

[١١٧] وكان من دعائه: اللّٰهم إني أسألك الصحة، والعفة، والأمانة، وحسن الخلق، والرضا بالقدر.

[١١٨] وكان سحنون يعظم أبا خارجة ويعرف حقه:

عيسى بن مسكين قال: كان رجل يُنزِل عنده أبا خارجة إذا مر به، وكان سحنون أيضًا

ينزل عنده إذا مر به، فنزل به مرة سحنون فبينما هو عنده إذ جاء رجل يستأذن، فإذا به أبو خارجة، فقام الرجل ليلتمس له موضعًا غير موضع سحنون، فمنعه سحنون من ذلك، وقال له: بل يكون معي في موضعي، فأذن له الرجل فدخل وسلم، فرد عليه سحنون السلام وأكبره وعظمه ومد إليه يده فصافحه، ثم جلس أبو خارجة، وجاء رجل فسأل سحنونًا عن مسألة فقال له سحنون: سل أبا خارجة، وامتنع أن يجيب بحضرته إجلالًا له وتعظيمًا، قال: فسأل الرجل أبا خارجة فأجاب بجواب لم يوافقه سحنون عليه، قيل لعيسى: فما أنكر عليه سحنون؟

فقال عيسى: سحنون كان أحكم من ذلك.

[١١٩] قال عيسى: كان رجل بغدادي يود لو رأى أبا خارجة، قال: فنزل أبو خارجة يومًا قريبًا من موضع الرجل، قال: فلما سمع بخبره أتاه فسلم عليه وصافحه وعانقه وقال له: أنت أبو خارجة؟

فقال: نعم، أنا أبو خارجة، تسمع بالمعيدي خير من أن تراه! تواضعًا منه، رحمه الله تعالى.

[١٢٠] وعنه ﷺ: أنه خرج إلى سوسة فنزل في بعض الطريق واستلقى، وقال لأصحابه: يأتيكم الساعة رجلان على دابة، فيسألان عن شيء فيسمعان ما يكرهان، فبينما هم كذلك إذ أقبل رجلان على بغلة فسألا عن الشيخ أبي خارجة فأُخبرا، فقالا له: رجل له عِجْل رأى في المنام كأنه خالفه إلى خمير عنده فأكله، فقال له أبو خارجة: هذا رجل يخالفه إلى أهله، فقال أحد الرجلين لصاحبه: قد نهيناه من دخوله إليه فلم ينته.

وكان - رحمه الله تعالى - ممن ينطق بالحكمة:

عن أبي عثمان سعيد بن حسان أنه قال: أوصى أبو خارجة بعض إخوانه فقال:

[١٢١] يا عبد الله: أوصيك بوصية: وهي أن تكون ذاكرًا غانمًا أو ساكتًا سالمًا.

[١٢٢] وإياك وكثرة الكلام: إن العبد يسأل يوم القيامة عن فضول كلامه كما يسأل عن فضول ماله.

[١٢٣] وإياك وكثرة الضحك: فإنه يميت القلب، ويذهب بنور الوجه، ويورث الفقر.

وكان يقول: أحب الأمور إلى الله سبحانه أسمحها وأسهلها.

[١٢٤] وثلاث من أعطيهن فقد اغتبط: علم نافع، ورزق طيب، وعمل متقبل.

[١٢٥] وكان يقول: التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والتائب من الذنب العائد فيه كالمستهزئ به.

[١٢٦] وكان يقول: ثلاث من أعلام الإحسان: كظم الغيظ، وحفظ الغيب، وستر العيب.

[١٢٧] وثلاث من أعلام المعرفة: الإقبال على الله عز وجل، والانقطاع إلى الله تبارك وتعالى، والافتخار بالله سبحانه.

[١٢٨] وثلاث من أعلام الفكرة: سرعة الادِّكار، وإدمان الاعتبار، وكثرة الاستغفار.

[١٢٩] وكان يقول عند إفطاره: الحمد لله الذي رزقني فأفطرت، إن تعذبني فأنا أهل لذلك، وإن تغفر لي فأنت أهل لذلك.

- ومنهم أبو مسعود العباس بن أشرس الأنصاري، مولى لهم:

كان فاضلًا، سمع من مالك.

قال سحنون: كان ابن أشرس حسن الضبط للعلم، وكان شديد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

[١٣٠] وقد كانت نزلت به نازلة فرحل إلى القيروان فيها من تونس، واجتمع بالبهلول ابن راشد، وقبل منها ما أفتاه فيها وقلّده إياها:

وذلك ما حدّث به موسى بن معاوية الصُّمَادحي، قال: استحلف السلطان بتونس أبا مسعود بن أشرس، صاحب مالك، على رجل أراد السلطان قتله أنه ما آواه ولا يعلم له موضعًا، فحلف له ابن أشرس - وابن أشرس يومئذٍ قد علم موضعه وهو الذي آواه- فحلفه بالطلاق ثلاثًا، فحلف له ابن أشرس إشفاقًا منه على الرجل وحقنًا لدمه، ثم قال لامرأته: اعتزليني، فاعتزلته.

ثم ركب ابن أشرس حتى قدم على البهلول بالقيروان، فأخبره بما جرى، فقال له البهلول: قال مالك: إنك حانث.

قال له ابن أشرس: وأنا سمعت مالكًا يقول ذلك، وإنما أردت أن أرى ما عندك.

فقال له البهلول: قال الحسن بن أبي الحسن البصري: لا حنث عليك.

قال: فرجع ابن أشرس إلى زوجته وأخذ بقول الحسن.

قال أبو الحسن بن الخلاف: روى ذلك عن الحسن يحيى بن محمد بن يحيى بن السلام عن أبيه عن جدّه عن الحسن بن دينار عن الحسن: في رجل طلبه السلطان ليقتله أو ليجتاح ماله، فحلف عليه رجل بالطلاق أنه لا يعلم علمه؟

قال: يحلف عن أخيه المسلم ولا طلاق عليه.

- ومنهم أبو عبد الله أسد بن الفرات بن سنان، مولى بني سليم، ﷺ:

أصله من خراسان نيسابور، قال سليمان بن عمران: إنه ولد بحران، سنة اثنتين وأربعين ومائة، ويقال: إنها أول مدينة بنيت على الأرض بعد الغرق بالطوفان.

قال: دخلت مع أبي إلى القيروان في جيش ابن الأشعث، فأقمنا بها خمس سنين، ثم رحلنا إلى تونس فأقمت بها نحو تسع سنين.

[١٣١] قال: ورأت أمي بها كأن حشيشًا نبت على ظهري ترعاه البهائم، فعبرت رؤياها عند معبر، فقال:

سوفَ يكون عند هذا الغلام علم يُحمل عنه.

[١٣٢] كان قدومه القيروان سنة أربع وأربعين ومائة وهو ابن سنتين، وسمع من علي بن زياد الموطأ وتعلم منه العلم بعد أن ارتحل إلى تونس، ثم ارتحل إلى المشرق، فلقي مالكًا وواظب عليه، وطلب عليه العلم وسمع منه الموطأ.

ثم ارتحل إلى العراق فلقي أصحاب أبي حنيفة: أبا يوسف، وأسد بن عمرو ومحمد بن الحسن، وكتب الحديث بالعراق وتفقه بها.

ثم رحل من العراق -بعد وفاة مالك بن أنس ﷺ- إلى مصر، فوجد أصحاب مالك بوفرهم، فلزم ابن القاسم -رحمه الله- وأخذ عنه الأسدية، وقدم بها إلى القيروان وسمعها منه خلق كثير مع الموطأ وغير ذلك من العلوم، وانتشرت إمامته.

[١٣٣] ثم ولاه زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب قضاء إفريقية سنة ثلاث ومائتين، فأقام قاضيًا عليها يقضي بين أهلها بالكتاب والسنة، حتى خرج لغزو صقلية فجاهد بها الروم وقاتلهم قتالًا عظيمًا، وكانت له بها آثار مشهورة ومقامات مذكورة، وافتتح منها مواضع كثيرة، ثم توفي -رحمه الله تعالى- من جراحات أصابته وهو محاصر لسرقوسة في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث عشرة ومائتين، ودفن بذلك الموضع.

[١٣٤] وذكر غير سليمان: أنه سأل مالكًا يومًا عن مسألة، فأجابه فيها، فزاد أسد في السؤال، فأجابه؛ فزاد أسد في السؤال، فأجابه؛ ثم زاد، فقال له مالك: حسبك يا مغربي! إن أحببت الرأي فعليك بالعراق.

عن أسد أنه قال:

لقد كان أصحاب مالك - ابن القاسم وغيره- يجعلونني أسأل مالكًا عن المسألة، فإذا سألته أجابني، فيقولون لي: فلو كان كذا وكذا؟ فأقول له، فضاق عليَّ يومًا فقال لي:

سلسلة بنت سُليسلة: إذا كان كذا وكذا، كان كذا وكذا! إن أردت هذا فعليك بالعراق.

قال: فقلت لأصحابي: تريدون أن تأخذوا العقارب بيدي؟ لا أعود إلى مثل هذا.

[١٣٥] ولما وصل أسد -رحمه الله تعالى- إلى العراق لقي أصحاب أبي حنيفة، فسمع منهم ودارسهم، فلم يفتح له ما أراد، وكان يجلس في حلقة محمد بن الحسن فلا ينفتح له شيء مما يتكلم عليه، وكان يدرس الليل والنهار ولا ينفتح له شيء.

وكان يتعاهد رقّاقًا[1] يشتري منه الرقوق فشكا إليه وقال:

---

(١) أي بائع الورق.

إني غريب طالب علم، وقد نفدت بضاعتي ولم ينفتح لي شيء من العلم، فقال له: اقرأ عليَّ وأنا أفتح لك وأبين لك أصول القوم.

قال: فكنت أقرأ عليه ويبين لي، وكنت أتعاهده حتى انكشفت لي أصول القوم وظهرت لي مذاهبهم.

فلما جلست بعد ذلك في حلقة ابن الحسن تكلمت معهم وناظرتهم، فقال محمد لأصحابه: انفتح دماغ المغربي!

[١٣٦] قال أسد: فبينما نحن مع محمد بن الحسن يومًا في الحلقة إذ أتاه رجل يتخطى الناس حتى سارَّ محمد بن الحسن، فسمعنا محمدًا يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، مصيبة ما أعظمها! مات مالك بن أنس، مات أمير المؤمنين في الحديث! قال: ثم فشا الخبر في المسجد وماج الناس حزنًا لموت مالك بن أنس، وكان بعد موت مالك إذا حَدَّث عن مالك اجتمع إليه الناس وانسدت عليه الطريق رغبة في حديث مالك، وإذا حدث عن غيره لم يجئه إلا الخواص.

[١٣٧] ذكر سليمان بن سالم عن أسد أنه قال لمحمد بن الحسن: إني غريب قليل النفقة، والسماع منك نَزْر، والطلب عندك كثير، فما حيلتي؟

فقال لي: اسمع مع العراقيين بالنهار، وقد جعلت لك الليل وحدك، فتأتي فتبيت عندي، وأُسمعك.

قال: فكنت أبيت عنده، وكنت في بيت في سقيفته -وكان يسكن العلو- فكان ينزل إليَّ، ويجعل بين يديه قدحًا فيه الماء، ثم يأخذ في القراءة، فإذا طال عليه الليل ورآني قد نعست ملأ يده ونضح به في وجهي، فأنتبه، وكان ذلك دأبي ودأبه حتى أتيت على ما أريد من السماع عليه.

[١٣٨] قال أسد رحمه الله تعالى:

وكنت يومًا جالسًا في حلقة محمد بن الحسن حتى صاح صائح: الماء للسبيل! فقمت مبادرًا فشربت من الماء ثم رجعت إلى الحلقة، فقال لي محمد بن الحسن: يا مغربي شربت ماء السبيل؟ فقلت: أصلحك الله، وأنا ابن سبيل.

قال: ثم انصرفت فلما كان عند الليل إذا أنا بإنسان يدق الباب، فخرجت إليه، فإذا خادم محمد بن الحسن فقال: مولاي يقرأ عليك السلام ويقول لك: ما علمت أنك ابن سبيل إلا في يومي، فخذ هذه النفقة فاستعن بها على حاجتك.

ثم دفع إلي صرة ثقيلة فقلت في نفسي: هذه كلها دراهم، ففرحت بها، فلما دخلت منزلي فتحتها فإذا فيها ثمانون دينارًا.

[١٣٩] وعن ابن أبي زيد الفقيه عن عبد الله بن سعيد بن الحداد عن أبيه سعيد قال:

بلغني عن محمد بن الحسن ما أعجبني: وذلك أن أسدًا نفدت نفقته، إذ كان يطلب العلم بالمشرق، ولم يبق معه ما يتحمل به في انصرافه إلى إفريقية، فأُعلم محمد بن الحسن بذلك، فأحب إدخال المنفعة عليه، فقال له: إني أذكر شأنك لولي العهد فأرجو أن يصلك بما تتحمل به إلى بلدك وتقوى به على ما أنت بسبيله، قال: فلما لقيه ذاكره أمره، فقال له: يأتي الحاجب يوم كذا وكذا فيوصله إلي.

قال: فأعلم محمد بن الحسن أسدًا بذلك، وأمره أن يمضي إليه للوعد، وقال له: اعلم أنك عندهم حيث تضع نفسك فإن أنزلت نفسك في مكان حسن أنزلوك، وإن كان غير ذلك أنزلوك فيه.

فلما كان ذلك اليوم مضى أسد فدخل على الحاجب فأجلسه، ثم دخل إلى ولي العهد، فخرج الحاجب وخادم معه، فأمره بالدخول، فدخل أسد والخادم بين يديه، حتى انتهى به إلى موضع فأمره بالجلوس فيه حتى يرجع إليه.

ومضى الخادم فأقام شيئًا ثم رجع ومعه مائدة مغطاة فجعلها بين يديه وقال له: كل.

قال أسد: ففكرت فيما بيني وبين نفسي، وقلت: أهذه مكرمة أو منقصة؟ ما أرى هذه إلا منقصة.

فقلت للخادم: هذا الذي جئت به منك أو من مولاك؟

فقال: مولاي أمرني أن آتيك به، وهو أرسلني إليك.

فقلت: إن مولاك لا يرضى بهذا: أن يكون ضيفه يأكل دونه، يا غلام هذا بر منك، وجبت

مكافأتك عليّ، قال: وكانت معي في جيبي أربعون درهمًا لم يبق معي من نفقتي سواها، فدفعتها إلى الخادم، وقلت له: ارفع مائدتك؛ فرفعها.

ثم دخل فأعلم مولاه بالذي كان مني، قال: فبلغني أنه لما حكى له ما فعلت وما قلت، قال: حر والله الذي لا إله إلا هو، ثم خرج إليّ الخادم وقال لي: ادخل، فمضيت حتى دخلت عليه، وهو على سرير ومعلمه على سرير قبالته، وسرير ثالث خالٍ ليس عليه أحد، فسلمت، فأمرني بالجلوس على السرير الخالي، فجلست.

وأقبل يسألني وأجيبه، فلما قرب انصرافي أخذ رقعة وكتبها وختمها ودفعها إليّ، وقال لي: قف بها إلى صاحب الديوان، وتعود إلينا -إن شاء الله تعالى- فلك عندنا ما تسر به.

قال: فأخذت الرقعة وخرجت وليس معي شيء ولا بقي معي من نفقتي شيء، فاحتقرت الرقعة، ولم أمض بها.

فلما كان الغد لقيت محمد بن الحسن فقال لي: ما صنعت؟ فأخبرته بالذي كان، فقال لي: قم الساعة، فوصّل الرقعة ولا تتوان فمضيتُ فدفعتها إلى صاحب الديوان، فدفع إليَّ عشرة آلاف، فأخذتها ومضيت إلى محمد بن الحسن، فأعلمته بما كان، فقال لي: لك فيما وصل إليك عون على ما أنت بصدده، وفيها ما تتحمل به إلى بلدك، وإن عدت إلى القوم كنت لهم خادمًا. قال: فتركت العود إليه.

[١٤٠] ذُكر عن عبد الخالق المتعبد أنه أتى إليه فقال له:

يا أبا عبد الله: جئتنا بالرأي وتركت الآثار وما كان عليه السلف.

قال له أسد: أما علمت يا عبد الخالق أن قول أصحاب النبي ﷺ هو رأي لهم وهو أثر لمن بعدهم، وكذلك قول التابعين هو رأي لهم وهو أثر لمن بعدهم؟ وأما ما في كتبي من قول ابن القاسم أرى، وأظن فلقد كنت أسأله عن المسألة فيجيبني، فأقول له: هذا قول مالك؟

فيقول لي: كذلك أحسب، وكذلك أرى، وكان ابن القاسم ورعًا، وكان يكره أن يهجم على الجواب وهو يشك فيه، ولقد دفع إليَّ -لما أردت الانصراف إلى إفريقية- كتابًا وقال لي: كنت أجيبك بأجوبة وربما شككت فيها أنها قول مالك، وهذا سماعي من مالك في هذا الكتاب

فخذه ليكون عندك، وقابل بما فيه وأصلح ما خالفه عليه؛ فسكت عبد الخالق.

[١٤١] وكان يقول:

ضربنا في طلب العلم آباط الإبل، واغتربنا في البلدان ولقينا العلماء، وغيرنا إنما طلب العلم خلف كانون أبيه ووراء منسج أمه، ويريدون أن يلحقوا بنا!.

[١٤٢] وسئل أسد عن الرجل يُسأل عن المسألة، وهو يعرف اختلاف الناس في مثلها، هل يفتي بالأقاويل أو يستحسن أحدها فيفتي به؟

فقال: إذا كان المفتي من أهل النظر فلا يفتي بالقولين، لأنه يدع السائل في حيرة، ولكنه يفتي بأحسن الأقاويل عنده؛ وإن كان من غير أهل التمييز فليخبر المستفتي بما رُوي عن العلماء ولا يتخير له.

[١٤٣] وكان أسد يقول:

يا معشر طلبة العلم: إنكم تنوبون للمسلمين نيابة عظيمة بتقييدكم العلم عليهم، فلكم في بيت مال المسلمين حق لذلك، وكذلك قالت العلماء: من ناب نيابة للمسلمين فله في بيت مالهم حق.

[١٤٤] وكان أسد يقول: ثلاثة لا غيبة فيهم: صاحب بدعة، وأمير غشوم، ومن ألقى جلباب الحياء وظاهر بالسوء.

وكان على فهمه وعلمه، أحد الشجعان وكانت له مقامات في الدين مشهودة.

[١٤٥] ذكر سبب ولايته القضاء وسيرته في ذلك، وولايته على الجند الخارجين إلى غزو صقلية، وبعض ما جرى له من المقامات والأخبار:

قال أحمد بن أبي سليمان:

كره علماء إفريقية غزو صقلية للعهد الذي كان لهم، لأنه لم يصح عندهم أنهم نقضوا العهد.

فلما ولى زيادة الله أسدًا على تلك الغزاة، وعزم عليه في ذلك قال له: أصلح الله الأمير، من

بعد القضاء والنظر في حلال الله -تعالى- وحرامه تعزلني وتولّيني الإمارة؟

فقال له زيادة الله: إني لم أعزلك عن القضاء بل ولَّيتك الإمارة، وهي أشرف من القضاء، وأبقيت لك اسم القضاء؛ فأنت قاضٍ أمير.

فخرج أسد على ذلك، ولم تجتمع الإمارة والقضاء لأحد ببلد إفريقية إلا لأسد وحده.

قال أبو العرب: وكان خروجه إلى صقلية في شهر ربيع الأول سنة اثنتي عشرة ومائتين، وكان معه في جيشه نحو من عشرة آلاف فارس.

[١٤٦] وذكر بعض مشايخنا أن أسدًا لما خرج على الجيش متوجهًا إلى سوسة ليركب إلى صقلية، خرج معه وجوه أهل العلم وجماعة الناس ليشيعوه، وأمر زيادة الله أن لا يبقى أحد من رجاله إلا شيعه، فركب أسد في جمع عظيم، فلما رأى جمع الناس بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، وقد صهلت الخيول وضُربت الطبول ونُشرت البنود، قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ثم قال: والله، يا معشر الناس، ما وُلِّي لي أب ولا جد ولاية قط، ولا رأى أحد من سلفي مثل هذا قط، وما رأيت ما ترون إلا بالأقلام، فأجهدوا أنفسكم وأتعبوا أبدانكم في طلب العلم وتدوينه، وثابروا عليه واصبروا على شدته، فإنكم تنالون به الدنيا والآخرة.

[١٤٧] حكى سليمان بن سالم:

أن أسدًا لما وصل إلى صقلية زحف بلاطة ملك صقلية في خلق عظيم، يقال إنه كان في مائة ألف وخمسين ألفًا، قال ابن أبي الفضل: فرأيت أسد بن الفرات وفي يده اللواء وهو يزمزم فحملوا عليه، فكانت فينا روعة شديدة، وأقبل أسد على قراءة يس، فلما فرغ منها قال للناس:

هؤلاء عجم الساحل، هؤلاء عبيدكم، لا تهابوهم! وحمل باللواء وحمل الناس معه، فهزم الله -عزّ وجلّ- بلاطة وأصحابه، فلما انصرف أسد رأيت -والله- الدم قد سال مع قناة اللواء مع ذراعه حتى صار تحت إبطه.

ومعنى قول أسد: هؤلاء عجم الساحل، يعني الذين كانوا هربوا من الساحل لما فتحت إفريقية.

وكتب زيادة الله بن الأغلب بفتح صقلية على يدي أسد بن الفرات إلى المأمون.

[١٤٨] قال سليمان بن سالم: وكان أسد وابن قادم قد اختلفا، وذلك أن أسدًا لما وصل بالناس إلى صقلية أضر بالناس الجوع حتى أكلوا لحم الخيل، فمشى الناس إلى ابن قادم، فمضى إلى أسد وقال له: ارجع بنا إلى إفريقية، فإن حياة رجل مسلم أحب إلينا من أهل الشرك كلهم.

فقال له أسد: ما كنت لأكسر غزوة على المسلمين، وفي المسلمين خير كثير، فأبى عليه الناس ذلك، فأراد حرق المراكب، فبدرت من ابن قادم كلمة، فقال: على أقلَّ من هذا قُتل عثمان بن عفان، فتناوله أسد بالسوط فضربه ولم يجرده، وإنما ضربه أسواطًا يسيرة، قدر ثلاثة أو أربعة، وتمادت عزيمته وبصيرته، فقاتل الروم قتالًا شديدًا حتى قتلهم وهزمهم واستأصلهم.

[١٤٩] وسكنها المسلمون واستوطنوها، ثم شاء الله -تعالى- بذنوب أهلها، أن أوقع بهم عدوهم، نسأل الله -تعالى- حلمه وأمانه وعافيته لمن بقي بها من المسلمين، وارتداد الكرة لهم على عدوهم، وعونه وتأييدهم على عدوهم والتوبة عليهم آمين.

- ومنهم أبو عمرو البهلول بن عمر بن صالح بن عَبِيدَة بن حبيب بن صالح التُّجِيبي، ﷺ:

من جملة أصحاب مالك من أهل إفريقية.

[١٥٠] حدث أحمد بن يحيى بن مهران عن البهلول بن عبيدة، قال:

ما رأيت أحدًا أنزعَ بآية من كتاب الله -عزّ وجلّ- من مالك بن أنس، وما رأيت أحدًا أعظم قدرًا في بلده من الليث بن سعد، وما رأيت أحدًا أحسن سمتًا من البهلول بن راشد، وما رأيت أحدًا أخشى لله تعالى من عبد الله بن فروخ.

[١٥١] وعن أبي داود العطار، صاحب سحنون، قال: سمعت البهلول بن عبيدة يقول:

كنت جالسًا عند مالك فأُتي برجل ملبَّب فقالوا لمالك: الأمير يقرأ عليك السلام ويقول لك: هذا رجل خنق رجلًا فقتله، فقال مالك: اخنقوه كما خنقه حتى يموت، قال: فمضوا به، فتغير وجه مالك وعلته صفرة وتشوَّف إلى الزقاق حتى مر رجل فسأله: ما فعلوا بالرجل؟

فقال: خنقوه حتى مات.

قال بهلول بن عبيدة: فرأيت الدم رجع إلى وجه مالك، فقال له ابن كنانة: ما الذي رابك يا أبا عبد الله؟

فقال: وما ظننتم؟ أظننتم أني ندمت في الفتوى؟

فقالوا: نعم.

فقال: لا، ولكني تغيرت خوفًا أن يبطل حكم من أحكام الله - عزّ وجلّ - فلما نفذ حكم الله في الفاعل زال عني ما كنت فيه.

[١٥٢] قال بهلول بن عبيدة:

جمعنا زيادة الله بن الأغلب وشاورنا في قاضٍ، وكنا جماعة، وكان فينا ابن الصُمادحي، قال بهلول: فلما حضرت الصلاة قلت لهم: إن قدَّمنا أحدًا منا رأى هذا - يعني السلطان - أنه خيرنا فيوليه القضاء، لكن قدموا موسى بن معاوية الصمادحي، فإنه ليس له في هذا الأمر نصيب؛ إذ هو مكفوف البصر، فقدمناه، فصلى بنا.[1]

- ومنهم أبو محمد عبد الله بن أبي حسان اليحصبي، ﵀:

سمع من مالك وابن أبي ذئب.

حدث أبو سهل فرات بن محمد العبدي قال: سمعت عبد الله بن أبي حسان يقول:

[١٥٣] أتيت مالك بن أنس، فوجدته قد ارتفع وباب داره مغلق، فضربت الباب،

---

(١) قال المحقق: نقل ابن حجر في لسان الميزان: ٦٨/٢، عن المالكي نصًا مهمًا يتعلق بـ بهلول بن عبيدة رأينا نقله في الهامش حتى تستكمل الترجمة جميع عناصرها: قال أبو بكر المالكي في علماء إفريقية: اختلف الناس فيه فبعضهم ضعفه ووثقه وكان صدوقًا في حديثه، وكانت وفاته سنة ٢٣٣ -وقيل سنة أربع- وله ثمانون سنة، وكانوا اتهموه بأنه يقول بخلق القرآن، ويقال إنه كان ينكر ذلك.

فخرجت إليَّ جارية صفراء، فقالت لي:

أمن أهل المسائل أنت أم من أهل الحوائج؟

فقلت: رجل غريب أتيتُ إلى أبي عبد الله مسلمًا عليه.

فقالت لي: ليس هذا وقتك، ادخل إلى السقيفة، فدخلت.

فلما كان وقت خروجه فتحت الباب، فإذا مجلس كبير مفروش بالنمارق والمتكآت من أول المجلس إلى آخره، وفي صدر المجلس نمرقة عظيمة ومتكأة على اليمين وأخرى على الشمال إلى الحائط، فقلت في نفسي: هذا مجلس الشيخ أبي عبد الله.

ثم دخلت فخرجت وفي حضنها مراوح، فوضعت على كل متكأة مروحة، ثم دخل مشايخ فقعدوا، ثم خرج مالك يتهادى بين تلك الجارية الصفراء وفتى، ورجلاه تخطان في الأرض من الكبر، وكأني أنظر إلى جماله وبهائه وإلى شعر رأسه وقد تعقف جعودةً، حتى أتيا به إلى ذلك المجلس، فجلس وسوَّى عليه ثيابه.

[١٥٤] فلما استوى جالسًا سلَّم فعم بسلامه أهل المجلس فردوا عليه السلام، فقمت فدفعت إليه كتاب ابن غانم، فقال: عاد صاحبك على القضاء؟

فقلت: نعم.

فقال: ما ذاك بخير له، ثم قرأ الكتاب، فالتفت إلى القوم فقال لهم: هذا كتاب ابن غانم أتاني في هذا الرجل، يخبرني عن حاله في بلده وقدره، وقد قال رسول الله ﷺ: إذا أتاكم عميد قوم فأكرموه[١]، قال: فقمت من بين يديه، فأوسع لي رجل، فجلست، فذكروا العلم فقال مالك: لا يؤخذ هذا العلم إلا عن الموثوق بهم في دينهم، الحسن مخبرهم.

[١٥٥] قال: ثم يأتي الرجل فيسأله عن المسألة، وأنا قاعد، فربما قال: العلم أوسع من ذلك، العلم أوسع من ذلك، والله أعلم.

فسُئل عن ثنتين وعشرين مسألة، وأنا أعدّها، فما أجاب إلا عن ثنتين منها، وقال مع ذلك:

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ، ووجدت حديثًا بلفظ: «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه»، وهو ضعيف، والله أعلم.

لا حول ولا قوة إلا بالله.

قال: ثم اختلفت إليه، فلم أزل عنده مكرمًا، رحمة الله -تعالى- عليه.

[١٥٦] قال عيسى بن مسكين:

وكان ابن أبي حسان يعطي لرجل كل يوم ثلاثة دراهم ليأخذ له مجلسًا يجلس فيه في مجلس مالك بالقرب منه، فكان الرجل يفعل له ذلك، فكان إذا جاء ابن أبي حسان قام ذلك الرجل وجلس ابن أبي حسان في موضعه.

[١٥٧] وقال غير عيسى:

كان ابن أبي حسان يروي عن مالك غرائب لا تكاد توجد عند غيره: روى عنه أنه سمعه يقول:

إن أهل الذهن والذكاء والعقول من أهل الأمصار ثلاثة: المدينة، ثم الكوفة، ثم القيروان[1].

قال ابن وهب: ما رأيت مالكًا أميل منه إلى أحد كميله إلى ابن أبي حسان.

وكان مفوهًا، حاضر الحجة، قويًا على المناظرة، ذاباً عن السنة، قليل الهيبة للملوك في حق يقوله.

سليمان بن خلاد، قال: قلت لابن أبي حسان:

[١٥٨] أرأيت هذا الذي يقول الناس في أبي بكر وعليّ؟ -يريد التفضيل بينهما- فرفع يده فضربني الصدر ضربة واحدة أوجعتني، ثم قال: ليس هذا دين قريش ولا دين العرب، هذا دين أهل «قُمْ»، قرية من قرى خراسان، ثم قال: والله ما يخفى علينا نحن من يستحق الولاية بعد والينا، ولا من يستحق القضاء بعد قاضينا، فكيف يخفى على أصحاب محمد ﷺ من يستحق الأمر بعد نبيهم؟.

[١٥٩] وكان، رحمه الله تعالى، جوادًا شريفًا: بلغني أن رجلا من أصحابه أتاه يومًا على

---

(١) لا يوافَق الإمام مالك رحمه الله تعالى - على عظمته ومكانته - على هذا القول بهذا الإطلاق.

أثر نوء[١] عظيم كان بالقيروان، فهدم كثيرًا من دورها، فألفاه جالسًا في مسجده فسلم عليه ثم أعلمه بما انهدم في داره، وشاوره في بنيانه ومن يرى أن يبنيه، فأمر بعض غلمانه فأتاه بثلاثين دينارًا فدفعها إليه وقال: استعن بهذه على بنائك فلما مضى قال له بعض ولده: أتاك يشاورك في بنائه، دفعتَ له ثلاثين دينارًا؟

فقال له: يا بني، لست ببناء ولا صاحب مرمة، وإنما تعرض لمشورتنا لمعروفنا[٢].

***

(١) أي مطر.

(٢) قال المحقق: نلاحظ أن المالكي لم يؤرخ وفاته فضلًا عن مولده، وقد رأينا إتمامًا للفائدة نقل ذلك عن المدارك: ٣١٥/٣، وتوفي ابن أبي حسان سنة سبع، وقيل ست، وعشرين ومائتين، قال ابن سحنون، مات وهو ابن سبع وثمانين سنة، مولده سنة أربعين ومائة.

ذكر من كان في هذه الطبقة من العلماء والمحدثين ممن لم يلقَ مالكًا ولا روى عنه

- **ومنهم أبو عبد الله محمد بن علي الرُّعيني ﷺ**:

[١٦٠] كان -رحمه الله- حكيمًا: ذُكر عنه أن رجلًا استشاره في امرأة يتزوجها، فقال له:

لا تتزوج امرأة فيها من هذه الخلال الثماني: لا تتزوجها منّانة، ولا بنّانة، ولا كنّانة، ولا حنّانة، ولا حدّاقة، ولا خفّاقة، ولا أنّانة، ولا ذات دايات.

فأما المنانة فهي التي تمن بشيء كان منها إليك.

وأما البَنّانة فهي التي تُبنِّن ولد غيرك عندك.

وأما الكَنّانة فهي التي تقول: كنت وكنت قبل أن أجيء إليك.

وأما الحنانة فهي التي تحن لزوج كان لها قبلك.

وأما الحدّاقة فهي التي تنظر بعينها ثم تقول: فلانة كساها زوجها، وفلانة حلاّها زوجها وصنع بها، فهي تجبره.

وأما الخفاقة فهي التي تصبح غدوة جائعة فتقول: أبغي رءوسًا، أبغي فتوتًا، أبغي جشيشًا.

وأما الأنانة فهي التي تصبح تئن فتقول: جنبي! فخذي! رأسي! لتنظر هل يحبها زوجها أم لا.

وأما ذات دايات فهي التي كلّ يوم عندها امرأة أو عجوز فتقول: هذه دايتي، هذه خالتي، هذه عمتي.

ذكر من كان في هذه الطبقة من المتعبدين والزاهدين ﷺ

- منهم أبو يزيد رباح بن يزيد اللخمي، ﷺ:

قال أبو العرب وغيره: كان رباح رجلًا صالحًا مستجابًا، مشتهرًا بالفضل والزهد، يسلم ذلك إليه جميع أهل عصره، وكانوا يتبركون بدعائه ويتعظون برؤيته.

وكان يضرب به المثل في عبادته، رقيق القلب غزير الدمعة، كثير الإشفاق والخشية والتواضع والرحمة.

توفي سنة اثنتين وسبعين ومائة وهو ابن ثمانٍ وثلاثين سنة.

ذكر فضله ومناقبه وأوصافه وأحواله وكراماته وإجاباته ﷺ

فمن ذلك ما حدث أبو عبد الرحمن القصير قال:

رأيت أربعة ما رأيت في الدنيا مثلهم: رأيت ابن عون بالبصرة فما رأيت مثله، ورأيت رباح ابن يزيد بإفريقية فما رأيت مثله، ورأيت الأوزاعي بالشام فما رأيت مثله.

[١٦١] ذكر عنه أنه قال:

رُضت نفسي على المآثم حولًا، فبعد حول ضبطتها، ورضت لساني على ترك ما لا يعنيني فبعد خمس عشرة سنة ضبطته.

قال أبو عثمان بن الحداد:

إنه ليغلب على ظني أن هذه الرياضات إنما كانت بعد أن بلغ الحلم، لأنه إنما مات ابن ثمانٍ وثلاثين سنة، وكان قد حمل نفسه على الاجتهاد حتى بلغني أنه قال: لقد كنت أحب الصحة فلما ضعفت عن العمل أحببت المرض.

[١٦٢] أخبر عبد الخالق المتعبد أن رباح بن يزيد ذكر ما أنعم الله -عز وجل- عليه في دينه يومًا من الأيام، وكان في ذلك الوقت البهلول، فقال رباح للبهلول:

يا أبا عمرو: إن لي لاثنتي عشرة سنة - أحمد الله تعالى إليك فيها كثيرًا وأشكره- ما بغيت فيها شيئًا سوى الله عز وجل، وإن لي لاثنتي عشرة سنة قد أُعطيت فيها من حلاوة القرآن ما لو شئت أن أتهجد بالآية الواحدة ليالي لفعلت، وإن لي لاثنتي عشرة سنة أخاف فيها الغِنى كما يخاف الغَني الفقر.

فكان البهلول يقول: أما الخلتان اللتان ذكرهما أولًا: أنه لا يخشى شيئًا سوى الله عز وجل، وما ذكر من أنه أُعطي من حلاوة القرآن ما ذكر، فقد كنت شهدت ذلك منه غير ما مرة، وأما ما ذكره من خوفه الغِنى فكان في نفسي منها شيء، لأني قلت: الغِنى يُخاف؟ هذه درجة عظيمة، أعظم.

[١٦٣] ثم إنه بلغني أنه سأله رجل من أملياء[1] أهل القيروان أن يزوجه ابنته، وكان لها مال عظيم، فامتنع من ذلك وقال لي: إنما أردت وأصحابك أن تأتوني فتنظروا إلى فضول الدنيا عندي وفي بيتي، وملك ذلك لغيري، ولا تنبسط يدي فيه، فأضعه في المواضع التي هي أفضل، قم فلا حاجة لي في شيء من ذلك كله.

قال: فقلت: صدق! من خاف شيئًا تجنبه، وهو صادق فيما يقول.

[١٦٤] قال أبو عثمان سعيد بن محمد بن الحداد:

بلغني عن البهلول بن راشد أنه كان يومًا جالسًا وعنده رباح بن يزيد إذ أقبل بقية أخو البهلول من البادية، فجعل يلهج بذكر البادية، وبهلول يتقلى اغتمامًا برباح، لأنه يعلم أنه لا يحتمل ذكر الدنيا، فلما أكثر من ذلك، نهض رباح، وجعل يقول لبهلول: سقطت من عيني، تُذكر الدنيا في مجلسك ولا تنكر ولا تغيِّر؟

فقال له بهلول: ما أبالي - إذا لم أسقط من عين الله عز وجل- من عين مَن سقطت.

فخر رباح على رأس البهلول يقبله وجعل يقول: نعم يا حبيبي يا بهلول، فلا تبالي مِن عين

---

(١) جمع مليء، وهو الغني.

مَن سقطت إذا لم تسقط من عين الله عزّ وجلّ.

[١٦٥] وقال بعضهم:

حضرت مع رباح جنازة، والناس في ذلك الوقت في أزمة شديدة وضيق من العيش، فنظرت إلى رباح ووجهه يتهلل يكاد أن يضحك من البشر، فقلت في نفسي: الناس فيما هم فيه من الكرب وهو مستبشر؟ ثم إن الله -عز وجل- كشف ذلك عن المسلمين، وصاروا إلى رخاء من السعر، ورغد من العيش، واجتمعت معه في جنازة أخرى فنظرت إليه كئيبًا حزينًا يبدو الحزن منه، يكاد من شدة الحزن أن يبكي، فقلت في نفسي: أين هذه الحالة من الحالة التي كنا فيها من الشدة والضيق؟ ثم قلت: والله لأسألنه!

فلصقت به وقلت له:

يا أبا يزيد: رأيت منك حالتين، فلم أجد لنفسي بدًّا أن أسألك عنهما.

فقال لي: وما هما؟

فقلت له جميع ما رأيته منه.

فقال: أوَ فطنت لي؟

فقلت له: وكل أمرك قد راعيت.

فقال لي: ويحك! كنا في اليوم الأول ونحن راغبون داعون لله عز وجل، وعيالنا وصبياننا كذلك، وأنت ترى غفلتنا اليوم وطول سهونا وقلّة تضرعنا، فأي الحالتين خير؟

قال: فقلت في نفسي: أنت في شيء والناس في غيره.

[١٦٦] وذُكر أن رجلًا من الأندلسيين أتى إلى رباح فقال له:

يا أبا يزيد: إن سعيد بن لبيد أخذ مني جارية لي، فأخذ رباح عصاه وانطلق معه إلى دار سعيد بن لبيد، فوجد جماعة من الناس قد حفوا ببابه ينتظرونه، فألقى عصاه بينهم وجلس حتى خرج سعيد راكبًا من داره، فلما رآه من كان على بابه من تلك الجماعة نهضوا على أقدامهم، وثبت رباح جالسًا فقصد إليه سعيد، ورباح جالس في مكانه، فأقبل سعيد يقول لرباح في الذين

قاموا له: يا أبا يزيد، هؤلاء كلهم أبناء دنيا.

فقال له رباح: قال رسول الله ﷺ: **«من أحب أن يتمثل له الرجال قيامًا على أقدامهم فليتبوأ مقعده من النار»**(١).

فقال له سعيد: يا أبا يزيد: هل من حاجة؟

فقال له رباح: اردد على هذا الأندلسي جاريته.

فصاح سعيد: جاريةَ الأندلسي! فأُخرجت، فدفعها إلى مولاها.

[١٦٧] وكان - رحمه الله - مستجاب الدعوة:

قال سعيد بن الحداد: كان لرباح بن يزيد صديق كانت له بنت مقعدة سأله أن يزوجها له ففعل، فلما دخل عليها أخذ بيدها، وقال لها: قومي بإذن الله، فقامت صحيحة تمشي، فمال إلى موضع في البيت فصلى فيه حتى أصبح، وخرج وخلى سبيلها، وإنما كان به إلى النكاح الدعوة لها.

[١٦٨] أبو بكر محمد بن اللباد أنه قال: أُخبرت أن رباح بن يزيد كان عنده أُجَراء حصادون، فعمل لهم الغداء وكسر لهم الخبز، ثم قال: لو كان عندنا لبن عملناه لهم! وكانت عنده قربة مملوءة بالماء، فصب منها لبنًا على الخبز، وقدم ذلك إليهم، ثم قام إلى القربة ليتوضأ منها للصلاة، فصب منها ماء فتوضأ للصلاة.

قال بهلول: قلت لرباح:

يا أبا يزيد، إن الناس قد أكثروا عليك في قصة اللبن.

فقال: ما تعجُبك من هذا؟ فوالله إن لي اثنتي عشرة سنة ما خفت أحدًا إلا الله عز وجل.

قال بهلول: فتصاغرت إليّ نفسي، وقلت: يا بهلول: أنت تخاف الناس، وهذا لا يخاف أحدًا إلا الله!.

[١٦٩] قال البهلول: ثم قال رباح: لقد كنت بمكة فرأيت رجلًا إذا كثر الطواف صلى

---

(١) حديث صحيح أخرجه الإمام أحمد في مسنده وآخرون.

وإذا قل الطواف طاف، فاقتديت به واتبعته، فمال ليلة إلى زمزم، فأدلى دلوه، فخرج عسل حلو طيب، فأكلنا منه، ثم دلى دلوه، فخرج لنا مملوءًا لبنًا، فشرب وسقاني، ثم قال: يا مغربي: بحق الذي أحببتني له لا تذكر ذلك لأحد ما دمت بمكة.

ويُذكر مثل ذلك عن سفيان الثوري.

[١٧٠] ورأيت له -رحمه الله تعالى- رسالة كتب بها إلى البهلول بن راشد:

السلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإني أوصيك ونفسي بتقوى الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فألزم على نفسك كثرة ذكره، واستعن بالله - عز وجل - على أداء فرائضه، واستغفره لما هو أعلم به، فإنه عز وجل يقول: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء:١١٠].

[١٧١] ثم أحدِثْ احتراسًا من الجليس، إلا من كان همه يعلو فرحه، وفكره ينفع جليسه، يستعمله إلفه، فمن لم يكن منهم كذلك، فأظهر له حسن الخلق، وتسلل من إخائه في رفق.

[١٧٢] واستعن بكتاب الله -عز وجل- وكثرة ذكره وتلاوته، فإنه الشفاء والرحمة للمؤمنين.

[١٧٣] وقد نزل بنا ما ترى من سفك الدماء وذهاب الأموال، وقد علمت ما عاينت من كثرة العبر بتسليط إلهك -عز وجل- يوم سطا أبو حاتم الأعور(١)، وإنما كان ذلك نقمة بالذنوب، فبلغ من الفساد ما الله أعلم به وأحصى له، من حصار وضيق أسعار وظهور المنكر، وقد قال إلهنا الكبير المتعال عز وجل:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾

[الأنعام:٤٢].

---

(١) قال المحقق: يشير إلى محاصرة القيروان من طرف الإباضية بقيادة أبي حاتم يعقوب بن لبيب الهواري.

[١٧٤] فهل من رجوع ظاهر أو باطن؟ فما ينتظر مَن كان في مثل ما نحن فيه إلا نزول النقم، إلا أن يعفو ربنا الحليم. ولقد علمتَ ما حلَّ بمغمداس[1] وغيرها، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ثم إنا لله وإنا إليه راجعون، وقد قال إلهنا الكبير عز وجل:

﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾

[الإسراء: ١٦]، وإني أرى لك أن تُحدث حذرًا واحتراسًا واستكانة وخضوعًا وتذللًا وخشوعًا، ترجو بذلك رضى إلهك والنجاة من نزول عقابه، وما ظهر من الفساد خوفًا من سخط الجبار، ولا تكن من الغافلين.

[١٧٥] ولكن أكثر من مجالستك من أهمه أمر نفسه وصلاح دينه، فإن لم تجد أولئك فعليك بالخلوات واستعن بالله -عزّ وجلّ- ولا تزال تذكرنا، فإني قد نشبت في موضع لا يخلص منه إلا الله عز وجل.

والوحدة لا تضر من خاف الله – تعالى - بالغيب، والأنس لا ينفع مَن كان من دينه في شك وريب، قال الله عز وجل:

﴿ فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ﴾ [الكهف: ٦٥].

فمن رجوت من أهل زمانك أن يكون بقاؤه رحمة لأهل مكانه فأسرع إليه وانتفع بلقائه، فإنه قد أدرك أمرًا عظيمًا.

[١٧٦] فعليك يا أخي بكثرة الحزن والتفكّر والاعتبار بالذكر وملازمة الدار، ولا يعجبك كثرة الحديث، فإنه ليس نافع الأمور إلا حديثًا حرك القلوب لما فيه نجاتها وعمارتها بما يرضي ربها عز وجل.

[١٧٧] وقد أصبح الناس يسفك بعضهم دماء بعض، ويأخذ بعضهم مال بعض؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون، وقال الله عز وجل:

---

(١) قال المحقق: يشير إلى واقعة المغمداس، التي قضى فيها أبو حاتم الإباضي الآنف الذكر على نجدة كبيرة وجهتها الخلافة العباسية في بغداد لفك الحصار عن مدينة القيروان وحاميتها المحاصرة بها. ومغمداس موضع بأرض سرت، ينظر عنه: مسالك البكري ص٧ ومعجم البلدان الليبية ص ٣٢٣.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [النساء: ٢٩، ٣٠]، فكيف تطيب نفس مؤمن أن ترى سرورًا وهو يرى سخط ربه ظاهرًا؟ ما سكنت القلوب إلى الفساد إلا لما خالط الأبدان من العيوب.

[١٧٨] يا أخي: لا يغرنك رضى الناس عنك فإنهم لا يعلمون ما يعلم الله، فاستغث بالله أيام رجائك، وليعلم منك الشفقة منه والثقة به، ولا تزال تكتب إلينا وتذكرنا بنفسك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

[١٧٩] وكتب إلى عبد الله بن فروخ:

بسم الله الرحمن الرحيم:

من رباح بن يزيد إلى عبد الله بن فروخ سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، الذي أسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة، وإياه نعبد ونستعين، أسأله شكرًا لأنعمه وعملًا يرضاه.

جاءني كتابك فقرأته وفهمت الذي ذكرت فيه، آجرك الله فيما دللت عليه من خير، فإن الله عز وجل يقول:

﴿ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ [النساء: ١١٤].

جعلنا الله -تعالى- وإياك ممن استوجب ذلك الأجر العظيم بيسير من العمل، وتغمد منا ومنك ما لا يغفره إلا هو، إنه لا يغفر الذنوب إلا هو وحده لا شريك له، أوصيك بتقوى الله الذي لا يشغله شيء عن شيء، الذي ابتدأ خلق ما نرى على غير مثال كان قبل ذلك.

[١٨٠] فإنك في زمان قد ماتت فيه قلوب خلق كثير وهم لا يشعرون، فاتخذ أخًا مصافيًا في أموره ومداخله ومخارجه، فإذا وجدت ما تحب فأوجب له ما يجب من الأخوة

في الله -عز وجل- وإلا انقبِضْ في رفق ونصيحة، فإن كثيرًا من أهل زمانك يحبون رضى الأشرار ورضى الأخيار... وحسن الثناء على الأشرار، حتى يخيل إلى مَن يسمعه أن القطْع إليه برأيه وعمله وهواه.

فأما الأشرار فيثني عليهم بالشرف والفضل لِغَنْم ما في أيديهم مما لو كانت الكلاب تحاسَب ثم عرفته لم تطعمه، ولم تدن منه، إلا أن يشاء الله ربنا، وسع ربنا كل شيء علمًا.

[١٨١] وانظر إلى من يسكن إليه عقلك وتعرف البركة في مجالسته، وإن قَلّ أولئك وحُقّ لهم القلة لكرامتهم على الله - عز وجل- أعجل خروجهم من الدنيا إلى دار كرامتهم لأنه لا يبقى في آخر الزمان إلا الذين هم الأشرار كما قال عليه السلام: حثالة كحثالة التمر[1]، فارض بالوحشة، واسأل الله -عز وجل- أن يسلمك يومًا بيوم حتى يُلحقك بمن لا غنى بك عن صحبته ومرافقته، وما التوفيق إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

[١٨٢] فقد أدركتَ زمانًا أُميتت فيه السنة وأُظهرت فيه البدعة، وعَزّ فيه أشرار كثير من هذه الأمة، فإنا لله وإنا إليه راجعون مما تلقى من أهل زمانك، كأن الذي خُوِّفوه لا يقع بهم، أو كأن الذي حل بغيرهم لا يرونه، وقد قال الله عز وجل:

﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٣]، وعُهِدتْ بلادنا بالحصار والقتل والفساد.

وقال الله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ٤٥-٤٧].

[١٨٣] أسأل الله العظيم الرؤوف الرحيم أن يُلحقنا وإياك بالصالحين، لا تزال تصلنا بكتاب فيه بعض ما ينفع الله -عز وجل- به من الحِكَم التي ليس يعدلها كثير من

---

(١) جزء من حديث صحيح أخرجه الإمام أحمد في مسنده.

عَرَض الدنيا، فإن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: ما من هدية يهديها المرء إلى أخيه خير له من كلمة حكمة ينفعه الله -عز وجل- بها في دينه، وقال الله تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

[١٨٤] فاغتنم بقية عمرك وأحسن أدب جلسائك، فمَن رأيتَ الأدب ينفعه فتفقّد مجالسته، ومَن رأيته منهم يتكلم بلسانه وهواه في الغيبة -يراها أفضل رغبته- فعاوده رجاء رجعته، فلعله ينتفع بالحكمة، فإن لم تزجره الموعظة فدع إخاءه ولا تستوحش إلى مجالسته، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

[١٨٥] قال محمد بن الأشج: أخبرني أبي قال:

اعتل رباح بن يزيد عند أخ من إخوانه، فلما بلغ يزيد بن حاتم أمير إفريقية علته واعد سعيد بن لبيد عامله على أنهما يمشيان إليه بعد المغرب رجّالة، فلما كان بعد المغرب أتى سعيد ابن لبيد قبل أن يأتي يزيد بن حاتم، فخرج إليه صاحب الدار - وكان عند رباح ذلك الوقت جماعة يعودونه- فلما رآه دخل إلى رباح فقال:

يا أبا يزيد، هذا سعيد بن لبيد قد أتى عائدًا.

فقال له رباح: لا تأذن له ولا تدخله عليَّ.

فقال صاحب الدار في نفسه: رباح لا يبالي بسعيد ولا يخافه، وأنا أبالي بسعيد وأخافه، والدار داري! فخرج إليه وقال: ادخل أصلحك الله! ثم سبقه إلى رباح، فقال: هو ذا قد دخل، فحول وجهه نحو الحائط قبل دخوله لئلا يخاطبه، فلما أن دخل سعيد قال له: كيف تجدك يا أبا يزيد؟ كيف أنت؟ ونحو ذلك من الكلام، فما رد عليه رباح حرفًا، ولا أجابه بشيء.

فلما أن رأى ذلك سعيد قال: أحسب أن أبا يزيد نائم!

فقال له صاحب الدار: أحسب ذلك، أصلحك الله.

فحول رباح وجهه إلى صاحب الدار وقال له: ويحك! تكذب وأنت تخاطبني الساعة وتقول إني نائم؟ أما إني لو علمت أنك تكذب ما أويت لك إلى سقف! قال: فخجل سعيد بن لبيد وخرج من عنده واجدًا لما نزل به، فلما صار إلى رأس الدرب لقي يزيد بن حاتم الأمير وقد

أتى يعود رباحًا، فقال له سعيد:

انصرف، أصلح الله الأمير! فقال له: لمَ؟

فأخبره بما نزل به، وقال له: إنما نزل بي هذا من رباح لكوني صحبتك، فتوقف يزيد ساعة مفكرًا ثم قال له: قد أتيتُ، فما كنت لأنصرف حتى أشهد عيادته.

فقال له: وكيف تعمل؟

قال: سوف ألطف له وأحتال.

قال: فمضى يزيد حتى أتى الدار التي فيها رباح، فخرج إليه صاحب الدار فلما رآه دخل إلى رباح فقال: هذا الأمير يزيد بن حاتم قد أتى عائدًا وقد أذنت له بالدخول، ولم أقدر على غير ذلك.

فأعاد رباح وجهه إلى الحائط كما فعل مع سعيد[1]، والقوم جلوس بحالهم عند رباح لم يبرحوا، فلما دخل يزيد سلم عليهم ثم قال لهم: كيف أمسى أبو يزيد العشية؟ كيف رأيتموه؟ منّ الله عليه بالعافية وصرف عنه المحذور، وكان أولئك العُوَّاد يجيبونه في كلامه كله في مسألته وفي دعائه، فخرج عنه الأمير يزيد بن حاتم.

ومات رباح من تلك العلة، فبلغ يزيد بن حاتم وفاته، فأتى لحضور جنازته، فلما صلى الظهر أقبل الناس والأمير راكب ومعه أصحابه في خلق عظيم، فوقف ينتظر الناس ليخرجوا به، فازدحم الناس على نعشه من صلاة الظهر إلى صلاة العصر، فلما رأى ذلك يزيد قال: معاشر الناس، إن كنتم مزدحمين فازدحموا على عمله ولا تزدحموا على جسمه، وأمر الشُّرَط بحمل النعش، فأخذه الشُّرط فحملوه وأزالوا الناس عنه، وحملوه إلى باب سلم، فصُلي عليه ودفن، رحمه الله تعالى.

- ومنهم أبو علي شقران بن علي الفرضي، ﷺ:

قال أبو العرب، رحمه الله تعالى:

---

(١) إنما فعل ذلك رباح مع الأمير وواليه من قبل لأنه على مذهب من يكره لقاء السلطان، وقد كان هذا مذهب جماعات من السلف والخلف.

كان أبو عليّ رجلًا صالحًا ضرير البدن والبصر، وكان يقال إنه مستجاب، وكان مؤاخيًا للبهلول، وكان عالمًا بالفرائض، وله فيها كتاب لم نجد عند علمائنا عن شقران غيره.

وذكر غير أبي العرب أنه نشأ على طهارة مع كثرة صلاة وصيام وكثرة حزن وخشية، رقيق القلب غزير الدمعة، ومن صغره كان ينطق بالحكمة، ويرد الناس إلى عبادة ربهم بالموعظة الحسنة، حتى انتفع به جماعة من المريدين منهم ذو النون الإخْميمي[١] وغيره.

[١٨٦] وحدث أبو عثمان سعيد بن عثمان بن عباس الخياط، قال: سمعت ذا النون بن إبراهيم الإخميميّ يقول: وُصف لي رجل بالمغرب[٢]، وذُكر لي من حكمته وكلامه ما حملني على أن ألقاه، فرحلت إليه إلى المغرب فأقمت على بابه أربعين يومًا على أن يخرج من منزله إلى المسجد، فكان يخرج في وقت كل صلاة، ويرجع كالواله، لا يكلمني ولا يكلم أحدًا، قال: فضاق لذلك صدري، فقلت: يا هذا: إني مقيم ها هنا منذ أربعين صباحًا لا أراك تكلمني.

فقال لي: يا هذا: لساني سبع، فإن أنا أطلقته أكلني.

فقلت: رحمك الله، عظني بموعظة أحفظها عنك.

قال: وتفعل؟

قلت: نعم، إن شاء الله تعالى.

[١٨٧] فقال: لا تحب الدنيا، وعُدَّ الفقر غنى، والبلاء من الله - عز وجل - نعمة، والمنع من الله عطاء، والوحدة مع الله أنسًا، والذل عزًّا، والمباهاة خطًّا، والإياس غفلة، والطاعة حرفة، والتوكل معاشًا، والله - عز وجل - لكل شيء عُدّة.

قال: ثم مكثت بعد ذلك شهرًا لا يكلمني، فقلت له: رحمك الله، إني أريد الرجوع إلى بلدي، فإن رأيت أن تزيدني في الموعظة.

فقال لي: وما كفاك ما سمعت؟

---

(١) هو شقران المترجم له.

(٢) وهو العابد المصري المشهور.

قلت: نعم.

[١٨٨] فقال لي: يا هذا: اعلم أن الزاهد في الدنيا قوته في الدنيا ما وجد، ومسكنه حيث أدرك، ولباسه ما يستر، والخلوة مجلسه، والقرآن حديثه، والله العزيز الجبار أنيسه، والذكر رفيقه، والزهد قرينه، والصمت جُنَّته، والخوف مَحَجَّته، والشوق مطيته، والنصيحة نُهْمَتُه، والاعتبار فكرته، والصبر وِساده، والتراب فراشه، والصديقون إخوانه، والحكمة كلامه، والعقل دليله، والحلم خليله، والتوكل كَسْبُه، والجوع إدامه، والله عونه.

قال: فقلت له: يرحمك الله -تعالى- فمتى يتبين العبد الزيادة في هذا المكان؟

قال: بالمحاسبة للنفس والمناقشة لها، حسبك الآن، حسبك!

[١٨٩] وقال أيضًا: قال أستاذي شقران: يا ذا النون: من توكل استغنى، ومن لم يتقِ تعب، ومن شكر كوفي، ومن رضي صوفي، والنظر إلى الظّلمة آفة التحقيق، والهجر لهم أول الطريق.

[١٩٠] وحدث أبو بكر أحمد بن محمد بن يحيى القرشي المتعبد الصقليّ، قال: حدثني أبو عبد الله محمد بن خراسان، قال:

كان شقران بن عليّ من أجمل الناس، فهويته امرأة، فذكرت شأنها لعجوز فقالت لها: أنا أجمع بينكما، فمر شقران يومًا بالموضع، فقامت إليه العجوز فقالت له:

يا ولدي: لي ولد قد أحرقت قلبي غيبته، وقد جاءني كتابه، فأحب منك أن تقرأه لي، فأجابها إلى ذلك.

فقالت له: يا سيدي: له أخت بها من الوَجْد عليه مثل ما بي، فإن رأيت أن تلصق إلى الباب فتسمع أخته كتابه!

فقال: نعم، فأتاها إلى الباب ففتحته ودخلت وقالت له: يا سيدي، إنها لا تخرج وهي وراء الباب الوسطاني، فإن رأيت أن تتقدم إلى الباب الأوسط وتقرأه لها، فإن الله -تعالى- يكمل أجرك.

فتقدم شقران إلى الباب، فبادرت العجوز وغلقت الباب البراني، وفتحت الجارية الباب الأوسط، وضربت بيدها في أطواق شقران وقالت له: قد وحلتَ! وراودته عن نفسه، فلما رأى أن البلاء قد نزل به أراد ملاطفتها ليتخلص منها، فقال لها: ولا بد من ذلك؟

فقالت: لا بد من ذلك!

فقال لها: أعطيني ماء أتوضأ به فأعطته ماء فتوضأ وضوءه للصلاة، ثم قال: اللّهم إنك قد خلقتني كما شئت، وقد خفت الفتنة على نفسي، وأسألك يا ربي أن تغير خلقتي وتصرف شرها عني، فخرج وقد تغير وجهه وظهر به الجذام، فلما رأت ذلك منه دفعته في صدره وأخرجته من الدار، ووقاه الله شرها، فكان ذلك بيديه ورجليه حتى مات -رحمه الله تعالى ورضي عنه- فإنه اختار بلاء الدنيا على بلاء الآخرة.

[١٩١] ومما يشبه هذه الحكاية ما حدث به مالك بن أنس، رضي الله تعالى عنه، قال:

كان يونس بن يوسف من العُبّاد، وإنه راح يومًا المسجد فلقيته امرأة فوقع في نفسه منها شيء، فقال: اللّهم إنك كنت جعلت لي بصري نعمة، وقد خشيت أن يكون علي نقمة، فاقبضه إليك، قال: فعمي، فكان يروح إلى المسجد يقوده ابن أخ له، فإذا استقبل به الأسطوانة اشتغل الصبي مع الصبيان، فإذا عرضت له حاجة دعاه فأقبل إليه، فبينا هو ذات يوم ضحوة في المسجد إذ أحس في بطنه شيئًا فحصب الصبي فشُغل عنه باللعب مع الصبيان ولم يعلم به، فقال:

اللّهم إنك جعلت لي بصري نعمة، فسألتك أن تقبضه إليك فقبضته، اللّهم وقد خشيت الفضيحة على نفسي فاردده إلي! قال: فانصرف إلى منزله وهو صحيح البصر.

قال مالك: فرأيته أعمى ورأيته بصيرًا.

[١٩٢] حدث عبد الرحيم صاحب ابن فروخ، قال:

كنا عند البهلول حتى أتاه رجل معه ابن له صغير قد أصابه جدري وهو لا يبصر، فقال: ادعُ الله تعالى لولدي أن يرد الله على هذا الصبي بصره، قال: فقام البهلول والصبي وأبو الصبي معنا حتى دخلنا على شقران بن علي، فسلمنا عليه، فقال له البهلول:

إن أخانا هذا ليس له غير ابنه الذي معه، وقد ابتُلي في بصره، فادعُ الله تعالى أن يرد إليه بصره.

فقال له شقران: ادعُ يا أبا عمرو ونؤمن نحن.

قال: فقال البهلول: بل أنت يا أبا علي فادع الله ونحن نؤمن، فاستقبل شقران القبلة وهو على سريره، فحمد الله عز وجل وصلى على نبيه ﷺ ثم قال: اللّٰهم إن أخانا هذا قد سألنا ما علمت، فنسألك أن ترد إلى ولده بصره.

فالتفت الصبي إلى أبيه وقال: يا أبت: ما هذا؟ فلما سمعه البهلول أخذ بيد الصبي والرجل وقام فخرج، فطرح شقران بنفسه على وجهه، فرددنا عليه الباب وخرجنا بالصبي بصيرًا.

[١٩٣] أخبر حمدون بن العسال، قال:

قحط الناس عندنا بالقيروان، فجاء قوم إلى شقران وأنا عنده جالس فقالوا:

يا أبا عليّ: ادعُ الله يسقنا، فقد ترى ما الناس فيه من الجهد والغلاء، فشد إزاره على وسطه، ورفع يديه بالدعاء والتضرع إلى الله عز وجل، وجعل يقول في دعائه:

عزيمة مني عليك، اسقنا الساعة الساعة!

قال: فأرعدت السماء وأبرقت وأمطرت.

قال حمدون: فخرجنا من عنده نخوض في الماء إلى أنصاف سوقنا.

قال أبو عثمان: قال لي سعيد الصبيري: صدق حمدون، كنت أنا حاضرًا ذلك.

[١٩٤] وفي رواية: أنه أبطأ عن الناس المطر، والزرع في الأكمام، فاجتمع الناس يوم الجمعة وقالوا: امضوا بنا إلى شقران، فمضى الناس حتى دخلوا عليه، فقالوا:

يا أبا عليّ: أنت ترى حالنا وما نزل بنا، وقد أبطأ عنا المطر، والزرع في الأكمام، فادع الله عز وجل أن يسقينا.

فقال: يقرأ أحدكم، فقرأ القارئ، فلما فرغ القارئ استقبل شقران الدعاء، قال: فما برحت حتى سُقينا، وكان مطرًا عظيمًا، ثم حملنا أخفافنا في أيدينا من السيل، قال: فكان من دعائه:

الساعة، الساعة! ببطن كفيه.

[١٩٥] قال أبو جعفر:

ولقد بلغنا أن رجلًا من أهل البيوتات كانت له ابنة يأخذها تابع[1]، فعالجوه فلم ينفع فيه العلاج، قال: فمضوا إلى شقران، فسألوه الدعاء فقال لهم: يقرأ القارئ، فقرأ القارئ، ثم دعا شقران، ثم قال لهم: مرُّوا في عافية.

قال: فلما مضوا بها إلى الدار دخل فيها الجني، ثم قال: أين أهلها؟ فاجتمعوا إليه فقالوا له: أتريد قتلها؟

فقال لهم: لا، إنما أردت أن أخبركم بعجب: نادى مناد من الهواء: قد دعا عليك شقران بن علي، اخرج وإلا أُحرقت بالنار! وأنا خارج، لا ترونني بعدها أبدًا.

[١٩٦] وعن خادم شقران قال: صاح بي شقران فقال: إني أجنبت فارفعني أغتسل، فغلب علي النوم، فلحظ السماء وقال: اللّٰهم إني قد عجزت عن أداء فرضي، وانقطع رجائي من غيرك، فاعطف على أسري وقلة حيلتي، فقمت لوقوع الماء في المرحاض، والسراج يَقِدُ وهو قائم على رجليه بعد أن كان لا يقدر على القيام، فعجبتُ من ذلك، فقال لي: سألتك بالله لا تذكر هذا لأحد ما دمت حيًا.

- ومنهم أبو خالد عبد الخالق المتعبد، يعرف بالقتاب:

قال أبو العرب: كان من طبقة المجتهدين في العبادة.

وكان راغبًا في الآخرة، كثير الخوف، دائم الحزن، كثير المعروف، قليل الهيبة للملوك.

[١٩٧] ذكر حمدون بن العسال، قال: سألني سهل بن يونس بمصر عن عبد الخالق فقلت له:

قطعه الخوف عن العمل.

فقال: ما يضره ذلك، لو كان عبد الخالق في بني إسرائيل لصوروه في الكنائس.

---

(١) يعني من الجن.

[١٩٨] وذكر حمدون المعروف بالخرنق، قال: كنت مع عبد الخالق ذات يوم نحو باب سلم إذ أبصر جماعة من الناس قد اجتمعوا فسألني عن شأنهم، فقلت:

قعدوا لِخَيْل تستبق.

فقال لي: محضر صالح، بلغني أن الملائكة تشهده، ثم توجه وتوجهت معه إلى تلك الجماعة، فجلسنا حتى أقبلت الخيل وقد تقدمها فارسان وأحدهما تقدم صاحبه، فلم يزل الذي كان صاحبه متأخرًا يحث فرسه حتى صار بين يدي صاحبه وسبق، فأخذ صاحبه قَصَب السبق.

فجعل عبد الخالق يتخلّل الناس حتى انتهى إلى الفرس السابق فجعل يقبِّل جحفلته(١) ويقول: بارك الله فيك، صبرت فظفرت، ثم انجدل مغشيًّا عليه، فاجتمع الناس عليه فلطفت بهم حتى أزلتهم عنه، وحملته على دابة حتى انتهيت به إلى موضعه، فأقام كما شاء الله مغشيًّا عليه، ثم أفاق، فذكرت له ما نابه، فقال لي:

لما رأيت الفرس الذي كان خلف صار أمام الذي كان أمامه، وأخذ فارسه قصب السبق ذكرت تقدمَ أقوام وأنَّ مَن خلفهم قد يصير هو المتقدم ويصيرون خلفه.

[١٩٩] قال أبو جعفر بن بطونة: سمعت أبي يقول:

حضرت جنازة في باب تونس وحضرها عبد الخالق المتعبد، فذكر مَن حضر الآخرة وأهوالها، قال: فصاح عبد الخالق، ثم ولى نحو الفحص هاربًا على وجهه، فمضينا في أثره فأصبناه جاثيًا على ركبتيه خارًا على وجهه، فحملناه على دابة، ثم أقمنا بعد ذلك أيامًا نعوده حتى مات -رحمة الله عليه، سنة عشر ومائتين- من شدّة الخوف.

[٢٠٠] وذكر سليمان بن سالم، قال: حدثني أبو زرجونة في جنازة يحيى بن زكريا ابن الحكم، قال:

خرجت ليلة أريد الأذان في المسجد -يريد أذان المغرب- فإذا عبد الخالق مقبل فقلت له: تفطر عندي!

(١) قال المحقق: الجحفلة: بمنزلة الشفة للخيل والبغال والحمير. القاموس (جحفل).

فقال لي: أو يسرك ذلك يا أبا عبد الله؟

فقلت له: نعم.

فقال لي: نفعل ذلك.

قلت له: تأتي إلى المسجد حتى نصلي وندخل البيت.

فقال: لا يمكن ذلك، لأنني خرجت من بيتي ومن نيتي أن أصلي في الجامع، سأصلي وأنصرف إليك.

قال أبو زرجونة: فدخلت على عيالي، فأخبرتها بذلك، وأمرتها أن تهيئ المائدة إلى أن يجيء، ثم أذنت وصليت المغرب، وقعدتُ أنتظره حتى أقبل، فقمت ودخلت معه، وكانت المرأة سوت البيت وبخرته وأوقدت المصباح وأغلقت الباب، فلما جئنا ندخل دفعتُ الباب وأبو خالد خلفي، فلمَّا ضَرَبَت إليه رائحة البخور وقف، فأقبل شبه المتنهد حتى خلت أن نفسه تتقطع، وأنا أقول له: ادخل يا أبا خالد وهو فيما هو فيه من كربه، فقمت فأخذت بضَبْعه[1] وأدخلته، وهو يقول: يا أبا عبد الله! يا أبا عبد الله! يا أبا عبد الله! -كالمستغيث- إليَّ!، ثم بقي مطروحًا على الوسادة، وجئت بالمائدة بجهلي وهو يستغيث إليَّ! فلما رأيته لا يمد يده إلى المائدة، ثم قام فبادر إلى الباب فخرج، فلما كان بعد أيام لقيتُ ابنه، فقلت:

يا ابن أخي، كيف أبوك؟

فقال لي: يا أبا عبد الله: بات الليل كله يصيح ويبكي، ما تركنا نرقد من بكائه وصياحه.

[٢٠١] ابن الحداد: حدثني بعض مَن لقيت ممن أثق به من جيران عبد الخالق، عن رجل من أصحابه يقال له حمدون الخرنق، قال: أقبل إلي عبد الخالق يومًا على بغل، وعليه قفتان من قفاف البقل ومعه لحم بقري ولحم غنمي من كل صنف رطل أو قال: فيهما جميعًا رطل، ومعه خبز نقي فقال: يا حمدون، إن أمّ حمدون مريضة - يعني زوجته- فسر معي حتى تنال معنا منه.

---

(١) هو ما بين الإبط إلى نصف العضد من أعلاها: «المعجم الوسيط»: ض ب ع.

وكان سكناه في ذلك الوقت بالقرن، فقلت له: لم أُعلِم أهلي، فلم يزل بي حتى أجبته وتوجهت معه إلى القرن، قال: فدفع ذلك الخبز واللحم إلى أهله ودخلت معه إلى المسجد، فبصر برجل من أهل البادية عليه أثر البؤس ومعه أطفال وهو يقضم الشعير كما تقضم الدواب، فذهب عبد الخالق إلى زوجته فجعل يقول لها: يا أم حمدون، يُضَعِّف الله أجرك غدًا! وقد كانت عالجت ذلك الطعام، فأقبل به بأسره إلى ذلك الشيخ البدوي وقال له: شأنك! ثم نهض فأتى بقرص من شعير ولبن فقال لي: كل أنت هذا يا حمدون.

[٢٠٢] وكان بجواره جار له دميم المنظر وكانت له جارية حسناء، وكان يصيبها، فشكت إليه أن ابنًا لعبد الخالق كان يتعرضها، وكانت صلاته مع عبد الخالق في المسجد، فلما صلى عبد الخالق العشاء الآخرة انصرف يريد داره فصحبه الرجل وجعل يقول له: يا أبا خالد: أنت ترى منظري وعندي جارية أصيبها، وقد شكت إليّ ابنك، وأنا أخاف أن تجيء بولد فيخبث عليه قلبي.

فجعل عبد الخالق يقول: لا تتكلم بهذا الكلام، فإن عليك فيه دَرَكًا[1]، ولا يسمع هذا الكلام منك أحد، ثم دخل عبد الخالق إلى داره وانصرف الرجل عنه، فلما صلى الرجل الصبح في جماعة التمس عبد الخالق، فلم يجده، فتوجه إلى داره، فإذا أبواب الدار مفتحة وليس في الدار أحد، فسأل عنه فقالوا: تحوّل البارحة بعياله إلى الفندق إذ لم يمكنه أن يكتري دارًا بالليل.

[٢٠٣] وحدث الثقة أن إبراهيم بن الأغلب أرسل إلى عبد الخالق فجاءه، وكان عبد الخالق رجلًا طويلًا، آدم، غليظًا، كثير الشعر يلبس عمامة كأنها شُقَّة، فقال له الأمير: بلغني أنك من العرب وأن لك عيالًا، فخذ هذه المائة دينار.

فقال له عبد الخالق: أنا عنها غني.

فقال إبراهيم: زيدوه مائة أخرى.

فقال له عبد الخالق: لو كان بي حاجة إلى ذلك لكان في المائة كفاية.

فلم يزل يقول: زيدوه وعبد الخالق يكلمه بالكلام الأول حتى بلغ معه خمسمائة دينار،

(١) أي أنك قد تُؤاخذ شرعًا وقضاءً بهذا الكلام.

فقال له إبراهيم بن الأغلب:

أفسدكم البربري - يعني البهلول- والله لو أدركته لجعلته يرقص خلفي.

قال عبد الخالق: فأحسست شعري قد خرج من عمامتي، ثم أقبلت عليه فقلت له: والله لو أدركتَه لكنتَ أهون عليه من هذا الطين الذي يُعجن بين يديك، ثم انصرفت.

-ومنهم حفص بن عمر الجزري، رضي الله تعالى عنه:

[٢٠٤] كان رجلًا صالحًا فاضلًا زاهدًا ورعًا، ظهرت له إجابات وكرامات، فمن ذلك أنه كان عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب من أجمل الناس، وكان قد جعل على كل زوج تحرث ثمانية دنانير[١]، فضاق الأمر بالناس؛ فقدم حفص مع رجال صالحين من أهل الجزيرة فدخلوا على أبي العباس، فقال له حفص:

أيها الأمير، اتق الله الذي إليه مصيرك، وارحم شبابك هذا، واحذر على وجهك الجميل النار، وخفف عن الناس وأسقط عنهم ما وضعت على الأزواج من هذه الدنانير.

فقال له: لست أفعل، ولا أحطهم شيئًا.

فخرجوا من عنده يريدون القيروان، فقال لهم حفص: تصلون ركعتين تخلصون فيها الدعاء، ونضرع إلى الله – تعالى - لعله يكفيناه، فإنا قد يئسنا من المخلوقين، فنرجع إلى الخالق عز وجل، فتوضأوا للصلاة وصلوا ركعتين.

ففعلوا، ثم قال حفص: اللّهم إن هذا الرجل الذي فضلته على عبادك في هذه الدنيا، ومكنته في بلادك قد ظلمنا وحمل علينا ما لا نقوى ولا نطيق دفعه ولا نستطيع منعه فاكفناه، واحكم بيننا وبينه وأنت خير الحاكمين، فما لبث أبو العباس إلا خمسة أيام، ثم خرجت له قَرْحة عظيمة تحت أذنه مات منها، في اليوم السابع من دعائهم.

- ومنهم إسماعيل بن رباح الجزري، رضي الله تعالى عنه.

قال أبو العرب:

---

(١) أي ضريبة على كل بقرتين تحرث.

كان إسماعيل من المجتهدين، وكان يقال إنه مستجاب الدعوة، ما علمت أنه رُوي عنه علم غير عبادته ومناقبه.

وقال غيره:

[٢٠٥] كان معظمًا لأمر الله عز وجل، لا يكاد يرى منكرًا إلا غيره، ولا يهاب في ذلك أحدًا من الناس، كثير المعروف.

[٢٠٦] وكان أصله من الجزيرة، ثم سكن القيروان، وتوفي سنة اثنتي عشرة ومائتين غريقًا في البحر بعد رجوعه من الحج؛ وذلك أنه ركب في البحر، فتحرك عليهم الهواء، فقالوا له:

يا أبا عبد الله: ادعُ لنا.

فقال: قد قضيتم حجكم فما الذي تريدون؟

ثم أخذ مصحفه فجعله في عنقه، ثم غطى رأسه بكسائه، ثم غرقت بهم المركب.

ذكر فضله ومناقبه وما خصه الله -عز وجل- به:

[٢٠٧] ذكر أبو عثمان سعيد بن الحداد، قال: حدثني من أثق به قال:

كان إسماعيل في صغره يحضر المكتب، فإذا حفظ ما في لوحه غسل ما فيه من القرآن في إناء وشربه، فهذا كان دأبه حتى ختم.

[٢٠٨] وذكر أنه دخل على قوم جلوس في بيت وكل واحد منهم جالس على وطاء متكئًا، فنظر في جانب البيت فإذا بمصحف موضوع في الركن، فأخذ المصحف فضمه إلى صدره، ثم قال لهم: قوموا كلكم! فقاموا، فأخذ ذلك الوطاء فكدسه في وسط البيت شيئًا على شيء حتى صار مرتفعًا، ثم أخذ ذلك المصحف فوضعه فوقه، ثم قال لهم:

اقعدوا الساعة، فهكذا ينبغي للمصحف أن يكون عاليًا لا يُعلى.

وهذا من تعظيمه وتشريفه لكتاب الله عز وجل، ولذلك عظمه الله -تعالى- وشرف قدره.

[٢٠٩] ويروى عنه أنه مر يومًا على دار أبي محرز القاضي، فإذا على القناة التي تجري بين يدي داره قرطاس فيه اسم من أسماء الله -تعالى- فوق القناة لم يغرق فيها، فخاف إسماعيل إن حاول إخراجه بقصبة أن يغرق في القناة فيتلطخ بالنجاسة، فألقى كساءه ونزل إلى القناة، فساخ فيها إلى الورك، وأخذ القرطاس بيده وجعل يتخلل في القناة يلتمس موضعًا يسهل عليه منه الخروج، فلم يزل كذلك حتى أمكنه الخروج فخرج، وقد اجتمع الرجال والنساء والصبيان ينظرون إليه، ثم أخذ كساءه بيده ثم تمادى إلى باب أبي الربيع حتى انتهى إلى وادي القصّارين فغسل مئزره وجسده ثم انصرف.

[٢١٠] وذُكر عن فضل بن أبي العنبر، وكان واليًا على الجزيرة، قال:

قدمت بزواملي[١] وأعواني، فنزلنا ببعض حصون الجزيرة التي على ساحل البحر، فأدخلوا ثقلي في مسجد من مساجد الحصون، وأدخلوا الحصن كلابًا وطيورًا كانت معهم، قال الفضل: فلما دخلت رآني إسماعيل بن رباح، فأتاني فقال:

ما هذا الذي أحدثت؟ أما ترى ما فعل أعوانك في بيت من بيوت الله عز وجل؟

فصحت عليهم، وأخرجتهم بالزجر.

قال: فنظر إليَّ إسماعيل وقال: حقن الله دمك!

قال: فشهد فضل معارك كثيرة فكان يقول لهم: والله لو حملوني على الأسنة ما هراقت[٢] مني محجمة دم، لأن دعوة الرجل الصالح بردت على قلبي، فمات فضل سويًا على فراشه لم يجرح جرحًا حتى مات.

وعن ابن الحداد عن أبيه، قال: حدثني محمد بن لله[٣]، قال:

[٢١١] كنت أخيط وأنا غلام حدث السن، مع شباب عند معلمنا في المسجد المعروف اليوم بمسجد ابن أبي نصر إذ أقبل إسماعيل بن رباح الجزري فقال لمعلمنا:

---

(١) الزوامل: الدواب.

(٢) يعني ما أريقت.

(٣) قال المحقق: كذا في الأصل والطبقات وجعلها ناشر الطبعة السابعة عبد الله.

يا شيخ: بكم اكتريت هذا الحانوت؟

فقال له معلمنا: ليس هذا بحانوت، وإنما هو مسجد.

فقال له إسماعيل: إن المساجد لم تبن للصُنّاع، إنما بنيت للصلاة والذكر وتلاوة القرآن، أو كما قال رحمه الله تعالى، فنبره معلمنا(١)، ثم أقبل علينا فقال: ياشباب، اقبلوا مني أنتم إذ لم يقبل مني معلمكم أن لا تخيطوا في المسجد.

ثم ولّى عنا، فكان يتردد إلينا كالغريم يسألنا في أن ننتقل عن المسجد، ولا نخيط فيه، قال: فما زال بنا حتى تركنا الخياطة فيه.

[٢١٢] وحدث أبو سليمان ربيعة الجزري، قال:

كنا في الجزيرة على طعام إذ دخل علينا يهودي فدعوناه، فجلس يأكل معنا، إلى أن أقبل إسماعيل بن رباح، فرفعنا اليهودي في غرفة، فلما دخل علينا إسماعيل دعوناه إلى طعامنا، فمدّ يده ليأكل، ثم قبضها وقال: طعامكم نجس، أو أكل منه نجس.

فقلنا له: دعونا يهوديًا طوافًا فأكل معنا.

فقال: أما تستحيون من الله تعالى؟ تأكلون مع من كفر بالله! فنزل اليهودي من الغرفة وهو يُرْعِد.

[٢١٣] وحدث محمد بن لله -شيخ كان من المخبتين مخمول الذكر وكان من المحزونين - قال:

بينا إسماعيل بن رباح في سفر إذ وافى رجلًا من أهل الساحل ومعه أهله وولده وهم بحال رثة، فرفع رأسه إليهم كالناظر إلى فرصة، ثم ثار إلى الساحلي فقال له:

يا ساحلي، كم تزيدني على كسائك هذا وأعطيك كسائي هذا؟ وكان كساء الساحلي خَلِقًا وكساء إسماعيل جديدًا.

فقال له: ما عندي ما أزيدك، ما عندي إلا ثلاثة دراهم.

---

(١) قال المحقق: نبره: زجره.

فبادر إسماعيل فألقى كساءه، وبادر الساحلي فألقى كساءه إلى إسماعيل وأعطاه الدراهم الثلاثة، واشتمل إسماعيل بذلك الكساء الخَلِق ثم انطلق، فاشترى بدرهم من تلك الدراهم شعيرًا وبدرهم زيتًا وبدرهم تينًا ثم عمل من ذلك بسيسة، وجعلها في جفنة، ثم وضعها على رأسه، ثم أقبل بها إلى الساحلي ثم قال: تقدم أنت وأهلك وأطفالك فكلوا، ودفع ذلك الطعام إليهم فأكلوه، ثم قال: بقيت لي إليك حاجة: أخبرني أي موضع تريد؟

فقال الساحلي: بلغني أن بصطفورة زرعًا فأحببت أن أتبلّغ إليها فأعيش فيها أنا وأهلي وصبياني، فترك إسماعيل الجهة التي كان عليها، وتوجه مع الساحلي حتى وصل معه إلى المنزل، فبلغ صاحبَ المنزل أن إسماعيل بن رباح أتى إلى منزله، فخرج إليه يسأله: ما الذي جاء بك؟ فقال له: هذا الساحلي وأهله وولده وديعتي عندك ثم ولّى منصرفًا.

[٢١٤] قال سليمان بن سالم في مجالسه:

بلغني أن أهل بيت إسماعيل عاتبوه وقالوا له: قد عررتنا بهذا التأزير وبهذا الكساء، ولكن خذ هذه الخمسة دنانير فاذهب بها إلى القيروان فاكتس بها، فدخل القيروان فوقف على صراف فقال له: اعطني بهذه الدنانير دراهم -وكانت الدراهم كبارًا- فلما صارت الدراهم إليه وقف به سائل وقال: تصدق عليّ، فأعطاه درهمًا، ثم وقف به آخر فأعطاه درهمًا، ففطن به المساكين فتحاشدوا عليه فتصدق دينارًا آخر ثم آخر حتى تصدق بها كلها على المساكين ولم يبقَ معه إلا نصف دينار، فمضى وهو يريد أن يخرج إلى الجزيرة في كسائه وتأزيره فلما كان في سوق إيلان وقف على خباز يبيع الخبز فأعطاه النصف دينار الذي بقي معه وقال له: عُدَّ لي به خبزًا فعد له به خبزًا في كسائه ثم أقبل به إلى المساكين ففرقه عليهم ولم يبقَ معه شيء، ثم خرج فأتى منزله فاجتمع إليه أهل بيته فقالوا له: وأين ما اكتسيت؟

فقال: وافقت سوقًا والله ما رأيت خيرًا منه. *

فقالوا فيما بينهم: دعوا هذا عنكم فليس ينفع فيه شيء.

[٢١٥] وحدث أبو سليمان ربيعة الجزري أن إسماعيل بن رباح خرج يريد الجزيرة ومعه قوم، فعرض لهم الأسد، فوقف الناس وتقدم إليه إسماعيل وقال له:

إن كنت أُمرت فينا بشيء فامض لما أُمرت به، وإن كنت لم تؤمر فخل عن الطريق، فتركهم ومضى -قالوا: وكذلك جرى لإبراهيم بن أدهم مع الأسد- ثم قال لأصحابه:

قولوا: اللّٰهم احرسنا بعينك التي لا تنام، واكنفنا بركنك الذي لا يرام، اللّٰهم ارحمنا بقدرتك علينا، لا نهلك وأنت الرجاء.

[٢١٦] وحدث السحابي صاحب سحنون قال:

صحبت إسماعيل الجزري من الجزيرة نريد سوسة، ونحن رجالة، فلما صرنا بين المدفون وهرقلة غابت لنا الشمس واختلط الظلام، فمال إسماعيل إلى البحر فتوضأ وصلينا المغرب، ثم قرن كعبيه فصلّى ما بين المغرب والعشاء، ثم صلى العشاء فركع ما شاء الله تعالى، ثم التفت إليّ فقال: تشاء أن ترقد؟

قلت له: نعم، فمال إلى ذروة فجمع شيئًا من الرمل فجعله عند رأسه، وكانت ليلة شديدة البرد فالتف في كسائه، ورقد ورقدت إلى جانبه وألصقت ركبتي إلى ذقني من البرد، فما مر من الليل شيء حتى عرقت، فمددت يدي فإذا قطيفة علينا ألين من الحرير فتمطيت ففطن بي، فقال: ما شأنك؟

فقلت له: ألا ترى ما علينا؟

فقال لي: احمد الله، وإن أردت أن ترقد فارقد وإن أردت أن تقوم فقم.

[٢١٧] وكان كثيرًا ما يقول: رب سلِّم، رب سلِّم! حتى يظن الجاهل أنه يقود جملًا في زلق من كثرة قوله: سلم، سلم.

[٢١٨] وذُكر أنه كان في رفقة، فسلبهم السَلاّبة، وكانت له في حياصته[١] دنانير، فلما عرفت السلابة أن في المسلوبين إسماعيل بن رباح ردوا على الناس جميع ما سلبوه، وردوا دنانير إسماعيل عليه، فأبى أن يقبلها وقال: إنها اختلطت مع غيرها، تورعًا.

(١) قال المحقق: والحياصة: سير يُشدّ به سرج الدابة (القاموس: حوص).

ذكر الطبقة الرابعة من فقهاء مدينة القيروان وعبادها وما يليها من بلدان إفريقية وغيرها ومحدثيهم

- أولهم أبو سعيد سُحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي، رضي الله تعالى عنه:

وكان اسمه عبد السلام فغلب عليه اسم سحنون.

[٢١٩] قال أبو العرب: اجتمعت فيه خِلال قلما اجتمعت في غيره: الفقه البارع، والورع الصادق، والصرامة في الحق، والزهادة في الدنيا، والتخشن في الملبس والمطعم، والسماحة، كان ربما وصل إخوانه بالثلاثين دينارًا، وكان لا يقبل من أحد شيئًا، سلطان أو غيره، ولم يكن يهاب سلطانًا في حق يقوله، سليم الصدر للمؤمنين، شديد على أهل البدع، انتشرت إمامته بالمشرق والمغرب وسلم له الإمامة أهل عصره وأجمعوا كلهم على فضله وتقدمته، رحمه الله تعالى.

وكان من صليبة العرب، من تنوخ، أصله من الشام، من حمص، قدم به أبوه سعيد مع جند أهل حمص.

قال: سمعت محمد بن أبان وقد قيل له: أكان سحنون من العرب صليبةً أو من الموالي؟

فقال: عن سحنون قد أخذ الناس عنه دينهم وصدقوه في الدين وائتمنوه عليه، وقد قال: إنه من العرب، فكيف لا يصدقونه في نسبه؟

قال: وكان مولده سنة ستين ومائة، وتوفي في سنة أربعين ومائتين.

ذكر رحلته في طلب العلم وبعض ما جرى له في ذلك:

قال أبو العرب:

رحل سحنون في طلب العلم أول سنة ثمانٍ وثمانين ومائة.

وقال غير أبي العرب:

وكان اعتماد سحنون على ابن القاسم وبه تفقه، وصحح عليه الأسدية، لا يكاد يفارقه في سماع العلم والبحث عنه.

[٢٢٠] قال أبو عثمان سعيد بن الحداد: سمعت سحنون بن سعيد يقول: كنت إذا سألت ابن القاسم عن المسائل يقول لي:

يا سحنون: أنت فارغ، إني لأحس في رأسي دويًا كدوي الرحى، يعني من قيام الليل.

[٢٢١] قال: وكان قلما يعرض لنا إلا وهو يقول:

اتقوا الله، فإن قليل هذا الأمر مع تقوى الله - عز وجل - كثير، وكثيره مع غير تقوى الله قليل، وكان سحنون أيضًا كثيرًا ما يقوله إذا قُرئ عليه.

[٢٢٢] ثم لما فرغ من قراءة العلم على ابن القاسم وغيره من أصحاب مالك خرج إلى الحجاز، فحدث أبو سهل فرات بن محمد العبدي، قال: سمعت سحنونًا يقول:

لما حججنا كنت أزامل ابن وهب، وكنت في الشق الأيمن، وكان أشهب يزامله يتيمه، وكان ابن القاسم يزامله ابنه موسى أبو هارون، قال سحنون: فكنت إذا نزلت ذهبت إلى ابن القاسم أسائله من الكتب وأقرأ عليه إلى قرب وقت الرحيل.

قال: فقال لي ابن وهب وأشهب: لو كلمت صاحبك ليلة واحدة يفطر عندنا، فكلمته فقال: إن ذلك يثقل عليّ.

فقلت له: فبِمَ يعلم القوم مكاني منك؟

فقال لي: فإذ عزمتَ على ذلك فأنا أفعل لك ذلك إن شاء الله إذا نزلنا للتعريس[1]، فأتيتُ إليهم فأعلمتهم، فلما كان وقت التعريس قام وقمتُ معه إلى القوم، فأصبت أشهب وقد فرش أنطاعه[2] وأتى من الأطعمة بأمر عظيم، وصنع ابن وهب دون ذلك، فلما أتى عبد الرحمن سلَّم وقعد ثم أدار عينيه في الطعام فإذا بسُكُرُّجة[3]؛ فيها دقة فأخذها بيده وحرك الأبزار حتى

(١) التعريس: النزول للراحة ليلًا.

(٢) أنطاع جمع نطع، وهو الجلد.

(٣) وعاء صغير.

صارت ناحية ولعق من الملح ثلاث لعقات، وهو يعلم أن أصل ملح مصر طيب، ثم قام وترك ذلك وقال: بارك الله لكم!.

قال سحنون: فاستحييت أن أقوم، قال: فتكلم أشهب وعظم عليه ما فعل عبد الرحمن، فقال ابن وهب: دعه، دعه[1]!

[٢٢٣] قال سحنون: وكنا نمشي بالنهار، ونلقي المسائل ونحن مشاة، فإذا كان الليل ونزلت الرفقة قام كل واحد إلى حزبه من الصلاة فيقول ابن وهب لأصحابه: أما ترون إلى هذا المغربي يُلقي المسائل بالنهار وهو لا يدرس بالليل؟ فيقول له ابن القاسم: هو نور يجعله الله في القلوب.

[٢٢٤] قال: ونزلنا بمسجد ببعض مدائن الحجاز -نسيت اسمها- قال: فنمنا بها ونمتُ عند رجلي ابن القاسم، فانتبه مذعورًا فقال لي: يا أبا سعيد: رأيت الساعة في المنام كأن رجلًا دخل علينا من باب المسجد ومعه طبق مغطى بمنديل وفيه رأس خنزير، فأسأل الله خيرها.

قال سحنون: فما لبثنا حتى أقبل رجل ومعه طبق مغطى بمنديل وفيه رطب من تمر تلك القرية، فجعله بين يدي ابن القاسم وقال له: ألا تأكل، أصلحك الله تعالى؟

فقال له ابن القاسم: ما لي إلى ذلك سبيل.

قال: فأعطه أصحابك.

فقال: أنا لا آكله، فكيف أعطيه غيري، فانصرف الرجل، فقال ابن القاسم: هذا تأويل الرؤيا يا أبا سعيد.

قال: وكان يقال: إن تلك القرية أكثرها أحباس[2] غُصبت، فحماه الله -عز وجل- منها لتقاه ودينه.

---

(١) إنما فعل هذا تورعًا، وعندي – وأنا أقلّ من أن أتكلم في شأنه، لكن لا بد مما ليس منه بد – أنه كان ينبغي أن يأكل من طعام أشهب وابن وهب فإنهما من أئمة الدين ومشايخ الإسلام، والله أعلم.

(٢) أي أوقاف.

[٢٢٥] قال عبد الله بن القبرياني:

جاء رجل إلى سحنون فسأله عن مسألة، فأجابه فيها، فسكت الرجل، فقال له سحنون:

متى عهدك بالكتاب؟

فقال: البارحة.

قال: فوجه سحنون في طلب الكتاب، فجيء به إليه، قال: فتصفَّح فقصد موضع المسألة كأنه يعرفه، فوجده كما قال سحنون، فقال حينئذٍ سحنون:

إني حفظتُ هذه الكتب حتى صارت في صدري كأم القرآن، ثم كبرت سني وضعفت قوتي، وأحسست الضعف، وأخاف أن يكون قد خالطني في عقلي مثل ما أصابني في قوتي، أفتريد أن تشككني في هذا القليل الذي معي؟ أو كما قال، رحمه الله تعالى.

[٢٢٦] حدث أبو عياش بن موسى، قال: سمعت سحنونًا يقول -وهو يُزْرِي على من يعجل بالفتوى وينكر ذلك، ويذكر النهي عن ذلك عن المتقدمين من معلميه-:

إني لأُسأل عن المسألة فأعرفها وأعرف في أي كتاب هي فيه، وفي أي ورقة، وأي صفحة، وعلى كم هي من سطر، فما يمنعني من الجواب فيها إلا كراهية الجرأة بعدي على الفتوى، ثم قال:

[٢٢٧] ها هنا قوم يزعمون أنه حُمل عني ست وثلاثون ورقة في الصلاة، وإني لأخرج من الدنيا ولا يسألني الله عز وجل عن مسألة قلت فيها برأي.

[٢٢٨] وذكر سليمان بن سالم أنه أتى رجل من أهل صطفورة إلى سحنون فسأله عن مسألة فأقام يتردد إليه ثلاثة أيام، فقال بعد ذلك:

مسألتي أصلحك الله، لي ثلاثة أيام.

فقال له: وما أصنع بك يا خليلي؟ مسألتك نازلة، وهي معضلة، وفيها أقاويل، وأنا متحير في ذلك.

فقال له الصطفوري: وأنت - أصلحك الله - لكل معضلة.

فقال له سحنون: هيهات يا ابن أخي، ليس بقولك أبذل لك لحمي ودمي للنار، ما أكثر ما لا أعرف، إن صبرت رجوت أن تنقلب بحاجتك، وإن أردت أن تمضي إلى غيري تجاب في ساعة واحدة.

فقال له: إنما جئت إليك ولا أستفتي غيرك.

فقال: فاصبر عافاك الله، ثم أجابه بعد ذلك.

[٢٢٩] قال عيسى بن مسكين: قلت لسحنون:

تأتيك المسائل مشهورة مفهومة فتأبى الجواب فيها؟

فقال: سرعة الجواب بالصواب أشد فتنة من فتنة المال.

[٢٣٠] وقال:

كان بعض من مضى يريد أن يتكلم الكلمة، ولو تكلم بها لا نتفع بها خلق كثير، فيحبسها ولا يتكلم بها مخافة المباهاة.

وكان يتكلم لله ويصمت، فإذا أعجبه الصمت تكلم، وإذا أعجبه الكلام صمت.

[٢٣١] وقال:

أشقى الناس من باع آخرته بدنياه، وأشقى منه من باع آخرته بدنيا غيره، قال رضي الله تعالى عنه: ففكرت فيمن باع آخرته بدنيا غيره، فوجدته المفتي: يأتيه الرجل قد حنث في امرأته أو رقيقه فيقول له: لا شيء عليك، فيذهب عنه الحانث فيتمتع بزوجته ورقيقه، وقد باع المفتي له دينه بدنيا هذا، فما وجدت بقلبي من باع آخرته بدنيا غيره إلا المفتي.

[٢٣٢] وكان سحنون يقول:

من فقه الرجل مطعمه ومشربه ومدخله ومخرجه وصحبته لأهل الخير، وليست العبادة بمطأطأة الرأس.

[٢٣٣] وقال محمد بن سحنون: قلت لسحنون:

إن فلانًا لا يأتي الوالي ولا القاضي إلا بالليل، فكتب إليه بعض إخوانه: إن الذي يراك

بالنهار هو يراك في الليل، والسلام، فأعجب سحنون بما كتُب به إليه وقال على إثر هذا:

ما أقبح بالعالم أن يؤتى إلى مجلسه فلا يوجد فيه، فيسأل عنه فيقال: هو عند الأمير، هو عند الوزير، هو عند القاضي، فإن هذا وشبهه لأشر من علماء بني إسرائيل، لأنه بلغني أنهم كانوا يلقونهم من الرخص بما يحبون مما ليس عليه العمل وما هو متروك، ويتركون أن يلقوهم بما عليه العمل وفيه النجاة لهم، كراهية أن يستثقلوهم، ولعمري لو فعلوا ذلك لربحوا ولوجب أجرهم على الله -عز وجل- فو الله لقد ابتليت بهذا القضاء وبهم، فو الله ما أكلت لهم لقمة، ولا شربت لهم جرعة، ولا لبست لهم ثوبًا، ولا ركبت لهم دابة، ولا أخذت لهم صلة.

[٢٣٤] وإني لأدخل عليهم فأكلمهم بالتشديد، وبما عليه العمل وفيه النجاة، ثم أخرج من عندهم فأنظر في أمري فأجد عليّ الدَّرَك[١]، مع ما ألقاهم به من الشدّة والغلظة وكثرة مخالفتي لهم ووعظي لهم، فوددتُ أني أنجو مما دخلت فيه كفافًا، لا عليّ ولا لي.

[٢٣٥] قال: وكنت أسمع منه يقول: إنه يقال:

إذا رأيتم العالم يحب الدنيا فاتهموه على دينكم.

[٢٣٦] وقال زيدان بن إسماعيل:

سمعت سحنونًا يقول وقد ذكر بعض هذه المواجل[٢] التي بناها هؤلاء الولاة فقال:

إنما هي حجارة، جمعوا ذلك فبنوا به ماجلا، فدخل فيه ماء ساقه الله إليه، فما أرى بشرب ذلك الماء بأسًا، قال: فحدثت بذلك سعيد بن إسحاق فقال لي: ما شرب سحنون من ماجل بناه الأمراء حتى لقي الله عز وجل، تورعًا ونزاهة.

[٢٣٧] حدث أحمد بن أبي سليمان، قال:

كنا يومًا جلوسًا عند سحنون حتى أتاه غلامه بدرهم ونصف فضة باع له به زيتونًا، فقال سحنون: الحمد لله، زيتوننا وغلامنا ودابتنا، ثم رمى بها، ثم قال لنفسه:

---

(١) أي التبعة.

(٢) هي مثل الأحواض يجمع فيها الماء ليشربه الناس.

يا شقي، يا شقي، يا شقي، تدري ممن باعها لك؟ وهذا من إشفاقه، رضي الله تعالى عنه.

[٢٣٨] قال سليمان بن سالم: ذُكر خشيش البزّاز يومًا عند سحنون وصدقاته وزكواته وما كان يفعل من المعروف في ماله، فلما أكثروا عليه قال لهم سحنون:

اسكتوا! فلو لم يكن موقف خُشيش عند الله تعالى إلا أنه يسأله عن كسبه ماله من أين كسبه لكان حسبه! وقد قيل لابن هرمز: مات فلان وترك من المال كذا وكذا، فقال: لكن المال لا يتركه!

[٢٣٩] حدث عبد الجبار بن خالد، قال:

كنا نسمع من سحنون بمنزله في الساحل، فصلىَّ يومًا الصبح، ثم دخل فخرج علينا وعلى كتفه المحراث وبين يديه زوج بقر مقرون، فقال لنا: إن الغلام قد حُمَّ البارحة، فأنا أريد أن أذهب لأحرث ثم أرجع إليكم إذا فرغت أسمعكم.

قال عبد الجبار: فقلت له: أنا أذهب أحرث لك، واجلس أنت تسمع أصحابنا فإذا رجعتُ قرأت عليك ما فاتني به أصحابي، قال: فدفع إليّ المحراث، فذهبت به فحرثت، فلما رجعت أدخلت البقر الدار، قال: فقرب إليّ سحنون غداءه فإذا هو خبز شعير وزيت قديم، فأكلتُ معه ثم قرأت عليه ما فاتني.

[٢٤٠] ولقد حدث سعيد بن عباد المعروف بالمزغلة صاحب سحنون، قال: قال لي سحنون يومًا، وقد خلا معي: يا سعيد، أليس أنا إمامك؟

فقلت: نعم، أصلحك الله.

فقال: أوَ تقبل قولي؟

فقلت: وكيف لا أقبل قولك؟ ولو لم أقبل قولك لم أختلف إليك.

فقال لي: هذا قولي ويميني، وحلف لي بالله، وأراني صرة في يده، وذكر أن فيها ثلاثين دينارًا وقال: ما هي مال سلطان ولا من تاجر ولا من وصية، وما هي إلا من ثمن ثمرة غرستها بيدي، فخذها تتقوى بها على أمر آخرتك ودنياك.

قال:

فقلت له: أنا عنها غني، قال محمد: وهو والله كان محتاجًا إلى خروبة.(١)

فقال لي سحنون:- لما قلت له إني عنها غني-: فخذها سلفًا فتتزوج منها وتنفق، فإن رزقك الله فيها فردها نقبلها منك، وإن تعذر عليك ردها فأنت في حل.

فقلت: ما كنت بالذي أتعجل دينًا في ذمتي من غير حاجة.

فقال: فإذا أبيت من قبولها فلا تذكرها لأحد ما دمت أنا حيًّا.

[٢٤١] قال سليمان بن سالم: تأدب سحنون بأدب أهل المدينة حتى في العيش، وكان يقول:

ما أحب أن يكون عيش الرجل إلا على قدر ذات يده، ولا يتكلف إلى أكثر من ذلك، وإن احتاج إلى امرأة طلبها على قدر ذات يده في مؤنتها وقناعتها حتى يبقى في يده ما يستغنى به، وإن كان له مال صالح حلال -والحلال هو الذي ارتضاه الله عز وجل لأنبيائه حين يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون:٥١]، والطيب هو الحلال- اعتمد عليه وتفرغ للعبادة؛ وإن لم يكن عنده فعليه بكسب يده، فذلك أولى به من ذل المال، وهو مسألة الناس.

[٢٤٢] قال سليمان بن سالم:

وكان إذا قرئ عليه كتاب الجهاد لابن وهب أو كتاب الزهد بكى حتى تسيل دموعه على لحيته.

[٢٤٣] يحيى بن عون، قال:

دخلت مع سحنون على ابن القصار وهو مريض، وكان من أصحابه، وأصابه في علته قلق، فقال له: يا ابن القصار، ما هذا القلق الذي أنت فيه؟

قال: الموت والقدوم على الله عز وجل.

---

(١) هي أحد أجزاء الحبة، والحبة سدس درهم.

فقال له سحنون:

ألست مصدقًا بالرسل أولهم وآخرهم، والبعث والحساب، والجنة والنار؟ وأن أفضل هذه الأمة -بعد نبيها ﷺ- أبو بكر ثم عمر؟ وأن القرآن كلام الله غير مخلوق؟ وأن الله تعالى يُرى يوم القيامة؟ وأنه ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]؟ ولا تخرج على الأئمة بالسيف وإن جاروا؟

قال: إي والله الذي لا إله إلا هو.

فضرب سحنون بيديه على ضَبْعَيه[1] وقال له: مت إذا شئت، مت إذا شئت، ثم خرج عنه.

[٢٤٤] وكان سحنون يقول: ليس للأمور بصاحب من لم ينظر لها في العواقب.

[٢٤٥] قال عيسى بن مسكين: وأتى قوم من الأندلسيين قد كتبوا المدونة وأرادوا أن يسمعوها من سحنون، فقال لهم: إني مشغول.

فقال له شاب منهم: إنا قد كتبناها فما نصنع بها؟ لئن لم تُسمعناها لنطرحنها في هذا الغدير! وأشار لغدير ماء بين يديه.

فتغير سحنون، وعض بنانه من الغيظ، ثم قام فمضى إلى أزواجه[2] وهي تحرث، ثم رجع إليهم فقال: إني لو احتجت إليكم في مثل هذه - ورفع شيئًا من الأرض- ما سَوَى علمي عندكم شيئًا، ثم أسمعهم.

[٢٤٦] وقال سليمان بن سالم: كنت قاعدًا عند سحنون حتى أتاه رجل يقال له حسان بن شاكر، فسلم عليه ثم قال: أين غبت يا حسان؟

فقال: في البادية، أصلحك الله.

فقال له: إن لله - تعالى - نبيًّا من البادية، ثم قال: ما حال مسجدكم؟

فقال له: كما تعرف البادية.

(١) الضبع: هو ما بين الإبط إلى نصف العضد من أعلاها: «المعجم الوسيط»: ص ب ع.

(٢) أي أزواج البقر.

فقال له سحنون: ما حال زرعكم؟

فقال له: جيد، أصلحك الله، وأرجو أن تكون سنة مباركة.

فقال سحنون: آمين، جعلها الله سنة مباركة! وكرر ذلك ثلاثًا، ثم قال: يا حسان، تدري ما السنة المباركة؟

قال: لا.

قال: هي السنة التي يَسْلَم فيها للناس دينهم وإن كان نَيْلهم من الدنيا قليلًا، والسنة التي لا يسلم للناس فيها دينهم وإن كان نيلهم من الدنيا كثيرًا فتلك سنة مشؤومة عليهم.

[٢٤٧] حدث الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن خلف الفقيه القابسي ﷺ قال:

أتى رجل إلى سحنون ﷺ فجلس حتى انصرف الناس وخلا المجلس فأخذ في البكاء، فسأله سحنون وألح عليه فيما أوجب ذلك، فذكر له أنه رأى ما استعظمه، فلم يزل به حتى شرح له ذلك، فذكر له أنه رأى كأن القيامة قد قامت وأن الناس قد حُشِرُوا، ثم قال لسحنون: وأُتِي بك، وأنا أعرفك في منامي كما أعرفك في يقظتي، ثم وصف له أنه فُعِلَ به من الأغلال والسرابيل وأصناف الأنكال أمر عظيم، وأنه أُمر به فألقي في النار، قال الرائي لذلك: فانتبهت مذعورًا فزعموا أن سحنونًا صبَّره وسكَّنه، وأرسل في طلب رؤساء كنيسة النصارى، فأُتي إليه باثنين منهم، فجلسا، ثم سألهما سحنون فقال لهما: هل مات لكم في هذا الوقت أحد تعظمونه؟

قالا: بلى، ووصفا من حال ميتهم شيئًا كثيرًا.

فقال لهما سحنون: هل من شأنكم أن تروا في منامكم لميتكم شيئًا؟

قالا: بلى.

قال: فهل رأيتما لهذا الميت الذي وصفتما شيئًا؟

فقالا: نعم، جاءت فيه رؤى كثيرة، ووصفا فيه من الخير والترفيع له أمرًا كبيرًا.

فقال: انصرفا، ثم قال للرجل:

كيف ترى؟ هل تشك في هؤلاء ومن مات منهم أنه من أهل النار؟

فقال الرجل: لا.

فقال له سحنون: فاعلم أن الشيطان يأتي المؤمن بما يثبطه وينفره عن الخير ويمقِّته إليه ويمقت إليه أهله، ويأتي إلى الكافر بما يغبط إليه حاله ويثبته على أمره، وإنما رآك تكثر الاختلاف إلينا والائتمام بنا، فأراد أن يخذلك ويصدّك.

[٢٤٨] قال سليمان: وسمعته يقول في الطلبة: ما أريد منهم إلا لعل الله ينفعني منهم بواحد.

[٢٤٩] قال: وسمعته يقول:

كادت تفوتني كتب ابن وهب، وبالله ما تُشرى بكتاب منها الدنيا وما فيها، وما عميت عن مسألة قط إلا وجدت فرجها في كتاب ابن وهب.

قال: وسمعته يقول في كتب ابن القاسم:

وكذا هذه، فقلّما رأيت أحدًا أخذها إلا ونفعه الله -تعالى- بها، وذلك أن صاحبها كان يريد الله، عز وجل.

- ومنهم أبو جعفر موسى بن معاوية الصُّمادحي، رضي الله تعالى عنه:

قال أبو بكر بن اللباد: هو من ولد جعفر بن أبي طالب ذي الجناحين، وكان فاضلًا.

وقال أبو العرب وغيره: كان ثقة مأمونًا صالحًا، عالمًا بالحديث والفقه.

حدثت عن معتب بن أبي الأزهر قال: قلت لسحنون:

إن موسى جلس في الجامع يفتي الناس.

[٢٥٠] فقال لي سحنون: ما جلس في الجامع منذ ثلاثين سنة أحق من موسى بالفتوى.

[٢٥١] وعن موسى بن معاوية، قال:

لم ألقَ أحدًا أروى من وكيع، وكان يروي خمسة وثلاثين ألف حديث، يقرؤها علينا ظاهرًا على تأليفها ما يُشك في حديث منها.

[٢٥٢] وحدث أبو سليمان داود بن يحيى، قال: سمعت موسى بن معاوية الصمادحي يقول:

رحلت من القيروان ولا أظن أني أرى أحدًا أخشع من البهلول بن راشد، حتى لقيت وكيع بن الجراح، وكان يقال إنه يختم في رمضان ختمة وثلثًا كل ليلة، فبت في مسجده، فدخل معتكفه فقلت: الليلة يبين لي ما قيل لي فيه، فصلّينا التراويح، فخرج إلى صحن المسجد وأنا أنظر إليه، فلما أوترنا دخل في مكانه فأحرم وأنا جالس فافتتح فقرأ بأم القرآن، ثم قرأ بعدها البقرة وآل عمران، فأخذتني عيني فنمت، ثم انتبهت وقد ذهب من الليل أكثره وهو يقرأ في الحواميم، فجلست حتى ختم، فدخل عليه ابنه بطبق فيه خبز وتمر وركوة فيها ماء، فقال:

أين المغربي؟ فقمت إليه فقال: تنال من سحورنا هذا شيئًا، فأكل وأكلت معه، ثم قام فقرأ ثلث القرآن إلى سورة براءة، ثم ركع وسجد وسلم، وجلس موضعه حتى أقيمت الصلاة فصلى، ثم جلس في مصلاّه، والطلبة حوله وأنا معهم، حتى ركع الضحى شبيه باثنتي عشرة ركعة، ثم تحول فحدث إلى نصف النهار أو قريب من ذلك، ثم رقد في مكانه فقام وقت الظهر فدخل الميضاء، وهي قريبة من المسجد، فتوضأ للصلاة، ثم دخل المسجد فصلى الظهر، ثم قرن كعبيه إلى العصر، فكان هكذا الشهر كله، حتى انقضى وأنا معه في المسجد.

قال: ثم رحلتُ إلى الفضيل فقلت: ما أظن أني أرى أحدًا أخشع من وكيع، حتى قدمت مكة فطلبت الفضيل فلم أقدر عليه، فبينا أنا ذات عشية في بعض أزقة مكة فإذا أنا برجلين يقول أحدهما لصاحبه: وعدنا الشيخ يحدثنا.

فقلت لهما: من الشيخ؟

فقالا: الفضيل.

[٢٥٣] فاغتديت إلى المسجد الحرام، فصلَّى بنا هارون الخليفة صلاة الصبح، فقرأ بنا سورة الرحمن وسورة الواقعة في الركعة الثانية، فتمنَّيت ألا يسكت من حسن قراءته، فقمت لأبادر، فجذبني رجل إلى جانبي وقال لي: تقوم بعد صلاة الصبح مسرعًا!

فاعتذرت له بطلبي للفضيل لأسمع منه.

فقال: أتحب أن تراه؟

قلت: نعم.

فأشار إلى ناحية من المسجد وقال لي: هناك هو، فقمت إليه فسمعته يقول:

[٢٥٤] مسكين هارون! قرأ سورة الرحمن وسورة الواقعة ولا يدري ما فيهما.

[٢٥٥] ثم قام إلى منزله فدخل وأغلق الباب، وأتى الطلبة من كل مكان، فإذا شيخ آدم، فقال له الناس: اجلس يا أبا عبد الله اقرأ، لعل الشيخ يسمع قراءتك فيخرج.

فسألت رجلاً إلى جانبي: من هذا؟ فقال لي: هذا صالح المُري؛ فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠] قال: ففتح الكوة وقال لابنه عليّ: اخرج بي إلى هؤلاء القوم، فخرج به وأقعده على مصطبة، فختم القارئ الآية ثم دعا.

فقام إليه رجل حسن الوجه حسن الإحرام فقال له:

يا أبا عليّ، ما تفسير هذه الآية: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

فقال الفضيل: حدثني هشام بن حسان عن الحسن أنه قال: تأكلهم النار في كل يوم سبعين ألف مرة، كلما أكلتهم وأنضجتهم قيل لهم عودوا فيعودون، فصعق الفضيل وغُشي عليه، فحمل إلى داره.

[٢٥٦] فبلغ ذلك هارون الخليفة، فأرسل إلى سفيان بن عيينة وقال له:

إن الفضيل بن عياض فسر آية من القرآن فصعق به، فإذا صليت عشاء الآخرة فواف الباب، ثم أمر بعض خدمه فقال له:

إذا رأيت هذا الشيخ -يعني سفيان- فأدخله إليّ؛ فأتى سفيان فأدخله إليه، فدعا ببغلة

وبَدْرة[1]، والبدرة ألف دينار، فأمر خادمًا فحملها، وخرج وهو يبكي حتى أتى باب الفضيل، فقرعه سفيان واستأذن، فأذنت له الخادم بالدخول، قال: أوَ يدخل من معي؟ قالت: نعم فدخلوا، فسلموا عليه ثم قال له سفيان:

هذا أمير المؤمنين قد جاء عائدًا لك، فاستوى الفضيل جالسًا، فمد هارون يده إليه وسأله عن أحواله وقال:

عظني يرحمك الله.

فقال له الفضيل: يا حسن الوجه، أنت المسئول عن هذه الرعية غدًا.

فقال له: عظني، يرحمك الله.

فقال له: أنت المسئول عن هذه الرعية، وكرر ذلك ثلاث مرات، فبكى هارون حتى مسح دموعه بطرف ثوبه، ثم قال له هارون:

هذا شيء أتيناك به، فاستعن به على نفقتك وعيالك.

فقال له الفضيل: أنا غني عنه ثم كرر ذلك عليه فأبى، فقال له:

ففرِّقه على بعض أصحابك.

فقال: إني رجل ضعيف لا أستطيع.

فرجع بها هارون معه، ولم يأخذ الفضيل منها شيئًا.

[٢٥٧] حدّث محمد بن وضاح، قال:

خرج علينا موسى بن معاوية الصمادحي يومًا وقد احمر وجهه، فقلنا له:

ما لك يا أبا جعفر؟

فقال: جيران لي آذوني في دجاجي، وقد أخبرني أبو معاوية الضرير عن الأعمش عن خيثمة قال: إن لي جيرانًا ما لهم عندي دينار ولا درهم ولا سألوني حاجة إلا قضيتها، وإني لأبغض إليهم من الكلب الأسود إلى أهله.

---

(١) وعاء توضع فيه الدراهم.

قيل: ولم يا أبا عبد الرحمن؟

قال: لأنه لا يحب منافقٌ مؤمنًا أبدًا.

[٢٥٨] وروى عنه أنه قال:

ذُكر لي رجل بخراسان، فأتيته فأصبته في المسجد يحدث، فسلّمت عليه، فقال لي:

من أين الرجل؟

فقلت: من المغرب.

فقال: من أي موضع؟

فقلت: من القيروان.

قال: ومن لقيت؟

قلت: الفضيل ووكيعًا وأبا معاوية الضرير.

فقال لي: ما أظنك تريد بهذا الله عز وجل، أما كان يكفيك أن تجعل أحدهم لدينك؟ ولكنك أردت أن تقدم بلدك فتقول: لقيت فلانًا وفلانًا، والله لا أسمعتك إلا ثلاثة أحاديث لعنائك! فأخذت كتبه، فانتخبتُ منها ثلاثة أحاديث رويتها عنه، ثم خرجت من الغد إلى جرير ابن عبد الحميد الضبي.

[٢٥٩] وحدث موسى، قال:

لما خرجت أريد جريرًا بالري من بلد خراسان، صحبني شاب عليه جبة صوف وكساء صوف راجلًا، فقلت له: إلى أين تريد؟

قال: إلى جرير.

فقلت له: فالطريق واحدة.

فوصلنا إليه نصف النهار، فجلسنا على بابه في ظل حائط، حتى خرج متوكئًا على عصا يريد الأذان في المسجد والصلاة فيه، فسلمنا عليه فقال: أين بلدكم؟

فقلت: إفريقية.

فقال: إفريقية! يستعظم ذلك، وقال: ثم إلى أين؟

فقلت له: ثم إليك، يرحمك الله.

قال: فرقّ لنا ثم قال: ادخلا المسجد لتصليا، ثم أذن وصلينا معه، ثم أخرج كتابه فقرأ لنا، وأنا أمسك كتابي معه والشاب جالس وليس معه كتاب.

فانصرفنا إلى الموضع الذي نزلنا فيه والشاب معي، فلما جلسنا نتذاكر ما حدثنا به الشيخ قال لي الشاب: حدث فلان عن فلان، فقلت له: عن فلان عن فلان.

فقال: ليس كذا قرأ الشيخ، قرأ: فلان عن فلان.

فقمت إلى الكتاب فأصبته كما قال.

فلم يزل الشاب معي حتى فرغنا من كتب جرير بن عبد الحميد، ثم انصرفنا، فضاق صدري، فكاشفت الفتى فقلت له: أين كتبك؟ فتبسم ثم قال لي:

يا أبا جعفر، أخرج إليّ أي كتاب شئت، فأردت الاستقصاء عليه، فأخرجت إليه كتابًا فقال: أي كتاب هو؟ فنسبته له، فقال لي: اسمع، فاندفع يقرؤه ظاهرًا، فرأيت منه قدرة الله، فقلت له: حسبك، يكفيك.

- ومنهم أبو البشر زيد بن بشر بن عبد الرحمن الأزدي:

كان أصله من مصر فقدم مدينة القيروان، وكان فاضلًا، رحمه الله تعالى.

[٢٦٠] ذكر أبو سعيد بن أخي هشام، قال: كان طريق بشر على سوق الخرّازين فأقبل يومًا يريد الجامع وحوله الطلبة، فإذا بشاب خرّاز يقول لجار له: ما رأيت أوحش من هذا الشيخ ولا أوحش لباسًا من لباسه، فلما سمع ذلك زيد نكس رأسه وتمادى إلى الجامع.

فلما انصرف من الجامع عاوده الشاب بقبيح اللفظ، فانصرف زيد ولم يلتفت إليه، فاتفق طلبة زيد على أنهم يضربون الشاب، فلما بلغ ذلك زيدًا قال:

ما هذا الذي أردتم؟ وما الذي بلغني أنكم تنفستم به في شأن الشاب؟

فقالوا: هو ما قيل لك، أصلحك الله لاستخفافه بحقك وامتهانه لقدرك وعلمك.

فقال لهم: أُعطي الله عهدًا إن تقدم إليه أحد منكم إلا بالتي هي أحسن ما وطئ لي بساطًا، أنا أصلح شأن الشاب، فصرّ صرة فيها عشرة دراهم، وجعلها في جبته، واستعمل لفردة نعل من نعليه قَبالًا واهيًا[1]، ثم توجه إلى الجامع، فلما مر بالشاب عاود اللفظ القبيح حسب عادته، فلما حاذاه اتكأ على القَبال فقطعه، ثم مال إلى الشاب فسلم عليه ثم قال:

أي بني: لعل عندك قبالًا؟ فأعطاه قبالًا، فدفع إليه بالصرة، فقال له الشاب.

ما بال هذه الصرة؟

فقال: إنك صنعت لي هذا القبال، فهو مكافأة لك عليه، وانصرف مع الطلبة إلى الجامع، فلما انصرف من الجامع وقرب من حانوت الشاب قام الشاب على قدميه وقال:

الحمد لله الذي اختص بلدنا بهذا الشيخ الفاضل، ثم قال:

اللّهم أبقه لنا واحرزه للمسلمين، فلقد انتفع به شبابنا وحظي به شيوخنا، ليت في بلدنا آخر مثله.

استعمل -رحمه الله تعالى- أدب ما أنزل عز وجل في كتابه: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

- ومنهم أبو الوليد مروان بن أبي شحمة المُسلي الإفريقي، رحمه الله تعالى:

قال أبو العرب:

كان ثقة مستجابًا فاضلًا، وهو مولى آل عامر بن نافع، سمع من وكيع بن الجراح ومن عبد الرحمن بن مهدي، وكان سحنون يعرف فضله.

قال:

[٢٦١] وبعث في طلبه بعض أمراء بني الأغلب في أمر نُسب إليه، فأقبل -وقت دخوله

---

(١) أي الحزام الذي يوضع على القدم ليشد به النعل.

إلى الأمير - خصيّ بيده عود أو طنبور، فأخذه مروان من يده بنزع عنيف فكسره، فدخل الخصي على الأمير وقال: شيخ بالباب كسر من يدي كذا وكذا، وخرق الخصي ثيابه لعظم ما نزل به عند نفسه، فلما دخل مروان على الأمير عاتبه فيما صنع، فقال: نعم، رأيت منكرًا فغيرته، فلم يراجعه الأمير، ثم عافاه الله - تعالى- منه وخرج.

[٢٦٢] وحدث عبد الرحمن ابنه فقال:

كان أبي يعمل الطوب بيده، فيتصدق بثلث ما يربح فيه، وينفق الثلث الثاني، ويرد ثلثًا في الطين والتبن وفيما يصلح به عمل الطوب.

قال: ولم يكن له سرير يرقد عليه، إنما كان قد نصب طوبًا فعليه ينام في بيته.

وقال غير أبي العرب: كان مروان رجلًا صالحًا متقللًا من الدنيا.

[٢٦٣] وكان إذا جنّه الليل ينادي:

إلهي: لئن كنتَ أطلتَ في الدنيا جهدي وتطيل شقائي في الآخرة لقد أهملتني وأسقطتني من عينك أيها الكريم، ثم يبكي حتى يغشى عليه.

[٢٦٤] ويقول عند ذلك: قال مالك بن دينار: إن كنت تحب البقاء فعليك بدار تُعافى فيها فلا تَسْقم، ولا تشيب فيها ولا تهرم، وتقيم فلا تظعن، وتعيش فلا تموت، يعني الجنة.

- ومنهم أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي الدغشي، رحمه الله تعالى:

[٢٦٥] كان من العلماء الزهاد، وأنه كتب إلى سهل بن يونس كتابًا يسأله فيه أن يعظه ويكتب إليه بحاله، فكتب إليه:

بسم الله الرحمن الرحيم، كتبت إليَّ تسألني عن حالي؛ وما عسى أن أخبرك به من حالي وأنا بين خصال موجعات أبكاني منهن أربع: حب عيني للنظر، ولساني للفضول، وقلبي للرئاسة، وإجابتي إبليس لما يكره الله - عز وجل - مني.

وأمرضني مثلها: عين لا تبكي للذنوب المثبتة، وقلب لا يخشع عند الموعظة، ومعرفة كلما

قلبتها لم أحمدها، وحب المحمدة من الخلق.

وأضناني مثلها: عدمت خير زاد الآخرة وهو التقوى، وحُرمت خير خصال الإيمان وهو الحياء، وبعتُ أيامي بمحبتي الدنيا، وضيَّعتُ قلبًا لا أقتني مثله أبدًا؟.

-ومنهم أحمد بن أبي مخرز القاضي، رضي الله تعالى عنه:

[٢٦٦] ولي القضاء مكرهًا في شهر رمضان سنة عشرين ومائتين، فأقام على القضاء تسعة أشهر ثم توفي.

وكان سحنون إذا تكلم فيمن تقدمه من القضاة لم يتكلم فيه إلا بخير لفضله.

[٢٦٧] وكان سبب توليته القضاء أن الناس احتاجوا إلى قاضٍ، وكانوا في ذلك الوقت إذا عُرض القضاء على أحد امتنع من ذلك، فجمعهم الأمير عنده في مقصورة وقال لهم:

ليس تخرجون من عندي من هذا المكان حتى تشيروا عليّ بقاضٍ أوليه على المسلمين.

فامتنعوا من ذلك، فلما رأى الأمير ذلك دسَّ عليهم من عنده عينًا وقال له:

انظر إليهم وقت الصلاة من يقدمونه يصلّي بهم، فرجع إليه الرسول فأخبره أنهم قدموا على أنفسهم أحمد بن أبي محرز.

فقال الأمير: رضوه لدينهم رضيته أنا للدنيا، فعندها أجبره على القضاء وأطلق الباقين.

فلما ولي القضاء اشترط على الأمير ألا يقبل من أحد من أقاربه أو حشمه أو من يلوذ به وكيلًا.

[٢٦٨] وقال من له عناية بأخبار القضاة:

تخاصم رجل من أهل القيروان مع علي بن حميد الوزير في دار من دور مدينة القيروان، فلما نشبت الخصومة في هذه الدار عند أحمد بن أبي محرز وجب عقلها[1] حتى يفصل بها، فطبعها[2]

(١) قال المحقق: العقل: اصطلاح شرعي وقانوني مغربي، يقصد به حجز العقار أو المال ووضع القاضي يده عليه.

(٢) قال المحقق: الطابع هنا يفسره ما جاء قبله: وجب عقلها، فيكون المقصود بـ الطابع أمر القاضي وإذنه الذي يكون مختومًا بختمه، وربما تعدى ذلك بالنسبة للعقارات إلى الإقفال وما يشبهه.

على الرجل الذي كان يعني به علي بن حميد، فمضى ذلك الرجل إلى عليّ بن حميد فأخبره، فأمر عليّ بن حميد بحل الطابع -وذلك أن عليّ بن حميد هذا كان من دولة بني الأغلب بمحلٍّ الوزارة ورفيع الرئاسة، حتى كان بنو الأغلب يدعونه العم- فمضى الرجل المطبوع له إلى أحمد بن أبي محرز وهو جالس في مجلس قضائه بجامع القيروان فأخبره بذلك.

فغضب القاضي وضم ديوانه ومضى إلى داره، وأخذ سجل ولايته ومضى إلى القصر القديم نصف النهار وقت قائلة الأمير زيادة الله، فوافق مسرورًا الحاجب وسأله الإذن على الأمير، فمنعه من ذلك وقال: ليس هذا وقت إذن.

فقال له أحمد القاضي: وتمنعني من بابه؟

فقال له: لا أمنعك ولا آمرك.

فأتى أحمد القاضي إلى باب قصر زيادة الله فقرع حلقته، فخرجت والدة زيادة الله من مقصورتها فزعة، فقيل لها: القاضي أحمد يريد الإذن على الأمير لأمر أهمه.

فأتت إلى مقصورة زيادة الله وهو نائم على سريره مع بعض حرمه، فحركت حلقة الباب، فقال الأمير:

من هذا؟

فقالت: الوالدة.

فقال: وما حاجتك؟

فقالت: القاضي بالباب، وذكر أنه أتى في أمر دهمه.

فأذن له بالدخول عليه، فدخل، وسلم عليه بالإمارة وقص عليه قصته وقال: هذا سجلّك، فإن رأيت أن تعافيني فإن الله – تعالى – يجزل مثوبتك.

فكان جوابه: لا تغضب، اجلس خارج القصر حتى أريك ما أفعله.

قال: فخرج أحمد إلى سَقيفة القصر وقام زيادة الله فاغتسل ولبس ثيابه وركب وجمع جنده حوله، وركب أحمد القاضي معه يحادثه ولا يدري أين يتوجه الأمير، حتى دخل من باب أبي

الربيع، ووقف على باب المسجد المعروف بمسجد المقرعة بالقرب من الجامع، فقال لأحمد:

أي الدار التي أمرت بطبعها؟

فقال: هذه هي.

فقال: اجعل عليها طابعًا ففعل ذلك، وختم بطابع الأمير زيادة الله، ثم عطف على أحمد فقال: إنا نرضيك يا قاض.

فلما سمع علي بن حميد بذلك ومجيء الأمير ووقوفه بالسماط الأعظم خرج راجلًا حتى أتاه، فكان من زيادة الله إلى عليّ كلام خشن، وقال له في كلامه:

والله لولا واجب قديم صحبتك ما جعلت طابعه إلا على رأس من حلّه! من تنقَّص قاضيَّ فإنما تنقَّصني وحلَّ من أمري، ثم رجع الأمير زيادة الله إلى قصره، فكان من ذلك بالقيروان رجة عظيمة، وتبرأ علي بن حميد من ذلك الرجل ودّ لو أن حياته انقضت قبل ذلك.

وجرى مثل ذلك غير ما مرة، فرحمة الله -تعالى- ورضوانه على الأمير وعلى قاضيه.

[٢٦٩] وكان زيادة الله يقول:

ما أبالي -إن شاء الله- ما قدمت عليه يوم القيامة وقد قدَّمت أربعة قبل وفاتي.

قيل: وما هي؟

قال: بنائي المسجد الجامع بالقيروان أنفقت فيه ستة وثمانين ألف دينار، وبنائي القنطرة بباب أبي الربيع، وبنائي الحصن بسوسة، وتوليتي أحمد بن أبي محرز قضاء إفريقية.

[٢٧٠] وسُمع ابن زرقون يحكي:

أنه تخاصم رجل أبزاري مع رجل آخر عند أحمد بن أبي محرز، فراجع الأبزاري ابن أبي محرز وجفا عليه، فأمر بأدبه، فلما كان في تلك الليلة راجع ابن أبي محرز القاضي نفسه في أمر الأبزاري فوقع عنده أنه انتصر لنفسه، فلما أصبح وجه في طلب الأبزاري ليتحلل منه، فوجده قد رحل إلى المشرق للحج، فلحقه إلى مدينة قلشانة فاجتمع معه وسأله أن يحلله، فحلله فرجع، فلما صار في بعض الطريق قال في نفسه:

رجل فعلتُ به ما فعلتُ في جماعة من المسلمين سألته أن يحللني بيني وبينه؛ هذا لا يصلح، فرجع إلى رفقة الحاج وجلس في وسط الناس وطلب الأبزاري، وجمع الرفقة وأعلمهم بالقصة، وسأل الأبزاري بحضرتهم أن يحلّله أو يقتص منه، فحلّله الأبزاري وقال:

ما أردتَ، أصلحك الله، إلا خيرًا، وأنا رفعت كلامي عليك ولم أجلّ القضاء، وقد أخطأت فيما فعلت وأنت في حلّ مما أمرت به وفي سعة في الدنيا والآخرة عن طيب نفس مني، فشكره على ذلك ودعا الناس لابن أبي محرز وشكروه على ذلك وبكوا لفرقته، وانصرف إلى مدينة القيروان.

فرحم الله ابن أبي محرز: حاسب نفسه قبل أن يحاسَب، ولم يتقلد لأحد قلادة يطالب بها يوم القيامة، فلقي الله - تعالى - خفيف الظهر.

[٢٧١] وكان كثير البكاء غزير الدمعة؛ قال عبد الله الربعي:

ذُكر يومًا في مجلس ابن أبي محرز أن عمر بن عبد العزيز عزم على إبراهيم بن أبي عبلة[١] أن يوليه القضاء فامتنع من ذلك إبراهيم، فشدّد عليه عمر في ذلك، فقال إبراهيم:

يا أمير المؤمنين: بيني وبينك كتاب الله عز وجل.

قال: وما هو؟

قال: قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ [الأحزاب: ٧٢] فلم يُكرهها على حملها، ولا عتب إذ أشفقت منها.

فبكى ابن أبي محرز عند ذلك بكاء عظيمًا حتى انصرف الناس، ولم يُنتفع به باقي يومه ذلك.

ولم يزل قاضيًا بالقيروان لزيادة الله حتى توفي، وكانت ولايته تسعة أشهر.

[٢٧٢] ولما احتضر أحمد، قال لابنه عمران:

إني أظن هذا الملك -يعني زيادة الله- إذا أنا مت يبعث إليّ بكفن وحنوط ويصلي عليّ، فإذا أنا مت فاستر موتي وغسّلني وكفني وحنطني وصلِّ عليّ أنت ومن حضرك من أهل

---

(١) قال المحقق: وهو إبراهيم بن أبي عبلة شِمر بن يقظان، أبو إسماعيل، محدث شامي ثقة، توفي سنة ١٥٢.

خاصتنا، ثم أظهر موتي وأخرجني إلى قبري؛ ثم مات - رحمه الله تعالى - وفعل عمران ما أمره، فلما أخرجه وصار على باب داره، وافاهم خلف الخادم من عند الأمير زيادة الله ومعه اثنا عشر ثوبًا وبُرْمة فيها مسك، فقال: يا عمران: ما هذا الذي صنعت؟

فقال له: ما كان عندنا علم من هذا الذي صنعتم.

قال: فلابدّ أن تدخلوا هذه الثياب في كفنه.

فقال: ليس إلى هذا سبيل، ولا يصلح هذا، فأخذ خلف الخادم تلك البرمة وفرَّغها على كفن أحمد القاضي حتى أتى على آخرها، ومضوا به، فلقيهم زيادة الله عند المصلَّى، فنزل وصلّى عليه، وحضر دفنه وعزى عمران ولده.

[٢٧٣] ثم قال زيادة الله:

يا أهل القيروان: ما لكم عند الله من خير، ولو أراد بكم خيرًا لم يزل أحمد فيكم وبين أظهركم وإنما استكفاه أموركم تسعة أشهر.

-ومنهم أبو عبد الملك الملشوني:

كان أبو عبد الملك الملشوني صاحب أخبار ومغازٍ، وله كتاب كبير في أخبار الأنبياء، صلوات الله عليهم.

وقال أبو العرب:

[٢٧٤] وكان أمراء بني الأغلب يرسلون إلى إسحاق فيكون عندهم في شهر رمضان، فيحدثهم بتلك العجائب حتى يقطع بهم طول النهار.

وكان ربما جالس سحنون بن سعيد.

[٢٧٥] وحدث الشيخ أبو القاسم بن شبلون الفقيه ﷺ فيما بلغه، أن سحنون بن سعيد دخل على محمد بن الأغلب الأمير أول يوم من شهر رمضان، فألفى الأمير خاليًا، فقال له:

أراك أيها الأمير خاليًا.

فقال: نعم، انفردنا في هذا الشهر المعظم، وخلونا فيه، وتركنا ما كان لغير الله عزّ وجل.

فقال سحنون: فأين أنت أيها الأمير من إسحاق بن الملشوني يحدثك بأخبار الأمم السالفة والأعوام الماضية؟ فأمر محمد بن الأغلب بإحضاره، وكان يحضر عند محمد بن الأغلب في كل يوم يحدثه بذلك حتى انقضى شهر رمضان، فلما رأى هلال شوال خرج الحاجب إليه فقال: انصرف، آجرك الله.

قال إسحاق: فقلت في نفسي: ما أحد أعجز مني ولا أزهد في نفسه! حضرت مجلس الأمير ثلاثين يومًا فلم أذكر الدَّين الذي عليَّ ولا الفقر الذي أنا فيه!

قال: فلما بلغتُ الباب إذا برسول يركض خلفي فقال: أجب الأمير، فرجعتُ فدخلتُ عليه فقال: يا ابن الملشوني: أردت أن أسألك عن شيء أجبني عنه.

فقلت: أصلحك الله، ما هو؟

فقال: عقل الرجل أين مَسكنه؟

فقلت: أما من عاقل مثلك فبين عينيه، وأما من حليم مثلك فوسط رأسه، وأما في غير حازم مثلي وفي عاجز يشبهني ففي قفاه.

قال: ولم ذاك؟

فقلت: أصلح الله الأمير، جالستك وسامرتك ثلاثين يومًا ولم أذكر لك دينًا عليّ ولا أعلمتك به.

قال: ويحك! وكم عليك من الدَّيْن؟ قلت: مائة وخمسون دينارًا، فأمر بها لي من بيت المال.

قال إسحاق: فقلت له: القمح الذي تقوم به الأبدان ليس في البيت منه شيء.

قال: وكم قوتك في السنة؟

قلت: خمسون قفيز قمح قال: فأمر لي بها.

فقلت له: أصلح الله الأمير: البِرْذَوْن الذي يحمل رحلي لا يقوم إلا بالعِلَق.

قال: وكم يقوم به في السنة؟

قلت: خمسون قفيز شعير فأمر لي بَها.

فقلت: أصلح الله الأمير: الزيت الذي نأتدم به ونستصبح به ليس في البيت منه شيء.

قال: وكم يقوم بك في السنة؟

قلت: ثلاثمائة قفيز، فأمر لي بها.

فقلت: أصلح الله الأمير: الحطب الذي ليس عنه غنى ليس عندنا منه شيء.

قال: وكم يقوم بك؟

قلت: عشرة أحمال فأمر لي بها.

قال: ثم أمر الأمير إبراهيم بن دارم كاتبه أن يدفع إليّ الخمسين ومائة دينار وقال: إن شئت تقضي بها، وإن شئت اصنع بها ما شئت.

قال: فأخذت ذلك كله وانصرفت، وذلك ليلة العيد.

- ومنهم أبو الوليد عبد الملك بن قطن المهري اللغوي:

[٢٧٦] كان شيخ أهل اللغة والعربية والرواية، ورئيسهم وعميدهم، والمقدم في زمانه وبلده، وكان من أحفظ العلماء وأكثرهم رواية لأنساب العرب ووقائعها وأيامها، وحسبك معرفة بعلمه وصحة روايته أن أكثر الأشعار المشروحة كانت تقرأ عليه مجرّدة من الشرح، فيشرحها ويبين معانيها، فلما دخلت المشروحات نظر طلبة العربية فيها، وفيما كانوا رووا عنه، فلم يجدوا في شرحه خلافًا لما قال أصحاب الشرح، ولا أخذوا عليه في تفسيره خطأً.

كان قليل النظر في تدبير معيشته: لا يمسك دينارًا ولا درهمًا، على كثرة ما كان يُوصَل ويُجبَى ويُعطى.

[٢٧٧] حدث حمدون النحوي المعروف بالنعجة، قال:

كنا عند أبي الوليد المهري يومًا فقال: اخرجوا بنا نتفرج، وكانت داره بالقرب من سوق الأحد، فخرجنا معه، فجلس وجلسنا حوله إلى أن مرت بنا نحو عشرين بغلًا أو أكثر ومعها

رجل راكب، فلما رأى المهري عدل إليه ونزل وقال له:

يقرأ مولاي عليك السلام ووجَّه إليك بهذه الدواب وهي محملة طعامًا وعسلًا وزيتًا، وبهذه العشرين دينارًا فقبضها منه متكرهًا، ثم دمع وقال:

ذهب الناس! ثم قال: إنا لله وإنا إليه راجعون: أبو الفضل بن علي بن حميد يوجه إليَّ بهذه!

قال حمدون: فقلت له: احمد الله عزّ وجلّ واشكره، فإن هذا كثير.

فنظر إليَّ وهو مغضب وقال: هذا كثير لك ولأمثالك، وأما لي فلا.

[٢٧٨] قال سعيد بن الحداد، صاحب سحنون:

كنت يومًا أمشي مع المهري إلى أن مررنا بالجزارين، فقام إليه رجل منهم فقال:

يا أبا الوليد: أضررتَ بي، لأن بضاعتي كلها عندك، ولابد لي من أداء مالي قبلك! فاعتذر إليه وسأله الصبر، فأبى عليه، فمرّ بنا رجل فقال للجزار:

كم لك على الشيخ؟

قال: عشرة دنانير.

قال: هي لك عليّ، امضِ معي حتى أدفعها لك، فمضى معه فدفع إليه الدنانير.

وظننت أنا أنه من إخوان المهري، وظن المهري أنه من أجلي فعل ذلك به، فلما سرنا قال لي المهري: الرجل الذي ودّى عنّي الدنانير من هو؟

فقلت: لا أعرفه، ولكن أسألُ عنه، فسألتُ فإذا هو رجل عطار.

قال: وكان الناس من تعظيم أهل العلم والأدب على خلاف ما هم عليه اليوم، قال صاحب الكتاب:

[٢٧٩] ولقد تذكرت بهذه الحكاية حكاية أخبرني بها بعض المشايخ، قال:

كان شيخ له أدب وعقل، وكان يأتي إلى زقاق الفرانين فيجلس مع قوم، وكان أكثرهم من أهل العلم، فأبطأ عليهم أيامًا، فمضوا إليه يتعرفون أحواله، فسألوه عما أخره عنهم فأعلمهم أن حماره الذي كان ينصرف عليه أصيب به، فأصبح كل واحد منهم -من غير أن يعلم

صاحبه- فاشترى له حمارًا بسرجه ولجامه، وكانوا جماعة، فأصبح على بابه نحو من أربعين حمارًا.

[٢٨٠] قال المهري:

اغتممت ليلة غمًّا ما مرّ بي مثله، ثم سررت سرورًا ما سررت مثله، ثم اغتممت كذلك، ثم سررت كذلك.

فقيل له: وكيف ذلك، أصلحك الله؟

قال: كانت شدة وأزمة عظيمة، وضاق بنا الحال، فبلغني أن رجلا من أشراف مهرة عنده طعام كثير يصل منه ويعطي، قال: فَحَسُن عندي المسير إليه، فركبت دابتي ومضيت حتى وصلت منزله، فوجدته جالسًا في مسجده وعنده جماعة من الناس: مشترون وغيرهم.

فسلّمت عليه وجلست، ثم عرّفته بنفسي، فلم يكن منه انشراح يرضيني، فصلى المغرب ثم دخل منزله، ثم خرج فصلّى بنا العشاء الآخرة، ثم دخل فلم نشعر إلا بالموائد قد نُصبت للناس، فأكلنا، ثم أمر من أعلف دوابنا، فلما كان آخر الليل سمعت حركة الناس للإدلاج، فإذا بغلام ينبهني، فقلت:

ما بالك؟

فقال: قم، إن الناس راحلون.

فامتنعت، فقال لي: يا هذا: بهذا أمرني مولاي، فقدّم إليّ دابتي، فركبت وأنا من أكثر الناس همًّا، وجعلت أقول في نفسي:

هذا الكذا، لم يُلْقِ لي بالًا ولا اكترث بقدومي عليه! وندمت على إتياني إليه، ومضى الغلام معي حتى لقينا الناس، فقال لبعض أهل الرفقة: هذا الرجل ثم قال لي:

إن مولاي احتشم منك ومن لقائك والاجتماع معك والاستماع لمحادثتك إذ لم يستقبلك بما يجب لك، فزادني ذلك غمًّا، فقال لي الرجل الذي جمع الغلام بيني وبينه: هل أصلحت موضعًا؟

قلت: لماذا؟

قال: هذه العشرون جملًا محملة طعامًا كلها لك فسُرَّي عني وسررت سرورًا كثيرًا، وكان القمح في ذلك الوقت القفيز بدنانير كثيرة، وأقبلت وأنا أفكر فيما أبيع منه وما أبقي، وكيف أصنع، وأنا في سرور عظيم، فبينا أنا على ذلك إذا بقوم محاربين قد خرجوا علينا وأحاطوا بنا وأخذوا كل شيء كان معنا، وعرّونا من ثيابنا، وأخذوا دوابنا، وكُتفت فيمن كتف، فما مر عليّ غم مثله، فبينا أنا على ذلك، وكانت ليلة مقمرة، إذ مرّ بي أحد السلاّبة، فنظر إليَّ وتأملني ثم قال لي: من أنت؟

قلت: أنا أبو الوليد المهري.

فطأطأ عليّ وقبّل رأسي وعانقني، ثم مضى عني مسرعًا، ثم أتى بأصحابه وهو يقول لهم: كانت سفرتكم سفرة خائبة! ثم أُتيت بثيابي فلبستها، وبدابتي فركبتها، وهو آخذ بركابي، وردّ على جميع ما كان لأهل الرفقة بسببي، ثم قال لي: أتعرفني؟

فقلت: لا، إلا أنك أنعمت عليّ وأحسنت إليّ.

فقال لي: وأين هذا من إحسانك أنت؟ ثم قال لي:

أتعرف الفتى الحدث الذي قُدِّم إلى زيادة الله بن الأغلب بالقيروان ليُقتل مع أصحابه، فسألته فيه وخلصته منه؟

فقلت: نعم. فقال: أنا هو، فجعلت أشكره، فقال:

وكيف لي بمكافأتك؟ خلصتني من القتل وأنا إنما كففت عنك شري، ثم ودعني وانصرف مع أصحابه بعد أن مشوا معنا إلى أن أصبح الصبح.

ذكر من كان في هذه الطبقة من المتعبدين والزاهدين الخائفين والوجلين المشفقين ﷺ

- منهم أبو عبد الله حمدون بن عبد الله العسال:

[٢٨١] كان من أهل الفضل والدِّين والاجتهاد في العبادة، كان يصلّي ثلث الليل، وينام ثلثه، ويبكي ويدعو ثلثه.

[٢٨٢] وذكر ابن الحداد، قال: كنت أذهب إلى باب سلم أصلّي قيام رمضان خلف

حمدون، فكان إذا مر بآية بشارة جال في المحراب وتقدم وتأخر، وإذا مر بآية خوف خشع واجتمع، ولقد قرأ ليلة في سورة يوسف قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فسقط على وجهه في المحراب، فأقام ساعة طويلة، ثم نهض قائمًا، رحمه الله تعالى.

[٢٨٣] وعن عمران بن الخشاب، قال:

خرجت مع حمدون بن العسال إلى قصر الطوب، فلما كنا بالقرب من القصر إذا بجبلين: جبل منهما شَعِث ليس فيه نبت ولا خضرة، وآخر إلى جانبه حسن النبات والخضرة، فقال لي:

يا عمارة: هذه أرض متقاربة إحداهما شعثة والأخرى خضراء.

فقلت له: العمل!

فصاح: العمل، قُلتَ يا عمار! العمل! ولم يزل يكرر ذلك ويصيح ويبكي حتى دخل قصر الطوب.

[٢٨٤] وقال ابن الحداد: مات غلام لحمدون بن العسال، وكان هو القائم به، فجئنا لنعزيه، فنحن جلوس عنده حتى التفت إلينا فقال:

أشهدكم أن أهله وولده أحرار لوجه الله تعالى، فأحزننا ذلك، فإنه لم يكن له شيء يَقْوَى به على معيشته غيرهم، ثم قال لنا: إن العدو[1] عرض لي فقال: مات من يقوم بك فما أنت صانع؟ فأردت أن أرغمه بعتقي لزوجته وأولاده.

-ومنهم أبو محمد الأنصاري الضرير، رحمه الله تعالى.

كان - رحمه الله تعالى- رجلًا صالحًا مستجابًا، وكان ضرير البدن والبصر، وله فضائل مشهورة.

[٢٨٥] فمن ذلك ما حدث به الثقة، قال:

---

(١) يريد بالعدو: الشيطان.

كنا ليلة النصف من شعبان عند أبي محمد الأنصاري، وكان ساكنًا بالدمنة[1]، وكنا نجتمع عنده مع القراء للذكر مع وجوه الناس ليلة النصف من شعبان وليلة النصف من رمضان، وكان أمراء بني الأغلب يأتون إلى جامع القيروان في تينك الليلتين ويكون فيهما من الصدقات أمر كثير، ثم يخرجون من المسجد الجامع إلى الدمنة ويزورون أبا محمد الأنصاري، يتبركون به وبدعائه.

قال: فخرج زيادة الله بن الأغلب من الجامع مقبلًا إليه حتى وقف على باب داره في حشمه وأهل بيته وخدمه، ثم قال لخلف الخادم ومسرور الخادم:

ادخلا جميعًا إلى هذا الرجل الصالح وأعلماه وقولا له: إمامك بالباب يريد الدخول إليك والسلام عليك، فدخلا إليه وأعلماه بما أمرهما به زيادة الله.

فقال لهما: قولا له: ينصرف عني إلى حال سبيله، فما له عندي حاجة ولا لي عنده حاجة.

فخرجا إلى زيادة الله فأعلماه بما رد عليهما، فاغتاظ زيادة الله، عند ذلك، غيظًا عظيمًا وقال لهما: ادخلا إليه وأخرجاه شاء أو أبى، فدخلا إليه فأعلماه بما أمرهما، فحمله قوم من أصحابه من الصالحين حتى وقفوا به إليه، فقال له زيادة الله:

يا هذا: أتيناك لتأمرنا بمعروف فنفعله ونسارع إليه، وتنهانا عن منكر فننزجر عنه، فجبهتني وحجبتني عن نفسك وأنا إمامك!

فانتهره أبو محمد الأنصاري وقال له: جرأك عليَّ علماء السوء الذين يغرونك ويزينون لك زخارف الدنيا وغرورها، ولو عملتَ بما علمتَ أنبأتك بما جهلت، اذهب عني لئلا أشتكيك إلى الله، عز وجل.

فقال: صدقت ثم انصرف عنه، فأرسل إليه بصلة فلم يقبلها.

[٢٨٦] وقال: لما انصرف منصور الطنبذي من القيروان إلى تونس، وكانت عندي دنانير مصرورة، وكان منصور قد أصلح سور القيروان وغلق أبوابها، فخرجت في آخر الليل ومعي الدنانير، فمضيت إلى دار أبي محمد الأنصاري فضربت الباب

---

(١) قال المحقق: تردد ذكر الدمنة كثيرًا في ثنايا «الرياض»، والمفهوم منها أنها تشبه ما سمّي في المشرق بـ البيمارستان. قلت: أي المستشفى، ولا أظن أن ما ذهب إليه صحيح، والله أعلم.

وأخبرت بنفسي، ففتح لي فدخلت فوجدته جالسًا في مصلاّه، فقال لي:

ما جاء بك في هذا الوقت؟

فقلت له: إن هذا الرجل قد رحل في هذه الليلة، وهذه الدنانير ارفعها لي عندك لأني أخاف من زيادة الله بن الأغلب أن ينهب هذه المدينة.

فقال لي: خذ دنانيرك معك.

فقلت له: أصلحك الله، إني أخاف.

فقال لي: لا تخف فإني رأيت الساعة وأنا بين النائم واليقظان رجلًا راكبًا على فرس أخضر وعليه ثياب خضر وبيده لواء أخضر وقد أخذ الدنيا، فقلت له:

من أنت يرحمك الله؟

فقال: أنا جبريل.

فقلت له: صلى الله عليك يا جبريل.

فقال لي: يا أنصاري إن الله، تعالى، بعثني لأهل هذه القرية بالأمان -يعني القيروان- فرددت دنانيري معي، وما راعني شيء.

- **ومنهم أبو زكريا الهرقلي**:

[٢٨٧] أصله من الأندلس، وكان صاحبًا لسحنون لا يكاد يفارقه جلوسًا وحديثًا، فلما ولي القضاء ترك مجالسته وصد عنه.

[٢٨٨] ذُكر أن سعدون الصواف شارك أبا زكرياء في الزرع، ثم قسما ما حصداه بينهما، فأقبل سعدون بحصته إلى القيروان، فلم يشعر حتى أبصر أبا زكرياء، فقال له:

ما الذي أقدمك يا أبا زكرياء؟

فقال له: بت بليلة طويلة، عرض العدو بقلبي بأن سيحول الشعير وأصيب فيه، فأتيت لأبيعه وأخرج حاجًا، ولم يبق إلا رفقة تخرج بعد ثلاثة أيام.

فقال: يا سعدون: بع طعامي بعرض طعامك، ففعل وتوجه معه إلى السوق لشراء دابة

فلم يجدها، وعاد في اليوم التالي فلم يجدها، فلما كان في الثالث توجه معه والحاج يُضْرَبُ لهم الطبل وهم خارجون، فجعل أبو زكرياء كلّما ضُرب الطبل يقول: يا خفي اللطف! ويردد ذلك، فنحن كذلك وإذا بجماعة من جماعة بني أبي حسان اليحصبي أتوا الموقف فسألتهم: ما الذي أتى بكم؟ فقالوا: مولانا تجهز يريد الحج فمات، فجئنا نبيع جهازه ودابته، فاشتريت منهم لأبي زكرياء حمارة وجميع جهازها حتى المِخْلاة[1] والسوط، فركب أبو زكرياء دابته وانطلق مع الحاج.

[٢٨٩] حدث أبو عياش، قال:

كان أبو زكرياء يمشي وصاحب له على شاطئ البحر، فقال له:

يا أبا زكريا: لقد اشتهيت تينًا أخضر.

فقال له أبو زكريا: تمشي إلى تلك الصخرة فانظر ما عندها.

قال: فذهب، فوجد تينًا أخضر، فأتى به يحمله، فأكل منه حتى شبع، وأراد أن يحمل الباقي فقال له أبو زكريا: أترى أمك وضعته لك؟ ألقه! فألقاه.

[٢٩٠] استشهد أبو إبراهيم الخراساني المتعبد فجعل أبو زكريا هذا -وكان صاحبه- يقول:

يا رب خرجت أنا وصاحبي في حاجة فقضيت حاجته وتركت حاجتي؟ فخرج عُنُق[2] من الروم فدفعوا دفعة واحدة فقتلوا أبا زكرياء وانصرفوا، قال:

فنظرت إليه وإلى أبي إبراهيم ووجه هذا إلى وجه هذا، رضي الله تعالى عنهما.

- ومنهم مكرم المتعبد بالمنستير ﷺ:

كان فاضلًا ورعًا، وكان سكناه بالقصر الكبير[3] وبه قبره على ساحل البحر.

---

(١) كيس الشعير.

(٢) أي الجماعة من الناس: «المعجم الوسيط»: ع ن ق.

(٣) يُكثر المصنف من إيراد مصطلح القصر، والمقصود به الحصن ذو الأسوار والبيوت بداخله، وهو إلى الآن معروف في بعض نواحي بلاد المغرب بهذا الاسم.

[٢٩١] كان تحت بيته بيت صغير يسكنه رجل فقير، قال: فنزل مكرم ذات يوم إلى ذلك الرجل فسلّم عليه وسأله عن حاله فقال له:

خَبّرتني رائحة قدرك البارحة.

فقال له مكرَّم: وما كان في قدري؟ إنما كان فيها بصل وزيت وكمون.

قال: آذيتني بها على كل حال.

فقال له: فهلاّ جئتني؟

قال: كرهت أن أنغصك.

فقال مكرم: وعشت أنا حتى طبخت قدرًا فاحت رائحتها فشمّها هذا وهذا! والله الذي لا إله إلا هو لا طبخت قدرًا حتى ألحق بالله عز وجل!

قال: فما طبخ قدرًا ولا أكلها حتى مات، رحمه الله عز وجل.

[٢٩٢] وذكر شيوخ المنستير أن الروم أتوا مرة إلى المنستير وقد أصابهم عطش شديد، فاستسقوا الماء فلم يسقوهم ومنعوهم أخذ الماء، فاستسقى الروم، وأسبلوا شعورهم ودعوا، فأُمطروا، فنصبوا الأنطاع وتلقوا بها الماء فشربوا حتى رووا، قال مكرم لأصحابه: ها هنا قوم جهّال لا علم لهم، قد داخل قلوبهم من هذا شيء، ويظنون أن هؤلاء الروم على حق، قالوا: واجتمع شيوخ المنستير بجماعتهم إلى مكرم، وصلوا ركعتين، واجتهدوا في الدعاء، فأرسل الله سبحانه ريحًا من داخل البحر فكسَّرت مراكبهم ورمتهم على شاطئ البحر، قال: فخرج إليهم المسلمون وغنموهم، وجمعوا جميع ما حصل من ذلك وبنوا به ربض القصر الكبير، وهذا يدلّ على أنه لم يكن بينهم وبين المسلمين عهد ولا هدنة، فلذلك استحلّوا سبيهم وأخذ أموالهم.

- **ومنهم أبو محمد عبد الرحيم بن عبد ربه الربعي الزاهد ويعرف بعبد الرحيم المستجاب:**

سمع من سحنون ومن أسد، وطلب العلم وعُني به، وحبس كتبًا كثيرة بخطه.

[٢٩٣] قال أبو العرب:

وكان أول أمره تاجرًا في سوق البزازين في القيروان، ثم ترك ذلك، وسكن قصر زياد، وهو الذي تولى بناءه، وذلك أن أسدًا[1] لما أراد الغزو إلى صقلية أراد عبد الرحيم الخروج معه، فشاور في ذلك سحنونًا فكسر عليه وقال له: لا تفعل، ثم قال له:

كنت ذكرت لي أنك تحب بنيان قصر زياد، وأن عندك أخبارًا توجب الخوف من البر والبحر، وبنيانك لهذا القصر يكون حرسًا للمسلمين وغوثًا لهم، يلجئون إليه ويرابطون فيه أفضل من مسيرك إلى صقلية، فمضى عبد الرحيم إلى أسد فأخبره بما قال سحنون، فقال: الذي أشار عليك به هو الصواب.

ثم دخل على زيادة الله بن الأغلب الأمير، فخرج ومعه سجلاّن: سجل منهما بولايته على صقلية أميرًا وقاضيًا، وسجل آخر لعبد الرحيم في الإذن له في بناء قصر زيادة، فتولّى عبد الرحيم بناءه وإصلاحه وأنفق فيه اثني عشر ألف دينار ستة آلاف من عنده وستة آلاف من عند إخوانه، وكان ذلك سنة اثنتي عشرة ومائتين.

[٢٩٤] وكان البَنّاء يُعرف بعبد الله بن مالك من قرية بني عمروس، وكان بقرية البرج التي بقصر زياد شيخ فقيه اسمه مسعود، رأى في المنام كأنه وُزِن مع عبد الله بن مالك البنّاء، فرجح عليه عبد الله بن مالك، فقال له مسعود: بماذا رجحت عليّ وأنا أطلب العلم وسمعت وصحبت العلماء؟

فقال له عبد الله: رجحت عليك ببنيان هذه الصومعة، وأشار إلى صومعة قصر زياد.

[٢٩٥] قال: وكانت عند عبد الرحيم ضيعة واسعة، وكان عنده سبع عشرة ألف شجرة زيتون، وكان مع هذا أزهد أهل زمانه، وكان كثير الصدقة والمعروف، لم يكن للدنيا عنده قدر.

[٢٩٦] وذُكر عنه أنه ما تزوج قط ولا تسرى، وكانت عنده وصيفتان مولدتان لهما جمال تقومان به وتخدمانه، فقيل له: لم لا تتخذ إحداهما سُرية لك، فإنهما تصلحان لذلك؟

---

(١) هو أسد بن الفرات، وقد تقدمت قصته.

فحلف أنه لا يعرف صفة وجهيهما لشغله بعبادة ربه عز وجل.

[٢٩٧] قال أبو بكر عتيق بن خلف:

كان عبد الرحيم إذا جنّ الليل قام إلى محرابه، فهو راكع وساجد إلى أن ينادَى بالفجر، وكان السهر قد غيره حتى كأنه مبهوت من طول القيام وسرد الصيام، وكان ممن لا يتوسد القرآن، فكان يهجع هجعة لطيفة ثم يثب كأنه قد ضلّ له شيء فهو يطلبه.

[٢٩٨] وحدث من يوثق به قال: دخلت أنا وصاحب لي على عبد الرحيم فقال له صاحبي:

يا أبا محمد، أوصِنَا بكلمات ينفعنا الله تعالى بها ويأجرك عليها.

فقال له: يا بني: أوصيك أن تتقي الله، وتجتنب محارم الله، وتؤدي فرائض الله عز وجل، وتحسن إلى عباد الله، وإن زدت زادك الله.

[٢٩٩] وكان سحنون يجلّه ويعظمه ويزوره ويسأله الدعاء إذا أهمه أمر، ويلجأ إليه عند المهمات، فلما ولي سحنون القضاء كتب إليه برسالة وهي:

[٣٠٠] بسم الله الرحمن الرحيم:

من عبد الرحيم بن عبد ربه إلى سحنون بن سعيد:

أما بعد؛ فقد عهدتك وأنت معتنٍ بنفسك: تقرأ القرآن وتعلّم الناس العلم وتفقههم في الدين، وقد بلغني أنك جُعلت قاضيًا استوى فيك الأسود والأبيض والضعيف والقوي، وصرت تنظر في أمر دنياهم بعد أن كنت تنظر في أمر أخراهم.

فيا عجبًا يا سحنون! أي حالتيك كانت أحسن: الأولى أم هذه؟

والسلام عليكم.

فكتب إليه سحنون:

بسم الله الرحمن الرحيم:

من سحنون بن سعيد إلى أخيه عبد الرحيم بن عبد ربه:

أما بعد؛ فقد أتاني كتابك تذكر فيه أني جعلت قاضيًا، فاعلم -يا أخي- أني لم أزل قاضيًا منذ أربعين سنة، وقد حدثني ابن وهب حديثًا يرفعه: إن المفتي قاضٍ يجري قوله في أشعار المسلمين وأبشارهم، وأما قولك إنك عهدتني أُفقههم في الدين وأنظر لهم في أمر أخراهم، وقد صرت أنظر في أمر دنياهم، فاعلم -رحمك الله تعالى- أنه لا تصلح لهم أخراهم حتى يصلح لهم أمر دنياهم: آخذ لضعيفهم من قويهم ومن ظالمهم لمظلومهم، وبعد هذا كله فقد ابتليت، فعليك بالدعاء فألزمه لي نفسك.

والسلام عليك.

ذكر إجابة دعوته وصنوف من كراماته:

[٣٠١] عن محمد بن علي بن عبد ربه - ابن أخي عبد الرحيم- قال:

كان عمي عبد الرحيم بن عبد ربه مقيمًا في قصر زياد(١)، فرأى في منامه كأن قائلًا يقول له: بقي عليك أن تسمع من سحنون كتب ابن وهب.

فاستيقظ فقال: اللَّهم كبرت سني والحركة تشق عليّ، فيسر لي ذلك، فلم يكن إلا يسير حتى قدم سحنون بكتبه هاربًا من أحمد بن الأغلب حين دعاه إلى القول بخلق القرآن، فأقام عند عبد الرحيم شهرين ونصفًا مستخفيًا، فسمع عليه ما أراد من ذلك، واستجاب الله -عزّ وجلّ- دعوته.

فلما كان بعد ذلك، وصل رسول أحمد بن الأغلب إلى قصر زياد في طلب سحنون للمحنة في القول بخلق القرآن، فخرج عبد الرحيم مع سحنون يشيعه، فلما انتهى مع سحنون إلى آخر الحمى، استقبل عبد الرحيم القبلة ووقف سحنون قبالته يوادعه، فتعانقا وبكيا ودعا له عبد الرحيم بدعاء كثير وهو مستقبل القبلة، ثم قال لرسول ابن الأغلب، وهو ابن سلطان: قل لأحمد: عارضتني في ضيفي، فوالله لأعرضنك على رب العالمين، فاستجاب الله -عزّ وجلّ- دعاء عبد الرحيم وعافى الله- عزّ وجلّ- سحنونًا مما طلب منه، ولم يصل إليه أذى، وأعزه الله -تعالى- وشرف قدره وأقام به السُّنة وأمات به البدعة، ولم يُقِم أحمد بن الأغلب بعد ذلك إلا

(١) سبق بيان أن القصر هو الحصن المسوّر الذي فيه عدة بيوت للمرابطين.

أيامًا حتى هلك.

[٣٠٢] قال أبو إسحاق السبائي: بلغني عن سحنون أنه قال:

ذُكر لي عن عبد الرحيم أنه أقام ستة أشهر لم يشرب ماء، فأنكرت ذلك وهالني، فمضيت إلى قصر زياد فاجتمعت به وقلت له: اتصل بنا عنك وانتشر أنك أقمت ستة أشهر لم تشرب ماء.

فقال لي: من لا يأكل الطعام لا يشرب.

قال: فلما أصبح الصبح سلَّمت عليه وانصرفت، فلما نزلت على الدرج من البرج صيح بي، فرجعت إليه فقال لي: سألتني عن شيء وكتمته عنك، فلما انصرفتَ حاسبتُ نفسي لك، وقلت: لا أدعه ينصرف على غير صحيح[١]، فالذي قيل لك عنّي هو صحيح: لي ستة أشهر لم أشرب ماء، وذلك أني كنت قائمًا أصلّي، فأصابني عطش شديد، فلما سلَّمت من الصلاة مددتُ يدي لآخذ القِسْط[٢]، فانقلب القسط وذهب كل ما فيه من الماء، وكانت ليلة كثيرة الريح والبرد، والماجل[٣] أسفل القصر فكبر عليّ النزول في طلب الماء، فقلت: يا رب، إن هذا الماء شغلني عن حزبي، فاحمل عنّي المؤونة.

فأجابني صوت من زاوية البيت -ولم أرَ أحدًا- وهو يقول:

أصلحك الله: أنا من مؤمني الجن، أصلّي بصلاتك مدة من الدهر، فمر بنا في هذه الليلة شيطان مارد من شياطين الجن -وهم أضر علينا مما هم عليكم، نهرب بأدياننا منهم- فحسدك على ما أعطاك الله، عزّ وجلّ، من الطاعة، فرمى لك شيئًا في القسط، ولو شربته لعرض لك في جسمك شيء ليس لك به طاقة، فلما مددتَ يدك إلى القسط سبقتك إليه فهرقته.

قال عبد الرحيم: فأخلصت لله عزّ وجلّ فسألته، فحمل عني مؤونة العطش، وإن احتجنا -بعد هذا- إلى الماء شربنا، قال: فنزل سحنون متقلدًا بسيفه ليركب دابته، فنظر إليه الناس فقال لهم:

---

(١) كذا ورد في الأصل، ولعله: على غير خبر صحيح أو نحوه، والله أعلم.

(٢) هو المقدار من الماء والمقصود به -ها هنا- وعاء الماء، وانظر «المعجم الوسيط»: ق س ط.

(٣) الحوض الذي يوضع فيه الماء.

وما تستعظمون من هذا؟ عبد سأل مولاه في حاجة فقضاها له.

[٣٠٣] حدث أحمد بن أبي حبيب البلياني، وكان رجلًا صالحًا، قال:

كان بقرب قصر زياد رجل من بني نافذ وكان له ناحية من السلطان، وكان له فرس وكان يطلقه في زرع المرابطين، فخوطب في ذلك فلم يقبل ولا سأل عن كلام مَن خاطبه، فأتى الناس إلى عبد الرحيم فذكروا ذلك له، فرفع عينيه إلى السماء وقال:

اللّهم اجعله آية للعالمين، واكف المسلمين شره، فطارت عينا الفرس جميعًا، وبقي أعمى لا يبصر شيئًا، وكفى الله المسلمين شرَّه.

[٣٠٤] ويذكر عن عبد الرحيم أنه رأى ليلة من ليالي رمضان في منامه قائلًا يقول له:

كل من بات في هذا القصر مغفور له إلا صاحب التلّيس[1]، وقد بات في قصبة القصر تلك الليلة خلق كثير، فلما صلى عبد الرحيم الصبح خرج، وكان من شأن الناس أن يودعوه وهو في بيته، فنزل ذلك اليوم إلى سقيفة القصبة، فودعه الناس وسألوه الدعاء، فتقدم إليه صاحب التلّيس ليودعه، وقد خف الناس عنه، فقال له سرًا فيما بينه وبينه:

يا بني: رأى رجل في المنام أن كل من بات في هذه القصبة مغفور له إلا صاحب التلّيس، وأخاف أن تكون أنت هو، فعَرِّفْني ما الذي صنعت؟

فقال: أنا عبد مملوك أبقتُ من سيدي.

فقال له: يا بني، ارجع إلى سيدك وتب إلى الله تعالى من ذنبك، وانصرف عنه، فرجع العبد إلى سيده.

[٣٠٥] وذُكر عن جماعة من الشيوخ قالوا: خرج عبد الرحيم سنة من السنين إلى المنستير فنزل في قصر الكبير، فلما كان العشيّ سمع حس مهاريس، فقال: ما هذا؟ فقيل له: المرابطون يدقون التوابل لقدورهم.

فاسترجع عند ذلك وقال: ما هكذا أعرف حالة المنستير قديمًا، عند سكانها شيء من دقيق

---

(١) كذا ورد، ولا أعرف معناها.

الشعير في القُلة، وشيء من الزيت، فإذا كان عند إفطارهم لتّوا ذلك الدقيق بشيء من الزيت فأكلوه، لله عليَّ ألاّ أبيت في شيء من المنستير، فخرج منها ذلك الوقت، فغابت له الشمس عند قصر لمطة، ولم يعد إلى المنستير بعد ذلك.

ولم يزل مقيمًا ملازمًا لقصر زياد معتكفًا على صيام النهار وقيام الليل وتلاوة كتاب الله - عزّ وجلّ - حتى توفي.

وكانت وفاته سبع وأربعين ومائتين، ودفن على سِيف البحر[1] من ناحية شرقي القصر، رضي الله تعالى عنه.

- **ومنهم أبو السري واصل بن عبد الله الجُمَي:**

المتعبد بقصر جُمة، ويعرف الآن بقصر الرباط بالمهدية.

كان من أهل الزهد والعبادة والنسك، والإرادة والفضل والإجابة، أصله من جُمة وكان له بها حانوت يتجر به، ثم ترك ذلك ونبذ الدنيا وسكن قصر الرباط وتجرّد لقيام الليل وصيام النهار، وداوم على ذلك حتى صار من الأولياء المعدودين، ومن الأصفياء المقربين، والنساك المتجردين.

وطلب العلم على سحنون وعون بن يوسف، ونال من العلم ما يستعين به على عبادة ربه عزّ وجلّ.

[٣٠٦] وسبب طلبه العلم أنه أتى إلى جامع سوسة يوم الجمعة، فقام يصلّي وسحنون قريب منه، فأذن المؤذن وتمادى واصل في الصلاة ليتم السورة التي كان فيها، فلم يفرغ منها حتى بدأ الإمام في الخطبة، فنظر إليه سحنون كالمنكر عليه، فلما سلم الإمام سأل عنه فأُخبر به فدعاه وقال له:

رأيتك وأنت تصلّي والإمام يخطب، اطلب العلم ولا تسكن في شيء من القصور حتى تطلبه.

قال: فطلب العلم على سحنون ولزمه عشر سنين.

---

(١) أي ساحل البحر.

ذكر فضله وصنوف من كراماته:

[٣٠٧] حدّث الشيخ أبو الحسن عليّ بن محمد القابسي الفقيه ﷺ قال:

ذُكر أن واصلًا -رحمه الله تعالى- كان قبل أن يتعبد يتجر بحانوت له بجمَّة بما يوزن ويكال، فأتته امرأة فساومته في شيء مما بين يديه، فجرى بينهما منازعة فقالت له:

كفى بك ما أنت فيه بين مكيال وميزان.

فقال لها: صدقتني يا أمة الله، فألقى الله -عزّ وجلّ- في قلبه في الوقت ترك البيع والشراء، وقام عن الدكان من فوره وترك جميع ما كان فيه، ومضى كما هو إلى قصر جمّة فأقام فيه أيامًا ملازمًا للقبلة، لا يفتر من صلاة وصيام ليلًا ونهارًا.

[٣٠٨] فلما رآه أهل القصر على تلك الصورة، تبينوا فيه الضعف من كثرة العمل وعدم الغذاء، فكانوا يأتونه بعد المغرب بإفطاره، بشيء من خبز الشعير وبقل البرية، فغفلوا عنه ليلتين لم يأتوه بشيء لما طال ذلك عليهم، فلما كان في الليلة الثالثة، بعد صلاة العشاء الآخرة، إذا بضارب يضرب باب القصر عليهم، فتشرفوا من أعلى القصر وقالوا: من أنت؟

فقال لهم: أنا غلام فلان - فسمى رجلًا مذكورًا بالخير- أرسلني مولاي بطعام إلى الشيخ واصل، وقال لي: إن أنت وصلت إليه في هذه الليلة بهذا الطعام وأكل منه فأنت حر لوجه الله عزّ وجلّ، ففتحوا باب الحصن في ذلك الوقت، خلاف عادتهم، رغبة منهم في عتق الغلام، فإذا مع الغلام حمل بغل موقر، عليه من أصناف الأطعمة والحلوى شيء كثير، فأتوا بذلك إلى واصل، فمد يده إلى شيء منه فأكل، وقال للمرابطين: افترقوا جميعه فيما بينكم ولم يدخر منه شيئًا، فقال بعضهم لبعض:

أبيتم أن تطعموه خبز الشعير وبقل البرية، وهو أطعمكم هذا الطعام الطيب الذي لا تعرفونه ولا نقدر على مثله، فمن تلك الليلة عرف القوم فضل واصل وموضعه من العبادة، ثم بانت بعد ذلك كراماته وإجابة دعوته.

[٣٠٩] قال أبو الحسن بن الخلاف المتعبد -وكان يحب أخبار واصل ويثني عليه- قال:

أخبرني أبو ميسرة عن سعيد بن الحداد أن واصلا أقام أربعين سنة لم يدخر شيئًا من الدنيا، وإنه ليقيم الأيام لا يطعم شيئًا، فإذا جهد خرج إلى الحمى فيجمع شيئًا من بقول الأرض يقتات به ثم يعود إلى مصلاه.

[٣١٠] وعن ربيع بن سليمان القطان، رحمه الله تعالى، قال: قال واصل الجمّي:

مكثت إحدى عشرة سنة فما علمت أن الشيطان ظفر بي فيها ولا ساعة واحدة، إلا في ثلاث خطوات خطوتها في طريق ثم عاد عليَّ العلم ببركته فرجعت وأخذت طريقًا أخرى.

فسئل عن بيان ذلك فقال: نعم، كنت مرة بالساحل، فبينا أنا أمشي في آخر النهار إذ عرضت لي طريقان: إحداهما تنتهي إلى قرية رجل صالح فقير، والأخرى تنتهي إلى قرية رجل صالح غني، وهما جميعًا صديقان، فوقفت ساعة أتدبر لمن أقصد منهما، فقالت لي نفسي: إن قصدت هذا الفقير فعسى بك أنك لا تجد عنده ما يتعشَّى عياله وأطفاله، وإن كان عندهم ما يتعشون به فأنت تضيق عليهم في عيشهم وتشق عليهم وإن لم يظهر لك ذلك؛ وإن قصدتَ الغني وجدتَ عنده خبزًا طيبًا من القمح الذي حرثه في أرضه التي ورثها عن أبيه وجده، وتجد عنده زيتًا طيبًا وتينًا فاخرًا من ميراثه أيضًا، وعسى أن يذبح لك خروفًا من غنمه، وهي ترعى أراضيه وزيتونه، فتسره ولا تدخل عليه مضرة وتجد بغيتك وتأكل شهوتك.

فخطوت في الطريق ثلاث خطوات، ثم استيقظتُ من نومة الجهل والهوى فقصدت الطريق إلى قرية الفقير، فاجتمعت به، فرحب لي وفرح، وأنزلني عنده.

فلما حضر العشاء ضرب علينا إنسان الباب، فخرج إليه صاحب الدار فدخل رجل وعلى يده صَحْفة كبيرة فيها ثريد بخبز القمح وعليها لحم خروف سمين، فقال لي: كل، أيدك الله، فأكلنا حتى شبعنا، وحمل الفضلة إلى عياله، ثم ضُرب الباب مرة أخرى، فأُتي بطبق في وسطه صَحْفة فيها زيت فاخر وحولها تين فاخر، فقال لي: كل، يرحمك الله، فأكلت حتى بلغت أمنيتي من ذلك، فقلت له:

من أين هذا؟ فأنا أعرف أن هذا ليس من مقدرتك.

فقال: صدقت، ولكن أتاني من عند جاري.

فقلت له: صِح به، فأتاني به.

فقلت له: مِن عندك هذا الطعام؟

قال: نعم.

فقلت له: أكنتَ منا على وعد؟

فقال: لا، لكن كان عندنا خروف سمناه، فلما كان في هذا اليوم حلا بقلوبنا ذبحه، فذبحناه وطبخناه وصنعنا له الخبز، وثردناه، فلما رأيت جارنا قد نزلتَ به، قلت: هذا الرجل صالح وليس يعرفه وليس يستضيف به إلا رجل صالح مثله، ونعرف أن ليس عنده طاقة، فقلت للزوجة:

نحن نجد العوض عن هذا في غير هذا الوقت، فهل لك أن نطعم كل ما هيأناه من الطعام لجارنا هذا وضيفه ونسألهما في دعوة فيحرز الله علينا أولادنا ويبارك فيما أعطانا؟ فساعدتني على ذلك، فأخذت الصَّحفة من على المائدة وأتيت بها إليكم، ثم قالت لي الزوجة: لا بد من حلاوة تكون بعد الثريد، فأعطتني هذا التين وهذا الزيت.

قال عبد الله: لما آثر واصل -رحمه الله تعالى- الفقير على الغني أعطاه - عزّ وجلّ - جميع ما اشتهى أن يأكله عند الغني من غير سؤال ولا استشراف، وهذا كله من ميراث الصدق.

[٣١١] وذُكر أنه زار سعدون الخولاني واصلًا الجمّي، فلما دخل القصر قام المرابطون فسلموا عليه وقالوا له: نحب منك إذا سلمت على واصل تسأله أن يدعو لنا في زوال البق عنا، فقد حلّ علينا منه أمر عظيم، فاستأذن سعدون على واصل، فأذن له، فدخل إليه فوجده في بيت مظلم جالسًا على حصير قد اسود من طول ما لُبس، فسلم عليه وجلس، فأصابه من البق ما أقلقه، فقال له واصل: ما قصتك؟

قال: آذاني البق، وأخبره بما شكا أهل القصر من ذلك، فدعا الله - تبارك وتعالى- في إزالة ذلك عنهم، ثم ودعه وانصرف.

[٣١٢] قال سعدون: فلما صرتُ في الباب سمعته يقول: أعوذ بالله منك يا ملعون ثلاث مرات، ثم أطلت القيام فلم أسمع شيئًا، فاستأذنت عليه، فأذن، فدخلت عليه

وسألته ما السبب فيما سمعته منه.

فقال: نعم، لما خرجت تصور لي الشيطان في صورة امرأة أقبلتْ بين يديَّ وأدبرتْ، فقلت: أعوذ بالله منك يا ملعون، ثم تصور في صورة حية قرناها في السقف ورأسها في الأرض فقلت: أعوذ بالله منك يا ملعون، ثم تصور في صورة أخرى -نسيها أبو بكر الزويلي راوي هذه القصة- فقلت: أعوذ بالله منك يا ملعون فذهب عني، وكفاني الله -عزّ وجلّ- شره.

قال: فوادعته فانصرفت وأخبرت المرابطين بما كان منه من الدعاء، فلما كان بعد ذلك بمدة، دخلت القصر لزيارة واصل، فقام إليَّ المرابطون فقالوا لي: جزاك الله عنا خيرًا، فقد انقطع عنا البق فما رأيناه من الوقت الذي دعا فيه واصل؛ رحمه الله تعالى.

[٣١٣] وذُكر عن أبي محمد الجبي أن واصلًا خرج ليلة من المسجد، فلما صارت إحدى رجليه خارج المسجد والأخرى داخله عرضت له فكرة، فرفع رأسه إلى السماء وقال لنفسه:

أطاعته السماوات والأرضون على عظمتهن ومن فيهن، وعصيته أنت على صغرك وضعفك! قال ذلك يخاطب نفسه، فبقي باهتًا حينًا طويلًا حتى استغرق واسترخت يداه وسقط مغشيًّا عليه، وصادف رأسه الحائط فجرحه، فبادر سكان القصر فحملوه وغسلوا الدم عنه وربطوا رأسه وهو في حاله، رحمه الله تعالى.

وكانت وفاة واصل -رحمة الله عليه- سنة اثنتين وخمسين ومائتين.

***

ذكر الطبقة الخامسة من علماء القيروان وعبادها
وما يتصل بها من بعض مدنها ومراسيها

وأبدأ من هذه الطبقة بذكر أصحاب سحنون ﷺ فقد كان جمع الله، عزّ وجلّ، فيهم الفقه والدين والورع والتواضع والزهد، فمما ذكر عنهم أن شيبة بن زنون تحدث فقال:

[٣١٤] عرست فدعوت ليلة عرسي جماعة من أصحابنا منهم أحمد بن نمير، فأتوني، قال: وكان فيمن دعوت شيخ من أهل المشرق -كان قدم علينا- من أصحاب أحمد بن حنبل، وكان الناس يسمعون منه العلم، وكان شيخًا نبيلًا قلّما رأينا مثله، قال: فكان أصحابنا في أول الليل في قراءة وتعبد وبكاء وخشوع، ثم أخذوا بعد ذلك في مسائل العلم والمناظرة فيها، ثم ابتدروا بعد ذلك زوايا الدار يصلون أحزابهم، قال: فنظر الشيخ الذي من أصحاب ابن حنبل فقال:

مِن أصحاب مَن هؤلاء؟ ومَن معلمهم العلم؟ والله ما رأيت أحدًا قط أنبل من هؤلاء: أخذوا في أول الليل في قراءة القرآن والبكاء والخشوع، وبعد ذلك أخذوا يتناظرون في العلم، ثم بعد ذلك وثبوا إلى قيام الليل والتهجد بأحزابهم، والله ما رأينا مثل هؤلاء قط، والله ولا يصحب هؤلاء رجلًا إلا نبلوه وشرَّفوه.

فقيل له: هؤلاء أصحاب سحنون.

قال أبو العرب: حدثني عبد الله بن محمد، قال:

كان الذين يحضرون مجلس سحنون من العباد أكثر ممن يحضره من طلبة العلم، كانوا يأتون إليه من أقطار الأرض.

- فمن ذلك ولده أبو عبد الله محمد بن سحنون، رضي الله تعالى عنهما:

[٣١٥] قال أبو العرب، كان إمامًا ثقة عالمًا بالمذهب، مذهب أهل المدينة، عالمًا بالآثار، لم يكن في عصره أحد أجمع لفنون العلم منه، ألّف في جميع ذلك كتبًا كثيرة تنتهي

إلى نحو مائتي كتاب في جميع العلوم وفي المغازي والتواريخ.

وكان والده قد تفرس فيه الإمامة، وكان والده يقول: ما أُشبهه إلا بأشهب.

وكان والده يقول لمعلمه:

[٣١٦] لا تؤدبه إلا بالمدح ولطيف الكلام، ليس هو ممن يؤدب بالضرب والتعنيف، واتركه على نِحْلتي[1] فإني أرجو أن يكون نسيج وحده وفريد أهل زمانه، وأخاف أن يكون عمره قصيرًا.

وانتشرت إمامته في حياة والده، وأدرك من جميع العلوم ما لم يدركه غيره من أهل عصره، وكانت له حلقة غير حلقة أبيه.

ومولده سنة اثنتين ومائتين، وتوفي سنة ست وخمسين ومائتين.

[٣١٧] ولما عزم على الرحلة قال له والده: إنك تقدم على بلدان -سَمّاها- إلى أن تقدم إلى مكة، فاجْهَد جهدك، فإن وجدت عند أحد من أهل هذه البلدان مسألة خرجت من دماغ مالك بن أنس وليس عند شيخك -يعني نفسه- أصلها، فاعلم أن شيخك كان مفرطًا.

فلما وصل إلى مصر نزل على أبي رجاء بن أشهب، سأله أبو رجاء في ذلك ففعل، قال: فكان علماء مصر يأتونه ويسلمون عليه، قال: فأتاه المزني صاحب الشافعي فيمن أتاه، وجلس معه كثيرًا ليقلّ الناس ويخلو معه، فلما خرج قُدمت إليه دابته ليركب، فقيل له: كيف رأيته؟

قال: لم أرَ والله أعلم منه ولا أحدّ ذهنًا على حداثة سنة.

[٣١٨] قال عيسى بن مسكين:

وكُتِب كتابا الإمامة بمصر بماء الذهب وأُهديا إلى الخليفة، قال عيسى: وما أُلف في هذا الفن أحسن منهما.

[٣١٩] وذكر أبو بكر بن اللباد أن محمد بن سحنون أتى بعد موت أبيه زائرًا إلى عبد

---

(١) أي على مذهبي.

الرحيم بن عبد ربه الزاهد فسلم عليه، فرد عليه السلام وتركه يجلس حيث انتهى به المجلس، ولم يُقبل عليه حتى انصرف، فلما كانت الجمعة الآتية، انتهض ابن سحنون أصحابه في زيارة عبد الرحيم، فقالوا:

رأيناه لم يُقبل عليك ولا رحب بك في حين زيارتك له، فكيف تعود إليه بعد هذا؟

فقال: ليس هذا بغيتي، هو رجل صالح تُرجى بركته وبركة دعائه، وكان والدي -رحمه الله تعالى- يأتيه ويتبرك بدعائه ويلجأ إليه عند المهمات من الأمور.

قال: فتوجه محمد زائرًا لعبد الرحيم، فلما رآه عبد الرحيم قام إليه قائمًا على رجليه ورحب به وأجلسه في موضعه، ولم يزل مقبلا عليه حتى انصرف، قال: فرجع إلى عبد الرحيم بعض أصحاب ابن سحنون فقالوا له:

أصلحك الله: رأينا منك عجبًا.

فقال: وما هو؟

فقالوا: أتاك محمد بن سحنون تلك الجمعة فلم تقبل عليه، ثم أتاك اليوم فأقبلت عليه.

فقال عبد الرحيم: والله ما أردت بذلك إلا الله عزّ وجلّ: رأيت اجتماع الناس حوله فخفت عليه الفتنة، فعملتُ ما عملتُ لصلاح حاله ولأجربه، فرأيت في الليلة المقبلة قائلًا يقول لي:

مالك لم تقبل على محمد بن سحنون وهو ممن يخشى الله عز وجل؟ ففعلت ما رأيتم.

[٣٢٠] وذكر الشيخ أبو الحسن القابسي ﷺ عن بعض شيوخه، قال: ذكر لي بعض سكان المنستير بقصر ابن الجعد أنه خرج من بيته إلى الميضأة التي في أسفل القصبة، فسمع في البيت الذي يفتح إلى القبلة بقرب الميضاة قارئًا يقرأ في سورة الأعراف:

﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ [الأعراف: ٢١، ٢٢] وهو يرددها ويبكي، فقضى حاجته ورجع إلى بيته والقارئ في هذه الآية على حاله يرددها ويبكي، وكانت ليلة شاتية، فلما كان آخر الليل نزل يتوضأ لصلاة الصبح، فجاز بذلك البيت، فسمع الرجل يردّد الآية لم يزل عنها، فوقف عند الباب

ليسمع قراءته، فسمع حسَّ وقوع الدموع على الحصير، ولم يزل كذلك حتى غشيه الفجر، فخاف أن تفوته الصلاة، فأسرع بالوضوء، ووقف إزاء الباب ينتظر خروج ساكن ذلك البيت، فخرج رجل قد ستر وجهه بردائه، فطلع إلى مسجد القصبة فاستقصى عليه حتى عرفه، فإذا به محمد بن سحنون ﷺ.

[٣٢١] وقال اللبيدي: سمعت من أثق به يقول:

خرج محمد بن سحنون من القيروان إلى قصر الطوب للعبادة والحرس على المسلمين، قال: فنزلت قِطاع الروم بساحل ذلك البحر، فضربوا على الساحلين وعلى تلك المنازل، فتصايح الناس ولم يكن مع محمد بن سحنون إلا بغل، فخاف إن بعث إلى سوسة في طلب فرس أن ينال الروم من المسلمين بغيتهم، فتقلد بسيف وأخذ رمحًا ودَرَقة[1]، وركب ذلك البغل الذي كان معه، واجتمع إليه الناس في جماعة من المرابطين ومن يقرب من القصر من أهل البوادي التي حوله، تمادى بمن معه إلى الروم فوجدهم قد أشرفوا على نهب الأموال وسبي الحريم، فكَبَّر عليهم هو ومن معه وقد ناشبوهم القتال، فهزمهم الله على يديه، وقتل منهم مقتلة عظيمة وأتبعهم بالهزيمة حتى أدخلهم البحر هاربين، فحلف محمد بعد ذلك أنه لا يخرج إلى الحرس إلا بفرس.

[٣٢٢] ورأيت موعظة كتب بها محمد بن سحنون إلى بعض أمراء بني الأغلب يقول فيها:
أما بعد:

فإني أوصيك ونفسي بتقوى الله الذي بطاعته نِيلت معالي الأمور وارتُقي إلى شرفها.

وأول ما آمرك به النظر لنفسك ومعادك الذي تصير إليه، فلا دنيا لمن لا آخرة له، وبحسن المنقلب يُغبط المرء، فانظر لنفسك وخذ بعنانها واحبسها في كل أمر تنازعك إليه، فعن قليل تذهب الدنيا وتأتي الآخرة، فلا ينفع نفسًا إلا ما قدمت ولا يسوؤها إلا ما عملت، وقد كان يقال: إن خير الخلطاء وأنفع الأخلاء المرشدون في المضلات، المذكرون في الغفلات، فأذكرك يومًا هو منك قريب، تنزل فيه بساحتك ملائكة الرحمن، وقد أسلمك الأهل والولدان، تعطي

(١) أي درعًا من جلد.

حيث لا يقبل منك، مسلوبًا منك ما في يديك منه، مُودَعًا في بطن الأرض، ثم بعد ذلك الطامة الكبرى: يومٌ مجموعٌ له الناس وذلك يوم مشهود، ثم ينشر لك كتاب فيه من عملك مثاقيل الذرّ والخردل، فانظر كيف أنت عند ذلك، وقد قُلِّدت أمرًا عظيمًا، لكل الخلق فيك نصيب، قد اشترك فيك العدو والصديق؛ فخلص نفسك من وثاقها بأن تملأ الأرض عدلًا كما أمرك الله سبحانه.

واعلم أن الذي مَلّكك أمر عدوك، وأدال لك عليه، وأذله بين يديك هو الله ربك وربه، وإلهك وإلهه، ومالكك ومالكه، يديل الأمور بينك وبينه في الدنيا، ثم يتولّى الحكم بينك وبينه يوم القيامة، فيأخذ منك له بمثاقيل الذر والخردل، فانظر -رحمك الله وإيانا- لنفسك نظر من يموت غدًا ثم يحاسب بجميع ما قدم، ولا تُمَلِّك نفسك عِنَانها، وتمهل في أمرك.

[٣٢٣] وآثر الله -عزّ وجلّ- عند غضبك، واعمل في ذلك وكِلْ أمرك بما يرضى الله سبحانه، فإنه يرضى عنك، وآثر رضى الله -عزّ وجلّ- على رضى عباده، ولا تُرضِ عباد الله بسخطه، فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئًا، وأنزل كتابي هذا منك بمنزلة من مرض أبوه فهو يسقيه من الدواء ما يكره رجاء منفعته وهو به بار وعليه شفيق، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

[٣٢٤] وذكر عنه أنه كانت له تسعة أسرة لكل سرير سُرِّيّة، وكانت له سرية يقال لها أم مدام، فكان عندها يومًا من بعض الأيام، فقال لها: ما عندك الليلة يا أم مدام؟

فقالت: زوج فراخ.

فقال: اصنعيهما لنا الليلة، ففعلت ذلك وقد أخذ فيما هو فيه من التأليف في كتاب يرد فيه على بعض المخالفين، فاشتغل في ذلك إلى الليل، فلما حضر الطعام استأذنته فقال لها: أنا مشغول الساعة، فلما طال ذلك عليها أقبلت تلقمه الطعام إلى أن أتى على الفرخين، ثم تمادى فيما هو فيه إلى أن أُذن في الجامع لصلاة الصبح، فقال لها:

يا أم مدام: شُغلنا عنك الليلة، قرّبي ما عندك من الطعام.

فقالت: قد والله يا سيدي أطعمته لك.

فقال: ما شعرت بذلك، لشغله وتعلق قلبه بما كان فيه من التأليف.

[٣٢٥] وقال أبو الحسن القابسي: سمعت عيسى بن مسكين يقول:

بينا نحن مع سحنون إذ أقبل ولده محمد، فنظر إليه سحنون ثم نظر إلينا فقال: أي فتى لولا أنّ عمره قصير، ثم أقبل ولده جعفر، فنظر إليه ثم نظر إلينا فقال: ليس كل فراخ العش تطير.

[٣٢٦] وذُكر أنه كان يصحب محمد بن سحنون ويطلب عليه الفقه وعلم الكلام والحلال فتى يعرف بأبي الفضل بن حميد -أخو علي بن حميد الوزير- ولم يكن في علم الجدل بالماهر، فخرج إلى الحج فمر بمصر، فدخل حمامًا بها فإذا عليه رجل يهودي، فلما خرج من الحمام أقبل يناظر اليهودي على مذهبهم فغلبه اليهودي، فرجع إلى القيروان بعدما حج وفي قلبه حسرة؛ إذ لم يكن عنده من المناظرة ما يدحض به حجة اليهودي، فلما رجع دخل على محمد بن سحنون فهابه أن يذكر الحكاية، فقضى الله -تعالى- أن خرج محمد بن سحنون على إثر ذلك إلى الحج فصحبه ذلك الرجل إلى مصر، فقال له: امضِ بنا رحمك الله إلى الحمام، فأجابه ابن سحنون إلى ذلك، فمضى به إلى الحمام الذي عليه ذلك اليهودي.

فلما خرج ابن سحنون سبقه ذلك الرجل بالخروج، فأنشب المناظرة مع اليهودي، فلما خرج ابن سحنون وجدهما يتناظران، وقد استعلى اليهودي على الرجل بكثرة الحجاج والمناظرة بالباطل لضعف الرجل وقلة معرفته بالمناظرة، فدخل معهما محمد فيما هما فيه، ورجعت المناظرة بين اليهودي ومحمد بن سحنون حتى حضرت صلاة الظهر، فأقام محمد الصلاة وصلّى، وعاد إلى المناظرة حتى حضرت صلاة العصر فأقام محمد الصلاة وصلى العصر، ثم عاد إلى المناظرة فلم يزل إلى صلاة المغرب وقد اجتمع الناس إليهما من كل موضع، وشاع ذلك بمصر وقال الناس بعضهم لبعض: امضوا نسمع المناظرة بين الفقيه المغربي وبين اليهودي، فلما كان عند صلاة المغرب انحصر اليهودي وانقطع عن الحجة وظهر عليه ابن سحنون بالدلائل الواضحة والحجة البالغة.

فلما تبين اليهودي الحق بالبرهان وأراد الله -عزّ وجلّ- هدايته، قال عند ذلك: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، فأسلم وحسن إسلامه، فكبّر الناس عند ذلك، وعلت أصواتهم بالتكبير وقالوا:

أسلم اليهودي على يدي الفقيه المغربي! فقام محمد وهو يمسح العرق عن جبينه، ثم رد وجهه إلى صاحبه وقال:

لا جزاك الله خيرًا عني ولامه أشد اللوم، وقال له: كاد أن تجري على يديك فتنة عظيمة، كيف تأتي إلى رجل يهودي تناظره وأنت ضعيف المناظرة والجدال؟ فإذا رأى مَن أراد الله -عزّ وجلّ- فتنته هذا الذي كان يهوديًا قد غلبك واستظهر عليك بباطله أدخلت عليه الفتنة وداخله الشك في دينه، فلا تكن لك عودة لمثل هذا وتب إلى الله -عزّ وجلّ- من ذلك، ولولا أني خفت الفتنة على الناس أن يداخلهم شك في دينهم ما ناظرته، فرضي الله تعالى عنه.

وكان عنده من العفو والصفح عمن قصده بأذى أمر كبير، وسياسة حسنة، ومعرفة كيف يلقى الحوادث وكيف يصرف الأمور:

حدث الشيخ أبو الحسين علي بن الكانشي -رحمه الله تعالى- فقال: سمعت عيسى بن مسكين يقول:

[٣٢٧] كان العراقيون قد استعملوا رجلًا يسب محمد بن سحنون، وكانوا يَصِلُونه[١] على ذلك، فكان ذلك الرجل إذا لقي محمدًا مُخْليًا سبه علانية، وإذا لقيه في أصحابه سبه سرًا في أذنه، وفي كل ذلك لا يرد عليه محمد شيئًا، صبرًا منه على الأذى رجاءَ لثواب الله -عزّ وجلّ- فأتاه يومًا فوجده مع أصحابه، فسبه في أذنه، فلما فرغ من سبه خاف محمد من أصحابه أن يبطشوا به، فقال له: نعم وكرامة! إذا أنا تفرغت تعود إليّ تُقضى حاجتك إن شاء الله، وأوهم الحاضرين أنه إنما سأله في حاجة، فبلغ ذلك العراقيين وقيل لهم: أظننتم أن فلانًا يسب محمد بن سحنون، وهو إنما حادثه في أذنه وسأله حاجة؟ فاتفقوا على قطع صلته، فضاع الرجل

---

(١) أي يكافئونه.

وضاع أهله وعياله ووصل إليهم الضرر، فشكا ما نزل به إلى بعض الصالحين فقال:

إن فعلت ما آمرك به حسنت عاقبتك وعاقبة أهلك في الدنيا والآخرة.

قال: وما هو؟

فقال: عليك بصاحبك الذي كنت تسبه فأطلعه على أمرك، فقبل نصيحته ومضى إلى ابن سحنون فوجده في مجلسه والناس حوله، فأصغى إليه بأذنه على العادة فقال له: أصلحك الله ما جئت لهذا، وإنما جئت تائبًا منيبًا مما كان مني إليك.

فقال له: اجلس، فجلس، فلما انقضى المجلس أخذ بيده ومضى إلى داره ودفع إليه صرة فيها عشرون دينارًا عَيْنًا[1]، وقال له: اتسع بهذه إلى حين يلطف الله -عزّ وجلّ- لنا، ثم كتب محمد بن سحنون ثلاثين كتابًا إلى ثلاثين رجلًا مياسير من أصحابه بالساحل، يسأل كل واحد منهم في شراء جارية وتوجيهها إليه، فوصل إليه ثلاثون جارية في مدة يسيرة، فأمر ببيع خمس منهن وكسا بثمنهن الخمس والعشرين الباقيات، وحلاّهن وأجلسهن صفًا واحدًا، ثم أحضر الرجل العراقي، فلما دخل أقبل عليه وقال له:

ما أبطأ بك عنا، أصلحك الله؟

فقال: استحياءً منك لما سلف من قبح فعلي وسوء لفظي وعظيم إحسانك إليّ، ثم دفع إليه الجواري، فخرج من دار محمد بخمس وعشرين جارية.

وهذا الفعل من محمد امتثال لقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

ثم قال عزّ وجلّ: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥].

وله في مثل ذلك مقامات عجيبة، رحمه الله تعالى.

---

(١) أي ذهبًا.

-ومنهم أبو عياش أحمد بن موسى بن مخلد الغافقي:

قال أبو العرب: كان شيخًا صالحًا، ثبتًا صحيح الكتب حسن التقييد، سمع من سحنون ومن غيره.

[٣٢٨] وكان لا يكاد يُذكر أحد في مجلسه بغيبة إلا نهى الذاكر عن ذلك.

[٣٢٩] وكان فيما بلغني ربما ركب ثورًا من باب أبي الربيع حتى ينتهي إلى منزله بالروحاء تواضعًا منه، فإذا كُلّم في ذلك قال: حسبك من الدواب ما بلّغك المنهل.

وعرض عليه سحنون قضاء قصطيلية فامتنع من ذلك.

[٣٣٠] قال أبو القاسم بن تمام:

لقد رأينا من أبي عياش من الإجابات والفراسات أمرًا عظيمًا: كان ابني أحمد صغيرًا مريضًا، فأتيته فقلت له: إني أريد أن أسافر، فإن حدث بابني الموت فصلِّ عليه وتولّه، فقال لي أبو عياش:

اذهب إلى سفرك فما هو بميت من هذه العلة.

فأكدت عليه، فأكده علي، وأظنه حلف أنه لا يموت منها، فكان كذلك.

قال عبد الله: حصل لأبي عياش قوله ﷺ: **«إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره»**(١).

وكان -رحمه الله تعالى- يميل إلى الرقايق والمواعظ ويختم مجلسه بها إذا فرغ من المسائل والكلام عليها.

[٣٣١] وقال محمد بن يونس: قلت لأبي عياش بن موسى:

إني صرت أتقدم الناس في المسجد لأصلي بهم الفريضة وأنا كاره لذلك، لأني لست براض عن نفسي، فما ترى في ذلك؟

فقال لي: تقدّمهم ولا تعطّل المسجد فإن لك فيه أجرًا.

---

(١) حديث صحيح أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: تفسير القرآن: حديث رقم: ٤٥٠٠.

ثم قال لي: ويحك لعله يصلّي خلفك من يدعو لك، فيستجاب له، فيجيرك الله بدعائه.

- ومنهم أبو حفص عبد الجبار بن خالد السرتي رضي الله تعالى عنه:

قال أبو العرب: كان صالحًا، متعبدًا، طويل الصلاة، كثير الدعاء، مجتهدًا، وكان من عقلاء شيوخ إفريقية، سمع من سحنون وعليه اعتماده.

[٣٣٢] وقد حدث أبو عمرو هاشم بن مسرور، قال:

مضيت ليلة من ليالي رمضان إلى مسجد عبد الجبار لأصلي خلفه التراويح، فصليت معه صلاة العشاء الآخرة، فلما فرغ من الصلاة تنفّل الناس ما شاء الله أن يتنفّلوا، ثم قام المؤذن فقال: الصلاة، رحمكم الله فقام الناس ودخل عبد الجبار المحراب، فقرأ في الترويحة الأولى البقرة وآل عمران والنساء والمائدة، فلما قضاها انصرف أكثر الناس.

ثم قام في الترويحة الثانية فقرأ الأنعام والأعراف والأنفال وبراءة، فلعهدي برءوس الناس أراها في ظل ضوء القناديل تتمايل يمينًا وشمالًا.

ثم تمادى في الصلاة، فكان يمر في القراءة مرّ الجواد، فإذا اشتبه عليه الحرف أو تعايى فيه تركه وقرأ ما يليه، فيقرأ العشرين آية والثلاثين آية والأقل والأكثر، ثم يتفكر في ذلك الحرف فيرجع إليه فيقرأه مفردًا، ثم يعود إلى الموضع الذي كان فيه فيقرأه منه، قال: فما زال كذلك حتى تراجع الناس إلى المسجد من آخر الليل وعاد إلى العمارة بحسب ما كان في أول الليل، حتى ختم عبد الجبار، وأتاه مؤذنه بقصعة فيها شيء يسير من ثريد، فتسحر منه ثم أذن المؤذن وطلع الفجر، فصلىّ بهم الصبح.

قال عبد الله بن هاشم:

فجاهدت نفسي على أن أقدر على ما قدر عليه عبد الجبار من مجاوزته الموضع الذي أشكل عليه ورجوعه إليه بعد ذلك ببرهة، ثم رجوعه إلى الموضع الذي كان فيه، فما قدرت على ذلك إلا بعد ثلاثين سنة.

[٣٣٣] قال: وخرج من داره يوم الجمعة لصلاة الجمعة، فإذا شاب جميل له هيئة حسنة ولباس جميل وقد اتبع صبية يمشي خلفها، فلما رآه عبد الجبار شقّ عليه ذلك،

فاتكأ برجله على رجل الأخرى فقطع شِسْع نعله، فصاح: يا شاب، يا شاب!
فالتفت الشاب إليه، فمشى إليه عبد الجبار، فوقف الشاب فقال له عبد الجبار:

قد كبرت سنّي وضعف بصري، وقد انقطع شسع نعلي، فأصلحه لي، فأصلحه له، ثم نظر عبد الجبار إلى الصبية وقد أمسكت في مشيتها، فأخذ النعل من الشاب وأدخله في رجله، وتمادى الشاب في أثر الصبية، فاتكأ عبد الجبار على نعله ثانية فقطعه، ثم صاح: يا شاب، يا شاب! وكانت لعبد الجبار هيبة عظيمة، فعاد إليه الشاب فقال له:

أصلح النعل يا مبارك، ما أصلحته إصلاحًا جيدًا، أظنك أصلحته وأنت مستعجل، فأخذه الشاب وأصلحه، فعطف عليه عبد الجبار وقال:

يا شاب: أنا قطعت النعل في المرة الأولى والثانية، وإنما فعلت ذلك إشفاقًا عليك ورحمةً لك، وخفت والله يا بنيّ على هذا الشباب الصبيح من لفح النار، وبكى عبد الجبار وبكى الشاب، ثم قال له:

جزاك الله خيرًا، فوالله لا عدت إلى ما كان مني أبدًا، ثم صحب عبد الجبار إلى الجامع وتاب وحسنت توبته وإنابته، وكان من فضلاء أهل وقته، ونفعه الله -عز وجل- بنية عبد الجبار وبتلطفه وترفقه.

[٣٣٤] وذُكر أن أولاد إبراهيم بن أحمد الأمير طَهّرهم، فمضى أهل العلم من شيوخ القيروان لتهنئته، وكان فيمن مضى إليه عبد الجبار بن خالد، فلما أتى إلى الأمير أكبره وعظمه وسر برؤيته، وأخرج إليه أولاده فدعا لهم وبارك عليهم، ثم قال:

أيها الأمير، هل علمت مقدار هذه النعمة التي أنعم الله تعالى عليك بها؟ فإنه أعطاك مثل هؤلاء البنين، وعلمتهم كتاب الله -عز وجل- وأحييت فيهم سنة رسول الله ﷺ وقد بلغني أنك بالغت فيما عملت من الأطعمة ودعوت إلى ذلك الأغنياء.

فقال له: أجل، لموضع المسرة لا منًّا بذلك.

فقال له عبد الجبار: فلو استكملت هذه المسرة بأن تذكر الفقراء فيها!

فقال له: صدقت وبررت، ثم دعا بكيس فيه خمسمائة دينار ودفعه لعبد الجبار وسأله أن

يفرقه على الفقراء والمساكين، فأجابه عبد الجبار إلى ذلك، فسر الأمير بذلك وخرج معه إلى باب القصر وقال: احملوا الشيخ على دابة، وقال: والله لا برحت حتى تركب! فركب عبد الجبار والأمير قائم، فلما ركب واستوى على دابته وأصلح الغلمان ثيابه وانصرف، التفت الأمير إلى كاتبه رجاء بن محمد وقال له:

يا رجاء: رأيت ما أعقله، وما أظرفه! أتعرف في رعيتي مثله؟ إنه قضى ذمامنا وتعافى من طعامنا وأخرج مالنا فيما يرضينا، فتصدق عبد الجبار بجميع الدنانير على الفقراء والمساكين ولم يُبقِ منها شيئًا، رضي الله تعالى عنه.

[٣٣٥] وكان ممن ينطق بالحكمة: فمن ذلك ما ذكره أبو الفضل بن الصائغ عنه أنه كان يقول:

ما أكثر في الدنيا الغنائم، وما أكثر من هو عنها غافل نائم.

[٣٣٦] وقال: من أصبح وأمسى وهمه بغير الله مُجتمع، لم يبالِ الله - عز وجل- في أي وادٍ من أودية الدنيا وقع.

[٣٣٧] وقال:لو أهمك شأنك لكَلّ لسانك، وتهيجت أحزانك.

[٣٣٨] ولولا الفضول لصفت العقول، ولكان المجهول عندها معقولًا، ولكن بكثرة الفضول تكدرت العقول، وكان المعقول عندها مجهولًا.

[٣٣٩] ومن كان بالليل نائمًا، وبالنهار هائمًا متى ينال الغنائم؟.

[٣٤٠] وقال: من سكت سلم، ومن تكلم بذكر الله غنم، ومن خاض أثم.

[٣٤١] وقال: من زَمّ لسانه كثر في الدنيا وفي الآخرة أمانه.

[٣٤٢] وقال:كل كلمة لم يتقدمها نظر فالكلام فيها خطر، وإن كانت من أسباب الظفر.

[٣٤٣] وقيل إنه ﷺ ختم في مسجده ثلاثين ألف ختمة، وُجد ذلك مكتوبًا في قبلة مسجده.

-ومنهم أحمد بن مُعتّب بن أبي الأزهر بن عبد الوارث بن حسن الأزدي:

كان نبيلًا معدودًا من أصحاب سحنون، وكانت له رحلة إلى المشرق وسمع سماعات كثيرة.

[٣٤٤] وكان سبب موته - على ما ذكر ابن اللباد الفقيه - من خوف الله عز وجل: وذلك أنه حضر مجلس الذكر بمحلة المرضى وكان له بكاء ونوح، وكان القراء إذا علموا أنه جاء تحركوا له وأقروا واعترفوا له بالحزن.

فلما كان يوم السبت حضر جماعة من القراء وذكر غير ابن اللباد: أنه مر في ذلك اليوم قبل دخوله المسجد بموضع فسمع قائلًا يقول:

العفو أولى بمن كانت له القُدَرُ ... لا سيما عن مُقِرّ ليس ينتصر

أقر بالذنب إجلالًا لسيده ... فقام بين يديه وهو يعتذر

فبكى وخشع ودعا للقائل وللذين حضروا، فانتفعوا بدعائه، ثم تمادى أحمد بن معتب فدخل المسجد فسمع بعض القوالين يقول:

دع الدنيا لمن جهل الصوابا ... فقد خسر المحب لها وخابا

وما الدنيا، وإن راقتك، إلا ... كبلقعة رأيت بها سرابا

قال ابن اللباد: فلما انتهى منها إلى قوله:

يظل نهاره يبكي بشجو ... ويطوى الليل بالأحزان دابا

تحرك وبكى.

قال: ثم قرأ القارئ آيات من القرآن، فخر صعقًا، فاحتمل إلى داره فلم يزل منازعًا إلى مغيب الشمس، فتوفي بعد العشاء الآخرة[١]، رحمه الله تعالى.

[٣٤٥] قيل: فلما انصرفوا به من مجلس الذكر مروا به على الصديني[٢] العراقي فقال:

---

(١) قال المحقق: تحديد تاريخ وفاته حسب رواية ابن اللّباد المذكورة في النص: يوم السبت لسبع خلون من ذي القعدة سنة ٢٧٧ (المدارك ٤: ٣٥٣).

(٢) قال المحقق: نسبة إلى صدينة إحدى قبائل البربر، وهو محمد بن أسود الصديني أحد مشاهير المعتزلة بالقيروان وقضاتهم.

هذا الرياء! فلما مات قال الصديني: هذا والله الإخلاص في الصدق! فكان يصاح خلف نعشه: هذا شهيد القرآن.

[٣٤٦] ويروى أن سحنون قال له يومًا:

إني أحب أن أُسر إليك سرًّا، فإياك أن تفشيه.

قال: فقلت له: يا أبا سعيد، أوَ منزلتي عندك منزلة مَن تخاف منه؟ فلا تفشِ لي سرك!

فقال لي: ليس الأمر كما تظن، ولكن لكل إنسان صديق يكون موضع ثقته وراحته، ولذلك الصديق صديق، ومِن مثل هذا تخرج الأسرار.

-ومنهم أبو عبد الله ويعرف بالمعلم ﷺ:

قال أبو العرب: كان ثقة فاضلًا ورعًا فقيهًا نَزِهًا عالمًا بحديثه، وكان يُعرف براوية الصمادحي، سمع منه ومن سحنون، وكان في أول عمره يعلم القرآن.

[٣٤٧] ذُكر أن محمد بن سحنون وأحمد بن لبدة ورجالًا من المدنيين تذاكروا أحمد بن يزيد وصيامه وقيامه، فقال لهم محمد: دعونا من ابن يزيد لا تقرنوه بغيره، فإن أحمد جمل الليل، فيقال إنه ختم القرآن على قدميه ستة آلاف ختمة، وختمه في غير الصلاة أمثال ذلك.

[٣٤٨] وحدث هاشم بن مسرور، قال: دخلت وأنا صغير على أحمد بن يزيد -وكنت كثير التردد إليه- فرأيت في جدار بيته القبلي حزازًا -وهي الخطوط- فقلت له:

أصلحك الله، ما هذه الخطوط التي في الحائط؟

فقال: وما سؤالك يا هاشم عن هذا؟

فقلت له: أصلحك الله، إن سألني عنها أحد فقال لي: ما هذه الخطوط التي في حائط معلمك؟ ما الذي أقول له؟

فقال لي: ولهذا تسأل؟

فقلت: نعم.

فقال: هذه تسع عشرة ألف ختمة ختمتها لله -عز وجل- على قدمي، وإنما أخبرتك بهذا لتعمل.

قال: ثم عُمِّر حتى كان لا يقوى على القيام، فكان يصلي جالسًا.

-ومنهم أبو العباس عبد الله بن أحمد بن طالب:

له أوصاف جليلة:

[٣٤٩] ذكر ابن أبي عقبة، قال: خرج ابن طالب إلى القصر فلقي غلامًا راعيًا، فسقط السوط من يد ابن طالب فجرى الغلام فناوله إياه، فقال له:

من مولاك؟ فأخبره، فلما وصل قال: إيتوني بفلان، فجاءه، فقال له:

أحب أن تبيعني غلامك فلانًا.

فقال له: أصلحك الله، ما نستغني عنه.

فقال له: لا بد من ذلك.

فقال له: هو لك بلا ثمن.

فقال له: لا، إنما تأخذ ثمنه وثمن الغنم التي معه، فأجابه إلى ذلك، فدفع إليه ثمن العبد وثمن الغنم، ثم بعث وراءه فقال له:

اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى، والغنم لك.

وذكر عنه أنه كان كريم الطبع كثير السماحة:

[٣٥٠] قيل إن ابن الحسيني زوَّج ابنته فشكا إلى ابن طالب الشُّوار[1] - وهو يريد جهازها- وكانت له ابنة تخرج إليه من عيد إلى عيد، فقال لأمها: إني أحب أن تزيني ابنتي وتلبسيها ثيابها وحليها، ولا تدعي منه شيئًا، ففعلت الأم ذلك، فلما رآها رحب بها وقال لها ولأمها:

إن ابن الحسيني زوج ابنته وشكا إليّ تعذر الأشياء عليه، وأنا أحب أن تنزعي هذا الحلي

---

(١) أي جهاز العروس.

وتخلعي هذه الثياب وتأتي بها إليّ ندفعها لابن الحسيني وأنا أعوض لكما أكثر مما أخذ، فدفعت إليه الحلي والحلل، فأعطاه جميع ذلك.

[٣٥١] وذُكر عنه أنه كان يمشي ذات يوم فإذا بجمال عليها حمولة قمح، فقال له رجل من أصحابه كان يسايره:

أصلحك الله، إن الذي تنزل هذه على بابه في أمن من هذه المجاعة، ثم فارقه الرجل، فسار ابن طالب إلى داره، فنزلت الحمولة على باب داره، أتاه بها وكيله، فقال لهم ابن طالب:

اذهبوا بهذه الأحمال كلها كما هي إلى دار فلان -يعني الرجل الذي كان يسايره- وقال لهم: قولوا له: قد أمنت مما كنت تحذر.

[٣٥٢] وقال ابن أبي عقبة:

كان رجل كفيف فقير يمشي مع زوجته في السوق الكبير بالقيروان، فإذا بصقلبي قد أتى إلى بعض الطباخين فقال له الصقلبي:

يقول لك مولاي: تأخذ لنا خروفًا من حاله وصفته كذا وكذا وتعمله في التنور، وتأخذ له من الخبز والزيتون وبقل المائدة ما يصلح، ويكون ذلك مهيأ حتى إذا رجعت مع مولاي القاضي من صلاة الجمعة أتيت إليه فأخذته.

وانصرف الغلام، والكفيف وزوجته يسمعان ما قال، فقالت له زوجته:

والله ما اشتهيت إلا أن آكل من هذا الشواء، وكانت حاملًا، فقال لها:

أنت طالق إن تغديت إلا منه.

فلما سمعت ذلك منه قالت: لا تمشِ معي ولا تصحبني، لأنك حلفت بالطلاق.

قال: فلما رجع القاضي سبقاه إلى الدار وجلسا حتى أتى القاضي فدخل، وكان في سقيفة داره بيت يجلس فيه للنظر بين الناس ويتغدى فيه إذا حضر غداؤه.

قال: فلما جلس القاضي وجلس معه إخوانه قال الكفيف لزوجته:

إذا رأيت هذا الخروف قد جاء على رأس الغلام فتسمعي لوقوع الماء في الطست.

فقالت له: ما الذي يوصلك إليه؟

فقال لها: اسكتي عني، فلما سمعت وقوع الماء في الطست أخبرته، فقال الكفيف: يا قاضي، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾[الإنسان: ٩-١١]، قال: فصاح القاضي للصقلبي وقال له:

صح بالغلام واجعل على رأسه هذا الخوان كما هو بما فيه، وامض معه حتى توصله إلى دار هذا المتكلم، وفرِّغه ورد الخوان، ففعل الغلام ذلك.

[٣٥٣] وكان إبراهيم بن أحمد الأمير قد فوّض إليه النظر في الولاة والجباة والحدود والقصاص والعزل والولاية، فقطع المنكر والملاهي من القيروان.

[٣٥٤] وكان يقول في آخر مجلسه الذي يقضي فيه بين الناس:

اللّهم ما كان في هذا المجلس من زيغ أو زلل أو إقبال على خصم دون الآخر أو استيفاء حجة من خصم دون صاحبه، فأسألك أن تغفره لي، وأن تراجع بي إلى الحق.

[٣٥٥] وكان يكتب على أحكامه:

حكمت لك بقول ابن القاسم، حكمت لك بقول أشهب، ثم يقول له: في البلد فقهاء وعلماء، اذهب إليهم، فما أنكروه عليك فارجع إليّ.

[٣٥٦] وفي حكاية أخرى، أنه كان إذا فرغ وقام من مجلس حكمه وقف وحول وجهه إلى القبلة، ثم بسط كفيه وسالت الدموع على خديه ولحيته ويقول:

اللّهم إن كانت زلة أو هفوة، أو أصغيتُ بأذني إلى خصم دون خصم، فأسألك أن تغفر لي ولا تؤاخذني ولا تنتقم مني، إنك على كل شيء قدير، ثم يصلي على محمد ﷺ، ثم ينصرف، هكذا كان عمله في كل مجلس يجلس فيه للقضاء.

[٣٥٧] وقال إبراهيم بن الكوفي:

دخلت مع الأمير إلى جنان فيه ثمر قد طاب، فأخذ بعض الثمر يناولنيه، فقبلته ثم أكلت ولم أقل له شيئًا، فقال لي:

دخلت هذا الجنان مع ابن طالب في مثل هذا الحين، فناولته من بعض ثمره، فقال لي:

أيها الأمير: يجب لله عليك شكران أن بلغك غرسه، ثم أكلت ثمرته.

فقلت له: وما هذا الشكر؟

قال: أن تصلّي ركعتين.

قال: فأمرت بحصيرين، فبُسِط لي واحد وله آخر، فصلينا ركعتين، ثم قال لي:

وبقي آخر.

فقلت: وما هو؟

قال: تبعث بصدقة إلى أهل الدمنة فإنهم أهل زمانة وضعف.

قال: ففعلت.

قال: وبقي آخر.

قلت: وما هو؟

قال: تعزل من عمالك من كان جائرًا وتجعل مكانه من يعدل في الرعية.

قال: فأمرت بذلك.

قال الأمير إبراهيم: فدخلت مع غيره، فلما ناولته من ثمره قال: الأمير يحب قاضيه والرعية تمتهنه، فجعلني ضربت وقتلت.

قال عبد الله: فكم بين الرجلين!

[٣٥٨] وله فصل من رسالة كتب بها إلى محمد بن قمود قاضي طرابلس:

... فلا تُبْقِ غاية من الخير إلا بلغتها واتقيت الله فيما استُرعيت بحسن الكفاية والاجتهاد، وما بلغني إلا الجميل، فقد ربيتك وعلمتك وعرفتك العلم، فلو لم تحفظ إلا إياي... فكيف وقد عرفت ما عند الله عز وجل لمن سأل عنه؟ ألا تراه - عز وجهه الكريم- يقول لنبيه داود عليه السلام:

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

وأكثر ذكرَ الموت وشدةَ هوله، وظلمةَ القبر ووحشتَه، وتضرع إلى الله -تعالى- في خلواتك

[٣٥٩] ولا تُنسك الجماعة حَظَّك من القرآن وتدبره والوقوف عند عجائبه، وبالله توفيقك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

***

وكانت سنة أربع وثمانين ومائتين

وفيها توفي:

- أبو الأحوص المتعبد بسوسة: أحمد بن عبد الله:

توفي يوم الجمعة، قبل الضحى، وصلّى عليه الناس يوم السبت قبل الضحى.

قال أبو العرب: كان أصله من المغرب، سكن سوسة وأوطنها، وكان ثقة متعبدًا كثير العمل والاجتهاد.

كان يصلّي من الضحى إلى العصر، ثم يجلس فيُسمِع الناس، سمع من سحنون وغيره، وكان قد كُفَّ بصره.

[٣٦٠] وكانت بداية أبي الأحوص ولزومه مدينة سوسة أنه أتى إليها مرابطًا، فأقام بها مدة حتى نفدت نفقته، وأراد الرجوع إلى بلده المغرب، فأتى إلى جامعها ليركع فيه وينصرف، فبينما هو راكع إذ رأى عصفورًا دخل الجامع وفي فمه شيء يطعمه فراخه، فسقط من فم العصفور ما كان فيه، فخرج من خلف الحصير فأر فأكل ما سقط من فم العصفور، فخاطب نفسه بأن قال لها: فأر خلف الحصير قيض الله - تعالى- له من رزقه كما قد رأيت ولم يضيعه، فكيف أضيع أنا؟ لله عليّ أن لا أدع مدينة الرباط إلى غيرها أبدًا، فأقام بمدينة سوسة واشتهر بها حتى مات، رحمه الله تعالى.

[٣٦١] وكان إبراهيم الأمير يزوره، فإن وجده يطحن قوته بيده جلس على التراب، وإن وجده فارغًا جلس على جلد المطحنة، لأنه لم يكن في بيته حصير ولا غيره، وكان إذا عرضت للمسلمين حاجة - لله فيها رضى- كتب إليه فيها بالفحمة في شُقفة[1].

---

(١) أي قطعة.

[٣٦٢] قال عبد الوهاب الزاهد: قمت إلى برج وهو على شاطئ البحر، فإذا أبو الأحوص بين شرافتين في سواد الليل ودوي البحر وهو يقول:

أبوا أن يرقدوا الليل فهم لله قُوَّامُ
أبوا أن يفطروا الدهر فهم لله صُوَّامُ
أبوا أن يخدموا الدنيا فهم لله خدَّامُ

ثم يقول: لا إله إلا الله، والله أكبر ولله الحمد، ثم اندفع في النياحة، ثم سمع حِسِّي فقال لي:

من أنت؟ فقلت: أنا عبد الوهاب.

[٣٦٣] فقال: يا بني يا أبا القاسم:

إنما تقطع الدنيا بالهموم والأحزان والعلل والأمراض والأنكاد، وإنما نفرح غدًا بالنظر إلى وجه الله -عز وجل- إذا صرنا إلى دار السلام.

[٣٦٤] وقال بعض المتعبدين:

كنت بمدينة سوسة مرابطًا، فبلغني أن سعيدًا الضرير قدم، فتوجهت إليه مع أبي الأحوص لنسلم عليه، فأصبنا عنده ناسًا من الأَضِرّاء، وذلك بعد صلاة العصر، فدعوا وختم سعيد الصبيري الضرير المجلس بالدعاء، ثم افترقنا عند جواز المغرب إلى الجامع -وكان وقت قحط وصيف وحاجة الناس إلى الماء، وقد فرغت مواجلهم[1]- فوقف أبو الأحوص في الطريق، فوقف الناس لوقوفه، فقال: اللّهم إن كنت استجبت لنا في مجلسنا فعرفنا بركة ذلك بأن تسقط الغيث، فما دخلنا المسجد إلا ونحن نخوض الماء من المطر الذي أصابنا.

[٣٦٥] وقال رجل صالح:

رأيت في منامي كأني واقف على باب الجنة، وأبو الأحوص يريد أن يدخل الجنة، ورجل أعرفه من أهل سوسة يمنعه من الدخول ويقول له:

(١) المواجل: الأحواض التي يُخزَن فيها الماء.

لا أدعك تدخل حتى تدفع لي حقي.

فقال: هذا قصر أعطيكه في الجنة.

فقال له: لا.

قال: فأعطيك قصرين.

قال: لا.

قال: فقلت له: يا هذا: يعطيك قصرين في الجنة فتأبى، وإنما لك عليه درهمان؟ فنفضني نفضة ثم قال:

إن الله -عز وجل- لا يَكْذب ولا يُكَذب، لا بد من القصاص يوم القيامة، فانتبهت لنفضته وأنا أعرف الرجل بوجهه، فغدوت إلى الجامع فجلست بين الأبواب لصلاة الصبح، حتى دخل الرجل فأشرت إليه أن يأتيني فأتاني وقعد إلى جانبي، وأقيمت الصلاة فصلينا، فلما انقضت الصلاة قلت له:

يا أبا فلان: إن أبا الأحوص أوصاني أن أدفع إليك شيئًا، وقد أُنسيته، فما لك عليه؟

فقال: درهمان، فدفعت إليه الدرهمين وأعلمته بالرؤيا.

[٣٦٦] وذكر بعض الشيوخ أن إبراهيم بن أحمد[1] جار على الناس وتعسَّفَهم، فكتب إليه رقعة أغلظ له فيها.

وقيل إنه كتب إليه رقعة فيها: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الإنفطار: ١] فلما وصلت إلى إبراهيم بلغت منه مبلغًا عظيمًا، فأتاه في الليل فاستأذن عليه، فلم يسمع من حس المطحنة، لأن زوجته كانت تطحن، فلما سمعوا فتحوا له الباب، فدخل إليه فقال، بعد السلام والسؤال عن الحال: أتتني رقعة ذُكر أنها من عندك.

فقال: أنا مكفوف البصر كما ترى، ولكن تقرأ الرقعة عليَّ، فإن كنت أمليتها أخبرتك، فقرئت عليه، فقال: نعم، أنا أمليتها، فوعظه فاتعظ، ثم قال له:

(١) هو الأغلبي أمير تونس.

أحب أن ترفع إليَّ كلما ثبت عندك من مثل هذا فأغيره.

[٣٦٧] وسأله إبراهيم الأمير أيضًا في بعض زوراته له أن يكلفه حاجة يقضيها له، فقال له:

هذا البلد قد عُمِّر، وهو ثغر، وأهل إفريقية إليه مقصدهم وهو مرابطهم، والقرويون في ليلة كل جمعة يرابطون إليه والجامع يضيق بهم، وأحب أن تزيدهم فيه، وهذه الدواليب التي وسط المدينة تُجري إليها ساقية من خارج المدينة، وتوصل إليها ماء السماء فينتفع بذلك الناس والأرامل والأيتام، ويجد فيه راحتَهم أهلُ الموسم من الغرباء والمرابطين والمنقطعين إلى رب العالمين لحله وقدم أجله، وتُخرج الذين حبستهم من أهل تونس، فأجابه إلى جميع ذلك، وأخرج المحبوسين، وكان ذنبهم عنده عظيمًا، وزاد في الجامع الثلاثة سقوف العالية التي تلي القبلة.

ويقال: إنه سأله أيضًا أن يبني للمسلمين مصلّى يصلون فيه يوم العيد ففعل ذلك.

[٣٦٨] وذُكر أيضًا أن إبراهيم بن أحمد أظهر يومًا في قصره عزفًا ولهوًا، فدخل رجل من المتعبدين إلى المسجد الجامع من بابه الغربي فقال لأصحابه:

قوموا بنا إلى هذا الرجل، فقد أحدث علينا أمورًا لا نعرفها، ولا نصبر له عليها، فإما أن يزيل عنا هذا الأمر وإلا فنحن نخرج وأرض الله واسعة، ونحن إنما سكناها لله الواحد القهار.

فخرج من باب الجامع الشرقي فصحبه نحو سبعين رجلًا من المتعبدين، فتوجهوا إلى قصر إبراهيم، فملأوا الفضاء الذي بين يدي القصر مع مَن تبعهم، فوجدوا الأمر الذي يكرهونه قائمًا من اللهو والعزف، فقيل لهم:

ما تريدون؟

قالوا: نريد الأمير لنجتمع به.

فقيل لهم: الأمير في شغل، لن تصلوا إليه في يومكم.

فقالوا له: عَرِّفوه أنا لا نبرح من هنا حتى نجتمع به.

فدخل الحاجب إلى الأمير فقال: شيوخ سوسة كلهم بالباب، وأرادوا الاجتماع بك.

فقال له: أوَ يمكنني الاجتماع بهم وأنا على هذه الحال؟ ألا اعتذرت لهم عني؟

فقال: اعتذرت فلم يقبلوا عذري وقالوا: لا نبرح حتى نرى الأمير.

فقال له: اخرج إليهم فانظر ماذا طلبوه نفذه لهم.

فخرج الحاجب إليهم فقال: إن الأمير أمر بتنفيذ ما تحبون، لأنه على حال لا يمكن الاجتماع بكم.

فقالوا: نحن إنما جئنا إلى هذه المدينة وسكناها لله الواحد القهار، وقد أُحدثت علينا هذه الأمور من اللهو والعزف، فإما أن يقطع عنا هذا الأمر وإلا فنحن نخرج عنه وأرض الله واسعة.

فعاد الحاجب إلى الأمير فأخبره، فقال للحاجب:

ارجع إليهم فقل لهم: لن تروا ما أنكرتموه بعد هذا، فانصرفوا.

وخرج هو إلى قبة الرمل فكان يخلو فيها بما يحب، فإذا قضى وطره رجع ليلًا إلى قصره.

[٣٦٩] وكانت مدينة سوسة في ذلك الوقت ليس بها شيء من المنكر: لا خمر ولا لهو ولا عزف، وإنما كان أهلها مشتغلين بالحرب والحرز على المسلمين والمسلمات وقيام الليل وصيام النهار.

***

ثم كانت سنة إحدى وتسعين ومائتين

وفيها توفي:

- **أبو جعفر أحمد بن أبي سليمان داود الصواف الفقيه، رحمة الله -تعالى- عليه.**

وكان حكيمًا ينطق بالحكمة.

[٣٧٠] وذُكر عنه أنه كان قوم أندلسيون يسمعون على أحمد، وكانوا يؤملون الحج، فحضرهم وقت الحج وبقيت عليهم كتب، فسألوه أن يصبر عليهم ويجلس لهم حتى يتموا ما بقي عليهم في هذه الأيام اليسيرة، فقعد لهم يومًا فضاق، وقعد لهم يومًا ثانيًا فضاق، فقال في اليوم الثالث:

سألبس للصبر ثوبًا جميلًا ... وأفتل للضجر حبلًا طويلًا

وأصبر بالرغم لا بالرضا ... أخلص نفسي قليلًا قليلًا

[٣٧١] قال أبو جعفر أحمد بن أبي سليمان، فيما أوصى به لطالب العلم:

يا طالب العلم: إذا طلبت العلم فاتخذ له قبل طلبه أدبًا تستعين به على طلبه، واتخذ له بعد طلبه أدبًا تستعين به على حمله، ومن أدب العلم الحلم، والحلم كظم الغيظ، وأن يغلب علمك وحلمك هواك إذا دعاك إلى ما يشينك.

وعليك بالوقار والتعفف، والرزانة والصيانة، والصمت والسمت الحسن، والتودد إلى الناس، ومجانبة من لا خير فيه، والجلوس مع الفقهاء ومحبة الأخيار، ومنابذة الأشرار، والقول الحسن في إخوانك، والكف عمن ظلمك، ولا تهمز أحدًا بقول، ولا تلمزه ولا تقل فيه ولو كان عدوك، فإن فعلت ذاك شرفت عند العقلاء، وعرفت حقك الجلساء، ولحقت بالعلماء، وهابك السفهاء، وحللت محل الأبرار، وبرئت من الأشرار، فافهم وتفهم واستعن بالله يعنك.

[٣٧٢] قال أبو الحسن علي بن محمد: وجدت رقعة في مسجد أحمد بن أبي سليمان مكتوب فيها:

يــا لــذة قصرت وطــال بلاؤهــا عنــــد التــــذكر في الزمــــان الأول

لـمــا تـــذكرها وقـــال ندامـــةً مـــن بعـــدها: يـــا ليتنـــي لم أفعـــل!

[٣٧٣] وقال أحمد:

دخل عليَّ بكر بن حماد فتحدث عندي ساعة فقلت له: أيش قلت؟

فقال: قلت هذه الأبيات:

نهـــار مشرق وظـــلام ليـــل ألحّـــا بالبيـــاض وبالســـواد

همـــا هـــدما دعـــائم عمـــر نـــوح ولقـــمان وشـــداد بـــن عـــاد

فيـــا بكـــر بـــن حمـــاد تعجـــب لقـــوم ســـافروا مـــن غـــير زاد

تبيـــت عـــلى فراشـــك مطمئنًّـــا كأنـــك قـــد أمنـــت مـــن المعـــاد

فيا سبحان من أرسى الرواسي وأوتـــدها عـــلى الســـبع الشـــداد

قال أحمد بن أبي سليمان: فلما انتهى إلى هذا البيت قلت له:

أمسك، رفعت الجبال فوق السموات، وأنزلت السموات تحت الجبال!

فقال لي: وكيف ذلك؟

فقلت له: اقرأ سورة عم يتساءلون، فقرأها حتى انتهى إلى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢] فقال لي:

والله لقد أنشدته بالعراق ومصر وتاهرت والقيروان، فما فهمه أحد، وقد كسرته أنت فأصلحه.

فقلت له: أفلا قلت: فأوتدها مع السبع الشداد؟

قال لي: قد أصلحتَ ما أفسدتَ.

وفيها توفي:

- **أبو هارون الأندلسي المتعبد، بالمدينة الشريفة -حرسها الله تعالى- ودفن حذاء مسجد فاطمة، رضي الله تعالى عنها، في البقيع جوار الحسن بن علي؛ رضي الله تعالى عنهما.**

كان صالحًا فاضلًا مجتهدًا في الدعاء والعبادة، تخلّى عن الدنيا وباين أهلها واشتغل بعبادة ربه عزّ وجلّ، والانقطاع إليه والاستئناس به والاستيحاش من خلقه، مفتقرًا إليه متوكلًا عليه.

[٣٧٤] وذُكر عنه أنه ما اغتسل من جنابة قط: كان حصورًا لا يأتي النساء.

[٣٧٥] وذُكر عنه أنه قيل له في علته التي مات فيها: لو تعالجت؟ فرفع رأسه إلى السماء وقال:

إلهي وسيدي: قد أعطيتك من نفسي عهدًا أني لا أخالفك أبدًا، ثم حول وجهه إلى الحائط وقال:

آه، واشوقاه إلى حبيب إذا غضب عفا وإذا رضي شفى.

[٣٧٦] قال أبو عقال:

فلما احتضر وضع رأسه في حجري ودموعه تنحدر وشفتاه تتحركان، فنظر إليَّ وأنا أبكي فقال لي: يا أبا عقال، لم تمر أعمال القوم باطلًا، نزل كل واحد على ما عمل، ثم فاضت نفسه.

[٣٧٧] وكان يسأل الله عز وجلّ أن يجعل قبره بالبقيع.

[٣٧٨] قال عمران بن حفصون:

كنت في حلقة حماس بن مروان القاضي حتى دخل عليه رجل عليه مرقّعة صوف، فقام إليه وأجلسه موضعه وحوّل وجهه إليه، ثم جلس معه ساعة وخرج، فقام حماس معه فقال له:

يا سيدي لا تفعل.

فقال: هذا فرض عليّ.

فقال له الطلبة وابنه سالم: يا سيدنا: من أين هذا الرجل؟

فقال لهم: هذا أبو هارون الأندلسي، وهو مجاب الدعوة، وهو من الأبدال تُرجى بركة دعائه، يا بني الحقه وخذ بحظك منه.

فلحقه سالم فدفع إليه خمسة دنانير ودُرّاعة وجبة صوف ومنديلًا وسراويل، ثم أعلم أباه بذلك، فلما كان من الغد دخل إليه فقال له:

ياسيدي: رأيته كما كان أول مرة في مرقّعته الصوف وفي العباءة التي كان فيها.

فقال له حماس: يا بني، ذاك من الأبدال يتأسى بأهل الصُّفة، لا تبيت معه بيضاء ولا حمراء[1] ولا يتلبس بشيء من الدنيا إلا ما يسد جوعة أو يستر عورة، نفعك الله يا بني بذلك، فلقد نفعني الله بصالح دعائه.

[٣٧٩] قال أبو عقال بن غلبون:

رأيت أبا هارون راقدًا طول الليل وأنا أصلّي الليل كله، فوسوس لي في قلبي فقلت: أنا أصلي الليل كله وهذا رجل راقد! من أين هو أفضل مني؟، ثم غفت عيني فرقدت، فإذا أنا برجل مبيض واقف على رأسي فقال: اقرأ يا ابن غلبون.

فقلت: وما أقرأ؟

فقال: اقرأ ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١] فانتبهت.

[٣٨٠] ثم قام أبو هارون فقلت: سيدي أبا هارون: أتعلقت من الدنيا بذنب أو معصية؟

فقال: والله يا أبا عقال ما حللت ثوبي على معصية قط، ولا أكلت مال يتيم، ولا شهدت بغير الحق، فأسأل الله يا أبا عقال أن يعفو عنا وعنك، وأن يدخلنا الجنة برحمته، فأخبرته بالرؤيا فبكى وقال لي: يا ابن غلبون: كلٌّ في رحمة الله عزّ وجلّ، وهذه من أكبر النعم قبلي.

[٣٨١] حدث أبو بكر أحمد بن محمد بن أبي يحيى المتعبد القرشي الصقلّي، قال: سمعت أبا الحسن عليّ بن محمد الفقيه بحضرة جماعة من أصحابنا، وقد ذكر أخبار الصالحين وفراساتهم، فقال:

حكى المغربي حيان المتعبد بالمنستير حكاية، وهو في جماعة من بلدان شتى، قال: حدثني أبو بكر بن سعدون، رحمة الله عليه -وكان من أهل الزهد والعبادة والرواية- قال:

حججت وأدركت بمكة أبا هارون الأندلسي وأبا عقال بن غلبون، رحمهما الله تعالى،

---

(١) البيضاء: الفضة، والحمراء: الذهب.

وكنت أجلس إلى حلقتهما، فلما قضينا الحج جلست إليهما على سبيل العادة، وقد أخذ الناس في أُهبة الرحيل، فقال لي أبو هارون الأندلسي:

يا أبا بكر: أنت مقيم أو راجع إلى المغرب؟

فقلت له: بل مقيم.

فقال لي: ألك بالمغرب أحد؟

فقلت له: بلى، لي والدة.

فقال لي: وكيف ينبغي لك أن تتخلف عنها، ولعلها متشوقة إليك؟

فقلت له: لي عذر يوجب إقامتي.

فقال: وما هو؟

فقلت: قلة النفقة.

قال: فمد أبو هارون يده إلى خرقة مصرورة فدفعها إليّ وقال لي: أنفق منها حتى تصل إن شاء الله تعالى.

قال: فنهضت وخرجت مع الناس راجعًا إلى المغرب، فما كنت أصل إلى مرحلة فأحتاج فيها إلى شيء إلا وجدته في تلك الصرة، حتى وصلت إلى المغرب.

قال الشيخ أبو الحسن:

وكان في آخر مجلس المغربي شيخان من أهل القيروان، فكأنهما أنكرا على الشيخ حكايته، فارتفعت الأصوات بالنكر عليهما، فسمع الشيخ جلبة الناس، فرد وجهه إليهم فقال: ما لكم قد أكثرتم الكلام؟

فقال الناس: أصلحك الله، إن هذين الشيخين قد أنكرا حكايتك هذه التي حكيت، فتغير وجه الشيخ واحمر وقال:

الله يعلم أني ما قلت إلا ما أخبرني به أبو بكر وما كذبتُ عليه، ولكن ما أرى هذين الشيخين يموتان على الإسلام.

قال أبو الحسن: فوصل الشيخان إلى القيروان فتشرق[1] أحدهما وتمعزل[2] الآخر، وكان يحضره الشيخ أبو علي بن خلدون، فقال للشيخ أبي الحسن: من الشيخان؟

فقال: فلان وفلان.

قال: فعرفهم الشيخ ابن خلدون وجماعة ممن حضر من أهل العلم.

[٣٨٢] قال أبو عقال بن غلبون: قال أبو هارون الأندلسي:

يا أبا عقال، نصحبك صحبة موسى عليه السلام للخضر: لا تسألني عن شيء ولا أسألك عن شيء، فعملت -أنا وهو- في الإجارة، فاشترينا رأسًا وخبزًا، فلما أن وضعناه بين أيدينا لنفطر عليه وقف به سائل، فدفعه إليه وبقينا بلا شيء، ثم عملنا اليوم الثاني ففعل كما فعل في اليوم الأول، ثم فعل في اليوم الثالث كذلك، وبقينا بلا شيء، فلما أن صلينا في المسجد الحرام المغرب وخرجنا إلى بيت نسكنه قلت له:

يا أبا هارون: أصابني الجوع، فتبسم وقال:

يا أبا عقال، الذي أجاعك أليس يعلم أنك جائع؟ تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك؟ إنما تنال الآخرة بالصبر، ليس تخسر معه شيئًا إنه لا يضيع أجر المحسنين.

قال: فلم يُتم الكلام حتى ضُرب الباب، فقال لي: قم اخرج فخذ هذا الذي جاءك، فقمت فإذا بمائدة مغطاة على رأس خادم عليها أطعمة من الحلوى والأشوية، فقال الغلام:

سيدي يقرأ عليكما السلام ويقول لكما: اقبلا هذا الطعام، فدخل بالمائدة فوضعها، قال أبو هارون:

يا ابن غلبون: مثل هذا الكريم يعامل ويتاجر معه، أيهما أكثر: أهذا أم الذي أعطيت؟ والذي يعطيك غدًا أكثر من هذا، اخرج إلى محمد بن أحمد السدري وإلى محمد بن الكاتب وإلى إخواننا كلهم فادعهم يأكلوا معنا، ليس لنا منه إلا شبعة، وشبعة نشبعها غدًا في دار الخلود إن شاء الله تعالى، فأقبلوا فأكلوا منه ولم يبق منه شيء.

---

(١) قال المحقق: اصطلاح إفريقي قيرواني يقصد به الدخول في مذهب الشيعة الفاطميين المتملكين على بلاد المغرب.
(٢) قال المحقق: أي اعتنق مذهب المعتزلة.

[٣٨٣] قال أبو بكر بن سعدون:

فكنّا في المسجد الحرام جلوسًا مع أبي هارون وأبي عقال ومحمد بن أحمد السدري وقوم صالحين، حتى قدم رجل خراساني فسأل عن أبي هارون فقيل له: ها هو ذا فدفع إليه دراهم فقبضها منه وأقبل يعطي كل من مر به، ثم أعطى منها قبضة دراهم لمحمد بن أحمد السدري ثم قال له: إيتنا بأطيب طعام في السوق، فجاء بشواء وحلوى ورقاق وخبز حُوّارى[1] وفاكهة ثم وضعها بين أيدينا، والخراساني جالس ينظر، فقال أبو هارون: كلوا هذه فهي من الله أتتنا، يجازي الله صاحبها بالجنة لأنه قارَضَه.

ونظرت إلى أبي عقال وبيده عنقود عنب وهو يقول لهم: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]، جعلنا الله يا أبا هارون نجتمع في هذه الدار كما جمعنا حول هذا البيت العتيق.

ثم قال الخراساني: إنه لم يبق من الدراهم شيء، إنما أعطيتها لك، فقال له أبو هارون: أعطيتها لمن يجازيك عليها ويكافئك بها ولا يضيع أجرك، ففرح الخراساني بهذا الكلام.

[٣٨٤] حدث أبو بكر المؤدب الصقلي، قال: كان أبو هارون قد سكن مدة قصر لمطة، وكان أبي يصحبه وكنت أنا مع أبي سكانًا في قصر لمطة، فقال لي مرارًا كثيرة:

يا أبا بكر: اشتهيت حوت قلّقط يُعمل في المنستير، فاشتره واعمله لي، فكنت ألوذ وأعتذر لصعب المشي عليّ، إلى أن دعاني يومًا ودفع إليّ قطاعًا - أراه قال نحو قيراطين- وقال لي:

قم الساعة إلى المنستير اشتر الحوت الذي قلت لك عنه، فلم يمكني مخالفته، فمضيت إلى المنستير، فلما مشيت نصف الطريق أو أكثر إذا برجل على كتفه مِشَنّة[2] فيها حوتان من قلّقط، فقلت في نفسي: لعلي أشتريهما منه ويقرب عنائي، فلما التقينا سلمت عليه وقلت له:

تبيع مني هذين الحوتين؟

---

(١) هو الخبز الأبيض المنخول.

(٢) المشنة: هي وعاء يوضع فيه الخبز ونحوه، ويُتخذ من خوص أو أعواد شجر لدِنة: «المعجم الوسيط»: ش ن ن.

فقال: لا.

قلت: أنا أعطيك فيهما ثمنًا كبيرًا.

فقال: لو أعطيتني فيهما دينارًا ما بعتهما منك، لأنهما معي رسالة.

فقلت له: إلى من؟

قال: إلى أبي هارون الأندلسي في قصر لمطة.

فقلت: فأنا والله أرسلني أبو هارون إلى المنستير أشتري له حوت قلّقط اشتهاه.

فقال لي: إذا كان هكذا فوصِّلهم أنت إليه وأرجع أنا من ها هنا.

قال: فدفع إليّ المشنة ورجع الرجل إلى المنستير، ورجعت أنا إلى أبي هارون، فلما وصلت إليه سمع الشيخ أبو هارون كلامي فقال:

ما أعادك؟ أما مضيت؟

فقلت: بلى، أصلحك الله، قرب الله عنائي: كان من الأمر كذا وكذا، وذكرت له القصة؛ فعجب - رحمه الله تعالى- وقال لي اعملهما، فتشمرت وغسلتهما وجعلتهما في طاجن وأدخلتهما الفرن واشتغلت في عملهما إلى نصف النهار، وكانت أيام صيف، وكان الفرن خارج القصر، فلما أخرجوا الخبز أخرجته فرأيته جاء غاية من الغايات، فأخذته على يدي ودخلت به القصر، فإذا في السقيفة جماعة رجال ونساء من المسافرين دخلوا يقيلون من شدة الحر، فلما دخلت فاحت إليهم رائحته، فصاح بي رجل منهم، فرجعت إليه فقال لي:

يا أخي، هذه المرأة حامل -وأشار بيده إلى امرأة منهم- وقد شمت رائحة هذا الطاجن الذي معك، ويُخشى أن تطرح، إن رأيت أن تتفضل وتعطيها منها شيئا؟.

قال: فأنزلته عن يدي، وقطعت منه قطعة وغطيته، ومضيت به إلى الشيخ، فلما كشفته بين يديه أعجبه وسر به ثم قال لي: أرى أثر شيء نزع منه فأخبرته خبر الحامل فقال لي:

أعطيتها منه؟

فقلت له: نعم.

فقال: الحمد لله، سررتني والله، ثم قال:

يا أخي، اقضِ حاجتي وأدخل على قلبي مسرة، واحمله إلى جماعتهم يأكلوه.

فقلت له: لا تفعل، أصلحك الله، أنا متعوب فيه من غدوة إلى الساعة، ولك مدة تشتهيه، والحامل قد أكلت شهوتها.

فقال لي: لعلهم كلهم قد اشتهوه كما اشتهت الحامل، لا والله ما يطيب لي أكله، هم أولى به ومعهم النساء والأطفال، احمله إليهم.

قال: فحملته والله على كره مني، وأتيتهم به وقلت لهم: قال لكم الشيخ: اجتمعوا وكلوا هذا، ففرحوا به فرحًا شديدًا، واجتمعوا كلهم وأكلوه، وحملت الطاجن فارغًا، فأخبرته بفرحهم وأكلهم إياه بجماعتهم، فسر بذلك سرورًا عظيمًا ثم قال لي: أبوك رأيته اليوم؟

فقلت له: لا والله، أنا من غدوة مشغول معك، ما رأيت أبي ولا غيره.

قال: وكذلك أنا ما رأيته من غدوة.

قال: فمضيت إلى أبي فوجدته قد تشمر وهو يعمل كنافة عجيبة، فأخبرته بما جرى لي مع الشيخ في الطاجن، فقال: نِعم ما عمل الشيخ قال: وأنا قد عملت له هذه الكنافة قال: فأخذ في عملها وأفرغ عليها الزبد والعسل الكثير في مثرد كبير وغطاها وقال لي: خذها على يدك، وأغلق بيته، وجئنا إلى الشيخ أبي هارون، فقال: ما هذا؟

فقال له أبي: كان عندي - أصلحك الله- شيء من سميد وعسل وزبد، فقالت لي نفسي: اعمل كنافة للشيخ أبي هارون تأكلوها معه، قال: فكشفها فأعجبت الشيخ، وقال:

يا أبا بكر: آثرنا بالطاجن أولئك المساكين والنساء والأطفال، فعوضنا الله - عزّ وجلّ - ما هو خير منه.

[٣٨٥] وقال أبو عقال:

خرجت أنا وأبو هارون يومًا ومعنا عشرة مثاقيل نفقة كنا استعددنا بها للسفر، وكانت مصرورة معي، إلى أن عرض لنا سائل وقال لنا: واسونا مما رزقكم الله، يرحمكم الله ويعظم أجوركم!

فقال لي: يا ابن غلبون، اعطه تلك العشرة التي معك.

قال: فوقفت عن إعطائها وشححت بها، وخفت أن ألتجئ إليها، ثم قال لي:

يا ابن غلبون: اعطه تلك العشرة التي معك وتوكل على الله تبارك وتعالى.

فأعطيته إياها، ومشينا قليلاً وإذا بفارس خلفي مُبَيِّض[1] بأشد ما يكون من الجري، فأعطاني صرة وقال: خذ يا أبا عقال، ثم مضى الفارس حتى غاب في الطريق، ثم مشيت حتى لحقت أبا هارون، وهو يومئذ على المقدمة، فعطف عليّ قبل أن أكلمه وقال لي:

يا ابن غلبون: أعطيت عشرة فأخذت مائة، مثل هذا العزيز الكريم يتاجر معه، أما سمعته يقول: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]؟ يا بخيل: خذ رأس مالك وتصدّق بالباقي فإن مثل هذا الكريم يتاجر معه.

[٣٨٦] قال أبو بكر الصقلّي، وكان من رجال يحيى بن عمر:

كنت أخدم أبا هارون الأندلسي، وكان أبي كثير الصحبة له، قال: فجئت معه يومًا إلى حانوت حجام عند المسجد الجامع بسوسة ليأخذ له من شعره، فوجدنا الحجام يحلق رأس رجل، فسلمنا وجلسنا ننتظر فراغه حتى أتى رجل من أهل الدنيا، فسلم وجلس، فرد عليه الحجام، وقال له: ارتفع يا سيدي، وأعظمه، قال: فلما قام الرجل الذي بين يديه قال للرجل الدنيائي: اعزم يا سيدي وصبّ على رأسه، ولم يلتفت إلى أبي هارون، قال أبو بكر:

فغضبت من فعل الحجام؛ إذ لم يعط الشيخ حقه ولا سيما أنه سبق، فقلت للشيخ بيني وبينه: قم بنا إلى غيره.

فقال لي: لا.

فقلت له: ألا تراه قدم عليك رجلًا من أهل الدنيا، وأنت سبقت، ولم يعرف قدرك؟ فأشار إليّ أن أسكت فسكت ولم أقدر أخالفه، فلما فرغ من الرجل بلّ الشيخ رأسه وجلس بين يديه، وحلق رأسه.

(١) أي لابس البياض.

قال: وحلقت رأسي بعده، فلما فرغنا أخرج الشيخ أبو هارون من جيبه خرقة حلّها وأخرج منها دينارين ودفعهما إلى الحجام وخرج، فبقي الحجام باهتًا ينظر إليه، فلما خرجنا قلت للشيخ:

لم فعلت هذا، أصلحك الله؟ هذا رجل لم يعرف قدرك، وقدم عليك من سبقته أنت دوننا ككل من له دنيا، وحقرك، فأعطيته دينارين ليس معك غيرهما.

فقال لي: إنما أردت أن أقيم جاه الفقر والفقراء عنده حتى لا يعود أبدًا يقدم دنيائيًا على فقير ولا يرى فقيرًا إلا نظر إليه بعين الجلالة.

قال أبو بكر:

فمشينا قليلًا، فلما جاوزنا الجامع لقينا قومًا عليهم أثر السفر، فسلّموا على الشيخ أبي هارون وقبلوا رأسه وبجلوه، ودفعوا له صرة وقالوا له: فلان يقرأ عليك السلام ووجه إليك بهذه الصرة فأخذها منهم، فمشينا قليلًا ففتحها فعد فيها عشرة دنانير فقال لي:

يا أبا بكر: أقمنا جاه الفقراء بدينارين فعوضنا الله عزّ وجلّ عشرة.

[٣٨٧] وحدث أبو ميسرة أحمد بن نزار الفقيه، قال:

كنت بجامع سوسة وأبو هارون الأندلسي جالس، فأتاه رجل ضعيف العقل من فقراء أهل سوسة فقال له:

أطعمني الخبز والعسل.

فقال: نعم، إذا كان العصر تأتيني وكان ذلك غدوة.

قال أبو ميسرة:

فكنت عنده وقت العصر جالسًا حتى أتاه قوم من أهل القيروان، فدفعوا له صرة وقالوا:

يا أبا هارون: هذا سهمك من أزوادنا، فأخذها منهم، فبعد أن انصرفوا أتاه الضعيف للوعد، فحلّ الصرة وقال لرجل كان جالسًا: خذ هذا القيراط اشترِ له به خبزًا وعسلًا.

قال أبو ميسرة: فقلت له: بيِّن لي قولك للرجل: تأتيني العصر، وأنت ليس معك شيء من الدنيا.

فقال: يا أبا ميسرة: كأني أظن بالله -عزّ وجلّ- أن يتركني يومًا كاملًا بلا رزق؟ لا والله ما نظن هذا بالله عزّ وجل.

وفيها توفي:

- أبو عقال بن غلبون، رضي الله عنه.

[٣٨٨] توفي وهو ساجد خلف المقام ودفن بمكة.

خرج من القيروان فأوطن الحرم وسكنه حتى مات به، ورفض الدنيا وتركها، ولزم السهر وسرد الصيام، وباين أبناء جنسه، وتشرد عن الوطن وفارق السكن وقال في الزهد فأحسن.

[٣٨٩] وكان قد جرَّ أذياله في الصبا، وأطال من عنانه في الهوى، منهمكًا في البطالة، صاحب لهو وصبوة مع مروءة وفتوة، إلى أن تناهت حدود القضاء فشمر وارعوى، وآثر ما يبقى على ما يفنى، فبكى وناح على ما سلف من أيامه، وقارف من آثامه، صائمًا نهاره، قائمًا ليله، حتى كان يضرب به المثل في عبادته.

[٣٩٠] وأما سبب توبته ورجوعه إلى عبادة ربه، وما جرى له في ذلك من الأخبار والمجالس، فذكر سليمان بن محمد، قال:

أخبرني محمد بن الكاتب، قال: كنا نشرب عند أبي عقال بن غلبون في داره، فلما كان بعد العصر خرج عنا من المجلس، وقد طبنا، فقال لغلامه:

امضِ فاشترِ لي جبة من صوف وعباءة وكساءً ومئزرًا من صوف، فحسب الغلام أنه إنما يريد أن يكسوها لأحد، فأتى بها إليه فنزع ثيابه تلك الناعمة النظاف ودخل إلى والدته فقالت له:

ما هذا يا أبا عقال؟ أخولطت في عقلك يا بني؟

فقال لها: يا أماه: والله لا عصيته بعد هذا اليوم أبدًا، إلا أن يُقَدِّر عليَّ، وانصرف كل واحد منا، فهكذا كانت توبته -رحمه الله تعالى- فباع ما كان له من دار وعقار وتصدق به.

وخرج إلى مكة -حرسها الله تعالى- في خيشتين، قال: ائتزرت بواحدة وارتديت بالأخرى حتى أتيت إلى بعض محارس سفاقس، فرأيت أبا هارون الأندلسي هناك، فقال لي بعد ثلاث:

ما لك يا بني تكثر الانتحاب والبكاء في ليلك ونهارك، بخلاف الشباب والفتيان حتى كأنك قريب عهد بمعصية؟

فقلت له: ذنوبي قد عظمت وجلّت.

فقال لي: فإنها صغيرة حقيرة في جنب عفو الله -تعالى- وكرمه وصفحه، فما اسمك يا بني؟

فقلت له: اسمي أدب، وكنيتي أبو عقال.

فقال لي: أبشر بكل ما يسرك -إن شاء الله تعالى- فقد أتاني آتٍ من الله في منامي فقال لي:

يصحبك شاب إلى مكة اسمه أدب وكنيته أبو عقال، وقد تاب الله -تعالى- عليه في أم الكتاب، فارفق به في صحبته معك.

[٣٩١] قال أبو عقال:

فكنت معه حتى أتانا الخبر بأن رفقة الحاج خرجت من القيروان فوافيناها بقابس، فلما كان في الساعة التي نزلنا بها في طرف مناخ الرفقة -وقد هلكت جوعًا- قال لي:

يا بني: خذ هذه الستة دراهم فاشتر بها ما نأكلوا[1] فوالله ما أملك غيرها.

قال أبو عقال: فلما أخذتها واستقرت في يدي إذا بسائل قد وقف إليه، فقال له: عسى يحضرك شيء لله عز وجل.

فقال لي: ادفع إليه تلك الستة دراهم.

قال: فأمسكت يدي وقلت في نفسي: نحن البارحة لم نطعم، وأنا لا أرى أين أضع قدمي من الجوع، فأمسكت يدي عن الستة دراهم، فانتهرني وقال: ادفعها إليه كما أمرتك.

قال: فدفعت إليه خمسة دراهم وأمسكت درهمًا دون علمه.

قال: فوالله ما مشى السائل قليلًا ولا توارى حتى سمعنا صائحًا يصيح باسم أبي هارون واسمي فقلت له: ألا تسمع هذا الذي يصوت بنا؟

---

(١) كذا وردت، وبين المحقق أنها لهجة تونسية عامية باقية إلى اليوم.

فقال لي: الساعة ينتهي إليك، والرجل يكثر الصياح باسمينا ويسأل أهل الرفقة في المناخ عنا، فقلت له: أقول لبيك وأجيبه؟

فقال لي: لا تكن عجولًا، حتى وقف الصائح بنا وسلم علينا وقال: هذه خمسون دينارًا مثاقيل بعث بها إليكما فلان وفتح بها عليكما، فنظر إليَّ أبو هارون نظرة منكرة وقال:

لم تدفع إلى السائل الستة دراهم كاملة؟ أما إنك لو دفعتها إليه كاملة لجاءتك ستون دينارًا موفرة.

قال: ففرقناها على من كان في الرفقة معنا من الضعفاء والمساكين ولم نخرج من قابس ومعنا منها إلا التافه اليسير، فكنت معه تحت رفق الله - عز وجل - وتحت ستره حتى وصلنا إلى مكة.

[٣٩٢] قال أبو بكر بن سعدون:

رأيت أبا عقال على جبل الرحمة يوم عرفة جاثيًا بين يدي الله -عز وجل- على ركبتيه، باسطًا ذراعيه، شاخصًا ببصره ودموعه سكبًا، فقلت له:

يا أبا عقال: إنه يوم عظيم، ألا تدعو؟

فقال لي: يا ابن سعدون، هو يعرف حاجتي وفي أي شيء جئت.

[٣٩٣] وذكر الفقيه أبو سعيد بن أخي هشام، قال: حدثني رجل من أهل مصر قال:

دخلت جامع مصر فقلت: اللّهم أرني وليًا من أوليائك.

قال: فإذا برجل يركع عند المقصورة عليه عباءة. قال: فجلست بجواره فسمعته يقول وهو ساجد:

اللّهم إني جائع فأطعمني، فإذا برجل قد أقبل، فنظر يمينًا وشمالًا، ثم قصد نحوه فجعل بجواره جَردقًا[١] وخبيصًا[٢]، فلحقته وسألته عن سبب ما أتى به فقال:

---

(١) قال المحقق: هي رغائف رقاق تطبخ في تنور.

(٢) قال المحقق: الحلواء المخبوصة من التمر والسمن.

ذهبت زوجتي إلى الحمام، فاشتهت عليَّ أن أعمل لها لحمًا مشويًا في تنور، فجاز بي رجل من أصدقائي فاشتغلت معه حتى فات الوقت، وعمل جاري خبيصًا فأخذت منه، وأخذت معه جردقًا، وأتيت به إليها، فتغيرت عليّ وقالت: أنت اشتغلت عني ولم تلقِ إلي بالًا، فحلفت أنها لا تأكله، وحلفت أنا أني لا آكله، فقالت: امض به إلى الجامع فأطعمه للفقراء.

قال: فدخلت الجامع، فنظرت يمينًا وشمالًا على أن يقع بصري على فقير، فما وقع بصري إلا على هذا الذي يركع عند المقصورة، فلمّا وضعته بجواره وانصرفت عنه رأيت الجامع مملوءًا بالفقراء.

قال: فرجعت أنظر إلى الرجل فإذا هو أبو عقال بن غلبون، رضي الله عنه وأرضاه.

[٣٩٤] قال أبو ميسرة: وسمعت أبا عقال يقول -وقد سألته: ما أشد ما جرى عليك بمكة؟

فقال: أشد ما مر عليّ أنّا جعنا يومًا ثم يومًا ثم يومًا، فمضينا إلى قوم فواجرونا[1] في عمل الطين، ونحن ثلاثة أنفس: أنا وأبو هارون ورجل آخر، قال: فعملت أنا معهم في الطين إلى الضحى، فضعفت عن العمل ولم أقدر على شيء، وخفت إن أكلت معهم وحلت[2] في العمل، فخرجت من مكة هاربًا نحو الصحراء، وليس -والله الذي لا إله إلا هو- في قلبي ذكر جنة ولا نار ولا حساب ولا عقاب، ولقد كنت أتمنى لو أصبت قشرة خبز على مزبلة، حتى جئت إلى بئر إلى جنبه خشبة فنمت عليها وأنا مهموم لما بي من الجوع.

فأنا كذلك حتى أقبل نسوة فقلن: تنح لنا عن البئر فإنا طلبنا أن نتفرج عنده.

قال: فتنحيت عنهن، فأنا كذلك لما بي، إذ أقبلت واحدة منهن فقالت:

قد وقع لنا الإناء الذي نستقي به في البئر فلعلك تجيء تخرجه لنا من البئر، فجئت مبادرًا حتى أخرجته لها، ثم رجعت إلى موضعي وأنا مغموم لما في قلبي من الجوع، حتى أقبلت إليّ واحدة منهن بطبق فيه خبيص وفالوذج وشواء وجرادق، وقالت: كل، فهذه بنت فلان التاجر

---

(١) أي استأجرونا.

(٢) قال المحقق: هي عامية، وتعني التورط والالتزام.

تنزهت اليوم إلى هذا الموضع، وهذا هدية لك من عندها، فأكلت طعامًا لو عملت شهرًا جديدًا بمكة وأحرزت عملي ما قام لي بذلك الطبق.

فأكلت وشبعت، ثم حضرتني دمعة شكر فبكيت، ثم قلت لنفسي:

يا ابن غلبون: لم تذكر في هذا اليوم جنة ولا نارًا ولا ذنبًا من ذنوبك؟ إنما كان همك كسرة خبز يابسة تأكلها، فقد أكلت شيئًا لم يخطر ببالك، ثم نمت، فبينا أنا نائم إذ وقف بي ثلاثة نفر، واحد منهم متقدم واثنان في طلبه، فقلت لواحد منهم: من هذا؟

فقال: هذا إبراهيم الخليل ﷺ، فعطف عليّ بوجهه وقال:

يا ابن غلبون، تظن أنك تقصد الله -تعالى- ويضيعك، أو تقصد الله ويخذلك؟ ثم انتبهت، فهذا أشد ما مر بي بمكة.

[٣٩٥] وقال أبو بكر بن سعدون: قال لي أبو عقال:

يا أبا بكر: زال من قلبي حب الدنيا إلا حب النساء، قال: فكنت أطوف مغطى العينين خوفًا من الفتنة، فإذا بامرأة خراسانية نظرت إليّ وأنا أطوف فقالوا لها: هذا رجل من ملوك المغرب، طلّق الدنيا وبقي في قلبه حب النساء، فقالت: أنا أتزوجه.

فأرسلت إليه، فقال لها: لا أتزوجك حتى تتركي الدنيا ولا يبقى معك شيء منها مثلي، فأخبروها، فتصدقت بما معها وتزوجت أبا عقال، فأقام معها حتى توفي فدفنا جميعًا بمكة، أبو عقال وزوجته الخراسانية.

[٣٩٦] وقيل: إنه كتبت إلى أبي عقال أخته من القيروان إلى مكة كتبًا كثيرة، بعد توبته وإنابته، تسأله وترغب إليه في الرجوع إلى المغرب لتجتمع به وتسر برؤيته قبل أن يفرق الموت بينهما، فكل كتاب وصل إليه منها ألقاه من يديه ولم يقرأه، فلما طال ذلك عليها أوصت إليه بغير كتاب ورغبت إليه وقالت: بحق الثدي الذي رضعته معك إلا أريتني وجهك قبل الموت وفراق الدنيا! مالك؟ في حين صباك وجناياتك وكثرة ما يطرأ علينا بسببك كنت عندنا، وحين صرنا نفتخر بك ونتبرك برؤيتك فارقتنا؟

فقال لرسولها: قل لها ما كنت لأدع بلدًا عرفت الله -عز وجل- فيه وأمضي إلى بلد عصيت الله – تعالى – فيه، أخشى أن تقتضيني العوائد[١].

ثم قدمت عليه أخته بعد ذلك من المغرب وأقامت معه بمكة حتى ماتت.

وقيل: إنها لما قدمت عليه قال لها:

يا أخت: إن هذا بلد شديد العيش وليس تمكنك الأشياء به كما كانت تمكنك بإفريقية، وأنت قد تعلمت بإفريقية العيش الرغد والطعام الطيب.

فقالت له: إذا لم أجد شيئًا أخذت القربة وحملت على ظهري الماء وسقيت مع السقايات.

قال: ثم إنها أقامت معه ما شاء الله - تعالى- بمكة تتعبد معه، وكانت مجتهدة، ثم توفيت بمكة، حرسها الله.

وكان سبب موته أنه صلّى العشاء الآخرة وذلك في شهر رمضان ثم قمنا لصلاة التراويح، فصلينا ترويحة، أو اثنتين، فسجد الناس وسجد أبو عقال، ثم قام الناس وبقي أبو عقال ساجدًا بحاله، فظن من وراءه أنه نام في سجوده، فلما انقضت الترويحة التي كانوا فيها ذهبوا يحركونه فإذا هو قد مات، فصعد رجل على الحِجْر فقال: أيها الناس: إن الله -تبارك وتعالى- أراد أن ينشر لأبي عقال في أرضه اليوم عملًا.

***

(١) أي يخشى أن يعود إلى ما اعتاده من ذنوب.

ثم كانت سنة ثلاث وتسعين ومائتين: وفيها توفي:

-أبو عبد الله محمد بن أبي حميد بسوسة، حرسها الله.

[٣٩٧] حدَّث ابن اللباد عنه أنه قال:

رأيت سحنونًا بعد موته كأنه في موضع فخرجت في طلبه، فحسَّ بي خلفه فقال لي: أتحفظُ القرآن؟

فقلت له: نعم.

فقال لي: اقرأ عشر: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ﴾ [يونس: ٧١]، فقرأته عليه فلما فرغت منه قال لي:

القراءة في المصحف أفضل.

فقلت له:

يا أبا سعيد: أشكو إليك أني آخذ الكتاب فأدرس، فإذا حفظت العشر مسائل أو نحوها أُنسيت.

فقال: يا بني لم يجئ الصدق ولو جاءك الصدق لجاءك فوق ما تريد -مع أنه يرى هذا الإكثار الذي أكثرت أنا ليس هو هناك- القراءة في المصحف أفضل، القراءة في المصحف أفضل، القراءة في المصحف أفضل.

[٣٩٨] عن محمد بن أبي حميد قال: سمعت قاسم الجوعي يقول:

أظهـــروا نســـكًا وزهـــدًا وعـــلى المنقـــوش داروا[١]

ولـــه صـــلوا وصـــاموا ولـــه حجـــوا وزاروا

لـــو رأوه في الثريـــا ولهـــم ريـــش لطـــاروا

(١) المنقوش المقصود به هاهنا الدينار والدرهم الذي يُنقش عليه الكتابة ونحوها.

[٣٩٩] قال أبو جعفر القمودي:

بينما أنا بين سابت[1] ونائم إذ وقف بي شخص فقال لي: لا قائم ولا نائم، إن أردتَ أن ترى أولياء الله -تعالى- فاخرج إلى مسجد الدمنة -يريد المصلّى الذي في قبلة الدمنة- قال أبو جعفر: فقمت من فوري إلى الذي عنده مفاتيح أبواب المدينة فسألته أن يفتح لي فقال لي:

تفتح حصن المسلمين في هذا الوقت؟

فقلت له: افتح لي من الباب قدر شبر وكن من ورائي، فإذا خرجت فأغلق الباب.

ففعل البواب له ذلك لجلالته، قال أبو جعفر: فخرجت إلى الدمنة ليلًا فوجدت شخصًا قائمًا يصلي في قبلة المصلى، فأحرمت وراءه وأقبلت أصلي بصلاته حتى طلع الفجر، فتأملته فإذا به محمد بن أبي حميد المتعبد، فلما رآني وعرف أني قد رأيته وعرفته جعل إصبعه على فيه وأشار إليَّ أن أسكت ثم قال: تلك الطريق، وأشار بيده نحوها أن أنصرف عنه فانصرفت.

وكان سكناه بمدينة سوسة.

[٤٠٠] وكان من إشفاقه يقول: ما أراني صليت قط بالحقيقة كما يجب لحق الله -عز وجل- ومثلي يعمل عملًا يصلح لله تبارك وتعالى؟ اللّٰهم إن كنت تعلم أني عملت عملًا رضيته لك فاحرقني بالنار.

[٤٠١] وكان قد عظم جلال الله - عزوجل - في قلبه حتى هان عليه في الله تعالى كل عمل عمله.

[٤٠٢] قال القاضي عبد الله بن هاشم: حدثني عبد الله بن أبي عيسى -وكان من الأبدال- قال:

كنت أماشي ابن أبي حميد فالتفتَ إليَّ وقال لي: يا ابن أبي عيسى: نموت؟

فقلت له: نعم يا سيدي، ثم مشى قليلًا فالتفت إليَّ وقال لي:

نموت يا ابن أبي عيسى؟

---

(١) قال المحقق: نوم خفيف كالغَشية.

فقلت له: نعم يا سيدي، ثم مشى قليلًا، فالتفت إليَّ وقال لي:

نموت يا ابن أبي عيسى؟

فقلت له: نعم - أصلحك الله-.

قال: فصاح: آه ومد بها صوته، ثم ضرب بيده في صدري وقال:

نموت يا ابن أبي عيسى ويصلًّى في المساجد بعدنا ونحن تحت التراب.

فقلت له: لا بد من ذلك، فغُشِي عليه.

[٤٠٣] حدّث الطبني المؤدب رضي الله عنه -وكان فيه خير- قال:

دخلت يومًا على ابن أبي حميد في علّته التي مات منها وهو في البيت، وكان في الدار ذباب، وإذا بكفّ خارجة من الحائط تذبّ عن وجهه، رأتها عيني لا شكّ فيها.

[٤٠٤] قال أبو القاسم: وسمعت محمد بن كامل القطان السوسي يقول:

كنت في جنازة مع ابن أبي حميد، فأتى رجل على دابة يركض يسأل عن ابن أبي حميد حتى سقط عليه فسلّم وقال له: أتيتك لرؤيا رأيتها لك، رأيت في المنام قائلًا يقول لي: اذهب إلى ابن أبي حميد فسلّم عليه؛ فإنه ختم خلف كل عمود بجامع القيروان ختمة. قال: فسأله أبي وقال له: أكان ذلك فقال: قد كان ذلك.

قال أبو محمد: فعددت أعمدة الجامع الذي بالقيروان فوجدتها عدد أيام السنة.

[٤٠٥] وجرت له قصة مع إبراهيم بن أحمد الأمير قال: أتى إبراهيم بن أحمد إلى سوسة وقد بلغه عن أهلها أذى، فقال: أمضي إليها فأخربها وأهدم سورها وأعذب أهلها: قال: فوصل إلى سوسة في الليل فأتى إلى الدمنة فنزل في مسجدها فاجتمع إليه أهل الدمنة، فقال لهم:

هل عندكم أحد يحفظ القرآن يخرج إلي؟ فخرج إليه محمد بن أبي حميد، فسلم عليه وجلس معه ساعة ثم قال له: ما أتى بك؟

فقال له: بلغني أن أهل هذه المدينة تكلّموا فيّ بالقبيح وآذوني فجئت معتمدًا لإخرابها

وإخراب سورها وعذاب أهلها.

فقال له ابن أبي حميد: يأذن لي الأمير أن أقرأ، فقال له: اقرأ، فقرأ بعد أن تعوّذ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنفال: ٧٠]، فبكى إبراهيم بن أحمد عند ذلك بكاء عظيمًا ثم قال: والله لا فعلت شيئًا مما كنت اعتقدت، وركب من ساعته راجعًا إلى القيروان، وذلك كلّه ببركة محمد بن أبي حميد وحسن نيته، رحمة الله ورضوانه عليه.

***

ثم كانت سنة أربع وتسعين ومائتين

وفيها توفي:

-أبو عثمان سعيد بن إسحاق الكلبي:

مولى كلب، صاحب سحنون، بقصر الطوب، ودُفن به.

كان ثقة، متعبدًا، سريع الدمعة، كثير الصلاة.

وكان حسن الكتاب قليل الخطأ، إذا أشكل عليه حرف سأل عنه، وكان ساكنًا بقصر الطوب يقيم به شهورًا، ثم يقدم إلى القيروان فيقيم شهورًا فيأتيه الناس فيسمعون منه.

مولده سنة اثنتي عشرة ومائتين.

[٤٠٦] قال أبو محمد عبد الله بن إسحاق الفقيه ابن التبّان رضي الله عنه: قال أبو عثمان سعيد بن إسحاق:

ما نفعني الله، تعالى، إلا بشاب رأيته بمكة -حرسها الله- وهو تحت جدار يقرأ القرآن بتلاوة حسنة وتفهم وقراءة حزينة بمقدار ما يُسمع منه، وعليه خرقتان فقلت له: يا فتى: مالك؟ كأنك قريب عهد بمصيبة.

فقال لي: عليك بنفسك، فلها فانظر ودع ما فيه غيرك، فما شككت أنه ولي الله -عزّ وجل- فقلت في نفسي: قد وقعت على حاجتي فجثوت بين يديه على ركبتي وقلت له: سألتك بالله إلا دعوت لي.

فقال لي: شغلك الله بنفسك، وجعلك ممن تنظر إلى عيوبك، وعَرّفك قدر ما تطلب حتى يهون عليك ما تترك.

فوصل سعيد إلى القيروان فتخلى عن الدنيا وجعل الله همه في العزلة والانفراد بالله -عزّ وجل- وسكن قصر الطوب، فكان به معلّق القلب، دائم البكاء والفكرة حتى لحق بالله -عزّ وجل-.

[٤٠٧] قال خلف السرتي:

نزل عندنا بقصر الطوب شاب فأقام نحو ثلاثة أيام أو أكثر ثم أخذ عصاه وخرج سائرًا، فخرج سعيد بن إسحاق فقال: أين الشاب؟ فقيل له: خرج. قال خلف السرتي: فلحقته وأدركته وأمسكته حتى أتى سعيدُ بن إسحاق وجعل يعتذر إليه ويقول له:

يا هذا: إننا أُشغلنا عنك ونسيناك، ولكن خذ هذه الصّرة، وأخرج صرة فيها دراهم من جيبه.

فقال له الشاب: أنا مستغنٍ عنها، فألحف عليه وألح في أن يأخذها.

فقال له: مالي إليها حاجة.

فقال له سعيد: ما نرى معك شيئًا يغنيك عنها.

فمدّ الشاب يده إلى الرمل، فأخذ منه قبضته فإذا هو ذهب يلوح في يده، فبهت سعيد بن إسحاق، ثم ألقاه الشاب ومضى، ونحن ننظر إليه، فكان سعيد يقول: إني لمحروم إذ لم أقل له ادع لي دعوة.

قال خلف السرتي: فأنا ألزم القعود في هذه الرملة، وأُحبها، وكان أبدًا يجلس فيها.

[٤٠٨] وسمع بعض الشيوخ سعيد بن إسحاق يبكي الليل كله في ليلة باردة جدًّا حتى أصبح، فقال له:

أصلحك الله: سألتك بالله ما أبكاك في هذه الليلة بخلاف العادة؟

فقال له: نعم، تفكرت في فقراء أمة محمد ﷺ في هذه الليلة الباردة فبكيت رقّة لهم.

[٤٠٩] قال بعض أهل التاريخ:

أتى نواتية[1] لإبراهيم الأمير فأرادوا النزول في قصر الطوب، وكان في القصر في ذلك الوقت سعيد بن إسحاق وأبو يونس وجبلة فمنعوهم من ذلك وأغلقوا باب القصر في وجوههم، فبلغ إبراهيمَ الأمير فأتى إلى باب قصر الطوب وهو مغضب فقال: من هذا الذي

(١) هم الملاحون الذين يديرون السفينة في البحر: «المعجم الوسيط»: ن ا ت.

منع عبيدي أن يدخلوا القصر؟

فارتاع أهل القصر لذلك وداخلهم من الجزع أمر عظيم، فأتوا إلى سعيد بن إسحاق فعرّفوه فتشرّف من أعلى القصر وقال: من هذا؟

فقال له: أنا إبراهيم بن أحمد الأمير.

فرفع سعيد صوته وقال: يا إبراهيم تركنا لك الدنيا كلها وانزوينا في هذا الثغر فجئت تؤذينا، والله لئن لم تمرّ لأهلكنك، فمضى إبراهيم هاربًا على وجهه حتى جاز القصر بأمر عظيم[1]، فقال له الذين حوله: مالك يا سيدنا؟

فقال لهم: لما صال عليَّ سعيد بن إسحاق تلك الصولة حسبت أن الفحص اشتعل نارًا عليَّ، فما زلت كذلك حتى وقعت في هذا الموضع.

ومنهم:

- أبو السري واصل المتعبد:

الساكن بقصر تبصة المرابط، وهو الحصن الذي يقال له في هذا الوقت الديماس.

كان رجلًا صالحًا، مجتهدًا، صحب جماعة من النساك المنقطعين إلى الله -عزّ وجل- بالمشرق والمغرب.

[٤١٠] قال ربيع بن سليمان الكانشي:

كنت كثير الاختلاف إليه، فبصر يومًا برجل ممن كان يختلف معنا ليس معه عصا -وكان اسمه إبراهيم- فقال: يا إبراهيم مالك بلا عصا؟

فقال: ليس عندي عصا.

فقال لبعض من كان معنا جالسًا: اذهب إلى الركن -وأشار إلى أحد أركان البيت- فأتني بالعصا التي فيه.

فذهب الرجل فأتاه بعصًا فأخذها ونظر إليها ثم دفعها إلى إبراهيم وقال له: هي عندك

---

(١) لعل المراد: جاز القصر بمسافة كبيرة.

بأمانة الله عزّ وجلّ فاحفظها.

قال: فأخذها الرجل وانصرفنا، فلما كان في الجمعة الأخرى أتيناه فلم يكن له همّ إلا النظر إلى العصا فرأى عليها خيطًا ملفوفًا، فقال له:

ما لهذه العصا؟

فقال له: يا سيدي كنت أعاني أمر ثور فاعتاص عليّ فضربته بها فتصدّعت.

فقال له: وإنما أعطيتها لك لرعي البقر، هاتها وأخذها وقال: أتدرون شأن هذه العصا؟

قلنا: لا.

فقال: كنت أكثر السياحة منفردًا عن الناس، فبينما أنا يومًا سائر في بعض الفَلَوات[1]، إذ بصرت برجل جالس على شفير بئر وقد ركب طوق البئر وإحدى رجليه خارج البئر والأخرى يلعب بها في مائه، فقصدت نحوه وقد أضناني العطش فوصلت إلى البئر من ناحية ظهر الرجل، فنظرت فإذا ماؤه قد عاد في أسفله، وكانت معي رِكوة[2] فيها خيط فألقيتها في البئر فلم أدرك الماء، فلم أزل أَحُلّ الخيط شيئًا بعد شيء حتى فني الخيط في يدي ولم أصل إلى الماء.

قال: وسمع الرجل حسّي من خلفه فالتفت إليَّ، ثم سلّم بعضنا على بعض وقال لي:

ما حاجتك؟

قلت: الماء.

قال: اطوِ حبلك، فطويته ثم قال لي هلّم ركوتك، فأسلمتها إليه، فمدّ يده في البئر فأخرجها مملوءة ماء، فناولنيها ثم قال لي: اشرب، فشربت حتى رويت ثم قال لي:

هل لك في طعام؟

قلت: نعم.

فقال: امضِ إلى خلف الرابية -يعني كُدْية أشار إليها- فكُلْ ما تجد هناك ولا تدخر منه

(١) جمع فلاة أي الصحراء.

(٢) إناء صغير من جلد يُشرب فيه الماء، وهي - أيضًا - الدلو الصغير: «المعجم الوسيط»: ر ك ا.

شيئًا، فمضيت، فإذا بتمر برني وبرازق تفور حرارة ما كنت أقدر على أكلها من شدة حرارتها، فسميت الله -عزّ وجلّ- وأكلت حتى أخذت حاجتي، ثم قمت وفي رِكوتي فضل ماء، فأخذها من يدي وأراق ما كان فيها من الماء، فقلت له: لعلنا نحتاج إليه؟

فقال: أطعمك وسقاك وأنت تدّخر عليه، إذا احتجنا إلى شيء أتانا الله به.

ثم سار الرجل أمامي وأنا أتبع أثره، وكان بردٌ شديد وعليّ أطمار رثة[١] فأخَذَنا مطر فنظرت إليه وقد عوذ نفسه وأشار بعصاه يمينًا وشمالًا وأمامه وخلفه، فكان المطر يقع حوله وهو معافى منه لا تصل إليه قطرة واحدة.

قال: ونالني من البرد وأذى المطر ما لا أصفه، قال: فما شعر إلا بتقعقع أسناني من شدّة البرد فالتفت إليّ وقال:

ها هنا أنت؟

قلت نعم.

قال ادنُ مني.

فدنوت منه، فنظر إلى بللي وشدّت قَرّي[٢]، فوضع يده على رأسي وأمرها على ظهري، ثم قال: اللّهم دفّئ جسده وجفّف ثوبه، فجف ثوبي، قال: ثم عوّذني وأشار بالعصا حولي كما فعل على نفسه، فكنا نمشي والمطر يقع على كل جانب من جوانبنا ولا تصل إلينا منه قطرة فما فوقها إلى أن كفّ المطر.

ثم صحبته بعد ذلك يومين حتى انتهينا إلى موضع من الأرض فقال: سر في ودائع الله، فهذا العمران قد قرب منّا، قال: وكنا نعرف قرب العمران بكثرة الوحش والصيد، وذلك أن المفازة والقفار لا يُرى فيها وحش البتة، فقلت له:

إني أريد صحبتك؟

فقال لي: لا تقدر على ذلك، ومن تحلّى بغير ما هو فيه استحق من الله -عزّ وجل- المقت

---

(١) أي ثياب بالية.

(٢) القَرّ: البرد.

عليه، ولكنّي أرجو لك خيرًا إن شاء الله تعالى.

فقلت له: ياسيدي: أحب شيئًا أذكرك به.

فقال لي: أمن الدنيا تريد؟

فقلت: لا.

قال: ما معي غير عصاي هذه فخذها بأمانة الله، فقد جعل الله -تعالى- فيها خيرًا لي وللذي أعطانيها وللذي أعطاه إيّاها، نحن ثلاثة قد جعل الله تعالى لنا فيها خيرًا كثيرًا فاحتفظ بها، فأخذتها منه وهي عندي من ذلك الوقت.

ثم عطف واصل على الذي كان أعطاه العصا فقال له: وأنا رجوت الله - تعالى - أن يجُري لك من بركتها شيئًا بانتفاعك بها فجعلتها لرعاية البقر، ثم قال للرجل: أعدها في الموضع الذي كانت فيه، فأعادها.

[٤١١] قال أبو الحسن علي الصقلي الجزيري:

قصدت أزور أبا السرى واصلًا الصغير مع جماعة، فرأيت في كلب بتلك البقعة أعجوبة وذلك أنه لا ينبح على الزوار بل يبصبص إليهم ثم يدخل الدّار، فلا أدري أيفهمون عنه بعلامة أو غير ذلك، فيعلمون بذلك أن الزوار قد أتوا لزيارة واصل، فيخرج إلينا أبو السرى فنسلم عليه، قال فقلت له: يا أبا السرى: أنت جلت في الشرق والغرب فاذكر لي بعض ما رأيت؟

فقال: بينا أنا أمشي بالشام ثم ذكر نحو الحكاية التي تقدم ذكرها.

[٤١٢] ثم قال: وآخر دُللت عليه وكان لا يكاد يوصل إليه إلا في الأيام الكثيرة فجئت وقيل لي: قل له أنا من الجوالين، فدققت الباب فخرج إليّ ابن له فسألته الوصول إلى أبيه.

فقال لي:

أنا ابنه ولي أيام ما وصلت إليه.

فقلت له: إني من الجوالين، فذهب ثم خرج إليّ مسرعًا فأذن لي بالدخول، فدخلت فقال لي:

دونك ذلك البيت، فدخلت البيت فإذا بشيخ قائم يصلّي فهبته، ثم جلست فسلّم ثم جلس، فلم أقدر أكلمه من هيبته، فلمّا طال ذلك على الشيخ، قال لي:

يا أخي: أترى بعد الموت عملًا؟

فقلت: لا.

فقال: إن الساعة تذهب والصحيفة تطوى، فلم أسمع منه غير ذلك، وقام وخرجت أنا.

[٤١٣] وذكر الزناتي الساكن بقصر ابن الجعد - وكان من خيار الناس- قال: قال لي أبو السرى واصل:

كنت أجول في الغرب فإذا ضللت عن الطريق أتت الوحوش والسباع وغيرها تمشي بين يديَّ تهديني إلى الطريق فأمشي عليها.

***

ثم كانت سنة سبع وتسعين ومائتين

وفيها توفي:

-أبو يوسف جبلة بن حمود بن عبد الرحمن:

يكنى جده بأبي الأشعث من ولد المعروف بالمقطع مولى عثمان بن عفان ﷺ ودفن بباب سلم، وصلى عليه أبو سعيد بن محمد بن سحنون، وحضر جنازته خلق من الناس، وكان مولده سنة عشر ومائتين.

وكان يكون بقصر الطوب المرابط ثم يقدم إلى القيروان فيسمع الناس منه ثم يرجع.

سمع من سحنون ومن جماعة من علماء مصر، وكان صحيح السماع.

[٤١٤] قال موسى بن عبد الرحمن القطان: من أراد أن يدخل إلى دار عمر بن الخطاب ﷺ فليدخل إلى دار جبلة، ولو أن جبلة في زمن بني إسرائيل لأتتنا أخباره في الكتب، ولو فاخرَنا بنو اسرائيل بعبادهم وزهادهم لفاخرناهم به.

[٤١٥] قال أبو سعيد بن محمد بن سحنون: كانت مع جبلة همّة يتيه بها على الخلفاء.

[٤١٦] وكان سحنون إذا رأى جبلة مقبلًا يقول: إن عاش هذا الشاب فسيكون له نبأ، وهو أزهد أهل زمانه.

[٤١٧] قال أبو محمد عبد الله بن سعيد: ما سمعته قط يذكر الدنيا بمدح ولا ذم.

[٤١٨] قلت لسعيد بن الحداد:

[٤١٩] ذُكر لي أن جبلة كان ينام على زنبيل وقطعة نِطْع[1] وطوبة عند رأسه فوقها وسادة.

---

(١) أي جلد.

قال: فقال لي سعيد: هو فوق ما تصف، وكرّر ذلك ثلاث مرات.

قال أبو محمد: وكان جبلة لا يحب ما ظهر من الأعمال، وكانت أعماله كلها خفية ما خلا الزهد فإنه كان يظهر عليه.

[٤٢٠] ومات والد جبلة - وكان ذا يسار- وترك نعمة عظيمة فلم يرث جبلة منها شيئًا، فكُلّم جبلة على تركه ميراثَ أبيه فقال: ما علمت من أبي إلا خيرًا ما كان يقول ببدعة، لكني رأيته يقتضي من ثمن الطعام طعامًا وهو عنده جائز وعندنا غير جائز، فتركه تنزهًا ﷺ.

[٤٢١] قال أبو بكر الزويلي: كان قوت جبلة في الشهر ثُمْنَيْنِ شعيرًا، كان يطحنهما ويجعلهما في قُلّة، فكان إذا رأى الشمس تغيرت خرج إلى الفحص فأخذ ما وقع على يده من بقل البرية وأتى به إلى بيته، وجعل القُدَيْرة على النار وجعل فيها ذلك البقل، فإذا غلت أدخل يده في تلك القلة وأخرج قبضة من الدقيق فألقاها فيها ثم أفطر على ذلك، فكان هذا عيشه، ومثل هذا كثير من ورعه.

[٤٢٢] قال أبو محمد بن خيران:

دخلت على جبلة بين العشائين وهو يأكل بطيخًا فقلت له:

إن رائحة هذا تُخرج الدواب، يعني الحيات.

فقال لي: إنها مرسلة.

فقلت له: وفي الظلام؟

فقال لي: ما جاء سعد بعد.

قال فلقيت سعدًا فقلت له: ما بالك تركت الشيخ في الظلام؟

فقال لي: له سبع عشرة سنة ما أوقد مصباحًا.

[٤٢٣] قال أبو بكر المؤدب بن محمد بن بشير:

مضى أبي بي - وأنا صغير- إلى المرابطين، فنزلنا بقصر الطوب، فدخلنا على جبلة بن حمود، فقال: لقد أضمرت اليوم أن أفطر وسألت الله -عز وجلّ- أن يأتيني بمن أفطر معه،

فأخذ شقفة وجعلها على نار وطبخ عليها عصيدًا فأكلنا فيها، فكانت قدرنا وصحفتنا، ثم قال لي: يا بني: اشتهِ ما شئت.

فقال لي أبي: اشتهِ يا بني كما أمرك الشيخ.

قال: فخطر ببالي تين أخضر، ولا والله ما هو زمانه.

فقلت: أشتهي تينًا أخضر، فمد جبلة يده وأدخلها في قلة فأخرج لي خمس تينات خضر.

[٤٢٤] وكان مستجاب الدعوة.

قال أبو بكر هبة الله بن محمد بن أبي عقبة: خرج علينا جبلة يومًا ونحن في المسجد الذي عند داره -وكنا جماعة وكنت أنا ناحية جالسًا- فدخل عليهم وهم يضحكون وقد رفعوا أصواتهم بالضحك، فقال لهم: لا نفعكم الله بالعلم.

قال أبو بكر: فوالله ما علمت أن أحدًا منهم ذُكر ولا انتفع بالعلم.

وقال أبو بكر: والله ما ضحكت معهم.

[٤٢٥] وكان رجل يقال له أبو جميل السائح أصفر كنت أراه يأتي إلى جبلة من الجمعة إلى الجمعة مع المتعلمين فيسمعون من جبلة الرقائق، وكان لباس أبي جميل جبة من صوف ورداء من صوف، فإذا مرّ القارئ بشيء عصر عينيه أبو جميل، فيقول له جبلة: أراكَ تعصر عينيك يا أبا جميل، لستَ من أهل هذا.

قال أبو محمد: فما هو إلا أن دخل الشيعي[1] - لعنه الله- فأخبرني مَن رآه يخدمهم.

[٤٢٦] كتب الصُّديني إلى أبي العباس الأمير: إن جبلة يصلي في مسجده يوم الجمعة بأذان وإقامة، فأرسل إليه الأمير: مد يدك إلى من شئت واحذر جبلة.

[٤٢٧] قال عبد الله: ولـمّا دخل عبيد الله إلى إفريقية وملكها ونزل برقادة ترك جبلة - رضي الله تعالى عنه- سكنى قصر الطوب وأتى إلى القيروان فسكنها، فخوطب على ذلك وقيل له:

(١) هو عبيد الله الشيعي مؤسس الدولة العبيدية التي اشتهرت زورًا بالفاطمية.

أصلحك الله: كنت بقصر الطوب تحرس المسلمين وترابط فتركت الرباط والحرس ورجعت إلى ها هنا؟

فقال: كنا نحرس عدوًّا بيننا وبينه البحر فتركناه وأقبلنا على حراسة هذا الذي حلّ بساحتنا لأنه أشدّ علينا من الروم، فكان إذا أصبح وصلّى الصبح خرج إلى طرف القيروان من ناحية رقّادة ومعه قوس ونشابه وسيفه وترسه وجلس محاذيًا لرقادة فيقيم نهاره أجمع في ذلك الموضع، فإذا كان عند غروب الشمس رجع -رحمه الله تعالى- إلى داره.

[٤٢٨] وكان ﷺ يحرس بالعشي فقيل له في ذلك فقال:

أحرس عورات المسلمين من هؤلاء القوم، فإن رأيت منهم شيئًا حركت المسلمين عليهم.

[٤٢٩] قال الشيخ أبو الحسن بن القابسي ﷺ:

كان جبلة ﷺ يصلي الجمعة في مسجده ويجتمع إليه الناس[1]، فجاءه صاحب المحرس يتجسس عليه قال: فأخذه جبلة وأدخله المسجد وضربه بالجريد ولم يتركه حتى تاب وحلف أن لا يعود.

[٤٣٠] ولم يكن في وقته أكثر اجتهادًا منه في مجاهدة عبيد الله وشيعته كان لا يداري في ذلك أحدًا من الخلق فسلمه الله - عزّ وجلّ - منهم وحماه من كيدهم ومكرهم.

[٤٣١] وكان كثير الصدقة على تقلّله من الدنيا وَتَرْكِ الطلب لها.

[٤٣٢] أخبر إبراهيم بن فليح -وكان يخدم جبلة- قال:

أتيت إلى حماس بن مروان القاضي -وكانت شدةٌ عظيمة- فسألني عن جبلة وقال لي: خذ هذه الخمسة دنانير فبلّغ أبا يوسف جبلة السلام وقل له: يقول لك حماس: أصلحك الله: والله ما هي من أوساخ الناس، ولا هي إلا من ميراثي من أبي فلا يضيق بك شيء واتسع بها.

قال: فقلت له: ترى -أصلحك الله- أن أشاوره قبل أن أمضي بها؟

(١) وذلك لأنه كان يجتنب الجمعة في المسجد الجامع لأن الدعوة فيه لبني عبيد.

فقال لي: أصبت، فأتيت إلى جبلة فأخبرته بما قال، فقال لي: قل له:

يا أبا القاسم: جزاك الله خيرًا قد رعيت منّا ما يرعى الصديق من أخيه ولكن قل له: افعل ما كان سحنون يفعل: افتح مطمر الشعير وأطعم ولدك ولا تأخذ لهم من بيت مال المسلمين شيئًا.

ثم دخل جبلة إلى البيت فأخرج لي ستين درهمًا وقال لي: امضِ بهذه إلى أبي محمد الشذوني -وكان من رجال سحنون- وقل له: أخ من إخوانك يبلغك السلام ووجه إليك بهذه وهو لا يقول لك من هو، فإن ألح عليك فلا تخبره وردها، وامض إلى دحمان بن معافى -وكان من رجال سحنون- وقل له: أخ من إخوانك يقرأ عليك السلام ووجه إليك بهذه وهو لا يقول لك من هو.

قال: فمضيت إلى أبي محمد الشذوني فكان الذي قال الشيخ، فقلت له: لا تسل، تأخذها أو تردها إليه؟ فأخذها وقال: جزى الله خيرًا من أرسلها، متى عهدك بأبي يوسف؟ فقلت: في كلّ وقت، وأما دحمان فما سألني ودعا لصاحبها.

[٤٣٣] وجاء رجل إلى جبلة على لسان المروذي فقال له: يقول لك القاضي: سلم تسليمتين، واقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم، وقل: حي على خير العمل.(١)

فقال له جبلة: مُرّ قبّحك الله وقبح من أرسلك.

فأخبرني من تبعه قال: فقلت له: لا تقل للقاضي ما قال لك الشيخ، فقال: لا.

فاتبعته من حيث لا يعلم فأتى إلى القاضي فقال: مضيت إلى جبلة برسالتك فقال لي: قبحك الله وقبح من أرسلك.

فقال له المروذي: يا كذا وكذا أنا أرسلتك إلى جبلة؟ جبلة ليس بإمام ولا مؤذن، تجيء إلى أولياء الله تتعرض بي لدعائهم.

قال: فخرج فقلت له: لا مع الله ولا مع الشيطان، ظننتَ أن المروذي يمد يده إلى جبلة.

---

(١) أي على مذهب الشيعة العبيديين الباطنيين الذين ملكوا تونس تلك الأيام.

[٤٣٤] وعن أبي بكر أيضًا قال: لما اتصل بجبلة أن بعض أهل القيروان خرجوا يتلقون أبا عبد الله الشيعي تقية من شره ومداراة له فقال جبلة: اللُّهم لا تسلم من خرج يسلم عليه، واغتم لذلك غمًّا شديدًا، فلمّا انتهوا إلى وادي أبي كريب جُرِّدوا وأُخذت ثيابهم فلمّا عرف جبلة بذلك قال: ما غمني إلا رجل واحد فيه خير لا دنيا له، والرجل هو حماس بن مروان القاضي.

[٤٣٥] وكانت لجبلة فراسة لا تخطئ:

ولما حضر ﷺ أول خطبة لبني عبيد الله في جامع القيروان جلس عند المنبر فسمع خطبتهم، فلما سمع ما لا يجوز سماعه قام قائمًا وكشف عن رأسه حتى رآه الناس ومشى من المنبر إلى آخر باب في الجامع -جامع القيروان- والناس ينظرون إليه حتى خرج من الباب وهو يقول: قطعوها قطعهم الله[1]، فمن حينئذ ترك العلماء حضور جمعتهم، وهو أول من نبّه على ذلك ﷺ.

[٤٣٦] وروي أنه قُدِّم ليصلي على جنازة فصلى عليها، ثم قُدمت أخرى فُقدّم عليها أبو العباس بن عبدون القاضي فانصرف جبلة ولم يصلّ وراءه -وكان انصرافه من جهة القبلة- ولم يخرق الصفوف حتى رآه من حضر، فشق ذلك على ابن عبدون فأرسل إليه يقول له: إني قد صليت وراءك إذ قُدمتَ، ثم لما قُدمتُ أنا انصرفت أنت من ورائي، أتظن أني أقول بخلق القرآن؟ ما أقول به.

فقال جبلة لرسوله: قل له عني:

أمرك عندي أعظم مما تقول، ألست الذي ضربت أحمد بن معتب وإبراهيم الدمني ورجلًا ثالثًا سمّاه، له لقب يعرفه به، وقطعت بهم سماط القيروان، وأمرت أن يُنادى عليهم: هؤلاء حزب الشيطان، وهم رجال سحنون، وسحنون أخذ العلم عن رجال مالك، ورجال مالك أخذوه عنه، وأخذه مالك عن التابعين، والتابعون عن الصحابة ﷺ والصحابة عن الرسول ﷺ فأمرك عندي أعظم من البدعة.

---

(١) أي قطعوا الصالحين عن حضور الجمعة.

[٤٣٧] قال أبو محمد:

وجاءه صاحب المحرس واسمه سحنون فقال له: الأمير يقول لك كرّر الإقامة -يعني قبل الصلاة- وسلّم اثنتين، ولا تقنت في الصبح.

فقال له جبلة: مُرّ يا شص[1]، سمّاك جدك سحنونًا وأنت مسخون، الأمير لا يعلمنا أمر ديننا.

وفيها توفي: أبو محمد يونس بن محمد الورداني ﷺ:

[٤٣٨] روى أبو القاسم اللبيدي رضي الله عنه عن شيوخه قالوا:

كان يونس الورداني هذا مخمول الذكر، وذلك أنّ لمّا دخل عبيد الله إفريقية واستولى عليها طلب أهل الفضل والدين، فخاف على نفسه منه فقال لأهله: أخيركم بين أحد وجهين: إما أن تتركوني أهرب من إفريقية لا تروني أبدًا وإما أن تتركوني أرعى البقر.

فقالوا له: إنّ ما ذكرت ليشق علينا، وكونك معنا نرى وجهك أحب إلينا من هروبك وانقطاع خبرك عنا.

قالوا: فأقبل على رعاية البقر، فكان إذا أصبح أخذ مصحفه فجعله في مخلاة وتقلّد بها وأخذ عصاه وساق البقر بين يديه وأبعدها عن العمارة، وأقبل على قراءة القرآن النهار أجمع، فإذا أمسى واختلط الظلام أقبل بالبقر إلى منزله فكان هذا دأبه حتى مات وسلمه الله -تعالى- من فتنة بني عبيد الله.

قالوا: فهذا الذي أخمل ذكره ﷺ.

ولقد ذُكر عنه أنه كان يرعى البقر يومًا فأتى إليه قوم على معنى الزيارة، فلما رآهم من بعيد أخذ عصاه في يده وأقبل يسوق البقر ويجري وراءها مثلما يعمل الرعاة، فرضي الله -تعالى- عنه وأرضاه بمنّه وكرمه وعونه.

---

(١) قال المحقق: أي لص.

وفي سنة تسع وتسعين ومائتين

توفي:

-أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الضبي ويعرف بابن البرذون.

قال أبو عبد الله الحسين بن سعيد الخراط: كان رجلًا صالحًا فقيهًا بارعًا في العلم يذهب مذهب النظر، من رجال سعيد بن الحداد، لم يكن في شباب عصره أقوى على الجدل والمناظرة وإقامة الحجة على المخالفين منه.

سمع من جماعة من رجال سحنون.

[٤٣٩] ضربه محمد بن أسود الصديني -إذ كان قاضيًا- لذبّه عن السنة، وكان الصديني يصرح بخلق القرآن.

فلمّا ولي القضاء المروذي في أيام أبي عبد الله الشيعي أخذ قومًا من أهل العلم فضرب بعضهم وسجن بعضهم، فرُفع خبر إبراهيم إلى أبي العباس المخطوم فأمر حسن ابن أبي خنزير -عامل القيروان- أن يأخذه هو وأبا بكر بن هذيل فيقتلهما جميعًا، لعنه الله.

فأما إبراهيم الضبي فإنه لما أُتي به إلى ابن أبي خنزير ووقف بين يديه قال له: يا خنزير، فقال له الضبي: الخنازير معروفة بآبائها، فغضب وعاجله بالقتل صبرًا، فضرب عنقه ولم يضربه، وضرب ابن هذيل خمسمائة سوط ثم ضرب عنقه، وطيف بهما جميعًا مربوطين إلى بغل مسحوبين على وجوههما في سماط القيرون، وصلبًا بباب أبي الربيع.

قال أبو الحسن المطلبي: كان أبو بكر بن هذيل من المتورعين.

[٤٤٠] ذكر الشيخ أبو الحسن بن القابسي: أنه إنما كان عيشه من كد امرأته، كانت تشتري الكتان فتغزله وتنسج منه أبدانًا[1] فتبيعها فما كان فيها من فضل تَقَوّتا به واشتريا برأس المال كتانًا، فمن هذا كان عيشهما.

---

(١) البدن من الثوب هو ما يقع على الظهر والبطن دون الجانبين: «المعجم الوسيط» ب د ن.

[٤٤١] قال الشيخ أبو الحسن فأخبرني من أثق به قال: وجه إليّ يومًا ابن هذيل ودفع إليّ بَدَنًا من تلك الأبدان وقال: عسى يمكنك أن تبيع لنا هذا البدن وتأتينا بالثمن: فمضيت به وعرضته فسوى ثمنًا دونًا ليس بالكثير، فإذا برجل صنهاجي فقال لي: تبيع لي هذا البدن؟

فقلت: نعم.

فقال: كم ثمنه؟

فقلت له: كذا وكذا -وزدت عليه في ثمنه- فقال لي: قبلت.

فبعته منه بذلك وأخذت الثمن فجعلته في صرة وأتيت إليه فدفعتها إليه فقال لي:

ضعها في الثابوت[1] ففعلت ذلك ومضيت، فلما كان بعد مدة كثيرة دخلت إليه على سبيل الزيارة فقال لي:

كنت دفعت إليك بَدَنًا فماذا صنعت في أمره؟

فقلت له: قد بعته لك - أصلحك الله- وأتيتك بالثمن.

فقال لي: ما وصل إليّ شيء.

فقلت له: بلى قد أتيتك بالثمن وأمرتني أن أضعه في الثابوت.

فقال لي: ما أعلم شيئًا من هذا.

فقمت مبادرًا إلى الثابوت فإذا بالصرة في الثابوت على حالها قد عشش عليها العنكبوت فعجبت وقلت في نفسي: الله - عزّ وجلّ- حماه منها فأتيت بها إليه وقلت له: هذه هي - أصلحك الله- وجدتها في الثابوت، فأخذها ثم قال لي: سألتك بالله: أخبرني ما قصة هذه الدراهم، فإنه ما طاب على قلبي أخذها.

فقلت له: والله - أصلحك الله- لأصدقنك، وأخبرته بالقصة كما جرت.

فقال لي: أوَ يحل لك أن تُطعم أخاك المسلم الحرام؟

فقلت له: فإني تائب -أصلحك الله- إني لا أعود إلى شيء من هذا أبدًا.

---

(١) كأنه وعاء يحفظ فيه الشيء.

فقال لي: خذها عني وقم.

فقلت له: تصدق بها أنت؟

فقال لي: والله لا فعلت ولا تتصدق بها إلا أنت عقوبة لك فيما فعلت.

قال فأخذتها منه وأتيت بها إلى الدمنة فعرضتها على قوم من أهل البلاء وأخبرتهم بقصتها فقالوا: قد أحل الله الميتة للمضطر والميتة خير لنا منها، فتوجهت بها إلى جهة باب سلم فإذا برجل بدوي عليه أثر الفقر فعرضتها عليه وأخبرته بقصتها فقال لي: الميتة حلال للمضطر وأنا مضطر فأخذها وتركني.

قال أبو عبد الله مكي بن عبد الرحمن المنستيري: وإنما حكى لي الشيخ أبو الحسن هذه الحكاية لما سألته عن المضطر إذا وجد ميتة ومالًا مغصوبًا ما الذي يؤمر أن يأكل منهما؟

وفيها قتل:

أبو جعفر محمد بن خيرون الأندلسي القرطبي - مولى معافر - ﷺ:

حدث الشيخ أبو الحسن بن القابسي - رضي الله عنه - قال:

[٤٤٢] ذكر لي من أثق به أنه كان جالسًا عند ابن أبي خنزير - لعنه الله - في سقيفته حتى دخل عليه شيخ ذو هيئة جميلة وقد علاه صفار وسمت وخشوع وعلى رأسه منديل مهلبي، فلما رآه ابن أبي خنزير بكى، فقال له: ما الذي أبكاك؟ قال: السلطان - يعني عبيد الله - وجّه إليَّ يأمرني أن آمر بدوس هذا الشيخ حتى يموت وهو ابن خيرون. قال ثم أمر به فأُدخل إلى المجلس ثم بُطح على ظهره وطلع السودان فوق السرير فقفزوا عليه بأرجلهم حتى مات، فلما مات أخذوه وحملوه على بغل وألقوه في حفير، وذلك لجهاده في الدين وبغضه لعبيد الله وجنده -رحمة الله تعالى عليه- وكان الذي عمل عليه وسعى به المروذي، لعنة الله عليه.

[٤٤٣] ونهب ابن أبي خنزير ماله وأخذ مولدة كانت له وجعلها مع خدمه، فلما طال على ابن أبي خنزير كثرة ما يأتي به المروذي من العلماء والصالحين ليقتلهم سعى به عند عبيد الله ومضى فيه إلى المهدية، فقبل عبيد الله قوله ومكنه منه، فأخذه ورماه في إسطبل

الدواب تمشي عليه فركضت في بطنه حتى قتلته، فكانت تلك المولدة -التي كانت لابن خيرون- تأتيه وهو تحت أرجل الدواب، فيقول لها: إنك بسببي صرت عند السلطان، فتقول له: يا شيخ السوء قتلت سيدي ابن خيرون شيخ القيروان وأزلتني من عنده ورردتني عند خنزير بن خنزير وتأمر خدمها فيلطمونه ويطعمونه قذره، وكانت هي المتولية لعذابه حتى هلك -لعنه الله-.

[٤٤٤] قيل إنه لما ضربه ألف سوط وعذبه قال له: هاتِ الأموال التي جمعت.

فقال: والله لو أن تحت قدمي جُبًّا[1] مملوءًا بمال الدنيا كلها ما أخرجت لكم منه درهمًا واحدًا، وإني قد عصيت الله -عزّ وجلّ- فيكم فسلطكم عليّ، فاضرب ما شئت وعذب كيف شئت.

[٤٤٥] وكان محمد بن عمر المروذي هذا معتقدًا لمذهب الشيعة معروفًا بذلك، فلما دخل الشيعي -لعنة الله عليه- بادر إليه ودخل في دعوته ولزمه فولاه قضاء إفريقية، فتصلب وتكبر وكانت أيامه صعبة جدًّا وأخاف أهل السنة.

[٤٤٦] ثم خرج الشيعي إلى سجلماسة في طلب عبيد الله اللعين فاستخلف في مكانه أبا العباس فأطلق يد المروذي وقوى أمره، فأخذ أبا العباس بن بطريقة قاضي طرابلس وكان من الفقهاء العلماء، وأبا القاسم الطرزي قاضي صقلية والمحتسب بمدينة القيروان قبل القضاء فضربهما وهون بهما، وقتل ابن هذيل وإبراهيم بن البرذون، وأول ما ولي زاد في الأذان حي على خير العمل، وترك الناس يصلون القيام سنة واحدة ثم منعهم، وترك أكثر الناس الصلاة في المساجد، وأخذ أموال الأحباس والحصون، وأخذ سلاح الحصون التي على البحر، وأمر الفقهاء أن لا يفتوا ولا يكتبوا وثيقة إلا من تَشَرَّق[2] وكفر، وأمر أن يزال من الحصون والمساجد اسم الذي بناها وأمر بها من السلاطين ويكتب اسم المهدي، لعنه الله.

---

(١) الجب هو البئر.
(٢) أي تشيع.

ثم كانت سنة اثنتين وثلاثمائة

وفيها توفي:

أبو عثمان سعيد بن محمد بن صبيح الغساني، مولاهم، يعرف بابن الحداد.

كان عالمًا في الفقه والكلام والذب عن الدين والرد على فرق المخالفين للجماعة.

قال محمد بن حارث: وكان في أول أمره صحب سحنونًا وسمع منه، وله مقامات مشهورة مع بني عبيد لعنهم الله.

ذكر أوصافه وحفظه:

[٤٤٧] قال أبو بكر بن اللباد الفقيه:

بينا سعيد بن الحداد يومًا جالس إذ أتاه رسول من قبل البغدادي[١] فقال له: أحبَّ أبو جعفر أن يراك، قال فلبست ثيابي ومضيت حتى أتيت بابه، فإذا برجل أُجلس لي ينتظرني فقال: ادخل، فدخلت عليه، فقال لي: أحب عبيد الله[٢] أن يجتمع بك فقلت: ها أنذا، فركب وجعل معي من يصحبني ومضى هو أمامي، قال:

فمضيت مع الرجل حتى أتى بي إلى مكان فأجلسني فيه، فأنا جالس حتى أتاني رسول ثانٍ غير الرجل الذي كنت معه، فقال لي: قم يا شيخ، فقمت فدخلت معه حتى أتيت إلى باب المجلس الذي هو فيه فإذا بعبيد الله - لعنه الله - جالس والبغدادي واقف على رأسه، فدخلت وأقبل أبو جعفر فقال لي: ادن، حتى وقفت على رأسه فتكلمت بما حضرني من الكلام، ثم قال لي: اجلس، فجلست، فإذا بكتاب لطيف إلى جانبه على مخدة، فرأيته وقد أومى إلى أبي جعفر فقال له: اعرض الكتاب على الشيخ. قال: ورمقته ببصري فعرفت الكتاب، قال: تصفح، فجعل يده على بعض الصفحة وأنا أنظر إلى الإسناد، فقال لي أبو جعفر: اقرأ.

---

(١) قال المحقق: هو أبو جعفر محمد بن أحمد بن هارون البغدادي. أديب وكاتب ورحالة خدم الفاطميين وتدرج في الخطط - المناصب - إلى أن بلغ أعلاها. توفي سنة ٣٤٠.

(٢) أي الشيعي المتغلب على تونس.

فقلت له: عرفت الحديث، وهو حديث غدير خم: «من كنت مولاه فعلي مولاه»، وهو حديث صحيح، وقد رُوِّيناه.

فعطف علي عبيد الله -لعنة الله عليه- فقال لي: فما للناس لا يكونون عبيدنا؟

فقلت له: -أعز الله السيد- لم يُرِد ولاية الرق، إنما أراد ولاية في الدين.

فقال لي: فهل من شاهد من كتاب الله عز وجل؟

فقلت: نعم: قال الله عز وجل: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠] فما لم يجعله الله -عزّ وجلّ- لنبي لم يجعله لغير نبي، وعليّ لم يكن نبيًّا، إنما كان وزير النبي ﷺ.

فقال لي: انصرف لا ينالك أحد.

قال: فخرجت وصحبني البغدادي حتى خرجت، وأومأ إليَّ فوقفت، فقال لي: اكتم هذا المجلس.

[٤٤٨] وأرسل محمد بن عمر المروذي في طلب العلماء مدنيِّهم وعراقيِّهم[١]، فقال لهم:

إني أمُرت أن أناظركم في قيام رمضان، فإن وجبت لكم حجة رجعنا إليكم، وإن وجبت لنا رجعتم إلينا.

قال أبو عثمان: فقلت له: ما تحتاج إلى المناظرة.

فقال لي: لا بد منها.

فقلت له: شأنك وما تريد.

فقال: ألستم تعلمون وتروون أن النبي ﷺ لم يقم إلا ليلة ثم قطع، وأن عمر بن الخطاب هو الذي استنّ القيام، وقد جاء في الحديث الذي تروونه ونرويه أن كل محدثة بدعة وكل

(١) أي مَن كان على مذهب الإمام مالك ومذهب الإمام أبي حنيفة.

بدعة ضلالة وأن كل ضلالة في النار.

فقلت له: هذه البدعة من البدع التي يرضاها الله -عزّ وجلّ- ويذم من تركها.

فقال: وأين تجد ذلك في كتاب الله عزّ وجلّ؟

فقلت له: في كتابه المنزّل الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

قال: وأين؟

قلت له: قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾[الحديد: ٢٧] فنحن نثابر على هذه البدعة التي هي رهبانية لئلا يذمنا الله -عزّ وجلّ- كما ذمّهم.

فقال: من صلّى القيام ضربت عنقه.

فقلت له: قد قلت لك هذا أولًا: ما تحتاج إلى المناظرة، فلم تقبل.

[٤٤٩] ويُحكى أن أبا عبد الله الشيعي قال له يومًا: القرآن يقرّ أن محمدًا ليس بخاتم النبيين.

فقال له سعيد: أين ذلك؟

فقال له: في قوله ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] فخاتم النبيين غير رسول الله.

فقال له سعيد: هذه الواو ليست من واوات الابتداء وإنما هي من واوات العطف كقوله عز وجلّ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣] فهل من أحد يوصف بهذه الصفات غير الله عزّ وجلّ؟

[٤٥٠] وتكلم عنده يومًا فغضب من كلامه رجل من كتامة يعرف بأبي موسى شيخ المشايخ وقام إليه بالرمح، فمنعه أبو عبد الله من ذلك ثم عطف على أبي عثمان فقال له: يا شيخ لا تغضب، أتدري إذا غضب هذا الشيخ كم يغضب لغضبه:

يغضب لغضبه اثنا عشر ألف سيف.

فقال له أبو عثمان: ولكني أنا يغضب لغضبي الله الواحد القهار الذي أهلك عادًا وثمودًا وأصحاب الرس وقرونًا بين ذلك كثيرًا.

[٤٥١] قال أبو الأسود موسى بن عبد الرحمن القطان:

لو سمعتم سعيد بن محمد في تلك المحافل -يعني مناظرته للشيعي- وقد اجتمع له جهارة الصوت وفخامة المنطق وفصاحة اللسان وصواب المعاني لتمنيتم أن لا يسكت.

[٤٥٢] وذُكر أن الشيعي قال للصقلبي: إذا اجتمع الناس فأذن لهم بالدخول علي، فلما جاء سعيد بن الحداد أذن له في الدخول، فلمّا دخل قال للصقلبي: ألم أقل لك إذا اجتمع الناس فأذن لهم؟

فقال له الصقلبي: هذا هو الناس كلهم، وإنما فعلت ما أمرتني به.

قال: وإنما فعل ذلك الصقلبي لما أعجبه من كلام سعيد ﷺ وكان الصقلبي مسلمًا ثم قتله الشيعي بعد ذلك لمدحه لسعيد.

[٤٥٣] وخوفه ولده لمباينته للشيعي أول دخوله، فقال له: يا بني حسبي مَن له غضبت وعن دينه ذببت.

[٤٥٤] وروي أنه كان في أول أمره صحب سحنونًا وسمع منه، ثم نزع عن ذلك وصار إلى مذهب الشافعي من غير تقليد بل كان كثيرًا ما يخالفه ولا يعتقد مسألة إلا بنظر وحجة، وكان يقول: إنما أدخل كثيرًا من الناس إلى التقليد نقص العقول ودناءة الهمم.

[٤٥٥] جمع ﷺ علم اللغة والنحو، عربي اللسان، جهير الصوت، إذا لحن في لفظة استغفر الله -عزّ وجلّ- وكان إذا تكلف الشعر أجاده، حسن اللباس، جميل الزيّ همته في ذلك تفوق همم أهل اليسار، وكان يَتَقَوّت بأدنى قوت وأقله.

[٤٥٦] وكان يقول: إنما المروءة في إظهار حسن اللباس، فأما ما هو مستور عن الناس من إظهار المآكل والمشارب فليس بمروءة ولا سيما لمن عجز عنها.

وكان يعلم كثيرًا من أخبار عبّاد إفريقية.

[٤٥٧] لم يرحل ولا حج لأنه كان مقلًا وإنما أثرى وتمول بعد الشيخ والزمانة[١]، رحمه الله.

ذكر شيء من أوصافه أيضًا:

[٤٥٨] قال محمد بن حارث الأندلسي: سمعت مَن يحكي من العلماء قال:

دخل رجل أندلسي على سعيد بن الحداد يومًا فجلس إليه وحادثه فقال له سعيد:

أراك طالب علم.

فقال: نعم، وأنا متوجه إلى المشرق في طلبه.

فقال له سعيد: ما الذي كتبت من العلم؟

فأشار الأندلسي إلى كمه فأخرج كتابًا من بعض الأسانيد.

فقال له سعيد: اقرأ منه شيئًا.

فقال: نعم، فقرأ حديثًا واحدًا، فلما أتمّه قال له سعيد:

ضع الكتاب من يدك، ثم أخذ يفسر له ذلك الحديث ويلخص له معانيه ويأتيه فيه بالشواهد.

فقال له الأندلسي: تفضل بالإملاء علي فأملاه عليه.

ثم قرأ عليه حديثًا ثانيًا وثالثًا وكل ذلك يفسر له ويأتي بالشواهد مثل الأول.

فقال له الأندلسي: مالي حاجة بالتقدم إلى المشرق وأنا أعلم أني لا ألقى مثلك.

[٤٥٩] وقال محمد بن مسرور النجار:

جلست يومًا إلى سعيد بن الحداد، فألقيت عليه مسألة معقدة مقفلة من كتاب أشهب بن عبد العزيز، فبدأ بتنزيلها وبالنظر فيها فلم يزل يلخصها شيئًا فشيئًا حتى بلغ فيها إلى ما بلغ أشهب، فقلت له:

---

(١) أي المرض.

أصبت يا أبا عثمان، وهكذا قال أشهب في كتابه.

فقال لي: لعلّ أشهب ما وضعها حتى تدبرها أيامًا ونظر فيها حينًا، وقد أتيناك نحن بجوابها بنظر ساعة واحدة.

[٤٦٠] وحُكي عن رجل من جلسائه يعرف بابن المكي قال: قلت له يومًا:

يا أبا عثمان: ما أشبه نفسي إذا كنت بين يديك إلا مثل الحمار.

فقال لي: لا تفعل يا أبا محمد فإنك تحسّ حسًّا لطيفًا، وأنت كما قال الشاعر:

وفوقك أقوام وأنت شريف

[٤٦١] قال:

ولما أمر إبراهيم الأمير ابن عبدون بإحضار ابن طالب وامتحانه بحضرة العلماء، فاجتمعوا وجلس الأمير إبراهيم في المقصورة، فأُتي بابن طالب من السجن، وسأله ابن عبدون عن أشياء رجاء أن يجد فيها عليه ما يتوسل به إلى امتهانه لم يحفظ منها المخبر إلا قوله: لم دفعت من وصية خضر الخادم إلى فلان العباسي مائة دينار ودفعت إلى غيره الدينار والأقل، وهو عندك لا تحل له صدقة لأنه من بني هاشم؟ فقصّر في الجواب، فأمر بردّه إلى السجن.

وقال إبراهيم لابن عبدون: أحضره يومًا آخر وأحضر جماعة الفقهاء حتى يتبينوا خطأه فأنكّل به حينئذٍ، فتكلم الناس بما دار بينهما ووصل ذلك إلى أبي عثمان سعيد بن الحداد فتحقق ذلك واستقصاه كما يجب، ثم قال لابنه عبد الله: يا بني، قد علمت برّ هذا الشيخ بنا -يعني ابن طالب- وقد صار إلى ما صار إليه، وقد ذهب أكثر عقله وفهمه لعظيم محنته، وإنما يعد الناس الإخوان لمثل هذه الحال، فجئني بقرطاس ودواة، فأتاه بهما، فكتب إليه كتابًا ذكر له فيه جميع جواب المسائل التي سأله عنها ابن عبدون وبين له الحجة في جميعها، فكان مما أمره أن يحتج به في أمر العباسي أن بني هاشم إنما حرمت عليهم الصدقات إذ كان يصل إليهم سهم ذي القربى فيأخذونه، فأما الآن فالصدقة جائزة عليهم ،وأخذهم لها حلال لحاجتهم إليها، وقال لابنه: امضِ بهذا الكتاب وادخل إليه إلى السجن واحذر أن يشعر أحد بهذا، وقل له: يقرؤه في خلوته، فمضى به ودفعه إليه، فلما كان اليوم الذي جلس فيه إبراهيم أمر ابن عبدون

بإحضاره ومناظرته فلم يسأله عن شيء مما كان قد عجز عن جوابه في الجمعة الماضية إلا أجاب فيه بجواب صحيح في كل ما سئل عنه، فاغتم إبراهيم لذلك وأمر بردّه إلى السجن، ثم عمل على قتله ﷺ.

[٤٦٢] وكان سعيد كثيرًا ما يردد قول الشافعي -رضي الله عنه وأرضاه- ويُعجب به وهو قوله:

لو أن الناس تكلموا في العلم بصحة الفِطَن لَقَلَّ اختلافهم فيه.

[٤٦٣] وكان يقول:

ليس الفقه حمل الفقه، وإنما الفقه معرفة الفقه والفطنة فيه والفهم بمعانيه، ويقول على أثر ذلك القول: رسول الله ﷺ قال ذلك بقوله: **«نَضّر الله عبدًا سمع مقالتي هذه فوعاها، فرُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه غير فقيه»**[١].

قال: ويشهد لذلك أيضًا قول علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه وأرضاه- إذ قيل له:

هل عندكم من رسول الله ﷺ شيء غير القرآن؟

فقال: لا، والذي فلق الحبة وبرأ النَسَمة، إلا أن يؤتي الله - عزّ وجل- العبد فهمًا في كتابه[٢].

[٤٦٤] وكان ﷺ يقول:

ما من شيء أحب إليَّ من دفع الضلال بالحق، ولو أن ضلالة ألقاها إبليس اللعين بالصين ثم وردت عليّ لكشفت عن باطلها وأظهرت حق الله -سبحانه وتعالى- فيها.

[٤٦٥] وكانت له مقامات في الدين مع الكفرة المارقين: أبي عبد الله الشيعي وأبي العباس أخيه وعبيد الله -لعنة الله عليهم- أبان فيها كفرهم وزندقتهم وتعطيلهم.

(١) حديث متواتر رواه عشرون صحابيًا، وأخرجه جماعة منهم الإمام أحمد في مسنده، والترمذي، وابن ماجة.
(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه.

[٤٦٦] خرج جماعة من القيروان للقاء الشيعي -لعنة الله عليه- منهم: أبو عثمان وحماس وابن عبدون، وكان أبو عثمان مهاجرًا لابن عبدون، وذلك أنه حبسه، فقال ابن عبدون لأبي عثمان: تقدم يا أبا عثمان، فلم يجبه، فقال له: تقدم فليس هذا وقت مهاجرة، فلسانك سيف الله، وصدرك خزانة الله، وإنما أراد ابن عبدون بذلك أن يحرضه على مناظرة الشيعي.

[٤٦٧] ولما خرج لمناظرته خرج مع أهله وولده وهم يبكون، فقال لهم: لا تفعلوا لا يكون إلا خيرًا، حسبي مَن له خرجت وعن دينه ذببت.

[٤٦٨] فأول مجلس جرى له معه أنه قال:

أرسل ورائي الشيعي -لعنة الله عليه- وما كنت آتي إليه إلا برسول، فدخلت إليه في قصر إبراهيم بن أحمد وحوله جماعة من أصحابه، وجماعة ممن ينسب إليهم العلم من أهل بلدنا، فسلمت ثم جلست، فقال أبو عبد الله لإبراهيم بن يونس - وقد قيل له إن هذا الشيخ كان قاضيًا على هذه المدينة- بأي شيء كنت تقضي؟

فقال له إبراهيم: بالكتاب والسنة.

فقال له أبو عبد الله: فما السنة؟

فقال له إبراهيم: السنة السنة.

قال أبو عثمان: فلما سمعته على قوله السنّة السنة قلت لأبي عبد الله:

المجلس مشترك أو خاص؟

فقال: مشترك.

فقال أبو عثمان: أصل السنة في كلام العرب: المثال الذي يتمثل عليه، قال الشاعر:

تريك سنة وجه غير مقرفة ... ملساء ليس بها خال ولا ندب

أي صورة وجه ومثاله.

والسنة محصورة في ثلاث: الائتمار بما أمر به رسول الله ﷺ والانتهاء عما نهى عنه

والايتساء[١] به فيما فعل.

قال الشيعي: فإن اختلف عليه فيما نقل إليك عن النبي ﷺ وجاءت السنة من طرق؟

- فقلت له: أنظر إلى أصح الخبرين نقلًا فآخذ بأصحهما، وأطلب الدليل على موضع الحق في أحد الحديثين، ويكون الأمر في ذلك كشهود عدول اختلفوا في شهادة فلا بد من طلب الدليل على موضع الحق من الشهادتين.

- فقال الشيعي: فلو استووا في الثبات؟

- فقلت له: يكون أحدهما ناسخًا والآخر منسوخًا.

[٤٦٩] قال: فمن أين قلتم بالقياس؟

- فقلت له: قلنا ذلك من كتاب الله عز وجلّ.

- قال: فأين تجد ذلك؟

- قلت: قال الله عزّ وجلّ في كتابه العزيز: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥] فالصيد معلومة عينه، والجزاء الذي أُمرنا أن نمثله بالصيد المعلومة عينه ليس بمنصوص، فعلمنا بذلك أن الله -تعالى- إنما أمرنا أن نمثل ما لم ينص ذكر عينه بالقياس والاجتهاد.

ومنه قول الله عز وجلّ: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ فلم يكله إلى حاكم واحد حتى جعلهما اثنين: ليقيسا ويجتهدا.

فقال أبو عبد الله الشيعي: ومَن ذوا عدل؟ وأومأ أن ذوي عدل إنما هم قوم مخصوصون بنص الآية.

فقلت: هم الذين قال الله - عزّ وجلّ - فيهم في آية المراجعة:

﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢].

---

(١) أي الاقتداء، والمقصود بالسنة ها هنا كل ما ورد عن رسول الله ﷺ.

ومثل ذلك في تثبيت القياس قول عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، والاستنباط غير منصوص.

ثم عطف على موسى القطان فقال له: أين وجدتم حدّ الخمر في كتاب الله تعالى؟

فقال له موسى: قال النبي ﷺ: من شربها فاضربوه بالأردية، ثم إن عاد فاضربوه بالأيدي، ثم إن عاد فاضربوه بالجريد[1].

- فقال له: أبو عبد الله على النكير منه: أيشٍ هذا؟ أقول لك: أين وجدتم حد الخمر في كتاب الله -تعالى- تقول: اضربوه بالأردية ثم بالأيدي ثم بالجريد؟

- قال أبو عثمان: فقلت له: إنما حُدّ قياسًا على حد القاذف لأنه إذا شرب سكر، وإذا سكر هذى، وإذا هذى افترى، فوجب عليه ما يؤول أمره إليه وهو حدّ القاذف.

[٤٧٠] فقال لموسى القطان: أو لم يقل النبي ﷺ: «أقضاكم عليّ» فجعل موسى وهو ينص عليه الحديث...: «وأعلمكم بحلال الله وحرامه معاذ، وأرأفكم أبو بكر، وأشدكم في دين الله عمر»[2]، رضي الله عنهم أجمعين.

- فقال له الشيعي: وكيف يكون أشدهم في دين الله وقد هرب بالراية يوم حنين؟

- فقال له موسى: ما سمعنا بهذا ولا نعرفه.

- قال أبو عثمان: فقلت له: تحيز إلى فئة، كما أنزل الله -تعالى- قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾[الأنفال: ١٦] فمن تحيّز إلى فئة كما أمر الله - عزّ وجلّ - فليس بفار.

فمال الشيعي بوجهه إلى بعض أصحابه فقال: أتسمع ما قال الشيخ، قال: انحاز إلى فئة كما أمر الله، سبحانه.

فقال مجيبًا -وهو يشير بيده- وأي فئة أكثر من رسول الله ﷺ وقد كان حاضرًا ولم

(١) لم أجده بهذا اللفظ، وفي البخاري وغيره ذكر الضرب بالجريد والنعال

(٢) حديث صحيح وروي بعدة ألفاظ، وقد أخرجه جماعة من الأئمة وصححه أئمة منهم النووي والذهبي والعراقي.

يتحيز إليه، وكأنه تخافت في كلامه ويُسمع من يليه.

- فقلت: جاء عنه ﷺ أنه قال: عمر فئة، فمن تحيز إلى عمر فقد تحيز إلى فئة[1].

فسكت: فحرّكه بعض أصحابه، وقال ألا تسمع ما يقول الشيخ؟

فقال: صدق، أو نحو هذا من القول، سمعتها أنا منه ومَن كان يليه.

ثم قال لأبي عثمان: هلا كان عندك من قول الله - عزّ وجلّ - حكاية عن نبيه ﷺ في قوله لأبي بكر: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ دلالة أن حزنه كان مسخوطًا لأن النبي ﷺ نهاه عنه.

- فقال أبو عثمان: لم يكن قوله له إلا تبشيرًا بأنه آمن على رسول الله ﷺ وعلى نفسه معه مما كان يحذره من غلبة المشركين، وكان خوفه لما خاف من ذلك من أجل أنه لا يظهر على غيب ما تجري به مقادير الله -عزّ وجلّ- ورسول الله ﷺ ينزل عليه الوحي بغيب ما يكون قبل أن يكون فكان في قوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] ما يبين أن الله معهما، بنصرته إياهما وذلك لا يكون إلا بوحي من الله -عزّ وجلّ- وقد بيّن الله تعالى إطلاعه أنبياءه المرسلين على غيبه بقوله: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧].

فقال له أبو عبد الله: وهل تجد لهذا نظيرًا من التنزيل: لا تفعل يراد به التبشير ولا يراد به النهي عن أمر مسخوط؟

فقال له أبو عثمان: نعم. قال الله عزّ وجلّ لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[طه: ٤٦] لما خافا من فرعون أن يفرط عليهما أو أن يطغى ولم يكن خوفهما خوفًا يسخط الله عزّ وجلّ عليهما من أجله، لأنهما لو أديل لفرعون عليهما لكان في ذلك طغيانًا لفرعون وتضعضعًا للدين، وهما رسولان داخلان في معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ

(١) لم أجده مرفوعًا، وإنما وجدته من قول عمر رضي الله عنه: (أنا فئة لكل مسلم) وانظر «التلخيص الحبير»: مسألة رقم ٢٢٦٩ وانظر تفسير ابن أبي حاتم: ١٦٧١/٥.

ﱡﭐ ﭐﱠارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾[الجن: ٢٧]، فأطلعهما الله - عزّ وجلّ - على غيب ما خافا كما أطلع محمدًا نبيه ﷺ على غيب ما يؤول إليه الأمر الذي خافه أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه، فصار قول الله - عزّ وجلّ - في أبي بكر شرفًا لم يبلغه أحد بعده؛ فإن الله تعالى أنزل فيه وفي الأمر الذي خافه من التبشير بالأمن منه ما أنزل على موسى وهارون صلى الله عليهما.

- فقال له أبو عبد الله: أفلا أوجب قول الله تعالى عند من سمعه ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾[آل عمران: ١٤٤] انقلاب أصحاب محمد ﷺ؟

- فقال له أبو عثمان: لا، لأن معناه أفإن مات أو قتل أفتنقلبون على أعقابكم؛ لأن معنى ﴿أَفَإِين مَّاتَ﴾: استفهام، ومعنى ﴿انقَلَبْتُمْ﴾ أفتنقلبون، والاستفهامان إذا جاءا في قصة واحدة اجتزئ بأحدهما عن الآخر، وهذا الاستفهام إنما هو في معنى التقرير بأن لا تنقلبوا على أعقابكم.

- فقال له: فهل تجد في كتاب الله -عزّ وجلّ- نظيرًا يكون من هذا دليلًا؟

- فقال له: نعم. قول الله عزّ وجلّ ﴿أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] أي إنك إن مت فهم لا يخلدون، فلما التقى استفهامان أجزأ ذكر أحدهما عن الآخر، فكان لفظ الاستفهام من ذلك مراد به التقرير: بأنهم لا يخلدون.

[٤٧١] فقال أبو عبد الله: يا أهل المدينة[١] إنكم تبغضون عليًّا.

- فقال أبو عثمان: على مبغض عليّ لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، وكيف أبغض عليًّا وقد سمعت سحنون بن سعيد -وهو إمام أهل المدينة بالمغرب- يقول: علي بن أبي طالب إمامي في الدين أهتدى بهديه وأستن بسنته وأقتفي أثره، رحمة الله عليه.

- فقال أبو عبد الله: أراد أن يقول: صلى الله عليه، فرجع فقال: رحمة الله عليه.

- فقال أبو عثمان - ورفع بها صوته-: نعم ﷺ؛ لأن الصلاة في كلام العرب: الرحمة

---

(١) أي يا أتباع مذهب مالك.

والدعاء، قال الأعشى:

تقول بنتي وقد قرّبت مرتحلا يا رب جنّب أبي الأوصاب

عليكِ مثل الذي صليت نومًا فإن لجنب المرء مضطجعا

فالصلاة من الله رحمة، ومن الآدميين دعاء، نعم فصلّى الله على عليّ وفاطمة والحسن والحسين وعلى آل طاعته أجمعين من أهل السماوات والأرضين.

- فقال له أبو عبد الله: أليس قد قال النبي ﷺ: **«من كنت مولاه فعلي مولاه»**[(١)] أفليس علي مولاك؟

فقال أبو عثمان: هو مولاي بالمعنى الذي أنا به مولاه، ومعنى مولاي: على الولاية في الدين لا مولى عتاقة، وذلك أن المولى في كلام العرب: الولي وابن العمّ والمعتق والمنعم علي، قال الله عزّ وجلّ في ابن العمّ -حكاية عن زكرياء عليه السلام- ﴿**وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى**﴾ [مريم: ٥] يريد به العَصَبة.

وقال في ولاية الدين: ﴿**ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ**﴾ [محمد: ٥] أي لا وليّ لهم.

وقال في المؤمنين: ﴿**بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ**﴾[التوبة: ٧١] فعلي مولى المؤمنين بأنه وليّهم، وهم مواليه بأنهم أولياؤه، فهو مولاي بالمعنى الذي أنا به مولاه.

- فقال أبو عبد الله: ألم يقل النبي ﷺ: **«عليّ مني بمنزلة هارون من موسى»**[(٢)]؟

- فقال له أبو عثمان: نعم، إلا أنه قال: **«إلا أنه لا نبي بعدي»** وهارون كان حجة في حياة موسى، وعليّ لم يكن حجة في حياة النبي ﷺ، وهارون كان شريكًا لموسى، أفكان لعلي شِرْك مع النبي ﷺ في النبوة؟ إنما قال رسول الله ﷺ: عليّ مني كهارون من موسى على التقريب والوزارة والولاية.

---

(١) أخرجه الإمام الترمذي وابن ماجه، وهو صحيح.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: رقم ٢٤٠٤.

قال: أليس هو أفضل؟

- فقال له أبو عثمان: أليس الحق متفقًا عليه غير مختلف فيه؟

- قال: نعم[١].

- فقلت له: قد ملكت مدائن كثيرة قبل مدينتنا هذه -وهي أعظم مدينة- واستفاض الخبر عنك أنك لم تكره أحدًا خالفك في مذهبك على الدخول فيه فاسلك بنا مسلك غيرنا.

- فألح عليه بعض أصحابه في قصدنا[٢].

- فقال لهم: نقول كما قال شعيب: ﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٧].

ثم نهضنا.

[٤٧٢] قال أبو عثمان:

ودخلت يومًا على أبي العباس، فأجلسني معه في مكانه وهو يقول لرجل ممن ينتسب إلى العراقيين[٣] -أجللت أنا كتابي عن ذكره-:

- أليس العالم أعلم من المتعلم أبدًا؟ والعراقي يقول له: نعم، وأهل المجلس لا ينطقون.

فقلت له: بقي شيء، أوَ نتكلم؟

فتمادى، فقال له: أو ليس المتعلم يحتاج إلى المعلم أبدًا؟ والعراقي يقول له: نعم.

قال: وفهمت مراده ومقصده ليؤكد بذلك الطعن على أبي بكر -رضي الله تعالى عنه- في سؤاله عليًا ﷺ عن فرض الجدة، قال: فبدرت وقلت له: إني أسمع كلامًا يجب لله عليّ فيه أن لا أسكت.

---

(١) كذا وردت، والصواب: بلى، وكذا ما بعدها.

(٢) أي في قصدهم بالإيذاء.

(٣) أي إلى مذهب الأحناف.

- قلت له: المتعلم يكون أعلم من المعلم أبدًا ويكون أفضل منه وأفقه.

- فقال: وما دليلك؟

- قلت: رسول الله ﷺ حيث يقول: «**رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، وربّ حامل فقه غير فقيه**»(١).

وآخر: ما هو متعارف بين الخليقة، أن المعلم يعلم الصبيان القرآن فلا يزال يعلمهم حتى يكبر الصبي، فيعطي الله -عزّ وجلّ- للصبي من الفهم بعام القرآن وبخاصه وبظاهره وباطنه ما لا يقدر معلمه على علمه أبدًا.

فقال لي: فاذكر من عام القرآن وخاصّه شيئًا؟

- فقلت له: قال الله عزّ وجلّ ﴿**وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ**﴾ [البقرة: ٢٢١] فاحتمل أن تكون هذه الآية أراد بها عامًّا فلما قال الله عزّ وجلّ: ﴿**ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ**﴾ [المائدة: ٥] الآية، علمنا بهذه الآية أن مراده في الآية الأولى خاص دون عام، أراد ولا تنكجوا المشركات غير الكتابيات حتى يؤمن.

- قال: ومن المحصنات؟

- قلت: العفائف.

- قال: المحصنات: المتزوّجات.

- قلت: الإحصان في كلام العرب -التي بلسانها نزل القرآن- الإحراز، فكل من أحرز شيئًا فقد أحصنه، فالإيمان: انحراز يحرز دم صاحبه وماله وسَبْيَه، وهو يحصنه، والعتق: يحصن المملوك لأنه يحرزه من أن يجري عليه ما يجري على المماليك.

والتزويج: يحصن الفرج لأنه أحرزه من أن يكون مباحًا له ما كان له قبل التزويج، والعفاف: إحصان للفرج لأنها أحصنت فرجها بالعفاف.

---

(١) رواه جماعة من الأئمة منهم أحمد في مسنده، وهو صحيح.

قال: ما يكون الإحصان - عندي- إلا التزويج.

- فقلت له: منزّل القرآن يأبى ما ذكرت، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [التحريم: ١٢] يريد أعفّته.

- قال: أعفته؟

- قلت: نعم أعفته، وقال: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ [النساء: ٢٥] عفائف غير زوان.

- فقال لي: فقد قال في الإماء: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥] فكيف جعل العذاب على المحصنات وهن عندك قد يكنّ عفائف؟

قلت: سمّاهن بمتقدم إحصانهن قبل زناهن قال الله عزّ وجلّ في كتابه العزيز: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ﴾ [النساء: ١٢] وقد انقطعت العصمة بالموت، يريد اللائي كنّ أزواجكم، وهذا كثير.

- قال: فعارضني -مُعِينًا له بعض من سمى، فأجللت أنا كتابي عن ذكره- قال: فقلت له: امسك عن هذا يا حدث، بصيحة.

قال: فلم ينطق.

- فقال لي أبو العباس: فعذاب المحصنات: الرجم، فكيف يعقل نصف الرجم وقد يقتل بواحدة وربما لم يقتل بأكثر من ذلك؟

- قال: فقلت: هذا مما كنا فيه، أراد خاصًا دون عام، أراد نصف ما عليهن من عذاب الجلد دون الرجم.

- فقال لي: ومن يقول بالجلد مع الرجم؟

قال: قلت: علي بن أبي طالب ﷺ جلد شراحة مائة ورجمها، وقال: جلدتك بكتاب الله ورجمتك بسنة رسول الله.

قال: ثم جرى ذكر شيء فقال لي:

- أنت يا شيخ تلوذ[١].

قال: قلت: ليس أنا الذي ألوذ -لأني أنا المجيب لك- وأنت الذي تلوذ لأني إذا أتيتك بالجواب ووقفتك منه على حدّ له رجعت إلى مسألة أخرى غير ما سألتني عنه، فأنت الذي لذت.

قال: ثم صحت والله صيحة: ألا أحد يكتب ما أقول ويقول غضبًا لله تعالى.

قال: فوالله لقد وقى الله -تعالى- شرّه.

- قال: فكأنك تقول إنك أعلم الناس؟

- قلت: أما بديني فنعم.

- قال: فما تحتاج فيه إلى زيادة؟

- قلت: لا؛ لأن ديني الذي أنا عليه هو الحق الذي ليس الحق في سواه أبدًا.

- قال: فأنت إذن أعلم من موسى بن عمران -عليه السلام- إذ يقول:

﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [الكهف: ٦٦].

- فقلت له: قائل هذا طاعن على نبوة موسى - عليه السلام- إذ يزعم أن الله تعالى اصطفاه برسالته وبكلامه ونبوته، وهو محتاج إلى أن يتعلم بعد ذلك شيئًا من دينه، معاذ الله، إنما كان العلم الذي كان عند الخضر دنيويًّا: سفينة خرقها لعلمه بالملك الذي يأخذ كل سفينة غصبًا، وغلامًا قتله: علم كفره وإيمان أبويه، وجدارًا أقامه: علمًا بالكنز الذي تحته، وذلك كله لا يزيد في دين موسى شيئًا.

- قال: فأنا أسألك.

- قلت له: أورد وعليّ الإصدار بالحق بلا مثنوية[٢].

---

(١) أي تحيد في الجواب.
(٢) أي بلا تردد ورجوع.

- فقال لي: ما تفسير الله؟

- فقلت له: ذو الإلاهة.

- قال: وما الإلاهة؟

- قلت: الربوبية.

- قال: وما الربوبية؟

- قلت: المِلْك للأشياء كلها.

- فقال لي: فقريش -في جاهليتها- كانت تعرف الله.

- فقلت له: لا، ما كانت تعرف الله.

- قال: فقد حكى الله عنهم قولهم ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣].

- قلت له: لما أشركوا معه غيره فقالوا: ذو الشركاء والآلهة لم يعرفوه، وإنما يعرف اللهَ مَن قال: إن الله ليس له شريك وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون:١، ٢] فلو كانوا يعبدون الله ما قال: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾.

- ثم قال لي: فمن الذين آمنوا؟

- فقلت: نحن ومن ترى، وأوميت بيدي إلى أصحابنا وهم بين يديه.

- قال: ومن الذين هادوا؟

- فقلت: أين المتكلم آنفًا بما لا يدري، هذا من ذلك الذي أنكرت: سمّاهم وهم كفار بمتقدم كلمة كانت منهم تابوا بها فكانوا بها مسلمين بقولهم: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

- قال: فمن النصارى؟

- قال: قلت: الذين تكلموا في المسيح ﷺ.

- قال: فمن الصابئون؟

- فقلت: هم الذين عبدوا الملائكة وزعموا أنهم بنات الله -تبارك الله وتعالى-.

- قال أبو عثمان: وهذا قول أهل العلم: فبدأت بجوابهم قبل أن أجيبه بكلام المتكلمين.

- فقال لي: هم الذين عبدوا الملائكة؟

- قلت: نعم وزعم هشام: أنها أصل المنانية[1].

- قال: فمن الذي أشركوا؟

- قال: فتبينت أنه إنما أراد بإيمانه، وبها استدللت منه أنهم عنده مسلمون.

- فقلت: المشركون الذين كانوا يعبدون الأصنام، الذين أرسل إليهم رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ﷺ يقرأ عليهم آيات من سورة براءة.

- قال: فقريش ما كانت تعبد؟

- قلت له: الأصنام.

- فقال لي: وما الأصنام؟

- قلت له: الحجارة.

- قال: والحجارة كانت تُعبد؟ على النكير منه أن تكون الحجارة هي الأصنام.

- فقلت له: نعم، والعزّى كانت تُعبد وهي شجرة، والشِّعرى كانت تعبد وهي نجم.

- فقال لي: الله يقول: ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ﴾[يونس: ٣٥] فكيف تقول إنها الحجارة، والحجارة لا تهتدي إذا هديت لأنها ليست من ذوات العقل.

- فعارضني بعض أهل المجلس -كالمعين له- فقال: كيف تعقل الحجارة وهي من غير ذوات العقل؟

---

(١) قال المحقق: ويقال لهم أيضًا: المانوية، وهم أتباع ماني قلت: وهو الذي قال بثنائية خلق الخير والشر والنور والظلمة.

- فقلت للمعارض: أمسك، ما لك ولذا؟

- ثم قلت: قد أخبرنا الله - عزّ وجلّ-: أن الجلود تنطق في الآخرة وليست من ذوات النطق.

- فقال: نسب إليها النطق على سبيل المجاز، والنطق للأفواه.

- فقلت له: منزّل القرآن يأبى ما ذكرت، فقلت: قال الله عزّ وجلّ: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[يس: ٦٥] قال: وأشرت بإصبعي السبّابة إلى فمي فقلت: ختم الله على أفواههم، ثم بيّن بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[فصلت: ٢١] وما الفرق بين جسمك وأجسامهم وبين الحجارة إلا أنه عَقَّلَنا الله فعقلنا ولو لم يُعَقِّلْنا لم نعقل، وكذلك الحجارة إذا شاء الله أن يعقلها عقلت، هذا الجبل لما عقله الله عقل جلال تجلّيه: اندك، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

[٤٧٣] قال ابن التفاحي: قلت لأبي إسحاق السبائي:

ما رأيتُ -أصلحك الله- أغزر دمعة من سعيد بن الحداد، لأن كل صاحب جدل وكلام تجد له قسوة.

فقال السبائي: سعيد بن الحداد سبق إلى قلبه صحبة النُسّاك.

[٤٧٤] قال الفقيه أبو بكر بن عبدالرحمان -رضي الله عنه وأرضاه- عن أبيه قال:

كانت الدجاجة إذا باضت في دار سعيد فرحوا بذلك لأنهم يشترون بها بقلًا، وكان مع هذا التقلل يلبس لباس الشرفاء للتهيّب في أعين الأعداء -يعني عبيد الله وشيعته- وكانت كسوته تقوم بعشرين دينارًا.

[٤٧٥] ذكر الشيخ أبو الحسن بن القابسي رضي الله عنه وأرضاه، قال:

كان فتى يطلب على سعيد فخرج من عنده يومًا فأتى الدار، فوجد والده قد صنع

سِكْباجة[1] محكمة فلما قرّبت بين أيديهم قال له والده: مسألة يا بني.

فقال له: ما هي؟

قال له: هل الموت مخلوق أو غير مخلوق؟

فبقي الفتى ساكنًا لا يحير جوابًا.

فقال له والده: صحبت هذا الشيخ الذي تطلب عليه كذا وكذا سنة ولم تعلم هذه المسألة، لله عليّ إن أكلت من هذه السكباجة شيئًا حتى تمضي إلى معلمك وتسأله عن هذه المسألة.

قال: فمضى الفتى -وكان نصف النهار- في يوم حار في مسافة بعيدة، فضرب على أبي عثمان الباب، فقال: من هذا؟

فقال: فلان - أصلحك الله-.

- فرفع الخيط وقال له: لِجْ واتركه رَهوًا[2]، فلما دخل على أبي عثمان، قال له:

ما الذي أتى بك في هذا الوقت؟

فقال له: مسألة أردت سؤالك عنها.

فقال له: و ما هي؟

فأخبره بها، فقال له: اقرأ من أول سورة الملك تجد مسألتك، فقرأ حتى انتهى إلى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾[الملك: ٢] فقال له حسبك، ففهم الفتى المسألة، ثم قال له أبو عثمان: البطنة تُذهب الفطنة، ثم أشار إلى باقية مغطاة بمنديل فقال له: اكشفها فكشفها فإذا بنصف خبزة.

فقال: هذا قوتي في يومي هذا وليلتي آكله الساعة ثم لا آكل شيئًا إلى قبل هذا الوقت من الغد.

---

(١) طعام يعمل من اللحم والخل مع التوابل، والقطعة منه سكباجة: «المعجم الوسيط» سكبج.

(٢) قال المحقق: أي لا تغلقه تمامًا، اترك فيه فرجه.

ثم مضى الشاب إلى أبيه فأعلمه بما قاله له، فقال: أما الساعة فكل ما أحببت.

[٤٧٦] وكان ﷺ متقللًا من الدنيا حتى ورث من أخ له مات بصقلية أربعمائة دينار أعانه عليها الأمير إبراهيم بن أحمد، فلما وصلت إليه هدّم داره وبناها وأنفق فيها مائتي دينار، واشترى بخمسين دينارًا كسوة، واشترى بخمسين دينارًا فرشًا ودثارًا وما يصلح للاستخدام من الأواني وغير ذلك، وبقيت معه مائة دينار، فعاتبه بعض إخوانه على محقه الدنانير، فقال لهم: عملت ما عمله أكابر الرجال وعقلاؤهم:

أما بنياني الدار فإنما راحة المرء في داره، وأما الكسوة فهو نظر في المعيشة؛ لأنه إذا كان عند الرجل ثوب واحد هلك في أقرب وقت، وإذا كان عنده جملة من الثياب بقيت عنده مدة من الزمان.

وأما المائة دينار الباقية فأي شيء يفنيها؟ وأنا إنما آكل من الجمعة إلى الجمعة ربع رطل لحم نجعل عظامه في ليلة وشرائحه في ليلة، ثم نأكل في الليلة الثالثة السماصاحية، وهي الخزيرة[1]، وفي الليلة الرابعة كواكبية، وهي: سلق وحمص، والليلة الخامسة نيسابورية، وهي سلق واسفنارية، وهي جزر، والليلة السادسة: فستقية، وهي سلق وفول، والليلة السابعة: اللحم.

وهذا الفعل من أبي عثمان - رضي الله عنه- قناعة وتدبير للمعيشة، قنع بما في يديه واستغنى عن الناس.

وكان يحض على القناعة ويرغب الناس فيها ويقول: إنها غنى.

[٤٧٧] عن عبد الله بن سعيد عن أبيه قال:

قدمت من طرابلس في سفرة كنت سافرت إليها في محمل، ونحن في رفقة فيها سبعون حمل برّ وجميع الرفقة من الجمال والأحمال والأعوان لرجل واحد هو فيها معنا يقال له أبو عوانة راكب على حمار مسرج، محزّم الوسط بمنطقة، وكان يستظل بظل محملي، قال أبو عثمان:

---

(١) قال المحقق: شبه عصيدة بلحم.

فقال لي يومًا -وهو تحت ظل محملي-:

يا أبا عثمان: ما يقول أصحابكم - أصحاب الحديث- في القناعة؟

فقلت له من تلقائي: القناعة غنى، لأنه من قنع بما في يديه استغنى عما في يد غيره.

فقال لي: لكن أصحابنا السواديين يقولون: القناعة فقر، لأن كل من قنع لا يطلب، ومن لا يطلب لا يكسب، ومن لم يكسب فهو فقير.

قال أبو عثمان: فسكت عنه ولم أكلمه بشيء.

قال: فنزل إلى القيروان - وكان له ربع- فباع فندقًا له وغير ذلك، ثم اشترى ثلاثين جملًا حتى كملها مائة جمل بأحمالها وأعوانها، ثم توجه يريد بلد السودان، فانقطع خبره من الوقت الذي خرج فيه إلى هذا الوقت، فما أدري ما فعل الله - تعالى- به وبجميع ما معه، قال: فذكرت خبره لبعض من يسافر إلى تلك الجهة، قال: يقال إنه نزل في بعض الرمال فأسفت عليهم الريح فدفنتهم أجمعين.

قال أبو عثمان: فوقع في قلبي أنه عوقب بما كلمني به في القناعة.

[٤٧٨] قال عبد الله ولده: اشتكى أبي بحرّ شديد حتى رأينا بصره قد تغير علينا، ورآه بذلك بعض مَن عنده من العُوّاد، قال: وأحسب أنه قال: -ولم يعلم هو بذلك من نفسه حتى أُخبر، فلما خلا رفع المرآة إلى وجهه فنظر إلى بصره بتلك الحالة فرفع يديه إلى الله -عزّ وجلّ- وقال: اللّهم بحق الإسلام الذي سيط[1] به لحمي ودمي فرّج عني.

قال: فأعاد الله - عزّ وجلّ - بصره على ما كان عليه قبل ذلك، وزال منه ما أصابه فيه.

قال: ثم نظر بعد ذلك وجهه في المرآة فرأى بصره قد عاد لهيئته، قال: أقول، وما عسى أن أقول؟ أحمد من أعبد.

[٤٧٩] وخطر عليه صاحب المحرس وهو في مجلسه مع جلسائه، فلحظه لحظًا منكرًا،

---

(١) قال المحقق: أي اختلط.

فقال له بعض جلسائه: إنما صار إلى العامل ليخبره اجتماع الناس عندك، فأخذ -رحمه الله- يستعين بالله تعالى ويستكفيه شّره وضرّه، قال: فما أمسى له الليل حتى أتاه الخبر أن ذلك المخوف -صاحب المحرس- صار إلى العامل، فلما صار إليه خاطبه وأطال، فلا يدري في أمره أم في غيره، فأمر العامل بالسيف وأن يُوَسّط به صاحب المحرس، فوقع نصفه من جانب والنصف الآخر من جانب، فحمد الله -تعالى- أبو عثمان كثيرًا وشكره على ما كفاه منه.

[٤٨٠] وكان -رحمه الله تعالى- على غاية من حسن الخلق وكرم النفس:

ذكر عنه أنه جلس إليه يومًا شيخ يعرف بابن مرزوق -وكان في ما مضى مغنيًا- قال: فأخذ سعيد في حديث يحدثه ويحدث أصحابه، فلما توسط كلامه سكت عن الحديث وقطعه وقال: ارو هذا الحديث، فلما قام ابن مرزوق قال: كدنا نحشم[1] جليسنا، فعلم أنه كان باقي الحديث الذي سكت عنه في ذم الغناء، وأظن الرجل كان مغنيًا.

[٤٨١] وأخذ فتح الحاجب رجلًا قيل إنه مفسد لحرم المسلمين، فقال الرجل لفتح: لا تعجل عليّ، سعيد بن الحداد يعرفني ويعرف حالي، قال سعيد: وأنا أعرف ذلك. قال: فجاءني، فقال لي: تعرفني؟

فقلت له: نعم، أعرفك بسوء الحال والرداء.

فقال لي: صدقت، ولكني أُشهد الله -تعالى- وأشهدك أني تائب إلى الله، عزّ وجلّ، من جميع ما عملته.

فقال أبو عثمان سعيد ﷺ فبعد أن أدبر عني أتاني رسول الحاجب يسألني عنه، قال: فقلت له: أما مذ تاب ورجع إلى الله -عزّ وجلّ- فما علمت منه جرحة ولا زلة، رحم الله أبا عثمان ونَضّر وجهه.

[٤٨٢] كان يقول: إن لم يشتد حزنك على ما تنكره من حالك فاقض على نفسك بخروجك من نعت المؤمنين الذين نعتهم نبيهم ﷺ في قوله: **«من سرّته حسنته**

---

(١) أي كدنا نؤذيه ونخجله وننفره، وانظر «المعجم الوسيط»: ح ش م.

وساءته سيئته فهو مؤمن»[1].

[٤٨٣] وقال: الحب في الله والبغض في الله من أفضل ما تُقرب به إلى الله -عزّ وجلّ- فهو فريضة على من آمن بالله تعالى.

[٤٨٤] وقال:

لا تقل إلا خيرًا، ولا تُرِد بما تقول إلا الله -عزّ وجلّ- لأن الله تبارك وتعالى يقول:

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

وقال: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ٩، ١٠] فمن علم أن كلامه محصي عليه حرس قوله وإرادته، وما توفيقي إلا بالله.

[٤٨٥] قال ابن حارث: قال لي أبو جعفر بن موسى التمار:

كان أبو عثمان كثيرًا ما يقول: ما لطالب العلم وملاءمة المضاجع.

[٤٨٦] وكان يقول: دليل الضبط الإقلال، ودليل التقصير الإكثار.

[٤٨٧] وكان كثيرًا ما يقول:

تقديم مَن أخره الله، وتأخير من قدّمه الله فتنة في الأرض وفساد كبير.

[٤٨٨] وكان كثيرًا ما يقول:

القرب من الفتنة غرق، والبلاء إنما هو في القلب، وما للفتنة مثل التباعد عنها.

[٤٨٩] وكان يقول:

المكر مضارع للسحر -يعني مشابه السحر- لأن من احتال عليك كمن سحرك، والغدر إلى جانبه الذل.

[٤٩٠] وكان يقول: سل ربك العافية من بلاء يضطرك إلى المعصية.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد وجماعة، وصححه الإمام العراقي في تخريجه أحاديث إحياء علوم الدين، وصححه الألباني «صحيح الجامع»: ٦٢٩٤

[٤٩١] وكان يقول:

إنما هو دين أو مروءة فمن عري منهما فقد عري من كل خير.

[٤٩٢] وقال:

القرب من السلطان في غير هذا الوقت حتف من الحتوف، فكيف في هذا الوقت؟

[٤٩٣] وقال:

من لم يعالج إصلاح ما يجول في قلبه ويجري على لسانه فليست له عناية بدينه، ومن أهمّه ما يجول في قلبه ويجري على لسانه فهو مشغول بنفسه، والقلوب مولعة بما عليها فيه الضرر.

[٤٩٤] وكان يقول:

خاب السالون عن الله[1] -عزّ وجلّ- والمتنعمون بالدنيا، فكأن الناس ما آمنوا بالله عزّ وجلّ ولا صدّقوا بوعيده.

[٤٩٥] وقال:

من أوليته جميلًا على غير طريق الحق أعقبك منه قطيعة مكان الجميل الذي أوليته، عقوبة من الله عزّ وجلّ، فإن قصدت بما أوليته طريق البرّ ثم لم يَرْعَه كان الله - عزّ وجلّ - المعين لك عليه.

[٤٩٦] وقال:

افعل لله تعالى يمدحك من كان يذمك، وافعل لغير الله يذمّك من كان يمدحك.

[٤٩٧] وقال:

من تحبّب إلى العباد بمعاصي الله -تعالى- بغّضه الله إلى من تحبب إليه بمعصيته.

[٤٩٨] وقال:

من ترك القول بالحق خيفة من الناس لم يأمن أن ينزل به البلاء.

---

(١) أي الناسون لله تعالى.

[٤٩٩] وقال: المقدم من قدّمه تقواه، قُدّم عند العباد أو أُخّر.

[٥٠٠] وقال:

قف نفسك على ما يوجب عليها، وأصبرها على أخذ الحق منها.

[٥٠١] وقال:

قف نفسك عن تناول ما لا يجب لها، وأصبرها على أخذ مفروضها.

[٥٠٢] وقال:

ليس كل ذنب يجب فيه العفو، ولا كل حالة يحسن فيها الحلم.

[٥٠٣] وقال:

ما سدّ عن الله -تعالى- بمثل طلب المحامد وطلب الرفعة عند المخلوقين.

[٥٠٤] وقال: أعظم من ذنب المذنب تركه الاعتراف بذنبه.

[٥٠٥] وقال:

لا والذي لا إله إلا هو ما فرح قط عاقل وهو يعلم أنه في غير طريق رشده.

[٥٠٦] قال ابن حارث: ولما مات أبو عثمان ﷺ خرج البريد سَحَرًا يبشر بموته سلطان الشيعة.

***

ثم كانت سنة ثلاث وثلاثمائة

وفيها توفي:

أبو القاسم حماس بن مروان -الناسك- بن سماك الهَمْداني:

قال ابن حارث: معدود في العباد، مذكور بصلاة الليل وصيام النهار، ولباس الصوف، مع الفقه البارع والكلام الجيد عليه.

[٥٠٧] ذكر عبد الله بن سعد قال: خرج حماس من بيته ذات ليلة فسمع ابنه سالمًا يتهجد في بيته، ثم ذهب إلى بيت ابنه الآخر فوجده يتهجد، ثم ذهب إلى بيت العجوز فوجدها تتهجد، ثم ذهب إلى بيت الخادم فوجدها تتهجد، قال فملئ بذلك سرورًا ووقف في وسط الدار وقال: يا آل سماك هكذا فكونوا.

[٥٠٨] وقال غير عبد الله: فذُكر أنهم باعوا الخادم فاشتراها قوم فرأتهم لا يصلّون بالليل، فظنّت أنه من لم يصل بالليل فليس بمسلم فهربت من الدار إلى مواليها -دار حماس- فقالت لهم: هكذا يحل لكم: بعتموني من قوم يهود لا يصلون بالليل.

[٥٠٩] قال حماس:

كنا نوجه الشعير يُشترى لنا به البقل نطبخه، فكسد الشعير ونفق البقل، فصرنا نثرد الشعير بالشعير.

[٥١٠] ولما حضرته الوفاة قال لهم: بيعوا من كتبي ما تكفنوني فيه.

[٥١١] وجرى بين أخته سيدة وبين أخيه أحمد اختلاف في ضَيْعة بينهما كانا يتخاصمان عنده عليها، فعملت أخته ليلة من الليالي دجاجة إفريقية ووجهت بها إليه عند إفطاره، فلما وُضعت بين يديه قال:

من أين هذه؟

قيل له: أختك بعثت بها إليك.

قال: وجهوا وراء أخي فلان، فوُجه في طلبه فأتاه، ووجه في طلب أخته فأتته، وأمرهما أن يأكلاها بين يديه وأصلح بينهما وخرجا، فقالت -عند ذلك أخته-:

والله الذي لا إله إلا هو ما وجهت بها إليك إلا شفقة مني عليك لعلمي أنك أقمت أيامًا كثيرة لا تأكل سخينة وأنت تنظر بين المسلمين، فأحببت أن أُوجر على ذلك فقال لها: أكمل الله أجرك، والله يعين على ذلك برأفته.

[٥١٢] وذُكر عنه أنه كان لا يهاب سلطانًا، ولم يركب في ولايته دابة، وكان يخرج إلى منزله راكبًا على حمار لا خف في رجله، ولم يكسب دينارًا ولا درهمًا، وكان إذا أراد شراء الزيت والبقل باع الشعير واشترى بثمنه ما يحب من ذلك، ولم يأخذ على القضاء أجرًا.

[٥١٣] وقال أبو العباس الإبياني:

اختصمت امرأتان إلى حماس في جرتين مملوءتين سقطت إحداهما على الأخرى من يد صاحبتها فانكسرتا جميعًا ولم يُدر أيتهما سقطت على صاحبتها، فقال لهما: ترجعان إليّ غدًا، فرجعتا إليه فقال لهما: ترجعا إليّ غدًا، فرجعتا إليه فقال لهما: تعودا إليّ ثالثة، ففعلتا، فقال لهما: والله ما أدري كيف أحكم بينكما، ثم أدخل يده في كمه فأخرج دراهم، ثم قال لرجل امضِ فاشتر لهما جرتين مملوءتين مكان جرتهما ففعل ذلك وأخذت كل واحدة جرة، وقال: لو علمت الجرة الساقطة بعينها لغرمت صاحبتها قيمة الأخرى.

***

ثم كانت سنة أربع وثلاثمائة

فيها توفي:

-أبو يونس المتعبد بقصر الطوب، واسمه نصير:

في شهر ربيع الأول، وهو ابن مائة سنة وثماني سنين.

نفر الناس لحضور جنازته، ودفن في اليوم الثالث من موته.

وكان رجلًا صالحًا فاضلًا متعبدًا، مستجابًا، قليل الهيبة للسلطان، سكن قصر الطوب وبه مات.

[٥١٤] وكان - رحمه الله تعالى- يقول:

كيف تقر لي عين في الدنيا وأنا أعلم أن معي إبليس فيها مجاورًا، وإنما تقر العين في دار لا يجاور فيها إلا الرب سبحانه.

[٥١٥] وكان يقول:

لو أن الله - عزّ وجلّ- غفر لي وأدخلني الجنة وقال لي: سل سؤلك، لقلت: يا رب قد ذهبت الدنيا وجاءت الآخرة، وجازيت أهل طاعتك وسألوك سؤلهم فأعطيتهم، وأنا أسألك اليوم أن تجعل لي إلى خدمتك سبيلًا لتكون لي نعيمًا في الجنة.

[٥١٦] وقيل: إن أبا يونس مال إلى القراءة في كتب الرقة[١]، قال: فرأى في منامه كأن قائلًا يقول له: اشتغلت بكلام عبيدي عن كلامي؟ قال: فانتبه مرعوبًا فآلى على نفسه أن لا يتكلم بغير القرآن حتى يلقى الله عزّ وجلّ، فعكف على قراءة القرآن بالليل والنهار، وكان إذا أراد أن يتكلم أشار بإشارات تفهم، أو يكتب لمن يقرأ بما يريد.

---

(١) أي كتب الرقائق.

[٥١٧] قال لي أبي: وذكر لي بعض الصيادين الصالحين منهم أنهم ربما جازوا بالليل على قبر أبي يونس فيسمعون في قبره قراءة القرآن.

[٥١٨] قال أبو القاسم بن تمام: مضينا إلى قصر الطوب في عشرة أنفس إلى أبي يونس فقلنا له:

اكتب لنا كتابًا إلى أم الأمير؛ فإن زيادة الله الأمير أخذ مائتي رجل من أهل العلم والقرآن فأرسلهم إلى العسكر رماة.

فقال أبو يونس: ما نعرف الأمير ولا أمه إنما نعرف الله -عزّ وجلّ- الليلة نسأل الله فيهم ويطلقون، إن شاء الله تعالى، وكانت ليلة جمعة.

فلما صلى حزبه ورقد مرّ به النبي ﷺ في المنام، فقال له: يا أبا يونس قد سألتُ الله -تعالى- فيهم، وغدًا يطلقون، إن شاء الله تعالى.

قال ابن تمام: فلما أصبحنا قلنا له: يا سيدنا ما كان من الحاجة؟

فقال لي: غدًا يطلقون إن شاء الله، عزّ وجلّ، فلما كان يوم الجمعة دخلوا على زيادة الله بن الأغلب صاحب الجيش فسلموا عليه فردّ عليهم السلام ورحب بهم، وقال لهم: يا أهل العلم والقرآن: لعنة الله على ابن الصائغ الذي وجهكم إلي، قد تركتكم كرامة لله -عزّ وجلّ- وللنبي عليه أفضل الصلاة والسلام.

[٥١٩] قال الشيخ أبو الحسن الفقيه علي بن خلف رضي الله تعالى عنه:

خرج أبو يونس من بيته في ليلة مظلمة فإذا برجل ساجد في ظلمة الليل وهو يسأل الله -عزّ وجلّ- الحور والقصور ويتمنى من نعيم الجنة، فوقف به أبو يونس وقال له:

يا هذا ألا سألت الله -عزّ وجلّ- في العفو، فإنه إذا عفا عنك أعطاك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

قال: فما طلع الفجر حتى دق باب الحصن رجل من أهل سوسة وهو يقول: أُرسلت إلى الشيخ أبي يونس فأُخبر به فقال: أَطلعوه، فربطت له الحبال فطلع، وكان باب الحصن لا يفتح

حتى تطلع الشمس، فلما أُدخل عليه قال له: أصلحك الله: وقف بي هاتف في هذه الليلة وقال لي: امض إلى أبي يونس فقل له: إن الله -عزّ وجلّ- أعطاك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فبكى الشيخ أبو يونس ثم خرج الرجل.

[٥٢٠] حدث رجل من أهل العلم قال: خرجت مع أبي إلى المنستير فدخلنا على أبي يونس المتعبد فسلمنا عليه وسأل أبي عني، فقال له أبي: هذا ولدي، فدعا لي وقام إلى بيته، وكان جالسًا على باب بيته، فأخرج من حرزه أقلامًا فسأل أبي عني إن كنت أحضر الكُتّاب؟ فقال له أبي: نعم، فدفع إلي الأقلام ثم ودعناه وخرجنا، فلما مضينا عنه قدر ميل، وإذا به يطرد وراءنا ويصيح: يا هذا يا هذا، فرجعنا إليه، فقال لأبي:

لعل ابنك بمحضره على قارعة الطريق، فإذا جاز به مَن عند سلطان أو أحد من خدامهم قال له: يابني اعطني مَدّة فيعطيه، فيكتب بها فأكون يوم القيامة ممن أعانهم بمدة قلم، وأخذ الأقلام مني ورجع، رضي الله عنه وأرضاه.

وفيها توفي:

- صدقة الضرير المتعبد، رحمه الله تعالى:

دفن بباب تونس.

[٥٢١] وكان من فضلاء المؤمنين، مجاب الدعوة، وكان قد ذهبت يداه ورجلاه من البلاء، فكان إذا أراد الوضوء للصلاة حُمل إلى متوضاه فوُضئ جميع وضوئه للصلاة، ثم حمل إلى مصلاه الذي يصلي فيه.

[٥٢٢] قال أبو عبد الملك مروان: رأيت أبا هارون الأندلسي وأنا حدث - وكان من الأبدال- فتقدمت إليه وسلمت عليه، وعليه مُرَقّعة من صوف فقال لي: من أنت؟

فقلت له: مروان، وكان قائمًا فعانقني، وقال لي:

أنت مروان الخياط، معلمك صدقة المجاب الدعوة، سينفعك الله -تعالى- به.

ثم جَرّ يده على رأسي ودعا لي فوجدت لدعوته حلاوة في قلبي وبكيت، فلما دخلت على معلمي صدقة أعلمته بالخبر فبكى الشيخ الفاضل، ثم قال لي:

يا بني: ذاك سيد عباد المغرب، سينفعك الله بدعائه.

[٥٢٣] وذُكر أن الناس كانوا إذا حبس الله -تعالى- عنهم الغيث أتوا إلى صدقة الضرير يسألونه الدعاء، فأتوا إليه يومًا وقد أصاب البلدَ قحطٌ شديد فسألوه في الدعاء فرفع يديه إلى السماء ودعا بدعاء عظيم، ثم قال: يا رب الساعة... الساعة... فما خرج الناس عنه حتى أغاثهم الله -عزّ وجلّ- بالمطر.

[٥٢٤] وقيل: إن آخر كلمة سمعت من صدقة الضرير وهو يجود بنفسه: ارفق بحبيبك يا حبيبي، ثم فاضت نفسه.

وممن كان في هذا العصر:

-سعيد الصبري المتعبد:

كان من أهل الفضل والعبادة مشهورًا بالإجابة.

[٥٢٥] قيل للصبري -وقد كان الناس يأتونه من كل أفق يدعو لهم ويجاب دعاه- ما هذا الجاه الذي لا ترد لك به دعوة؟

فقال لسائله: نعم أنا أخبرك: يأتيني الناس وكل واحد منهم مضطر قلق بحاجته، وقد علم السائل مقام دعوة المضطر من الله -عزّ وجلّ- فأقول له: إما تدعو ونؤمّن، أو ندعو وتؤمن فيجيب الله -عزّ وجلّ- الدعاء باضطرارهم، فينتفعون بدعائهم وهم يظنون أنهم بنا ينتفعون، فدعنا بسوق قامت لنا من حيث هي لغيرنا.

قال ربيع القطان: فقلت لابن رصيف:

لقد تخلص الشيخ ولَطّف، ونعم الستر هذا وشبهه، رحمه الله وإيانا.

وفيها توفي:

-أبو عبد الله محمد بن عمرو بن خيرون المقرئ الأندلسي:

قال أبو عبد الله الخراط:

كان صالحًا ثقة كريم الأخلاق سمح النفس، إمامًا في القراءة، وكان من ذوي التجمل والأنفس الشريفة.

[٥٢٦] وكان قد أصيب بتجارة كبيرة في البحر نحو ألفي دينار، فبلغ ذلك أبا إسحاق بن حبشي بن عمر الأغلبي، وكان من أهل الجود والمعروف، فاغتم لما بلغه أمره، وأرسل محمد بن زكنون -وكان متصلًا به- يسأله الاجتماع به، قال: فاجتمعوا بقصر حبشي الذي على البحر بسوسة فكلمه وذكر اغتمامه بما رُزئ به وحادثه طويلًا، ثم أخرج كيسًا فيه ألف دينار وقال:

يا أبا عبد الله: قد علمت ما جرى بيننا من المودة والإخاء في ذات الله وما يجب بين الإخوان من الحق، وقد أحببت أن تسرني بقبول هذه الدنانير وتصرفها في حاجاتك.

فقال له ابن خيرون: أحسن الله مجازاتك وأوجب حقك، الله -تعالى- أعطانا والله أخذ منا، والخلف بيده، وهو المحمود على السراء والضراء، وقد أبقى علينا من نعمه ما لنا فيه الكفاية.

فقال له: قد علمت ذلك ولكني أحببت أن تشركني في ثوابك ولا تبخل علي بما فيه سألتك.

فقال له: لك ثواب نيتك -أعزك الله تعالى- ولا سبيل إلى أخذ المال.

قال: فخذه مني سلفًا ولا ترده في وجهي، وألح عليه وجهد جهده في قبوله منه فأبى عليه من ذلك ولم يأخذ منه شيئًا.

قال المحدث: فلا أدري والله ممن أعجب: من هذا الذي بذل ألف دينار من غير مسألة، أو من هذا الذي لم يأخذها تعففًا ونزاهة.

وفيها توفي:

-إبراهيم الدمني المتعبد:

بنى مسجد الخميس بالدمنة فكان الناس يجتمعون إليه فيه للذكر والدعاء.

وكان مشهورًا بالفضل والعبادة والنسك والإجابة.

[٥٢٧] قال أبو الربيع سليمان بن محمد:

كان إبراهيم الدمني إذا سمع هذه الآية: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧] يقوم وينوح ويبكي ويصيح ويقول: اللّهم بحق هذه العناية وهذه الكفاية وهذا الحفظ احفظ لنا ديننا حتى نلقاك مسلمين.

[٥٢٨] قال أبو الربيع:

وكنا في مسجد إبراهيم سنة ثلاثمائة حتى أقبل الشُرَط عشرة منهم فوقفوا على باب المسجد وقالوا لإبراهيم: يا أبا إسحاق:

إنا بعثنا إليك صاحب المدينة حسن بن علي بن أبي خنزير -لعنه الله تعالى- لنأتيه بك، وكان أبو إسحاق هذا من المتقدمين في الخير فقال لمن كان في المسجد:

لا تزولوا عن المسجد ولا تفترقوا، وأيدوني بالدعاء.

قال: فمضى به الشُرَط حتى أوصلوه إلى أبي جعفر -صاحب المدينة- فنظر إليه فقال لهم: أهذا هو؟

فقال له مجيبًا: أنا إبراهيم صاحب الكُسور البُلْق[1] وصاحب المرقعات من المزابل، إنما تقدم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وأصحاب بيعة الرضوان إلى الله -عزّ وجلّ- بمناصحتهم للنبي ﷺ فمن ذا الذي يتباعد من الله تعالى ويتقرب إليكم؟

فقال له: يا شيخ: هذا الفاسق رفع إلى أمير المشركين أنك تطعن في الدولة فأمرني بقتلك، ويأبى الله من ذلك أن أقتل مثلك.

قال: ثم أمر بصفع قفا ذلك الساعي، ثم ركب إلى رقادة إلى عبيد الله فقال له: وجهت إليّ في شيخ صالح ضعيف؟

فقال له: فاضرب الساعي خمسمائة سوط، فرجع فضربه حتى مات تحت الضرب،

---

(١) قال المحقق: كسور الثوب: غضونه وتجاعيده، البَلَق سواد وبياض.

فانصرف إليهم إبراهيم فقال: احمدوا الله واشكروه فهذا فعله فيمن رجاه وقصده.

[٥٢٩] قال أبو الربيع:

وكان في الدمنة جماعة من العباد، وكنت أدخل مع جدي غلبون وأنا صبي إليهم، منهم: إبراهيم هذا، ومحمد العنقل من الأبدال، وإسحاق الطانونة الساكن في مسجد الخضر، وأبو العباس الضرير، ورحيم، فكنت أدخل إلى هذا رحيم العابد فكان يقول لجدي: يا أبا عقال اسمع دعائي:

اللّهم إنك تعلم إنا نريد أشياء وأنت لا تريدها، فتحرمنا إياها فنأسف عليها وأنت العالم لمصالحنا.

اللّهم افعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله.

اللّهم لا تكلنا إلى أنفسنا.

اللّهم طيب مطاعمنا ومشاربنا وملابسنا وآثارنا حتى نلقاك طيبين.

اللّهم اجعلنا ممن ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

وكان بالدمنة شيخ من المتعبدين يقال له:

-سعيد البكاء:

من الخاشعين المحزونين.

[٥٣٠] كان يقال له: كيف أصبحت؟

فيقول: ما رقدت، أوجعتني ركبتاي وأوجعني صلبي فأنا الليل كله أتضرع إليه وأقول: كيف يا مولاي أقوى على مقطعات النيران، وثقل الأغلال وأنا لا أقوى على وجع ركبتي ووجع صلبي.

اللّهم لا تعذب شيبتي بالنار.

اللّهم كما آنستني في هذا الليل في مضجعي بذكرك آنسني في قبري.

وكان كثير النياحة والبكاء، بها كان يقطع أكثر ليله، رضي الله عنه.

-أبو علي الضرير بالدمنة:

[٥٣١] ذكر سلمان بن سالم صاحب سحنون قال:

كان شاب ضرير يختلف إليّ في كتب ابن أبي كريمة حتى سمعها مني، ثم إني غبت عنه نحو سنتين، ثم قدمت فسألت عنه فقيل لي: صار إلى حاله، فمضيت إلى الدمنة -وكان بها ساكنًا- فضربت الباب فخرجت إليّ سوداء فقلت لها: أبو علي.

فقالت لي: ليس يدخل الناس إليه.

فقلت لها: أعلميه أني أبو الربيع، فأعلمته ثم خرجت إلي سريعة فقالت لي: ادخل إلى السقيفة، وجاءت بحصير فقعدت عليه حتى أقبل متكئًا على السوداء وقد ذهبت عيناه ويداه ورجلاه من البلاء، فعانقته وأجلسته فقال لي:

لقد كنت مشتاقًا إلى لقائك لأخبرك بشيء رأيته.

فقلت له: ما هو؟

فقال لي: فتح الله -عزّ وجلّ- لي في ليلة من الليالي فصليت ما فتح الله، عزّ وجلّ، لي فيها ثم قعدت أدعو فرد الله علي بصري فإذا بطائرين واقفين عن يميني فكنت أدعو الله -تعالى- للرجل أسميه فيقولان: آمين، وربما دعوت للرجل أسميه فلا يقولان: آمين، فبعض من ذكرت أمّنا على دعائي وبعضٌ لم يؤمنا على دعائي له.

فقلت له: فرأيت الطائرين؟

فقال لي: نعم، وسمعت كلامهما، ثم طارا عني، فلما طارا عدت إلى حالتي التي كنت عليها لا أبصر شيئًا.

***

ثم كانت سنة سبع وثلاثمائة

وفيها توفي:

-أبو عمرو هاشم بن مسرور صاحب الفرن:

[٥٣٢] كان مشهورًا بالخير كثير الصدقة يتصدق في السنة بالمال العظيم، ويفك السبايا كسبي تونس وغير ذلك، ويزودهم من ماله.

[٥٣٣] قال أبو عبد الله الحسين بن سعيد الخراط: بلغني عنه أنه كان ربما أُخرج له الخبز من الفرن فإذا نظر إليه وأعجبه طيبه أمرهم أن يعطوه للفقراء، فإذا جاءه المشترون قال لهم: بعناه ممن يوفينا، ثم يبعث به إلى الفقراء والأَضِرّاء فيتصدق به كله.

[٥٣٤] ولقد بلغني أنه تصدق مرة بمال نحو المائة دينار فأنفذه كله في الفقراء والمساكين، فمر يومًا في بعض الأزقة فعارضه رجل فسلم عليه ثم مد يده إليه فقال له: أعطني فإني مضطر.

فقال له: ما معي شيء، ثم تفكر فمد يده إلى تكته فإذا فيها فضة نحو ثلثي درهم مما فضل من المال الذي تصدق به فدفعه إليه، فأخذه الرجل ثم حمد الله -تعالى- وذهب، فرأى أبو عمرو في منامه قائلًا يقول له: يا هاشم تقبل الله -عزّ وجلّ- منك المائة دينار بتلك القطاع التي تصدقت بها على الرجل الذي سألك.

قال أبو عمرو: فجعلت ذلك الرجل مِن بالي وطلبته بكل حيلة فلم أقدر عليه.

[٥٣٥] وكان هاشم في حلقة عبد الجبار في جماعة رجال سحنون حتى وقف سائل فقال: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

فقال عبد الجبار: ما ظنك بقوله عزّ وجلّ: ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ فنزع هاشم عمامته عن رأسه وقطعها باثنتين، فدفع إلى السائل نصفها وأخذ هو النصف الآخر.

[٥٣٦] وكان أول ما تدخل الفاكهة يقف بالمكتب فيقول للمعلم: أَخْرِج إلي من عندك من الأيتام، فيشتري لهم الفاكهة فيطعمهم ويدهن رؤوسهم ويقبل بين أعينهم ويقول: ما عسى أن أصنع بكم؟ ويرفع رأسه إلى السماء ويقول: اللهم هذا الجهد مني، فكان يدور على كل مكتب بالقيروان فيفعل ذلك مع صبيانه.

[٥٣٧] وكان -رحمه الله تعالى- إذا حضر جنازة يجلس على شفير القبر فإذا نظر إلى اللحد قال: ما أحوج هذا القبر إلى فرش فينصرف فيتصدق بأحسن ثيابه.

[٥٣٨] وإذا نظر إلى التراب وهو يهال على الميت قال: ما أحوج هذا القبر إلى ضياء ونور، فينصرف فيتصدق بالزيت على الأرامل والمساكين.

[٥٣٩] وكان يشتري الكتان ويجعل في كل ربطة رطلًا، ويصر مع الربطة درهمًا، ويخرج إلى بيوت الأرامل والضعفاء والمستورات فيدفع إلى كل بيت ربطة وصرة حتى يعم كل من يعرف.

[٥٤٠] وكان ﷺ يقف يوم الخميس عند سوق الدجاج فإن رأى امرأة أو شيخًا بيده هرة أو فرخ أو دجاجة يشير إليهم ويقول لهم: ما دعاكم إلى بيع هذا؟ فإن شكوا فاقة واضطرارًا أعطى كل واحد منهم على ما يرى من حاجته وحاله، فلا ينصرف حتى يذهب آخر الناس وهو متقنع بردائه.

[٥٤١] وكان يقعد بالعشي عند سوق الغزل فإذا رأى امرأة خرجت بخصلة قال لها: ما دعاك إلى بيع هذه لو تركتها حتى تكملي عليها؟ فإن شكت إليه الفقر والاضطرار بكى بكاء عظيمًا ومضى معها حتى تدخل موضعها وينظر ما عندها فيغير حالها ويدفع إليها ما يصلح لها من كتان وقمح ودثار.

[٥٤٢] وكان يخرج في الشتاء يقف عند باب تونس ومرة على باب نافع ومرة على باب أبي الربيع، فإذا بصر بشيخ أو شاب خرج بحبل يحتطب في شدة البرد والريح ردّه وقال: ارجع، هذه نفقتك ونفقة عيالك.

لو طلبت في الناس كلهم مثل هاشم   طلبت ما ليس في الدنيا بموجود

[٥٤٣] وكان يذهب إلى الدمنة في الأعياد يصنع لهم الحلوى، ويجعل ذلك بين أيديهم، ويطعمهم بيده، ويفلي ثيابهم، ويدهن رؤوسهم، ويقلم أظافرهم، ويدعو لهم وينصرف.

[٥٤٤] وخرج مرة في السَحَر إلى الحمّام وعليه فرو سِمّور[1] تحته قميص وعليه منديل وبيده سطل ومئزر، فمر بشيخ يرتعد ويصيح: البرد! فعدل إليه هاشم ورمى الفرو والقميص عليه، وجلله بالمنديل، ودفع إليه السطل والمئزر وتناول هاشم ﷺ وأرضاه حصيرًا كانت على الشيخ جعلها على نفسه، وعاد إلى داره.

[٥٤٥] أخبر القاضي عبد الله بن هاشم قال:

وجدت بطاقة في ميراث أبي بخطه فيها مكتوب: تصدقت بمالي كله وهو يزيد على الألف دينار حتى ما بقي معي إلا قدر خمسة دنانير، فاتّجرت فيها فأنماها الله -عزّ وجلّ- وبارك فيها حتى صارت تزيد على الألف دينار، فتصدقت بها ثانية حتى ما بقي معي إلا خمسة دنانير، فتّجرت فيها فأنماها الله -عزّ وجلّ- وبارك فيها حتى صارت تزيد على الألف دينار، فتصدقت بها ثالثة حتى ما بقي منها إلا خمسة دنانير فتّجرت بها فبارك الله فيها وأنماها حتى صارت تزيد على الألف دينار، فلما رأيت ذلك علمت أن الله -عزّ وجلّ- أوقفني لعباده، فكنت أعطي وأحتسب ولا أتوقف عن العطاء لأحد من أهل الحاجة.

[٥٤٦] قال عبد الله بن هاشم سمعت أبي يحدث قال:

كتب إليّ أهل السجن رقعة يذكرون لي فيها ما هم فيه من الجوع والضيق وسوء الحال ويستحكمون الله - عزّ وجلّ- علي، وكنت في ضيق من الحال ولم أجد ما أمد يدي إليه إلا مهراسًا من نحاس كان عندي من تركة أبي، فبعته بنحو ثلاثة دنانير واشتريت لهم قمحًا وعملته خبزًا ومضيت به إلى السجن وفرّقته عليهم وجعلت ثوابه لوالدي، فرأيت والدي في المنام في تلك الليلة فقال لي: يا بني: جازاك الله عني أفضل ما جازى به ولدًا عن والده، قد كان بين يدي عقبات عظيمة فلقد أعتنني على جواز أعظمها بثمن ذلك المهراس.

---

(١) قال المحقق: السّمور: حيوان ثديي من آكلات اللحوم، يُتخذ من جلده فرو ثمين ويقطن شمالي آسيا.

[٥٤٧] قال ابن سعيد الخراط:

اجتاز هاشم بن مسرور بابن العزفي وهو يبني الحمام فقال له: ما هذا الذي تبني؟

فقال له: أخرجت ألف دينار أبني بها حمامًا يكون عُدّةً لولدي بعدي، فدعا له وانصرف، فلما وصل إلى بيته أخرج ألف دينار ثم قال:

اللّهم إن ابن العزفي أخرج ألف دينار يبني بها حمامًا يكون عُدّةً لولده، وإني أخرجت هذه الألف دينار لوجهك، فأنت عدة لولدي، ثم تصدق بها كلها على الفقراء والمساكين.

[٥٤٨] وكان رحمه الله طويل الصلاة كثير التلاوة. لقد حدث عبد الله بن هاشم قال:

كان لأبي ﷺ في كل شهر رمضان تسعون ختمة، وأما سائر أيامه فكان له في كل يوم وليلة ختمتان لا بد من ذلك على أنه كان يتصرف في حوائجه.(١)

[٥٤٩] وأخبر عنه أيضًا قال:

سافرت نحو المغرب، فلما صرت في بعض المناهل ونام الناس طلبت النوم فلم يجئني منه شيء، فلما تمادى بي السهر رأيت أن لا يذهب ليلي خسارة، فتأهبت للصلاة وقمت فأخذت في الصلاة، فطابت لي القراءة، فختمت القرآن كله، فلما حسن ذلك عندي جعلت ثواب تلك الختمة لأبي، فلما قدمت أتاني ابن أبي حميد -وكان رجلًا صالحًا- فقال لي: رأيت أباك في النوم فقال لي اشكر ابني هاشمًا وقل له: جازاك الله -عزّ وجلّ- عني من ولد خيرًا فلقد أجزتني بالختمة التي كانت في سفرك عقبة عظيمة.

[٥٥٠] وكان ﷺ مستجاب الدعوة، كانت بالقيروان سنة قليلة المطر قحطة، فصلينا يومًا على جنازة بباب سلم، فجلست مع هاشم بن مسرور نتحدث، فقال لأبي القاسم بن مسرور الأبزاري أخي الضرير الفقيه: انظر يا بني لهذا الفحص -يريد فحص الدوارة- قد اسودّ من قلة المطر وغيث السماء قال: ونحن في شمس تقلي، فرفع يديه إلى السماء وقال:

---

(١) لا أدري كيف هذا، وهو - إن ثبت - من العجائب أو لنقل من الكرامات.

اللَّهم أمطرنا وفرّج عنا واسقنا وأغثنا وعجّل بذلك يا ربنا في يومنا هذا، ودعا بدعاء كثير ثم انصرفنا جميعًا فلما صرنا في بعض الطريق سَحّبت السماء وهطل المطر، فما انتهينا إلى سوق الكعك حتى خضنا الطين، قال فالتفت إليّ هاشم وقال لي: ما أيمن يومنا هذا، سألتك بالله لا تتحدث بشيء من أمرنا، فما ذكرنا ذلك حتى توفي هاشم.

وفيها قُتل:

- عروس المؤذن الرجل الصالح المتعبد:

[٥٥١] كان ﷺ يؤذن بمسجد أبي عياش الفقيه صاحب سحنون، وكان سبب قتله أنه شهد عليه بعض المشارقة[١] أنه لم يقل في أذانه: حي على خير العمل، فقُطع لسانه وقتل بالرماح بعد أن طيف به القيروان ولسانه بين عينيه، ثم قتل ﷺ.

وفيها توفي:

- أبو سعيد محمد بن محمد بن سحنون بن سعيد التنوخي ﷺ:

كان ورعًا فاضلًا، جليل القدر.

وكان مولده سنة ست وخمسين ومائتين.

[٥٥٢] قال أبو عبد الله الخراط:

قال لي بعض ولد محمد بن سحنون: خرج محمد بن سحنون مع الأمير محمد بن أحمد بن الأغلب إلى سوسة، فلما صلى الصبح جلس بعد الصلاة، فقال لمن حوله:

يأتيني اليوم بشير من القيروان يخبرني بأن قراطيس جاريتي وضعت حملها وأتت بغلام وأنا اسميه -إن شاء الله تعالى- باسمي وأكنيه بكنية أبي، ويكون رجلًا صالحًا، فما انتصف النهار حتى أتاه غلام له فبشره بأن أم ولده قراطيس ولدت غلامًا، فنزع ثوبًا كان عليه له قدر فرمى به إلى الغلام، فلما أن صار الثوب إليه قال له: اختر أيهما شئت: إن أحببت أن ترد الثوب وأعتقك، أو تحبس الثوب وأنت مملوك، فرد الغلام الثوب وأعتقه، وإنما كانت رؤيا رآها محمد في المنام.

---

(١) أي الشيعة.

[٥٥٣] وكان أبو سعيد ﷺ أصغر ولد محمد، أمه قراطيس أم ولد محمد، قدم بها من مصر في العام الذي حج فيه، اشتراها بمصر؛ وذلك أنه سمع بكاء امرأة في الرفقة -في وقت دخولهم مصر- فسأل عن المرأة وشأنها، فأُخبر أنها جارية إنسان أندلسي يريد بيعها، فبكت وذكرت أن لها أبوين بالمغرب فرقّ لها وبعث في طلب الأندلسي فاشتراها منه، وحج بها معه وانصرف بها إلى إفريقية، وقال: والله ما أردت شراءها رغبة فيها ولكن لأجمع بينها وبين أبويها فلعل الله أن يجمع بيني وبين أبي، فتسرّاها وأولدها أولادًا.

[٥٥٤] وكان أبو سعيد يقول كثيرًا:

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

[٥٥٥] وكان كثيرًا ما يقول: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

ثم يقول: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١].

ثم يقول: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٤٨] ويقول: ابن آدم: إنك مسؤول.

[٥٥٦] وجرت عليه محنة على يدي المروذي - لعنة الله عليه- وذلك أنه أحضره وقال له: بلغني عنك أشياء كثيرة يجب في أقلّ منها سفك الدماء، ولئن لم تلزم العافية وتتبع ما يعنيك لأنزلن بك ما تستحقه، ثم أمر حاجبه فقنعه درات يسيرة[1].

قال المؤرخ: فلمت المروذي على فعله به وقلت له:

لو صحّ قبله ذنب لوجب عليك حفظه لجده -قدس الله روحه ونور ضريحه- وتستجلب بذلك قلوب الصالحين.

فقال لي: والله ما ضربته إلا شفقة عليه ونظرًا له؛ وذلك أن المشارقة[2] أكثروا عليّ في أمره، فأردت أن أُرضيهم بما فعلت خوفًا أن يرفعوا خبره إلى السلطان فيكون في أمره أكثر مما

---

(١) أي فضربه على رأسه بعصا.

(٢) أي الشيعة.

كان، ثم قال: وهل رأيتني قط عاقبت أحدًا مثل ما عاقبته؟ رضي الله عنه وأرضاه.

ومن هذه الطبقة:

أبو علي عبد الله بن محمد بن الفرج المعروف بابن البناء مولى الأغلب:

كان من أهل الفهم والدراية، والفقه والرواية، كتب لعيسى بن مسكين، ثم ولي قضاء قصطيلية، بارعًا في علم القضاء، لم يكن في عصره أعلم منه بذلك، متفننًا في علوم شتى، عدلًا في أحكامه، كتب لابن طالب وبه انتفع.

مولده سنة خمس وثلاثين ومائتين.

[٥٥٧] وكان سبب استكتاب عيسى إياه أن إبراهيم بن أحمد لما ولاه بعد محاورة ومراجعة، قال له: عندي مولى لنا قد فقه فأحب أن تجعله كاتبًا لك، فاستكتبه عيسى بن مسكين وأودعه ودائع، ثم طرأت أزمة شديدة وضيقة عظيمة فقيل لعيسى بن مسكين:

ذهبت ودائع الناس التي عند ابن البناء.

فقال: لِمَ؟ فقيل له: رأيناه يقطع الميتة. فوجه إليه عيسى، فقال له: الودائع.

فقال له: الساعة آتيك بها، فذهب فأتاه بها عنده من الودائع، فلما رآها عيسى بحالها قال له: تأكل الميتة وهذه عندك؟

فقال له: إن الميتة أُحلت لي مع الاضطرار، ولم يحل لي أن أخون أمانتي.

فقال له: ارجع بها.

فقال له: والله لا رجعت إلي، وامتنع من قبولها وأسلمها إليه.

[٥٥٨] قال أبو عبد الله بن الخراط:

لما وَلّى إبراهيم بن أحمد أبا علي ابن البناء قضاء قصطيلية نزل به مثل ما نزل بموسى بن عبدالرحمان القطان مع أهل طرابلس، فسعى به أهل قصطيلية ورفعوا عليه البغي عند إبراهيم حتى عزله بعد أن كان له مع جماعة من وجوه أهل البلد قصة عجيبة؛ وذلك أنه قدم البريد إلى عامل قصطيلية بعزله وتخشيبه ورفعه إلى حبس رقادة، فألفى العامل غائبًا وكاتبه في

مكانه جالسًا، فقال الكاتب للبريد:

ما الذي جئت به في هذا الكتاب؟

قال: بعزل ابن البناء وتخشيبه ورفعه إلى حبس رقادة.

فأرسل بالبشرى إلى القوم الذين كانوا لاحوه وبسببهم نزلت به النازلة، فأتوا سراعًا إلى دار العامل فاختبروا ذلك، فصحّ عندهم ما أتى به البريد في عزله وتخشيبه فاستخفهم ذلك إلى أن قالوا: نسير إليه في مجلس قضائه فنشتمه ونشفي صدورنا منه، فأتوه في مجلس قضائه - ولا علم عنده بما أتى فيه من عند الأمير- فصبوا عليه من قوارع السب ما أحبّوا، فلم يشك ابن البناء أنهم لم يجسروا عليه بذلك إلا وقد أيقنوا بعزله، ونظر إلى نفسه في مجلس قضائه لم يصل إليه العزل، فقال: مَن ها هنا من الأعوان؟ فابتدروه فأمرهم بإمساكهم، ثم عصبهم إلى العمود رجلًا رجلًا، فضرب كل واحد منهم ضربًا وجيعًا ونكّل بهم جميعًا، وأمر بتقييدهم في الحديد، وأودعهم الحبس وساعده القدر فيهم قبل أن يقدم العامل حتى نفذ فيهم ما أحب، ثم أتى العامل بأثر ذلك، فأرسل إليه فأوثقه وأرسله إلى رقادة، فلما قدم إلى رقادة تولى مناظرته -بين يدي إبراهيم بن أحمد- محمد بن عبد الله بن عبدون، فأبان ابن البناء عن نفسه وكشف عن السُبّة المرفوعة عليه، فرفع إبراهيم الأمير رأسه إلى بلاغ الفتى فقال له بالصقلبية: إني أرى هذا الرجل -يريد ابن البناء- يستحق أن تنزع قلنسوة القاضي -يعني ابن عبدون- وتجعل على رأسه.

ثم بعد ذلك ضمّه إبراهيم بن أحمد إلى كتابة قاضيه عيسى بن مسكين.

***

ثم كانت سنة تسع وثلاثمائة

وفيها توفي:

-أبو الغصن نفيس السوسي ﷺ:

كان ثقة، عرض عليه حماس قضاء سوسة فامتنع من ذلك.

وكان يحفظ موطأ ابن وهب عن ظهر قلب.

وكانت صنعته عمل الغرابيل[1] يعيش منها، وكانت له رباع في بني وشتيت، وكان مولى لامرأة من بني وشتيت.

[٥٥٩] وأراد إبراهيم الأمير أن يوليه قضاء سوسة فأبى وامتنع، وقال له: سألتك بالله -أيها الأمير- لا تُعِرَّ القضاء بي لأني عبد رومي أعور غرابيلي مولى امرأة، وهذه هِجْنة عليك أن تولي مثلي -أو كما قال-.

فقال له إبراهيم: والله لولا أني أعزك بالقضاء وأخشى دعاءك لوليتك، ثم تركه.

[٥٦٠] وكان من التواضع على غاية، ذُكر أنه دخل يومًا على بعض فقهاء سوسة وهو محمد بن سطام -وكان فيه ضيق خلق- يعوده في مرضه في اليوم الثالث من وجعه، فسلم ولم يأبه إليه فجلس في الموضع الذي تلقى فيه النعال، وكانت بينه وبين المريض وقفة، فلما اطمأن أبو الغصن جالسًا سمع المريض وهو يقول: ألا إن هذا العبد السوء أبا الغصن لم يرض أن يعودني في مرضي هذا، فقام أبو الغصن على قدميه قائمًا وقال: هذا أنا قد أتيت لزيارتك وعيادتك إجلالًا وإعظامًا لحقك، فأُرْتِجِ[2] على الرجل وقال له: لِمَ لم ترتفع؟

فقال له: أنا عبد مولى، والعبد لا يتخطى رقاب مواليه.

---

(١) أي المناحل.

(٢) أي أُغلق عليه فلم يدر ما يقول حرجًا.

[٥٦١] وكان في جواره شاب بطّال ممعن في الملاهي، وأبو الغصن في كل ذلك لا يتجهم في وجه الشاب خوفًا أن يشرد منه، فأقيمت الصلاة يومًا في مسجد أبي الغصن، فقال أبو الغصن للشاب: تقدّم فصل بنا فامتنع الفتى، فعزم عليه أبو الغصن، وتقدم فصلى بأبي الغصن، فلما انقضت الصلاة رجع الشاب فلم يدع في بيته مسكرًا ولا أداة ولا ملاهي إلا أُهرق وكسر، ثم عاود العمل الصالح ونزع عما كان عليه، ونفعه الله -تعالى- بتلطف أبي الغصن ورفقه به.

[٥٦٢] قال أبو الربيع سليمان بن محمد: دخلت على أبي ميسرة الفقيه فقال لي: أنت عاقل.

فقلت له: لا والله يا أبا ميسرة، من يصف نفسه بالعقل؟

فقال لي عند ذلك أبو ميسرة: قال لي أبو الغصن نفيس السوسي: يا بني يا أحمد: إنما العاقل من عَقِل عن الله - عزّ وجلّ - وتفكر في بلائه في نَزْعه في سياقه[1]، ويوم خروجه من مجلسه إلى الجادة ورجوعهم إلى ما جمع يقتسمونه كأنهم لم يعرفوه، وتفكر في اليوم الثالث يوم ينادي المنادي من مكان قريب: أيتها العظام البالية والأوصال المتفرقة: إن الله عزّ وجلّ يدعوكم لفصل القضاء فتشق الأرض عنهم سراعًا ويقوموا من مضاجعهم، فقوم على جبل، وقوم على نُجُب، وقوم قد أنحمهم العرق على وجوههم[2]، لمثل هذا فليعمل العاملون، وفي مثل هذا فليتفكر المتفكرون.

-أبو عبد الله محمد بن عبد الله السدري:

وكان أبو عبد الله السدري هذا من العباد والزهاد البدلاء المريدين العاملين ينتحل التوكل، كثير الحج والأسفار والتغرب عن الأوطان.

[٥٦٣] حدثنا أبو القاسم إبراهيم السطيوسي -وأثنى عليه خيرًا، وكان قد صحب أبا عبد الله السدري طويلًا بالمشرق- وقال:

---

(١) أي في نزع روحه في سياق الموت.

(٢) قال المحقق: لخم أي انقطع نفسه واربدّ وجهه.

انتهت صحبتي معه إلى أن صعدنا الطور، فلما انتهينا إلى الموضع الذي قيل إن الله - تعالى- كلّم فيه موسى، عليه السلام، خر صعقًا فاستعنت بمن بالموضع على حمله وإنزاله، وأقام مغشيًا عليه باقي يومه وليلته.

[٥٦٤] قال: ثم دخلنا إلى الموضع الذي يقال إن الشجرة التي سمع موسى -عليه السلام- الكلام من ناحيتها كانت فيه وقد بُني عليه بيت، وعليه حفظة وقُوّام، قال إبراهيم: فأما أنا فصلّيت ركعتين، وأما أبو عبد الله فبقي مبهوتًا لا يطيق كلامًا ولا يحير جوابًا.

[٥٦٥] وأكل مرة مع قوم طعامًا فلمّا أكل منه لقمة أو لقمتين قام وهو يقول: حضر الطعام وغاب ذكر الله سبحانه، ولم يأكل بعد ذلك لقمة.

[٥٦٦] قال أبو بكر بن شراحيل الصيرفي:

صحبت السدري في طريق الجزيرة، فسرنا حتى انتهينا إلى شجرة لها ظل، فوقف السدري يصلي تحت الشجرة واضطجعت إلى جنبه، حتى أقبل سبُع فقلت له: أصلحك الله السبع جاءنا، فأقبل على صلاته ولم يشتغل بكلامي، والسبع يقرب منا، فلما رأيته لم يشتغل بكلامي تعلقت بأغصان الشجرة وصرت فوقها وبقيت أنظر ما الذي يعمل له، فنظرت إلى السبع وقد دار من خلفه فشمه، ثم دار عن يمينه وعن يساره فبسط ذراعيه وجعل يحرك ذنبه، فركع السدري وسلم ثم قال: خيرًا شغلت قلوبنا، إن كنت أُمرت فينا بشيء فامتثله وإلا فاذهب، فقام السبع فتمطى وذهب، فمد السدري يده إلي من فوق الشجرة، فجذبني ولكزني في الحلق بيده وقال لي: أَوَ يُخاف غيرُ الله، عزّ وجلّ.

[٥٦٧] وذكر عبد الله بن هاشم قال: حدثني أبو بكر بن شراحيل قال:

خرجنا مرة مع السدري للدور، فمررنا على موضع من الجزيرة، فنزل إلينا أهله وسألونا أن نتغدّى عندهم، فأجبناهم إلى ذلك فما كان بأوشك شيء أن جاؤونا بكنافة فمددنا أيدينا لنأكل ومد السدري يده معنا ثم قبضها قبل أن يمسها وقال: كلوا رحمكم الله، تعالى، فقلنا له: أصلحك الله: وكل أنت معنا.

فقال: كلوا كما أقول لكم فلست آكل شيئًا منها.

قلنا: ولم؟

قال: غلبت علي شهوة نفسي فمددت يدي ولم أذكر ربي.

قال: فأكلنا ولم يأكل معنا منها شيئًا.

[٥٦٨] حدث أبو محمد مَنّ الله الفقيه قال:

كان عندنا بباجة أبو الحسن علي ابن أبي سعيد الفقيه المتعبد - وكان شيخًا جليلًا، سمحًا، كل ما يملك للفقراء- وكانت له أخبار معهم منها: أنه كان لا يشتهي الزبد ولا يميل إليه، فخطر في قلبه مرة فجعل مَن عمله له على أحسن ما أراده، فلمّا قرب إليه عاوده طبعه في كراهيته، فقال لنفسه: كنتِ لا تشتهينه ثم اشتهيته فمُكّنت منه ثم عدت إلى النّزوع عنه، فهو كذلك حتى قُرع عليه بابه فإذا بأبي عبد الله السدري الشهيد الذي رفعه عبيد الله إلى المهدية فقتله، فأدخله وقدّم إليه الطعام، فلمّا رآه السدري بكى فقال له: مالك؟

فقال له: لمّا وصلت إلى وادي باجة اشتهيت هذا الطعام، فدعوتُ الله -عزّ وجلّ- فيه، فهلاّ كان دعائي وسؤالي في الجنة، والله لا أكلت زبدًا حتى ألقى الله، عزّ وجلّ.

[٥٦٩] وأما سبب قتل السدري وجهاده لبني عبيد الله -لعنة الله عليهم- وما جرى عليه في ذلك وما رؤي له بعد قتله من البراهين والكرامات، وذلك أنا أبا عبد الله السدري كان من أولياء الله - عزّ وجلّ - وكان قد بايع على جهاد عبيد الله وقبائل أهل إفريقية وأكثر أهل القيروان، فبلغ عبيد الله خبره فأمر بطلبه، فقيل له هو في ناحية باجة، فوجه في طلبه خيلًا فوجدوه واحتاطوا عليه، فلما جن الليل قرن قدميه فهو قائم بين يدي الله -عزّ وجلّ- حتى انصدع الفجر، فرجع أصحاب الخيل بعضهم على بعض وقالوا: هذا رجل من أولياء الله -عزّ وجلّ- نعين على قتله ولا يدخل أيدينا من ذلك شيء إلا الآثام والأوزار، الرأي أن نخلّيه ونقول: ما وجدناه، فخلوا سبيله ورجعوا فقالوا: ما أصبناه ولا وقعنا على خبره.

[٥٧٠] فمضى إلى مكة وأقام بها، وكان لعبيد الله بمكة عين تكاتبه بكل ما يجري بمكة في الموسم، فكاتبه بخبر السدري واستنفاره الناس عليه، وكان السدري يسأل ربه -عزّ وجلّ- في الشهادة فرأى في منامه كأن قائلًا يقول له: إن أردت أن تنال الشهادة فارجع إلى المغرب تنلها.

فرأى ذلك مرارًا كثيرة، فلما كثر عليه ذلك رجع إلى المغرب، فكل بلد وصل إليه يكاتب عبيد الله مَن بها من عيونه ودعاته بأخباره حتى وصل إلى الساحل فبلغ عبيد الله وصوله، فأرسل في طلبه البريد.

[٥٧١] وكان نازلًا عند رجل من إخوانه الصالحين فخرج من عنده وخرج الرجل الذي كان السدري نازلًا عنده يشيعه -وكان أشبه الناس به- فلما سار عن المنزل قليلًا عرض له حَقْن[1]، فمال إلى ناحية وبقي صاحبه على الطريق، فلقيه البُرُد[2] فلمّا رأوه قالوا له: أنت السدري؟ فقال لهم: نعم، فجعلوا في رجله قيدًا وكبلوه وأركبوه دابة من دوابهم وساروا به إلى عبيد الله -لعنة الله عليه- وهم يحسبون أنه السدري، فأدركهم السدري، فلما قرب منهم أشار إليه صاحبه أن يذهب، فقال له ﷺ: إني لهذا قدمت، ثم قال للبُرُد: من تطلبون؟

فقالوا له: السدري.

فقال لهم: أنا السدري وليس هو هذا.

فأزالوا القيد من رجل الرجل وجعلوه في رجله، وحملوه على الدابة ووصلوا به إليه، فلما وقف بين يديه قال له: -عبيد الله اللعين- أنت الشاتم لنا الذاكر عنا أنا أحدثنا في الإسلام الحوادث؟

فقال له: نعم، أنا القائل ذلك.

فقال له: وما الذي رأيته منا؟

---

(١) أي احتاج إلى البول.

(٢) جمع البريد.

فأخبره بكل ما يعتقده في الدين والإسلام وكل ما أحدث فيهما.

[٥٧٢] فقال لهم: اضربوا عنقه، فأخرجوه ليضربوا عنقه، فلما قُرِّب للقتل قال: اللَّهم لا تبقه بعدي، ثم قتل رحمه الله تعالى.

فلم يقم عبيد الله بعده إلا مدة يسيرة ثم ابتلاه الله -عزّ وجلّ- بعلة عظم فيها جسده وانتفخ وتفجر بالدماء، فكان إذا أُلقي الرقيق من الأردية عليه صاح، ثم رفع عينيه إلى السماء وشخص يقول: أنمروذ أنا؟ أفرعون أنا؟ أقارون أنا؟ ثم مات، خلد الله -تعالى- عليه ما هو فيه، وبارك له في العذاب الذي صار إليه.

[٥٧٣] فذُكر أن ابن أخت الغساني المقرئ عرض له أمر حُوج فيه إلى البغدادي كاتب عبيد الله فمضى إليه، فأنزله عنده، فألفى عبيد الله في تلك العلّة، ثم مات عبيد الله، فأتى به البغدادي ليقرأ عند رأسه -وكان من أطيب الناس مساقًا- وحول عبيد الله أبناؤه وهم يصرخون بالبكاء فقال لابن أخت الغساني: اقرأ، قال: فطلبت من القرآن ما أقرؤه فلم يتيسر لي منه إلا قوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨] قال: فطلبتُ أن أقرأ غير هذه الآية فلم أقدر على ذلك، فكنت أردّدها حتى خشيت على نفسي أن يفيقوا من بكائهم فيعاقبوني ويقتلوني فتسللت حتى خرجت.

[٥٧٤] وذُكر عن أبي عبد الله بن خراسان أن أبا عبد الله السدري لما وصلوا به إلى المهدية أدخلوه على البغدادي فقال له: يا شيخ: إن أمير المؤمنين كثير العفو فإذا دخلت عليه فأعطِ الإمارة حقها، ثم قام ودخل على عبيد الله، فأمر بدخوله، فدخل إلى مجلس فيه بساط من حرير مفروش، ثم عطف عليه البغدادي فقال له: إن أمير المؤمنين كثير العفو.

فقال له السدري: أتكذب عليه في وجهه؟

فقال له عبيد الله: كيف كذب يا شيخ؟

قال: سمّاك بأمير المؤمنين، ولو كنتَ أمير المؤمنين ما أمرتَ بسبِّ السَّلف وأظهرت

الخمر والقبالات.[١]

قال عبيد الله: احبسوه، فما زال الصالحون يدخلون على الملوك ويعظونهم.

فقالوا له: هذا يكون جرأة عليك واستخفافًا بالسلطنة.

فقال: اضربوا عنقه، فهم خارجون به وهو يضحك، فقال له عبيد الله:

ما الذي أضحكك؟

فقال: تعجبت من حلم الله -عزّ وجلّ- فيك.

[٥٧٥] وقيل إنه لما أخرج من السجن ليقتل ضربه السجان للوجه، فقال له: قطع الله يديك ورجليك، فلما أُتِيَ به إلى الرملة قال لهم: لا تقتلوني إلا بالسيف يا عبدة الطاغوت، فضربه أسود بالرمح فقال له: فيك وفي بنيك، فقتل بالرماح، ونُقب السجن تلك الليلة فخرج منه ثلاثة عشر رجلًا، فلما أصبح الصبح قطعت يدا السجان ورجلاه، وأجاب الله -تعالى- دعوة الرجل الصالح.

وافتخر الذي قتله بقتله، فقام إليه إنسان منهم فضربه ضربة رمى بذراعه مع كتفه.

[٥٧٦] وفي رواية قال:

رأيته في اليوم الذي خُرج به للقتل وقد تغير لونه وعلاه خوف، ثم سقط على وجهه إلى الأرض، قال: فنظرت إلى لونه وقد حسن واستبشر وجهه، وجعل يسير مسرعًا، ثم قتل.

فلما كان الليل رأيته في منامي فقلت له:

يا أبا عبد الله.

قال: لبيك.

قلت: رأيتك في حين خروجهم بك متغير اللون خائفًا من الموت.

قال: نعم، قد كان ذلك.

---

(١) أي الضرائب.

قلت له: ثم رأيتك وقد سقطت ثم قمت وقد حسن لونك واستبشر ووجهك، ثم سِرت مسرعًا.

قال: نعم، لما سقطت سمعت قائلًا يقول: يا سدري: أتكره لقاء الله عزّ وجلّ؟

قال: فأزال الله تعالى ما كان بقلبي وسارعت إلى ما رضيه الله -عزّ وجلّ- لي.

[٥٧٧] وقيل: إنه لما سجن رأى في المنام كأنه أُتِيَ بقطعة من شَهْد[١] فتحساها فأصبح، فحكاها لمن حضره، فقال له رجل منهم: هذه شهادة أتتك، فما أضحى نهار ذلك اليوم حتى قتل ﷺ، فلما قدّم للقتل كأنه جزع فقيل له: أتكره القدوم على الله عزّ وجلّ؟ فوثب كأنه نشط من عقال وهو يقول: لبيك لبيك، حتى قتل - رضي الله عنه وأرضاه-.

***

(١) أي عسل.

ثم كانت سنة عشر وثلاثمائة

وفيها توفي:

-أبو عمرو ميمون بن عمرو بن المغلوب:

كان رجلًا صالحًا ذا دين وفضل، سمع من سحنون وكان معدودًا في أصحابه.

[٥٧٨] ولي أبو عمرو مظالم القيروان، ثم ولي بعد ذلك قضاء صقلية، فلما ولي قضاءها اجتاز بسوسة إليها، فقال لهم: يا أهل سوسة هذا كسائي وهذا فروي وجبّتي وخُرْج فيه كتبي وهذه السوداء تخدمني معها جبّة وكساء، فبهذا دخلت عليكم وانظروا بأي شيء أرجع؟

قال أبو الربيع: فأخبرني سعيد بن أبي عثمان من أهل صقلية قال:

إنه لما وصل إلينا قلنا له: هذه دار القضاء تنزل فيها.

فقال: هذه دار عظماء أيش أعمل فيها؟ فنزل في دويرة لطيفة.

وكانت السوداء تغزل وتبيع غزلها وتنفق عليه من فضل ذلك، فإذا ضرب أحد الباب خرجت إليهم فقالت: الساعة يخرج إليكم القاضي فيخرج فيقضي بين الناس على بابه ثم يدخل، أقام على ذلك سنين إلى أن اعتل فأقام ثلاثة أيام لم يخرج فقرع الناس الباب فخرجت إليهم السوداء وقالت: ادخلوا عودوا القاضي فإنه مريض، فدخلنا عليه فأصبنا وسادتين محشوتين بتبن عند رأسه وحصير بردي تحته فلما رآنا بكى ثم قال: اللّٰهم تعلم أني اجتهدت ما استطعت.

ثم خرج من صقلية وهو مريض وقال لأهلها: خلف الله عليكم بعدي بخير.

فقالوا له: صحبك الله بالعافية.

فوصل إلى سوسة فقال لهم: يا أهل سوسة: كما دخلنا عليكم كذلك رجعنا إليكم، هذا كسائي وجبّتي وخرجي فيه كتبي، وهذه السوداء تخدمني، رضي الله عنه وأرضاه.

ثم كانت سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة

وفيها توفي:

-**أبو عبد الله محمد بن بسطام بن رجاء الضبي**:

[٥٧٩] قال محمد بن عبد الرحمن بن بسطام: سمعت جدي محمدًا يقول:

لا تجلسوا عند عالم يزهدكم في الآخرة، ولكن اجلسوا عند عالم ينقلكم من الشك إلى اليقين، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الرغبة إلى الرهبة، ومن التكبر إلى التواضع.

[٥٨٠] قال محمد بن بسطام: سمعت يزيد بن عمرو بن يزيد يقول:

من قرأ سورة لقمان أمن الغرق، بإذن الله عزّ وجلّ.

[٥٨١] وسمعته يقول: من قرأ قوله تعالى ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] من غم يجده فرّج الله -تعالى- عنه، إن شاء الله تعالى.

-**أبو محمد عبد الله التاهرتي**: كان فاضلًا عابدًا.

سكن مدينة سوسة محتبسًا للحرس بها على المسلمين.

[٥٨٢] حكى عنه أبو إسحاق السبائي أنه اعتل علة شديدة حتى يئسوا منه فقال للذي يخدمه: إني لست أموت من هذه العلة، وأنا أفيق منها -إن شاء الله تعالى- فإذا كانت المرضة الثانية بعدها توقعوا موتي.

قال أبو إسحاق السبائي: ما أراه إلا دعا الله - عزّ وجلّ - فأُخبر بذلك في منامه.

[٥٨٣] قال أبو مالك الدباغ: شهدته وقد احتضر وحوله جماعة، فتذاكروا الموت وسكراته، وشدّته وغمراته، ثم قال: ادخل يا ملك الموت، وأقبل يبتسم وينظر عن يمينه، وشَمَمْنا رائحة طيبة.

ثم كانت سنة أربع عشرة وثلاثمائة

فيها توفي:

-أبو جعفر أحمد بن نصر الفقيه، رحمه الله تعالى:

كان من الفقهاء المبرزين، والحفاظ المعدودين، لا يدانيه في ذلك أحد في زمانه، وله مناقب جليلة.

[٥٨٤] وقال الشيخ أبو الحسن الفقيه ابن القابسي رحمه الله تعالى:

ذُكر أن قاضيًا كان في زمن أحمد بن نصر كانت له أحكام خطأ، فكان أحمد ينبّه على خطئه ويتكلم في أحكامه، فدخل القاضي على عبيد الله فقال: ها هنا رجل من البربر مطاع وله ذكر ونحن لا نأمنه، فوجه وراءه وسجنه وقيّده، وكان يعتريه الإسهال، فلما جُعِل القيد في رجله دعا الله -عزّ وجلّ- أن لا يبتليه في السجن بالاختلاف[1] فارتفع عنه الإسهال طول إقامته في السجن، فلما تبين لعبيد الله أنه ليس قِبَلَه شيء مما رُمِيَ به أمر بإخراجه، فلما وصل إلى داره عاد إليه الإسهال.

أقام في السجن تسعة أشهر، ثم سعى أبو سعيد الضيف عند عبيد الله في إطلاقه فأطلقه.

[٥٨٥] قال رحمه الله تعالى:

حُبِسْتُ في بيت الدَّم مع السُّرَّاق وأصحاب الدماء، وكنت أخرج في كل جمعة يفتقد قيدي، أقمت على هذا شهرين، ثم أخرجت بعد ذلك من ذلك البيت إلى الموضع الذي يحبس فيه جميع الناس.

قال: ثم أخرج قدمه وضرب بيده عليه، قال: وجُعِلَ الحبل فيه شهرين على غير ذنب ولا جناية، والله ما سرقت ولا زنيت ولا كان ذلك إلا على محبة صاحب القبر والمنبر ﷺ.

[٥٨٦] قال تميم بن خيران الموثق: أتى رجل إلى أبي جعفر أحمد بن نصر فقال له:

أصلحك الله جئت أشاورك في شيء؟ فقال له: ما هو؟

---

(١) أي بالتردد إلى بيت الخلاء.

فقال له: لي ولد وليس لي غيره، وقد خطب إلى قوم فقالوا له: إن أعطاك والدك داره زوجناك وإلا فلا، وهي -أصلحك الله- دار شريفة لها قدر.

فقال له أحمد: لا تفعل، فمضى الرجل فاطّرح كلام الشيخ وكتب الدار لولده وتزوج إلى القوم الذين خطب إليهم.

فما كان إلا مدة يسيرة حتى أقبل الأب إلى أبي جعفر وشكا إليه ما هو فيه من الحاجة وشدة الفقر، فقال له أحمد بن نصر: قد نهيتك فَلِمَ ركبت ما نهيتُك عنه، ثم أنشأ ﷺ يقول:

إذا احتاج البنون إلى أبيهم ... أُتوا بالبر والفضل الجزيل
وإن احتاج والدهم إليهم ... يقاسي الهم في الليل الطويل
فأحسن والد لم يعط شيئًا ... وعاش بماله حتى الرحيل[1]

[٥٨٧] قال الشيخ أبو الحسن الفقيه ابن القابسي ﷺ: قال أحمد بن نصر:

امرأة معها ألف دينار تُعطى لك بدرهم واحد غالية، ثم أنشد:

لا يعجبك يا فتى ... حسن فرش ومتكا
إن للعرس فرحة ... بعدها النوح والبكا

[٥٨٨] قال الشيخ أبو الحسن: وكان أحمد بن نصر يقول: تزوجتُ امرأة حافظة لكتاب الله -عزّ وجلّ- وحفظت الموطأ، ولقد توفي لها ولد أكله السبع فلما بلغها ذلك توضأت وجلست تقرأ، ولم تعبأ بما طرأ عليها، ولم تحزن، وعلى هذا كلّه ما دام لي معها سرور ثلاثة أيام متوالية قط.

وفيها توفي:

-**أبو سوادة بن الفراء**: المتعبد بالمنستير.

[٥٨٩] وكانت وفاته بالقيروان، حضر جنازته خلق عظيم من أهل القيروان لم يُرَ مثل ذلك الجمع على شيخ من أهل ذلك الوقت.

وكان سكناه بقصر ابن الجعد.

---

(١) قوله: «فأحسن والد لم يعط شيئًا» ليس بصحيح ولكن التوازن والاعتدال مطلوبان.

[٥٩٠] كان من فضلاء المؤمنين من أهل العبادة والتبتل والصيام والقيام، رقيق القلب، غزير الدمعة، طويل الحزن.

[٥٩١] كان إذا قرأ القرآن يرتله ويبكي وينتحب فيبكي جميع من يسمعه، ولقد أقام ليلة كاملة يردّد سورة الرحمان ويبكي، فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١] اندفع في البكاء والانتحاب، فإذا سكن رجع إلى الآية فردّدها واندفع بالبكاء والانتحاب، فهو كذلك حتى أصبح.

[٥٩٢] قال بعضهم:

شهدت أبا سوادة المتعبد ليلة بقصر المنستير فسمعته يقرأ في أول الليل: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٢، ١٠٣] فإذا بلغ ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ رجع إلى قوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ لا يكاد يجاوز ذلك ويبكي وأنا أستمع إليه وقتًا بعد وقت حتى طلع الفجر.

[٥٩٣] لما توفي أبو سوادة لم يبق أحد بالقيروان إلا شَهِد جنازته، وإبراهيم القصري[1] جالس في ذلك اليوم وحوله خلق عظيم، فنظر إلى النعش فصاح:

واعزهم في سواد الليل إذا قاموا من مضاجعهم إلى محاريبهم.

واعزهم إذا انصدع الفجر فرحين مغتبطين بما آتاهم الله من المناجاة وقد أشرق نور في وجوه القوم، يحبون الله -عزّ وجلّ- ويحبهم، لا يشغلهم عن الله -تعالى- شاغل.

واعزهم إذا أشرقت الشمس عليهم وهم صائمون متبتلون.

واعزهم إذا توفتهم الملائكة طيبين.

واعزهم إذا خرجوا هذا الخروج.

---

(١) قال المحقق: هو إبراهيم بن الحسن التميمي، من الأسرة الأغلبية، أحد حفاظ القرآن المجودين.

ثم كانت سنة تسع عشرة وثلاثمائة

وفيها توفي:

- **أبو سعيد خلف بن محمد بن جرير السرتي اليحصبي:**

[٥٩٤] كان يقوم كل ليلة دائمًا بسدس القرآن، فإذا كان شهر رمضان صلى بالناس الأشفاع في مسجده، ثم ينصرف الناس بعد فراغه فيلقي بنفسه في ثيابه فيأخذ راحة، ثم يقوم فيبتدي من أول القرآن، فإذا كان وقت السحور أقام أصحابه وقد بلغ سورة الملك فيتقدم فيصلي بهم تمام الختمة ويدعو، هكذا كان دأبه حتى خرج إلى مصر.

[٥٩٥] وكان له صوت حسن بالقرآن، قال ولده: لقد كنت أخرج معه للرباط فكان يقوم بنا كل ليلة في شهر رمضان ويجتمع خلفه جماعة فأسمع البكاء والشهيق من كل مكان، ولم يكن يتكلف في قراءته.

[٥٩٦] وكان يحسن الفروسية، مولعًا بشراء الخيل، ويخرج إلى الرباط بها للحرس على المسلمين والسياحة على البحر.

[٥٩٧] وكان ربما خرج من سوسة هو وأبو جعفر أحمد بن سعدون الأربسي وأبو بكر ابن أبي عقبة فيقفوا صفًّا واحدًا كأن العدو بين أيديهم، ويجرون خيلهم في ذلك الموضع حتى تطلع الشمس، رحمهم الله تعالى.

***

ثم كانت سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة

وفيها توفي:

-أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن سعيد التميمي، يعرف بالقصري:

مولى الأغلب بن سالم الأمير.

قال أبو العرب: كان أبو جعفر يسمع معنا من مشايخنا ويكثر الكتاب والسماع، وكان ثقة.

[٥٩٨] وقال ابن الأجدابي الفقيه:

كان أبو جعفر رجلًا صالحًا، قيل إنه مضى لزيارة يحيى بن عمر إلى سوسة، فلما وصل وجد يحيى بن عمر قد ألف كتابًا، فأراد أن يكتبه فلم يجد ما يشتري به الرَّق[١] فباع القميص التي كانت عليه، فاشترى بثمنها رقوقًا وكتب الكتاب وقابله وأتى به معه إلى القيروان.

وفيها توفي:

- عبد الله بن إسماعيل البرقي - رحمه الله تعالى -:

كان -رحمه الله تعالى- من أهل الفقه والأدب، مصاحبًا لأحمد بن نصر، وغلب عليه في آخر عمره الورع.

[٥٩٩] قال ابن حارث: مات بسوسة من رعدة قاصفة سمعها، وكان قد أغفى في حين الرعدة بعد دعاء شديد وتضرع عظيم، فكان قلبه قد أُشرِبَ الخوف من الله -عزّ وجلّ- فلما فجأه الرعد القاصف زهقت نفسه.

وكان في حين موته من أبناء الأربعين.

[٦٠٠] قال أبو الربيع: قلت له يومًا -ورأيته يبكي وقد ذهب بصره-: إلى كم هذا البكاء؟

---

(١) أي الورق.

فقال لي: يا أبا الربيع: إنما جُعلت عيناي للبكاء، ولساني لتعظيم الله -عزّ وجلّ- وتحميده، والصلاة على نبيه، وبدني للتراب والبلى، وقلبي للخوف والرجاء، لم أُخلق للعب ولا للهو، إنما خلقت للعمل الصالح.

[٦٠١] وبُشر بالجنة في منامه، قال أبو الربيع: دخلت على أبي سعيد النوفلي فقلت له:

يا سيدي يا أبا سعيد: أخبرني أبو محمد البرقي أنه بُشر بالجنة.

فقال لي: يا أبا الربيع: من كان يختم القرآن كل يوم ختمة والمصحف في حجره وهو صائم، فهل خُلقت الجنة إلا لمثل هذا، رضي الله عنه وأرضاه.

***

ثم كانت سنة تسع عشرة وثلاثمائة(١)

فيها توفي:

- حمدون بن مجاهد الكلبي المتعبد:

كان -رحمه الله تعالى- ذا أوصاف جليلة، وكان يحسن الفقه.

[٦٠٢] قال أبو بكر ميسرة بن مسلم: قال لي حمدون:

كتبت بيدي ثلاثة آلاف كتاب وخمسمائة كتاب، ولعل الكتاب الذي أدخل به الجنة لم أكتبه بعد.

[٦٠٣] كان -رحمه الله تعالى- إذا انصرف من المحراب وجد أصحابه موضع سجوده قد ابتل من دموعه.

[٦٠٤] قالوا: ولقد صلى بنا التراويح في شهر رمضان، فلما كان ليلة سبع وعشرين ختم بنا ختمة وأخذ في الدعاء والبكاء والتضرع إلى الله -عزّ وجلّ- والالتجاء إليه والناس خلفه يبكون ويتضرعون، فتاب إلى الله -عزّ وجلّ- وأناب في تلك الليلة نحو السبعين رجلًا، فمنهم من ندم على شرب الخمر، ومنهم من كان على غير ذلك من الذنوب، فصاروا كلهم إلى التوبة النصوح بفضل نيته وجميل طويته.

وفيها توفي:

- أبو الحسن الصقلي الجزيري:

[٦٠٥] قال أبو سليمان ربيع القطان بخطه:

كان أبو الحسن هذا من خيار الناس، ذُكر لنا عنه أنه كان على منواله صامتًا لا ينطق إلا بذكر الله -عزّ وجلّ- أو بما يعنيه، فإذا أقيمت الصلاة تأوّه واجتر نفسه وتواجد وقال:

---

(١) كذا في المطبوع.

واذهاب عمري في خسارة.

[٦٠٦] قال ربيع القطان: وسمعته يقول:

والله الذي لا إله إلا هو ما شيء في وقتي هذا أقرَّ لعيني من القدوم على الله -تعالى- لأني قد تحقق ظني به.

فقلت له: سررتني والله.

[٦٠٧] ودخلنا عليه بداره نعوده عند مسجد أبي زرجونة، فقال لنا:

كان عندنا يا أبا سليمان بثغر صقلية رجل يقال له أبو علي الطنجي - أنا رأيته وعرفته- وكان من الكدادين[1] عمره كله، وكان من أهل الشغل والذكر، وكان يظهر له عدوه إبليس في هيئة إنسان، فكان يقول له العدو: أنضحت قلبي بكدّك، فوالله لأنضحن قلبك أو تكف عما أنت فيه.

فيقول أبو علي: إليك عني يا عدو الله، والله لا زلتُ هكذا إن شاء الله -تعالى- أبدًا.

فبينا هو ذات يوم راقد على سُدَّة إذ قلبه عدو الله من فوقها، فانجرح له موضع السجود، فلم يزل ينتشر حتى أخذ الوجه، فكان يأتيه العدو فيقول له: اقصر ويزول عنك ما تجد.

فيقول: اذهب يا عدو الله، والله لا أقصر أو أموت، فكانت تلك العلة سبب موته ﷺ.

[٦٠٨] قال ربيع القطان: قال لنا أبو الحسن:

يا أبا سليمان: كان عندنا رجل فاضل من المتعبدين المشتغلين بالذكر والكد اسمه مفرج أبو عبد السلام، فلم يزل على ذكره واجتهاده حتى حضرت غزاة، فخرج معها جماعة وخرج مفرج أيضًا فتلاقى العدو والإسلام وقُتل من المسلمين خلق عظيم، وأصيب فيها ظننت أبو عبد السلام مفرج، قال مفرج:

فرأيت والله سلالم منصوبة من الأرض إلى السماء تنزل عليها جوار ما رأيت قط مثلهن،

(١) أي من الذين يتعبون في الذكر والعمل الصالح.

وبيد كل واحدة منهن منديل أخضر، فنزلت كل واحدة منهن على صاحبها من الشهداء فأخذت رأسه وجعلته في حجرها ومسحت من دمه بذلك المنديل ثم رفعته أو ارتفعت.

قال لنا مفرج: فلما نزلت صاحبتي لم تجدني ميتًا فانصرفت مستخزية وهي تقول: واشؤم بختي واعاري عند صواحباتي، ثم انصرفت.

قال مفرّج: وكان ذلك مني في اليقظة، ولا أزال أبكي وا إخوتاه حتى ألحق بها.

قال أبو الحسن:

فكان بعد ذلك غلب عليه من الكد والزهد والاشتغال بالله -عزّ وجلّ- والدار الآخرة، والأكل مما تنبت الأرض من بقولها ما الله - عزّ وجلّ- به عليم، فكان كلما قيل له: أقصر يا أبا عبد السلام، فبدون هذا تُدرك الجنان.

فيقول: ويحكم اعذروني، ثم يقص هذه القصة عليهم ويبكي.

قال أبو الحسن: أقام كذلك نحوًا من ست سنين ثم توفي على خير، فلحق بها أمل، إن شاء الله تعالى.

***

ثم كانت سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة

وفيها توفي:

-أبو جعفر أحمد بن سعدون الأربسي.

توفي يوم الجمعة ودفن بسوسة.

كان ذا سمت وورع وفقه وصلاح وفضل، وثقة في الحديث.

[٦٠٩] قال أبو الأزهر: ما رأيت فيمن أدركت من المتعبدين مثله، وكان قد اعتل فلم يبقَ في بدنه عضو إلا وفيه علة إلا لسانه وعقله وبصره، وكان إخوانه يزورونه وهو ملقى على ظهره لا يستطيع الجلوس، ولقد كنت ربما أتيته زائرًا فيأتيه قوم من إخوانه بينهم اختلاف -رجاء أن يصلح بينهم- فيذكر له كل واحد منهم قصته فأجعل من بالي حفظ ما يطلبه كل واحد منهم وما يحتج به لأقف على ما يجيبهم له وعلى صحة فهمه، وربما جازت عليَّ أشياء من أقاويلهم لا أذكرها إلا بجوابه لهم، وهو مع هذا قد أدرك الثمانين وقد خالطه من السقم ما قد أعلمتك به.

[٦١٠] ورأى رجل ثقة في منامه قائلًا يقول له:

إن أردتَ أن تنظر إلى أبي بكر الصديق ﷺ فانظر إلى أبي جعفر الأربسي.

[٦١١] وذُكر عنه أنه لقيه رجل وهو طالع إلى السجن مع المساء وعلى عاتقه الكساء وبيده الطعام، فقال له:

ما تريد في هذه الساعة في السجن؟

فقال: حُبِسَ صديق لي اليوم، أريد أن أبيت معه الليلةَ أُوانسه بنفسي.

[٦١٢] حدث أبو بكر بن عمرون السوسي عن أبيه قال: وقف أبو جعفر القمودي على أبي جعفر الأربسي عند موته وهو مسجًّى فقال له:

خلصت يا أبا جعفر لا يصل إليك سلطان ولا شيطان، وتركتنا بعدك في بحر نسبح فيه

لا ندري أننجو أم نغرق.

[٦١٣] لما مرض أبو جعفر الأربسي صار أبو جعفر القمودي إذا سلّم من صلاته يمضي وينظر إليه من الباب، ثم يرجع إلى صلاته، فإذا سلّم عاد فنظر إليه فعل ذلك مرارًا، فعاد إليه مرة فوجده في حال النزع وقد انقطع كلامه، فقال: الحمد لله رب العالمين: الآن قد طابت نفسي عليك، فقد خلصتَ وبقيت أنا موحولًا، فلما سمع ذلك منه أبو جعفر الأربسي أشار إلى حلقه بإصبعه أراد بذلك أن نفسه باقية في الحلقوم لم تخرج بعد، وإنما يخلص بعد خروج نفسه على الإسلام.

فلما مات ﷺ قيل لأبي جعفر القمودي: تخرج تصلّي عليه؟

فقال لهم: وكيف لا أخرج أصلي على أخي وصديقي.

فلما أُتِيَ بالحمار وركبه ركب خلفه رجل يمسك بذقنه لأنه قد انحنى من الكبر والهرم فلما أُتِيَ بالنعش قيل له:

انزل -أصلحك الله تعالى- وتقدّم فصلّ عليه.

فقال لهم: أنا أتقدم؟ ما أنا أهل لذلك، فجهدوا عليه فأبى.

فقالوا له: إنك قد قلت تصلّي عليه؟

فقال لهم: إنما أردت بذلك أن أصلي عليه مأمومًا، فتقدم عليه سعدون الخولاني، وكان قد جاء من المنستير مع جماعة الشيوخ لحضور الجنازة، رضي الله عنهما.

***

ثم كانت سنة أربع وعشرين وثلاثمائة

وفيها توفي:

أبو جعفر القمودي:

رحمه الله تعالى، بمدينة سوسة، وصلّى عليه سعدون الخولاني، ودفن إلى جانب أبي جعفر الأربسي، وهو ابن أربع وتسعين سنة.

[٦١٤] كان ذا أوصاف جليلة بلغ من العبادة مبلغًا عظيمًا حتى صار كالشَن البالي، لم يكن في عصره أكثر منه عبادة حتى أن المثل ليضرب به في عبادته.

[٦١٥] وكان من أحلم الناس يدعو لمن يؤذيه.

أخبر ﷺ أنه جاز إفريقية كلها، قال: فما طاب على قلبه إلا المقام بسوسة.

[٦١٦] وكانت له زوجة رُزق منها ولدين فماتا قبل البلوغ، ثم فارق أمهما وتزوجت بعده وهو باق يدعو لها لأنها كانت محسنة إليه، وكان لها عليه صداق سبعون دينارًا فأعطاها سبعة دنانير وتركت له ما بقي.

[٦١٧] وكانت بدايته أنه كان يعمل في الحمّامات ويخدم بها ويوقد النار فيها، فهو يومًا يوقد النار فيها وينظر إلى شدة لهبها حتى أيقظه الله -عزّ وجلّ- لما أراد من هدايته عند نظره إلى فعل النار بالحطب وما عاين من شدة اللهب فوقع في قلبه ما وقع، فترك الحمام ولزم عبادة الله -عزّ وجلّ- .

[٦١٨] وذُكر عنه: أنه لما انخلع من الدنيا دعا بزوجة له عجوز فانية، فقال لها: خذي هذا المهر تقوّي به على عبادة ربك، وقال لها: أنا رجل وأنت امرأة، أنتِ أحوج إليه منّي وأبى أن يأخذه منها، وأقبل على الكد والانفراد.

[٦١٩] وذُكر أبو جعفر في مجلس أبي الفضل الممّسي، فقيل لأبي الفضل:

أصلحك الله عزّ وجلّ، هل كان معه من العلم شيء؟

فقال بنترة وانتهار: كان معه من العلم النافع خلاف ما ترى، أو فوق ما نحن فيه.

[٦٢٠] وقيل عنه:

لو أن أبا جعفر صعد إلى السماء فرأى عبادة الملائكة ما زاد على حاله الذي هو فيه.

[٦٢١] وذُكر عن أبي بكر الزويلي قال:

ما رأيت مثل أبي جعفر قط، ولو وقف بين يدي الله -تعالى- فرأى ثواب المحسنين وعقاب المسيئين ما زاد على ما هو فيه من العبادة.

قال أبو محمد عبد الله بن إسحاق ابن التبان الفقيه:

[٦٢٢] لو عاين أبو جعفر القمودي أهل السماوات الذين وصفهم الله عزّ وجلّ بأنهم ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢١] ما زاد على ما هو فيه من العبادة والاجتهاد.

[٦٢٣] ذُكِر أن الحجام أراد أن يأخذ من شاربه شيئًا فما قدر على ذلك من شغله بالذكر.

فقال له: أصلحك الله: اتركني آخذ من شاربك شيئًا.

فقال له: يا هذا كل إنسان في شغله، خذ ما أمكن.

[٦٢٤] وأُهدِيَت إليه رمَّانة فأقامت عنده في الطاق مدة، فدخل عليه بعض إخوانه، فقال له:

أصلحك الله: ما لهذه الرمانة عندك مدة فما يمنعك من الانتفاع بها؟

فقال له: من يتفرغ لتحبيبها؟

[٦٢٥] قال بعضهم:

دخلت عليه أزوره، فقال لي: تذكر شيئًا[1]؟

فقلت له: لا إنما اعتقدت زيارتك.

فقال لي: كتب الله -تعالى- لك ثواب الزائرين.

---

(١) أي: أتريد أن تقول شيئًا، أو تريد شيئًا.

قال: فخرجت من عنده وقام في وهمي أنه استثقلني، فأنا خارج وإذا بقوم آخرين جاؤوه زائرين، فقلت: والله لأنتظرن هؤلاء حتى أرى هل يمكثون عنده شيئًا، فما لبثُ أن خرجوا من عنده من فورهم، فقلت لهم: ما وراءكم؟

فقالوا: دخلنا للشيخ فقال لنا: تذكرون شيئًا إنَّا قوم محفوزون[1].

فقلت: هذه لفظة زائدة على ما قال لي فعلمت أنه مشتغل بذكر الله -تعالى- يغتنم ساعاته ويتوقع أجله، رضي الله عنه.

[٦٢٦] وقال مرة لأبي جعفر الأربسي: ما تريد بجلوسك مع هؤلاء الذين يدخلون إليك ويشغلونك؟

فقال له: أستأنس بهم.

فقال له أبو جعفر القمودي: لو ذقت حلاوة الأنس بالخالق ما احتجت إلى مؤانسة المخلوقين؛ لأنه قد جاء في الحديث: إن الله تعالى يقول: «**أنا جليس من ذكرني**»[2]، ثم قال: ما أجد حسّ الناس إذا صعدوا إليّ من الدرج إلا كضرب السياط في أكتافي.

[٦٢٧] حدث أبو الليث السرّاج قال: دخلت يومًا على أبي جعفر القمودي وأبي جعفر الأربسي، فجعلت أكلم أبا جعفر[3] وأخفض من صوتي، فقال لي: ارفع صوتك.

فقلت له: إني أخاف أن أشغل الشيخ بكلامي.

فقال: إنه ليس يسمعك.

فقلت: وكيف ذلك؟

قال: كان يشغله بعض ما كان يسمع من الكلام عن ذكر الله -تعالى- فسأل الله، عزّ وجلّ، أن ينقص من سمعه، فنقصه الله -عزّ وجلّ- منه، فهو لا يسمع إلا ما رفع به الصوت كثيرًا، وكان يكره فضول النظر، فسأل الله -عزّ وجلّ- أن ينقص من بصره، فنقصه منه فهو

---

(١) محفوزون: أي مستعدون للمضي سريعًا، متهيئون له، ويريد أننا قوم يُسرع بنا إلى الآخرة.

(٢) لم يصح هذا الحديث.

(٣) أي الأربسي.

لا يبصر إلا ما كان معه في الغرفة.

[٦٢٨] وحدثنا أبو عبد الله بن يقظان السوسي قال:

كان أبو جعفر القمودي ينفرد في بيته للعبادة والاجتهاد، وصاحبه أبو جعفر الأربسي جالس مع أصحابه يتذاكرون العلم، ثم يخرجون منه إلى الحديث، فيأتي القمودي إلى باب البيت الذي هم فيه، فيجعل يده على قوائم الباب ثم يقرأ هذا الآية:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٣] اذكروا الله يذكركم، قد جاءكم الموت، ثم يرجع إلى بيته ﷺ.

[٦٢٩] وخرج أبو جعفر ليلة بقصر الطوب يكبّر على البحر ويتهجد فرأى رجلًا في أعلى القصر ساكنًا، فقال: يا هذا: اذكر الله -تعالى- ولا تكن خلاء في خلاء.

قال أبو حفص: يريد أبو جعفر لا تكن خلاء من الذكر في الأيام، كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤].

[٦٣٠] قال أبو الأزهر: قلت لأبي جعفر الأربسي:

إنه يتصل بنا عنه أنه لا ينام مضطجعًا وإنما ينام جالسًا مُحتَبِيًا.

فقال لي: نعم، هو أخبرني بذلك، وقال: إنما أجد راحتي إذا جلست هكذا.

[٦٣١] قال أبو الأزهر: فقلت له:

بلغنا أن قوته ثُمن قمح في شهر وهو ستة أمداد بمدّ النبي ﷺ.

فقال: إنما كانت الخادم تعجن له نصف مدّ دقيق فربما أكل منه ليلتين وربما أكل منه ثلاث ليالٍ.

فقلت له: فمع هذا إدام؟

فقال لي: وما هذا الإدام؟

فقلت له: اللحم.

فقال لي: ما كان يأكل اللحم حين كان لحمًا فكيف حين صار جيفة -يعني لما اشتبهت أغنام الناس واختلطت في الحروب التي كانت-.

فقلت له: فالحيتان؟

فقال لي: ربما اشتهى منه.

فقلت له: فعنده تين يابس أو غير ذلك يأتدم به الخبز.

فقال لي: ما كان عنده تين، إنما كانت الخادم تطبخ له القدر ببصلة وزيت وشيء من ملح ثم تكسر له على ذلك شيئًا من الخبز.

وكان يحب التين الأخضر يأكل منه إذا وجده مثل العشرين حبّة.

[٦٣٢] قال أبو الأزهر: فقلت للأربسي:

هذا القوت اليسير من يأتيه به، فحسبته اشتدّ سؤالي عليه في هذا، وكره ﷺ أن يمنعني مما أردته فقال لي:

إخوان معروفون له، وما أراه أراد إلا نفسه، لأنه كان له ودودًا، وكان له أخ بالأربس وقرابة فظننت أنه شقَّ عليه أن يقول: أنا، فيكون هذا من باب المنّة، ثم قال لي:

وما عسى أن يكون أكله، لقد كان له عندنا قفيز قمح، فأقام حتى خشينا عليه السوس، فقلت له: أسلفنا إياه، فإذا أردت شيئًا منه أعطيناك، ففعل ذلك، فله مدة طويلة لم يأخذ منه إلا ربع قمح.

[٦٣٣] قال أبو الأزهر: ثم عطف عليَّ أبو جعفر فقال لي:

يا أبا الأزهر: إن كان لا يدخل الجنة إلا مثل أبي جعفر القمودي فما أَقَلّ من يدخلها.

[٦٣٤] وأنا أخبرك عنه بشيء لم أسمعه من أحد ولا رأيته أنا ولا أنت في كتاب: أخبرني منذ سنتين أنه يدعو لأزيد من اثني عشر ألفًا من إخوانه بأسمائهم قال: وهم في كل يوم يزيدون.

فقلت له: وكيف تحفظ أسماءهم؟

فقال لي: إذا ذكرت الرجل مرتين أو ثلاثًا لم أنسه.

فقلت له: كيف يدعو لهم؟

قال: يقول اللّهم افعل بفلان وفلان وفلان إلى أن يبلغ ما أراد من ذلك، ثم يدعو لآبائهم وأمهاتهم وأزواجهم وذراريهم وجميع أمة سيد المرسلين محمد خاتم النبيين ﷺ.

قال أبو الأزهر: قلت له: متى يدعو لهم أصلحك الله؟ وكيف يدرك الصلاة بالليل مع الدعاء لهؤلاء؟ فقال لي: كان يدعو لهم كل ليلة، فلما كثروا عليه رجع يدعو لهم ليلة ويصلي ليلة.

وكان إذا قام إلى حزبه من الليل قال:

اللّهم إنك تعلم أن لنا إخوانًا فيك، وأحباء وأولياء تحابينا فيك، ما اجتمعنا على زلَّة ولا على خزية، فمن كان منهم حيًّا في هذا الوقت فأشركه في صالح دعائي، ومن كان منهم يدعو إليك فاجعل دعانا واصلًا إليك، ومن كان منهم عليلًا أو مهمومًا مغمومًا ففرج عنه واجعل بعضنا لبعض بركة ورحمة.

[٦٣٥] وصاحب الكلب اللّهم أصلحه ولا تؤاخذه، وإن كان ميتًا فارحمه.

وأمّا سبب ذكر الكلب فإنه خرج إلى قمودة فلقيه قوم من خدمة السلطان فأعطوه كلبًا في عنقه شراك ليمسكه، قال: فأمسكته، فتفلّت من يدي فلما رأوا الكلب قد هرب تناول أحدهم سوطًا فضربني به.

[٦٣٦] وقال أبو الحسن علي بن عبد الله القطان: كان من دعاء أبي جعفر القمودي المتعبد رحمه الله تعالى:

اللّهم صلّ على محمد، اللّهم صلّ على محمد، اللّهم صلّ على محمد، اللّهم اقض لي كل حاجة مع المغفرة.

اللّهم صلّ على محمد، اللّهم صلّ على محمد، اللّهم اكفني كل هول دون الجنَّة.

اللّهم صلّ على محمد، اللّهم صلّ على محمد، اللّهم صلّ على محمد، اللّهم اغسل قلبي

بماء اليقين وزوّدني بالتقى، واجعل غناك مع محبتك في قلبي.

[٦٣٧] حدث أبو محمد عبد الله بن عمرون السوسي قال:

أتى شاب إلى أبي جعفر القمودي فسلم عليه، فسأله الشيخ عن حال جدته لأنه كان يعرفها قبل ذلك فقال له: تقرأ عليك السلام وقد وجَّهت إليك زوجي فراخ مشوية، وجعلهما بين يديه، وتقول لك: سألتك بالله كل منهما، فاستعظم الشيخ قسمها عليه بذلك وقال: جلّ الله - عزّ وجلّ- ثم سكت سكتة ثم قال له: اعرف عندكم في الجنينة شيء من العُلّيق[1].

فقال له: نعم عندنا منه شيء كثير.

فقال: ايتني منه بشيء.

قال: فمضى الشاب فأتاه به، فأخذ فخذًا من فرخ منهما ثم جعل عليه ذلك العليق، فدلكه به حتى سقاه بمائه، والعليق شديد المرارة، ثم أكله وقال له: يا أخي اقرأ عليها السلام وقل لها: قد أبررنا قسمك، ورد عليه البقية[2].

[٦٣٨] وكان الشيخ أبو علي المتعبد حسان بن محمد، يحدث أن أبا جعفر القمودي بينا هو جالس وعنده بعض أصحابه حتى أتته ثلاث دواخل[3] تمر هدية من عند رجل يعرف أصل ريعه وطيب كسبه، فأمر بتفريغ الدواخل ثم قال: الهدية مشتركة وقسمها بين القوم بالسوية، وأخذ لنفسه خمس تمرات ﷺ وجعلهم في دوخلة فارغة فلما كان بعد المغرب، أخذ في الشغل كعادته فقالت له نفسه: عجل قليلًا تفطر على تمرات حلال، فعاتب نفسه بأن قال لها: ما استطعت الصبر عن خمس تمرات حتى أمرتني أن أخفف صلاتي من أجلهن، لله علي لا أكلت تمرًا حتى ألقاه، رحمه الله.

---

(١) نبات يتعلق بالشجر.

(٢) إنما صنع ذلك لمزيد ورعه وتخوفه أن يكون في الطعام شيء.

(٣) جمع دَوْخَلة وهي وعاء مثل الزنبيل.

[٦٣٩] ومثل هذا ما روي عن مالك بن دينار أنه كان ربما يمر بالأسواق، فإذا رأى الشيء يشتهيه قال لنفسه: اصبري فوالله ما أمنعك إلا لكرامتك عليّ.

[٦٤٠] وكان أبو حازم إذا نظر إلى الفاكهة قال: والله إني لأشتهيك ولكن موعدك الجنة.

[٦٤١] وكان يقول: من أطلق شهوته أذهب مروءته.

[٦٤٢] قال أبو عبد الله محمد بن عمرون السوسي:

كان ببلدنا أبو جعفر القمودي، فكان يُشَبّه بالعابدين في الكد والاجتهاد في العبادة، وكان له ذكر بالمشرق والمغرب، فقال ذات يوم لأصحابه، لما دخلوا عليه: اتقوا الغيبة، فإنه اغتيب عندي رجل، فلم أساعدهم ولا أنهاهم فنمت، فأتاني آتٍ في منامي وفي يده طبق فيه لحم، فقال: يا أحمد كل هذا اللحم، إن هذا الدين مثل العين غبارة تعكرها، فقال أصحابه: نُبه والله الشيخ من ليلته.

[٦٤٣] حدث أبو محمد عبد الله بن يقظان السوسي قال:

قدم أخوان من تجار أهل الأندلس في مركب فوقعوا في مدينة عبيد الله[1]، فغصب متولي الموضع رحلهم، فطلبوا إليه أن يردّ شيئًا منه فأبى، فقال أحدهما للآخر: امض بنا إلى عبّاد المنستير نسألهم في الدعاء؛ فإن الله - عزّ وجلّ - يجيب دعاءهم، فأتى الرجل إلى المنستير فسأل شيوخها فدعوا له ثم قالوا له: امض إلى سوسة إلى أبي جعفر القمودي فدعاؤه مستجاب -إن شاء الله تعالى- فإن تعذّر عليك الدخول إليه فارفع صوتك وقل: أنا رجل مضطر جئت أسأل في الدعاء فمُنعت وحجبت، قال أبو محمد: وكذا كان شأنه، قَلّ ما يفتح لأحد إلا أن يحتال عليه بمثل هذا؛ لأنه كان مشغولًا بصلاته وتلاوته، فوصل إليه الرجل وقرع بابه فلم يؤذن له، ففعل ما أمره به الشيوخ، فسمعه أبو جعفر فخرج إليه فقال له: أيّ يوم هذا؟

فقال له: يوم الجمعة.

---

(١) أي المهدية.

فقال له: فأيّ شهر هذا؟

فقال له: شهر رمضان.

فقال له: ففي شهر رمضان في يوم الجمعة يتكلم الناس؟

ثم قال: أي شيء خبرك؟ فقصَّ عليه قصته، فقال له: اذهب تُكْفَ إن شاء الله تعالى، فخرج الرجل من عنده فأقام يومه بسوسة ثم انصرف إلى المنستير فلقيه رجل يعرفه فقال له: ها هنا رجل يسأل عنك، فالتمسه، فإذا به أخوه فقال له: إيه ما كان من أمرك؟

فقال له: قد فرج الله - عزّ وجلّ- عنا ودُفع إلينا رحلنا كله، وخرجت مبادرًا لك لأُسِرّك بذلك.

[٦٤٤] وذكر من يوثق به من الشيوخ: أن رجلًا من كتامة اعتدى على رجل من بادية سوسة وخاف على نفسه الموت، فدلّه رجل من إخوانه على رجل من أهل سوسة يعرف بابن طاووس -وكان من الفضلاء الأجلاء- فأتاه فشكا إليه ما حلّ به.

فقال له: امض إلى أبي جعفر القمودي فاشك ما نزل بك إليه.

فقال له: ما أعرف داره.

فقال له: أنا أبعث معك من يريك داره، ولكن إذا قرعت الباب قف وتأنَّ، فإن فتح لك وإلا فاقرع ثانية وقف وتأنَّ، فإن فتح لك فاذكر قصّتك وإن لم يفتح فقل ما أقول لك: أتيناكم نرجو بركة دعائكم غلقتم في وجوهنا أبوابكم، باب الله -عزّ وجلّ- أقرب إلينا من أبوابكم ثم قف.

قال الرجل: فمضيت وقرعت الباب وتأنيت فلم يؤذن لي، فقلت ما قال لي ابن طاووس ثم وقفت حتى سمعت حركة الباب ففتحه أبو جعفر ثم قال لي: سلام عليك، فرددت عليه السلام، ثم قال لي: مالك؟

فقلت له: جرى عليّ كذا وكذا، فرأيته حرّك شفتيه ثم قال لي:

انصرف لعلّ الله يكفيك أمره.

فانصرفت فلما كان الغد خرجت إلى باب القبلة أستمع الأخبار حتى رآني قوم من أهل منزلي، فقالوا لي: اخرج إلى المنزل ولا تقعد.

فقلت: كيف أجد الخروج إليه وأنتم تعلمون ما جرى؟ فقالوا: لما كان بالأمس في الوقت الفلاني -ووضعوا الوقت الذي اجتمعت فيه مع أبي جعفر- أصاب الكتامي أمر من الله، عزّ وجلّ، فمات، فخرجت إلى الموضع فوجدته ميتًا.

[٦٤٥] وأتى رجل مضطر نزلت به نازلة إلى أبي الحسن الكانشي ﷺ بالمنستير يسأله في الدعاء، فقال له: امضِ إلى مدينة سوسة إلى أبي جعفر القمودي، وذلك في شهر رمضان، فإذا قرعت بابه ولم يفتح لك فأعد القرع وقل: نأتي مضطرين ونزلت النوازل بنا إلى قوم رغبة في دعائهم، فغلقوا أبوابهم في وجوهنا، اللّهم لا تغلق أبواب رحمتك عنا، وارفع بذلك صوتك حتى يسمعك قال: فلما وصل الرجل فعل كما أمره أبو الحسن، فلما سمعه أبو جعفر نزل إليه، فقال له بخفض صوت: أي يوم هذا؟

فقال له: يوم الجمعة.

فقال له: وأي شهر هذا؟

فقال له: شهر رمضان.

فقال له: في يوم جمعة في شهر رمضان يكلم الناس الناس ويرفعوا[١] أصواتهم؟

فقال له: أنا رجل مضطر.

فقال: ما خبرك؟

فقال له غلام ابن أبي سعيد الضيف[٢] وكيل المنزل الذي أنا فيه حل عليّ منه كذا وكذا، فهربت منه بروحي وأسلمت أهلي وولدي ومالي في يديه.

فقال له أبو جعفر: كفاك الله مؤونته، وأقلبك بمغفرته.

---

(١) كذا وردت.

(٢) قال المحقق: هو أبو سعيد موسى بن أحمد الضيف، كان يتولى للعبيدين عمالة القيروان.

فمضى الرجل فلجأ إلى جامع سوسة، فهو في اليوم الثاني جالس في الجامع حتى رأى رجلًا من أهل منزله يدور عليه[1]، فلما التقى معه قال:

أبشر فقد مات الوكيل.

فقال له: وكيف ذلك؟

فقال: هو بالأمس في أحسن ما مرّ به حتى ضربته حية، فهو في النزع إلى البارحة، فلما كانت البارحة مات.

فقال له: أي وقت ضربته الحية بالأمس؟

فوصف له الوقت فإذا هو الوقت الذي مضى هو فيه إلى أبي جعفر ودعا له فيه.

[٦٤٦] وذكر بعض أهل العلم: أن رجلًا من أهل سوسة نقم عليه عبيد الله[2] في أمر بلغه عنه من البغضة لهم والنكير عليهم، فرفعوه من سوسة إلى مدينة عبيد الله وسجنوه في دار البحر، وكان أبو جعفر ممن يعرفه، فأتى أهله إلى أبي جعفر القمودي فعرّفوه، فقال لهم: يُكفى المؤنة -إن شاء الله تعالى- ويخلص.

فهم في الغد جلوس حتى أتاهم الرجل المعقول[3]، فقيل له: كيف كان سبب خلاصك؟

فقال: كنت في العقلة حتى بعث السلطان ورائي ليلًا، فقال: أنت فلان بن فلان؟

فقلت: نعم.

فقال لي: اذهب إلى بلدك فإنه وقف بي هاتف فقال لي: اترك فلانًا الساعة وإلا تهلك الآن، وقال لي: انصرف إلى موضعك الساعة.

قال: فانصرفت إليكم.

[٦٤٧] وكان بسوسة رجل يقال له شبلون وكانت له والدة أقامت مقعدة ثلاث عشرة

---

(١) قال المحقق: أي يبحث عنه، وهي عامية.

(٢) هو الشيعي صاحب دولة العبيدين.

(٣) أي المسجون.

سنة، قال شبلون: وكانت لي أخت قد سئمت من طول الخدمة وملّت، وخشيتُ أن تدعها فتبقى منقطعة بها، فأتيت أبا جعفر فشاورته في التزويج رجاء معونتها لأختي وخلفًا منها إن غابت، فأشار بترك التزويج، فألححت عليه، فقال: أرجو أن أمك ستفتح لك الباب عند إتيانك إليها.

قال: فانصرفت من مجلسه وما أطقت القعود فيه سرورًا مني بما وعدني به حتى أتيت الدار، فقرعت الباب، فإذا بأمي قد فتحت الباب.

فقلت: ما هذا؟

فقالت: والله يا بني ما أدري، إلا أنه لما قرعت الباب كأن ماسحًا مسح على ظهري، فقمت كما ترى وقد ذهب عني كل ما كنت أجده من العلة.

[٦٤٨] وكان قد حماه الله - عزّ وجلّ - من مشتبه الطعام واللباس، فما عافته نفسه تركه وما طابت له نفسه قبله. وجرى مثل ذلك لجماعة من الصالحين مثل المحاسبي وغيره:

ذُكر أن رجلًا اسمه عبيد كان يخدم أبا جعفر قال: فقال لي ذات يوم: اشترِ لي جَلاّلة[1].

قال عبيد: فاشتريتها من قوم من أهل النورين -قرية بقرب سوسة- ثم أتيته بها، فقال لي: دعها في ذلك الموضع.

قال عبيد: ثم عدت إليه فقال لي:

إن هذه الجلالة التي اشتريتها ما طابت نفسي لها أخرجها عني، فخرجت بها فسألت أهلَ القرية عن الذين باعوها مني، فقالوا: إنهم شباب استأجروا أنفسهم في غنم يرعونها فيأخذون من صوفها بغير إذن أربابها، فما اجتمع عندهم من ذلك أعطوه إلى أمهم فتعمله لهم ثم يبيعونه في السوق، فعلمت أن الله -عزّ وجلّ- حمى أبا جعفر منها.

[٦٤٩] وكان -رحمه الله- على ما جمع الله فيه من خلال الخير لا يرى لنفسه قدرًا، ذكر الحسن أبو محمد بن أبي العباس الأجدابي قال:

---

(١) قطعة من القماش.

نظر أبو جعفر إلى شاب كان يخدمه وعليه كآبة مغموم، فقال له: مالك يا بني؟

فقال له: قلبي ما وجدت منه ما أحب.

فقال له أبو جعفر: عمّك أحمد - يعني بأحمد نفسه - له تسعون سنة ما له قلب، تحب أنت أن يكون لك قلب.

[٦٥٠] حدثنا أبو حفص عمرون بن محمد السوسي قال:

بينما أبو علي الحسن بن نصر السوسي بمجلس قضائه في جامع مدينة سوسة -عمرها الله- إذ دخل عليه أبو جعفر القمودي وقد ارتدى برداء صوف، فسلم عليه فأدناه وقرّب مجلسه وأقبل عليه يحدثه، ثم سأله أبو جعفر في رجل سجنه الحسن وقال له: إن له والدة قد أكثرت من البكاء عليه، وشفع له عنده، فقال له الحسن: سجنته في حق لغيري وليس هو لي، وامتنع من تخليته، فانصرف أبو جعفر وقد وجد في نفسه، فلما حاذى الماجل[1] عاتب نفسه ووبَّخها بأن قال: بأي شيء تجدين على الحسن وهو أعلم منكِ وأفضل، وقد قضى بالحق، ثم تحَرّج من موجدته وعاد وما استطاع المضي حتى رجع إليه مبادرًا من عند الماجل فعرّفه بما حدثته نفسه، ثم قال له: نعْمَ ما فعلتَ إذ لم تتركه، جازاك الله خيرًا عن نفسك وعني، ففعلك هو الحق والصواب ولكن مخالفة النفوس فيها مشقة.

[٦٥١] ثم تزايد حاله إلى أن بلغ الغاية من الكدّ والاجتهاد في العبادة، ولما مات -رحمه الله تعالى- وجد الناس جسمه قد اخضرَّ مما نهكته العبادة.

[٦٥٢] ونفر الناس إليه من القيروان لمّا بلغهم موته من صلاة الظهر إلى العشاء الآخرة فأتوا باب سوسة سحرًا، فقال البوابون: لم يمت، فانتظر الناس إلى طلوع الشمس، فمات رحمه الله تعالى.

[٦٥٣] وقدم سعدون الخولاني مع أهل القصور في عدد عظيم وقد أشرق بنور الله - عزّ وجلّ- الفحص[2] من نور وجوههم من قيام الليل وصيام النهار، فدخل

---

(١) هو خزان الماء.

(٢) أي المكان.

عليه سعدون الخولاني، وأبو جعفر مسجَّى، وأبو عبد الله الحذّاء يقرأ عند رأسه: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ﴾ [النحل: ٣٢] فصاح الخولاني وبكى وقال: يا أحمد: أنت والله من الطيبين، ثم قال لهم: رأيت البارحة قصورًا في طرف المقابر مملوءة بالجوهر والياقوت وفيها جوارٍ ما رأيت مثلهن، ورأيت قبابًا وأبوابًا قد فتحت في السماء ونورًا عظيمًا، فقلت: لمن هذا؟

فقال جارية منهن: هذا للعروس الذي يخرج غدًا من سوسة، فغُسّل ثم قام الناس يودعونه وصلّوا عليه.

[٦٥٤] ويُذكر عن محمد بن يحيى الصيقل -وكان رجلًا صالحًا- أنه قال:

كانت عندي زوجة، فخاصمتني مخاصمة شديدة وسفهت علي حتى أشرفت على طلاقها، فتذكرت أن لي منها نشبًا[1]، فأمسكت عن ذلك، فخرجت عنها يومًا وأنا مغضب شديد الهم فأتيت مسجد دمنة سوسة، فركعت فيه ركعات، فتوسلت إلى الله -عزّ وجلّ- وسألته أن يصلح عليّ زوجتي أو يخلّصني منها، وأكثرت الدعاء والتضرع ثم نمت في ذلك الموضع حتى استحرت الشمس عليّ، فمر بي رجل من إخواني فأنبهني وقال لي: ها هنا تنام؟

فقلت: نعم.

فقال لي: وما قصتّك؟ وما الذي أتى بك إلى ها هنا؟

فأخبرته بالقصة، فقال لي: يا أخي ومن كان بينه وبين زوجته شيء تُطيبه؟

فقلت له: والله ما طَيَّبتني.

فقال لي: شم ثيابك فشممت رائحة طيب لم أرَ أطيب منه رائحة، فعجبت من ذلك وقلت: من أين جاءني هذا الطيب؟ فأقبل الرجل وهو يدور في المقابر بعينيه ويشتم الرائحة، فإذا بطاق صغير في القبر، فاستنشق منه رائحة الطيب، فقال:

من هاهنا علق بك الطيب، ثم سدّ ذلك الموضع بماء البحر والرمل، ثم قال لي:

---

(١) النشب: المال.

سألتك بالله لا تدل الناس على القبر فينبشونه، ثم قال: أتدري قبر مَن هذا؟

قلت: لا.

قال: هذا قبر أبي جعفر القمودي المتعبد، فعجبت من ذلك.

ثم مضيت إلى السوق فاشتريت شيئًا وأتيت به الدار، فقرعت الباب، فقالت زوجتي: من هذا؟

فقلت: افتحي.

فقالت: نعم يا سيدي ومولاي حبًّا وكرامة.

فقلت في نفسي: انقلبت العين، لأني لم أعتد منها هذا قبل ذلك، فلما فتحت الباب أقبلت عليَّ تعانقني وتقول لي: ما هذه العداوة التي بيني وبينك؟ مضيت إلى القمودي وشكوتني إليه؟

فقلت لها: وكيف ذلك؟

قالت: بعدما خرجتَ عنّي بساعة أخذتني عيني، فنمت، فدخل عليَّ من هذا الباب خمسة رجال، فقال أحدهم: خذوها، فابتدرني اثنان منهم فقبضا علي وشدَّاني بالقيد وعنفا عليَّ، ثم قال للاثنين الباقيين: اضرباها سوطين سوطين على القلب وسوطين على الكلى، فأخذا سوطين من نار ورفعاهما ليضرباني بهما، فأقبلت أتضرع إلى الشخص الذي أمرهما بذلك وأقول له: سألتك بالله لا تضربني حتى تخبرني ما الذنب الذي استوجبت به هذا الضرب العظيم.

فقال لي: أوما علمتِ ذنبك؟

فقلت: لا.

فقال لي: أسأتِ عشرة بعلك وآذيته بلسانكِ فشكاكِ إلى أبي جعفر القمودي، فرفع أبو جعفر القمودي القصة إلى الله - عزّ وجلّ - فأمرنا فيك بما ترين.

فقلت: قد تبت إلى الله - عز وجل - عن جميع ذلك، فوالله لا عصيت الله -تعالى- فيه أبدًا.

فقال لهم: دعوها، فإن عادت إلى الذنب عدنا للعقوبة، ثم انتبهت.

وفيها توفي:

- **أبو الفضل يوسف بن مسرور مولى نجم الصيرفي**:

ودفن بقصر الجديد، وكان مولده في شهر ذي الحجة سنة إحدى وخمسين ومائتين.

قال أبو عبد الله الخراط: كان كثير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، صالحًا، فاضلًا ثقة.

سمع من يحيى بن عمر ومن فرات بن محمد العبدي وغيرهما.

[٦٥٥] كان يخبز قوته فيثرده وهو سخن بالزيت ويجعله في إناء ويفطر كل ليلة على شيء يسير منه، وكان يسرد الصيام طول عمره، وأقام أربعين سنة ما طبخ قدرًا ولا أوقد في بيته مصباحًا.

قال يونس القفصي: كنت أرى له قدرًا موضوعة في مكان واحد إلى جانبها حطب موضوع، أقمت زمانًا أراها، فرفعت يومًا الغطاء عنها فإذا هي مملوءة بالعنكبوت.

[٦٥٦] قال يونس: قال لي يومًا: يا بني إنما يريد البقاء في الدنيا من كان يتلذذ بالطعام والشراب والنوم والنساء، وأنا والله قد عُدِمتُ شهوة الثلاث فما شهوتي بعد في المقام.

[٦٥٧] قال أبو الربيع سليمان: أخبرني فتحون القصري، قال:

نزلت على أبي الفضل ﷺ فحملت إليه هدية: عسلًا وسميدًا وكعكًا، فوضعت ذلك بين يديه، فقال لي: ما هذا!

قلت له: هدية مني إليك - أصلحك الله-.

فقال: يا أبا نصر: أسأل الله - عزّ وجلّ- أن يعظم ثوابك، اليوم لي ثلاثون سنة ما أكلتُ شيئًا من هذه الطرائف التي أتيتَ بها، إنما وظيفتي من الشهر إلى الشهر بقيراط شعير، وإنما ينعم الناس ويأكلون غدًا، لم أسكن هذه الحصون لآكل بديني، فيقال: فلان الصالح يُهْدَى إليه، فَرِّقها يا أبا نصر على الضعفاء، ففعلت.

[٦٥٨] فأخرجت له خريطة[1] فيها دراهم فقلت له: يا سيدي يا أبا الفضل: فرّق هذه على من يستحقها.

فقال لي: ما أفعل، إنما أفرق مالي، وأما مالك فأنت تسأل عنه يوم القيامة.

[٦٥٩] ويذكر عنه أنه خرج يومًا من سوسة يريد المنستير فمرّ بطفل صغير يبكي بدموع حارّة مع أمه، وقد حاذت به حانوتًا لرجل بين يديه سفنج[2]، فقال لأم الطفل: ما لهذا الصبي يبكي؟

فقالت له: مشيتُ وهو معي، فلمّا رأى هذه اشتهاها وقال لي: اشترِ لي منها، فقلت له: يفتح الله - عزّ وجلّ - وأشتري لك، ولطفت به، فجعل يبكي كما ترى.

فقال لها: أبوه حيّ أو ميت؟

فقالت له: بل مات وهو يتيم كما ترى، والطفل في ذلك كله يبكي بكاء شديدًا، وكانت شدةٌ ومجاعة، فأخذ بيد الطفل وقال لصاحب الدكان:

خذ هذا المنديل، ونزعه عن رأسه ورمى به إليه، وأطعم هذا الطفل حتى يشبع، وادفع إلى أمه كذا وكذا، فقال له صاحب الدكان: خذ ما شئت حتى تأتي بها عليك.

فقال له: ما أحب ذلك إلا برهن، ومضى حاسر الرأس إلى القصر.

[٦٦٠] وذُكر عنه أنه اشتهى تينًا أخضر، فسمعه إنسان يذكر ذلك فمضى إلى السوق فاشتراه له وأتى به إليه، فلما رآه أبو الفضل من بعيد قال له: اذهب عني، فراع الرجلَ ذلك، ورجع إلى صاحب التين، فقال له:

أحب أن تقيلني من هذا التين لأن الذي اشتريته له لم يرده.

فقال له: ومن هو؟

فقال له: أبو الفضل مولى نجم.

---

(١) كيسًا.

(٢) قال المحقق: السفنج نوع من الفطائر.

فقال: ولمثل أبي الفضل يصلح هذا التين؟

فقلت له: ولم ذلك؟

قال: لأنه لرجل كتامي، سخَّر عليه أهل المنزل، حرثوه في أرض مغصوبة.

فأتى الرجل إلى أبي الفضل فدخل عليه فلم يقل له شيئًا ولا قال: اذهب عني كما قال أول مرة، فقال له:

أليس اشتهيت التين؟

فقال له: نعم.

فقال له: ولم رددتني به؟

فقال له: وأيش كان معك؟ والله ما خُيل لي أنه كان معك إلا خنزير تقوده، فلذلك صرفتك.

[٦٦١] وذُكر عن شيخ معمر كان بالمنستير اسمه عبد السلام كانت له بُنيَّة فمرضت بالجدري، فأتى على بصرها وطلع عليه بياض فكانت لا ترى قليلًا ولا كثيرًا، وكان له ابن أخ فرغب فيها، فقالت له أمه وأخواته: تأخذ صبية مكفوفة البصر ترجع تخدمها؟ قال: فوقع على قلبي من ذلك أمر عظيم فمضيت إلى المنستير، فوجدت أبا الفضل مولى نجم منعزلًا عن الطريق إلى ناحية ورأسه بين ركبتيه، قال: فرفع رأسه إليَّ فرآني، فقال لي: عبد السلام؟

فقلت: نعم، فسلَّمت عليه.

فقال: ما قصتك؟

فأخبرته بخبر الصبية وما على قلبي منها.

فقال لي: إذا كان غدًا هذا الوقت فأتني بها إلى هذا الموضع.

فقلت له: نعم، وسلَّمت عليه ومضيت، قال: فسمعته وهو يقول: أخطأنا الطريق، ليس هكذا هو، ثم صاح بي فأتيته، فقال: لا تحركها ولا تأتِ بها، قد أتاها الله -تعالى- بالفرج من حيث لا تدري ولا تشعر.

فمضيت إلى المنستير ثم رجعت فأتيت إلى الدار فوجدت الصبية راقدة فحركتها فقامت إليَّ، ففتحت عينين، والله الذي لا إله إلا هو، إنهما لأجمل مما كانا قبل الوجع، ليس فيهما قليل ولا كثير، فعادت إلى أفضل ما كانت فيه من الصحة، وفرّج الله -تعالى- عن قلبي بجاه أبي الفضل، وعلمت أنه من أولياء الله تعالى.

[٦٦٢] قال أبو الفضل: - وكتب بخط يده- قال أبو ذر ﷺ: ما زال بي الأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر حتى اتخذني الناس عدوًّا وما لي إليهم من جرم، قال أبو الفضل:

وأنا على ذلك وعلى القيام بالحق والقول به، رماني قوم بسهام المنيَّة، وأرادوا أن يقطعوني من الأرض جهالة وحمية، وحسدًا منهم لي وبغيًا بلا ذنب ولا جناية، حتى نصرني الله -تعالى- العالم بكل خفية، فصبرت صبر الكرام على ما قضى الله -عزّ وجلّ- به عليَّ من كل بلية، وتجرعت مرارات وهانت عليَّ في الله، إذ كانت سلَّمًا إلى كل عَلِيَّة.

[٦٦٣] وكان كثير الحرس على المسلمين فلقد ذُكر عنه أنه قال:

كنت بسوسة منذ أربعين سنة فجاءت مخاوف من العدو ومشت مراكبه في البحر، فأخذ الوالي أهل سوسة بالحرس نُوَبًا، وكان المرابطون في ذلك الوقت قلة، فلما سمع الناس بذلك انجفلوا مقبلين إلى سوسة وكثر الناس، فخرجوا إلى رملة سوسة مستعدين حارسين على ذراري المسلمين، فإنا ذات ليلة نحرس وقد علوتُ في المحارس وأرى أهل الدور يمشون في ضوء السُّرُج حتى جن الليل عليَّ، فسمعت صبية وهي تقول لأبيها:

قد جاء المرابطون يحرسون علينا قم بنا نرقد، فأعجبني ما سمعت منها واغتبطت بها فتح الله -عزّ وجلّ- لي من ذلك، والحمد لله رب العالمين وليّ الحمد وأهله.

قال عبد الله ﷺ:

وكان لأبي الفضل -رحمة الله عليه- كلام في معاني العبادات والحضّ على الكد والاجتهاد وصوم النهار وقيام الليل، فمن ذلك ما رواه عنه أبو سعيد خلف بن يزيد النوفلي المتعبد بالمنستير قال: سمعت أبا الفضل يوسف بن مسرور يقول:

[٦٦٤] خشوع القلب قيد العين عن النظر.

[٦٦٥] وما رأيت لسان واعظ أطول من لسان المقابر.

[٦٦٦] سيدي: قسا قلبي وجهلتُ أمري، فمن لي إن لم ترحمني؟

سيدي: وفي غربة القيامة من يؤنسني؟ ومن أهوالها من ينقذني؟

سيدي وحوض محمد ﷺ من يوردني؟

وعند الميزان من يحضرني؟

وعلى طريق النجاة من يدلني؟

وبين العراة الحفاة من يسترني؟

ومن أيدي الخصماء من ينزعني؟

وعلى جسر جهنم من يجيزني؟

أبعد الإيمان بك إلهي تعذبني؟

يا ليت أمي لم تلدني!

إلهي: ألنا أنسى أياديك[1] عندي؟

ألست الذي أعطيتني الإسلام الذي ارتضيته، وجنبتني الأهواء ووفقتني؟!

ألست الذي جمّلتني بالعلم وهديتني وألبستني ثوب التقى وأكرمتني ؟!

ألست الذي أقلتني وسترتني، فلك الحمد على ما فضلتني، وهديتني بنور الهدى ورحمتني؟!

[٦٦٧] فافزع إلى الله بالسهر الطويل في فكاك رقبتك، وانقطع إليه بكل رغبتك، وابذل في طلب رضاه وما عنده طاقتك، وابكِ إذا خلوت على ذنبك، واعلم أن الصلاة ترحّل الأبدان إلى الآخرة، والأعمال تنزلها منازلها.

[٦٦٨] والبكاء من رهبة الله -تعالى- يؤمنك من سخطه إن شاء الله تعالى، فقل وأنت حزين:

(١) أي نِعَمك.

ألا يا عين ويحك فاسعديني بسكب الدمع في ظُلَم الليالي
لعلك في القيامة أن تفوزي بخير الفوز في تلك العلالي

[٦٦٩] وقال:إذا قمت في الليل فقل:

قمنا لك ونحن متعرضون لجودك ونوالك، فكم من ذي جرم عظيم صفحت له عن جرمه، وكم ذي كرب عظيم قد فرجت له عن كربه، فوعزتك ما دعانا إلى مسألتك -بعد الذي انطوينا عليه من معصيتك- إلا الذي عرفناه من جودك وكرمك، فأنت المؤمل لكل خير، والمرجو عند كل نائبة، ولو قيل لي: ما تريد؟ لقلت: رضى ربي يُحلّه علي، ومنية سريعة، وميتة طيبة.

[٦٧٠] وأفضل العبادة أن تنام أول الليل وتقوم آخره كما كان يفعل ﷺ، فازرع في جسدك طول التهجد، واسق زرعك دموع عينيك حتى تنبت السعادة، فيكون حصادك إياها يوم قفزك للكرامة، فعلق قلبك بربك، وانصب بدنك في طاعته لعل قلبك أن يتصدع كمدًا واحتراقًا وحزنًا.

[٦٧١] قال:

ومن ذكر عمل الماضين، استقل عمله في الباقين، ومن كان ذا أثقال كيف يلحق بالمُخِفِّين؟

[٦٧٢] واحذر أن يكون في عملك حب المحمدة من المخلوقين ومخافة ذمهم، فإنك إن بُليت بذلك هلكت، وإن نجوت من ذلك كنت من المخلصين.

[٦٧٣] ولم أرَ أبعث للإخلاص من الوحدة، ومتى أحبَّ العبد الخلوة فقد تعلق بعمود الإخلاص.

[٦٧٤] فاجعل الغالب على قلبك أنه لولا الله ما عملتَ عملًا، فإذا غلب على قلبك ذلك فقد صغى[1] القلب للإخلاص.

(١) أي مال.

[٦٧٥] وقال أبو الفضل:

أصح ما وجدت في عملي الإقرار بعجزي، والانتظار لفضل ربي، ولذلك يقال: من عرف قدره هانت عليه نفسه، وعظم عند الخلق قدره، ولولا أن الله -تعالى- بمنه يغفر الذنوب ما دخل أحد الجنة.

[٦٧٦] وآهًا لقلب يحب الله -تعالى- كيف يصبر عن ذكره، أو يلهيه شيء عنه، أو كيف يسكن إلى غيره، أو يكون لأحد مكان فيه سواه.

[٦٧٧] فعليك بمن يزيدك كلامه فهمًا، ومنازعته علمًا، والاستماع إليه حكمة، والنظر إليه عبرة، إن تكلم لم يَلْغُ، وإن صمت لم يندم، وإن عمل لم يُبْطِ، فإن مجالسته غبطة.

[٦٧٨] وقال:

يا أخي: اجعل قصدك التوكل على الله – تعالى - يكفك، وإياك وما يلهيك ويطغيك وينسيك، وضُم إلى نفسك الصبر، واعقد على قلبك البر، وكف بصرك ولسانك عن الإثم، واحتمل مرارة الذل في الله، وتجرع غصص الأذى تكن من المقربين غدًا، وصم عن الدنيا وافطر على الموت، وبادر الفوت، وخف ذنبك، وارجُ ربك، وابكِ على خطيئتك، وناجِ ربك في الظُلَم إذا هدأت العيون.

[٦٧٩] وقال أبو الفضل:

من رد بصره عن شيء لا يحل النظر إليه وهو يشتهي النظر إلى ذلك إجلالًا لله -تعالى- وتعظيمًا، أعقبه الله -عزّ وجلّ- عبادة يجد حلاوتها في قلبه، ومن أطاع نفسه وهواه وتابع النظر إلى ذلك كان سهمًا من سهام إبليس يصيب قلبه.

[٦٨٠] وقال أبو الفضل:

أين هُم الأخيار وخيرة الأبرار، الذي بك وثقت قلوبهم، فعاملوك بخالص من سرهم حتى خفيت أعمالهم عن الحفظة وبانت أمامك، فوقع بهم ما أمّلوه من شكرك، ووصلوا إلى ما أرادوا من محبتك؟

بل أين الزهاد والسادة العباد الذين خطوا العمر بحقائق الصبر حتى أفنوه في طاعتك؟

بل أين الذي تجشموا القتال لمن عاداك وكفر بك حتى خَرُّوا على الأذقان في محبتك؟

أين الذين ثبتوا في مواطن الامتحان ونواصيهم تُجَزّ في حقك، والقيام بأمرك وسلموا الأمور إليك، فصاروا قد رضوا بقضائك، رب فيهم ألحقني، ولأعمالهم وفقني.

[٦٨١] وقال أبو الفضل:

ويجب على من عرف الله -تعالى- في هذا الزمان أن لا يصدِّق الظلمة بكذبهم، ولا يُعينهم على ظلمهم، ولا يدخل عليهم ولا يخرج، وأن يتباعد منهم، وإن أيامنا هذه خوادع، يؤتمن فيها الخائن، ويخوَّن فيها الأمين، ويكذَّب فيها الصادق، ويصدَّق الكاذب، وكفى بالمرء خيانة أن يكون أمينًا للخونة، واعلم أنا قد بذلنا المجهود لك بالنصيحة، وأن من أضاع أمر الله أضاعه الله -تعالى- وإضاعته له أن يسلِّط عليه من لا يرحمه، وإنا في زمان كثر شرّه، وقلّ خيره، وارتدَّ أكثر أهله، وفارقوا جماعة الإسلام، وتناجوا فيما بينهم بالضلال، ونقضوا شرائع الدين وتمالؤوا على الإفك والزور[١].

قال عبد الله[٢]: جميع هذا الكلام إنما تكلَّم به أبو الفضل في الوقت الذي اشتدَّت فيه فتنة عبيد الله اللعين[٣].

[٦٨٢] قال أبو الفضل:

إني نظرت في هذه الأحمية[٤] التي على ساحل البحر فوجدتُ أهل العلم لم يثبت عندهم كيف فُتحت إفريقية: عنوة أو صلحًا، فرأينا أن أحسن الأمور لمن سكنها أن يسكنها ومعه ما ينفق فيها على نفسه، ومن تلزمه نفقته ويكون ذلك من حلال، فإن مسته فاقة فرأيتُ له: إن كان ذا صنعة أن يعمل صنعته، ويأتي بها يصيب من عمل يده، فينفق منه على نفسه، فيكون له بذلك ثواب الرباط ويسلم من متشابهات الحرام، وإن لم تكن له قوة بدن ولا صحة فليخرج فليحرث ما يكفيه عند الإخوان، فهذا أحب إليَّ له من الحرث في الحمى لما فيه من الشبهة.

---

(١) فماذا نقول عن زماننا هذا ؟!

(٢) أي المالكي مؤلف هذا الكتاب النفيس ، رحمه الله تعالى.

(٣) أي الشيعي صاحب الدولة الفاطمية الباطنية.

(٤) جمع حمى ، وهي الأرض الموقوفة للمرابطة.

وفيها توفي:

-سعدون بن أحمد الخولاني:

المتعبد بالمنستير ﷺ.

كان فاضلًا، ذا أوصاف جميلة، وكان شيخ الحصون، لم يكن بالمنستير في وقته أسنّ منه.

[٦٨٣] قال ﷺ: قال لي محمد بن سحنون:

يا خولاني: كيف بك إذا أردت أن يسلم لك دينك مع قوم لا يبالون ألا تسلم لهم أديانهم.

[٦٨٤] قال: زرت الإبياني -وكان من العباد المجتهدين- فدخلت إليه فسلمت عليه فقال لي:

يا سعدون: ألك والدان؟

فقلت: نعم، أصلحك الله تعالى.

فقال: يا سعدون أطع والديك واعصِ الله يرحمك الله عزّ وجلّ، وأطع الله واعص والديك يعذّبك الله تعالى.

قال سعدون: فأنكرتها في نفسي غير أني لم أراجع الشيخ ثم قدمت القيروان، فدخلت على محمد بن سحنون، فسلمت عليه، فقال: من أين جئت يا سعدون؟

فقلت: أصلحك الله – تعالى – من تونس.

فقال لي: هل دخلت على الرجل الصالح جعفر مولى شراش؟

قلت: نعم، غير أنه كلمني بكلمة أنكرتها، ثم أخبرته بما جرى لي معه.

فقال لي محمد: صدق، إنك إذا أطعت والديك فقد أطعت الله -عزّ وجلّ- وإذا عصيت والديك فقد عصيت الله، عزّ وجلّ.

[٦٨٥] قال محمود السبائي المتعبد بقصر دويد: سمعت سعدون الخولاني -رضي الله عنه- يقول:

أصول الدين أربع: رد المظالم، والكف عن المحارم، والكف عن أعراض الناس،

والنظر في المعيشة، وهي تورث أربعًا: غِنًى بلا مال، وعلمًا بلا تعلم، وعزًّا بلا عشيرة، وأنسًا بلا جماعة.

[٦٨٦] وكان له دعاء يدعو به لا يكاد يفارقه وهو:

يا كافي محمد الأحزاب، يا كافي المؤمنين القتال، يا كافي موسى فرعون، يا كافي إبراهيم النمروذ، اكفنا البلاء قليله وكثيره، أوله وآخره، آجله وعاجله، ما قلَّ منه وما كثر.

اللَّهمَّ لا تشمت بنا الأعداء ولا تجعلنا مع الظالمين.

اللَّهم افتح لنا أبواب الخير كلها، واغلق عنا أبواب الشر كلها.

اللَّهم من أرادنا فرِدْه، ومن كادنا فكده، ومن أراد ضرنا فضُرّه.

اللَّهمَّ غُلّ أيدي الظالمين عنّا، وغض أبصارهم، وخذ بنواصيهم، واطبع على قلوبهم.

اللَّهم من أرادنا بسوء أو مكروه أو أراد فساد ديننا وخلاء مساجدنا فاشغل كل جارحة منه بجائحة.

اللَّهمَّ استجب دعانا يا كريم، ولا تحمّلنا ما لا نطيقه، ولا تكلفنا ما لا نقوى عليه، ولا تسلّط علينا من لا يرحمنا.

اللَّهمَّ امنن علينا بالعفو والمعافاة والغفران في الدنيا والآخرة.

اللَّهم عافنا فيمن عافيت، واكفنا شر ما قضيت، إنك القاضي ولا يقضى عليك.

اللَّهمَّ كن لنا ومعنا، ومن بين أيدينا ومن خلفنا، وعن أيمانا وعن شمائلنا، ومن فوقنا ومن تحتنا وليًّا وحافظًا وناصرًا، إنك على كل شيء قدير.

وصلِّ اللَّهم على سيدنا محمد النبي وآله وصحبه وسلم.

[٦٨٧] ومشهور عن سعدون ﷺ أنه كان يجتمع به رجل من مؤمني الجن يكنَّى بأبي عبد الله، حدثنا ابن اللباد قال: قال لي أبو عثمان سعدون بن أحمد:

كان يأتيني رجل من الجان إلى بيتي فيوقظني من النوم فقلت له: ما اسمك؟

فقال لي: محمد.

فقلت له: مسلم أنت؟ فقال لي: لو كنت غير مسلم ما أيقظتك إلى الصلاة، وكان

يصافحني، فكنت أرى يده صغيرة فيها لين، فقلت له: أرني وجهك؟ فقال لي: وما تريد أن ترى؟ وجهي ينكد عليك عيشك.

وكانت قد ضاعت لي حمارة وولدها من المرسى، فأتاني فقال لي: يا أبا عثمان الذي سرق لك الحمارة وابنها مضى بهما إلى المهدية ليبيعهما، فلقيته في بعض طرق المهدية، فتمثلت له في صفة رجل، فقلت له: هذه الحمارة وولدها للخولاني، فردهما عليه وإلا فضحتك في المهدية، فقال لي: نعم، أردهما عليه، فمضى بهما وأنا أسايره حتى بلغ بهما إلى الحمى، فلما كان من الغد أتاني بعض السكان فقال لي: يا أبا عثمان قد جمع الله الكريم عليك الحمارة وولدها وهما في الحمى.

وكان عندي في البيت قلة مملوءة ماء للوضوء فقمت من الليل لأتوضأ منها فأصبتها قد فرغت ولم أجد فيها ماء فقلت: ما هذا الفعل الذي فُعل بنا؟

فقال لي: يا أبا عثمان: اعلم أن حية فقدت ابنها فأتت إلى القلة فشربت منها الماء ثم تقيأت فيها لتؤذي من يتوضأ منها، فخفت أن تتوضأ منها فيصيبك شيء فأهرقتها.

وكانت زوجتي قد اعتلت بعلة، فقال لي: نأتيك بدواء تشربه فتجد العافية -إن شاء الله سبحانه وتعالى- فعمل لي دواء ثم أتاني به، فشربت منه فوجدت العافية.

وكان يأتيني فيحدثني بأخبار الموسم والحج، ثم غاب عني.

ثم قلت له: يا أبا عبد الله:لم لا تدخل قصور بني الأغلب؟

فقال: أعوذ بالله أن أدخل قصورهم إنما أدخل إلى موضع الصالحين.

فلما خرج إلى الحج سألني في عصا، فأعطيته عصا، فأخذها فقال لي: هذه غليظة، فأعطيته قصبة ومضى عني إلى الحج، فأنا بعد قضاء الحج بنحو خمسة أيام حتى رأيت القصبة قد وقعت بين يدي ثم سمعت قائلًا يقول: أنا ابن أخي أبي عبد الله فإنه مات بالإسكندرية، وقد أوصاني بهذه القصبة أن أصرفها إليك، فقلت له:

لِمَ لَمْ تكن صديقي كما كان عمك؟

فقال: عمي كان رجلًا صالحًا وأنا فاسق، ثم غاب عني.

حدثنا أبو الحسن علي الأنصاري السائح وكان رجلًا صالحًا، قال: كنا مع سعدون الخولاني في الدَوْر الذي كان يدور على الحصون فسمعنا سعدونًا وهو يسلم على من لا نراه فقلنا له:

ما هذا - أصلحك الله-؟

فقال: صاحبنا جاء يسلم عليكم وعليَّ ويصحبكم حتى ينقضي سفركم، قال السائح: فكنا إذا جلسنا في بيت نسمع حسه ولا نراه حتى رجعنا، فلما حاذينا الموضع الذي اجتمعنا به فيه قال لنا سعدون: إن صاحبكم يسلّم عليكم ويؤمل الرجوع.

[٦٨٨] فقلنا لسعدون: وكيف يفارقنا ولم يفدنا بفوائد عن أصحابه الذين يؤذون الناس؟ فقال الجني لسعدون: إنهم يشاركونكم في المطعم والمشرب والملبس والنوم.

قالوا: عَرِّفنا بذلك؟

قال: نعم، إذا أكل أحدكم لا يبتدئ حتى يقول: بسم الله، وإذا شرب لا يبتدئ حتى يقول: بسم الله، وإذا أراد أن ينزع ثيابه ليدخل فراشه فليقل عليها: باسم الله، في حرز الله، وأمان الله، وإذا دخل فراشه فليقل: بسم الله، فإنهم لا يقربونه، وأنه إذا لم يذكر اسم الله على ثيابه لبسوها بالليل وسافروا بها، ويردوها، حتى يقول أحدهم: ما أدنى هذا الثوب وأسرع تقطعه وإنما ذلك من لبسهم له.

[٦٨٩] وبلغ عبيد الله أن سعدون يجتمع إليه خلق من الناس يخرج بهم إلى الدور، فخاف عبيد الله منه، وقيل له: إنه يخرج عليك.

قال: وأغرى به بعض من كان يسكن بالمنستير ممن هو متصل بشيعة بني عبيد الله -لعنه الله- فرفع على سعدون أنه يجتمع إليه العامة مع أشياء هو بريء منها، فبعث عبيد الله وراءه صقلبيًا فدخل على سعدون في بيته وقال له: يا شيخ عليك السمع والطاعة؟

فقال له: نعم.

فقال له: مدّ رجليك؟ فمدّهما، وقيدهما، ثم جمع ما في بيته من الكتب، ثم خرج به

وبكتبه حتى وقف به على عبيد الله، فاتصل ذلك بأم القاسم ولد عبيد الله، فكلّمته عليه وقالت له: تأتي إلى رجل صالح ولي من أولياء الله -سبحانه وتعالى- تفعل به هذا؟ أما تخشى أن يدعو على ولدك فيهلك؟ فأمر بتخليته وأزال القيود من رجليه ودفع إليه ثلاثمائة دينار وبعث إليه دابة وقال له: تصرف هذه الدنانير فيما تريد، وهذه الدابة تركبها.

فقال له سعدون -رضي الله عنه- هذه الدنانير قد قبلتها، ثم دعا أحد أولاد عبيد الله فجعلها في حجره وجرَّ بيده على رأسه ودعا له ثم قال لعبيد الله: هذه الدنانير هبة مني لولدك هذا ودفعها إليه، وأما الدابة فأنا شيخ كبير لا أستطيع ركوبها، وإنما أركب ما لا يتعبني من الحمير، ثم انصرف عنه.

فقال له عبيد الله:

لا تقطعنا، فكان يأتيهم في الهناء والعزاء مداراةً للقوم على المنستير وأهله ليكف أذاهم وشرهم وليبقى عليها الحال الجميل والهيبة، ولا يكون كسائر الحصون التي أخلوها وأفسدوها فكان ذلك سببًا لمعافاة المنستير.

وكانوا ربما بعثوا إلى سعدون في الأعياد بالأكبش للضحايا فيقبلها ويفرقها على الضعفاء، ويبعث إليه بالفستق، فكان يفرقه على من يأخذه ﷺ.

* * *

ثم كانت سنة سبع وعشرين وثلاثمائة

وفيها توفي:

-أبو عبد الله محمد بن سهلون:

كان ذا أوصاف جميلة، سمع من عيسى بن مسكين وغيره، نجب على يديه جماعة من المتعبدين.

[٦٩٠] قال الشيخ أبو الحسن: قال لنا أبو إسحاق السبائي:

مضيت إلى زيارة محمد بن سهلون -وكان رجلًا صالحًا- فجئنا إلى بيته ضحىً فقيل: لا يخرج من بيته إلا إلى وقت الصلاة، ولو ضرب عليه الباب من شاء قال: فجلسنا على باب البيت، فطال علينا الأمر، فافتتح رجل أندلسي كان معنا القراءة بصوت حزين، فسمعنا للشيخ حركة وبكاء وشهيقًا، ثم فتح الباب بمرة وخرج وهو يبكي، وقد ابتلت لحيته بدموعه، فتمادى كما هو في حالته فلا ندري أين ذهب، ثم رجع إلينا وقت الصلاة، فسلمنا عليه.

[٦٩١] قال أبو جعفر أحمد:

كان يأتي إلى محمد بن سهلون -رحمه الله- إفطاره بالعشي، فإن كان في المسجد أحد من الغرباء بعث إليه منه، وكان إفطاره على الماء، هذا دأبه أبدًا.

[٦٩٢] اللبيدي قال: حدثنا أحمد السائح قال:

جئت مرة مع محمد بن سهلون من الساحل إلى القيروان ليشتري لابنته ما يجهزها به للدخول على زوجها، فاشترى لها ما تحتاج إليه من ذلك، ثم خرج وخرجت معه، فبينا نحن على الطريق التفت إليه فرأيته يشهق ويبكي، فقلت له: ما بالك أصلحك الله عزّ وجلّ؟

فقال: وما سؤالك عن هذا؟

فقلت له: لا بد من ذلك.

فقال: تفكرت في بعد عهدي بالمصائب، فخفت أن يكون ذلك استدراجًا من الله، عزّ وجلّ.

قال أحمد: فما مشينا إلا يسيرًا حتى طلعت سحابة عظيمة، فأمطرت مطرًا وابلًا وأفسدت جميع ما اشترى لابنته من جهازها، فأقبل وهو يبتسم ويضحك، وزال عن قلبه ما كان فيه من الشغل[1].

وفيها توفي:

-الحسن بن محمد القلانسي المعلم:

كان له إدراك مع صلاح وفضل.

[٦٩٣] قال ربيع القطان: قال لي الحسن بن محمد القلانسي: بينا أنا أمشي في الهجير[2] إلى الجامع يوم الجمعة، فإذا بشيخ ذي لبسة ولحية عظيمة لقيني عند دار ابن الجمل فقلت له: يا شيخ هل صلّى الجامع؟

فقال لي: نعم، صلينا الجمعة، فانصرف، فلم أفعل، ووقع في قلبي أنه إبليس -لعنه الله- فتماديت، فإذا الإمام ما قعد على المنبر بعد، فعلمت أنه إبليس.

[٦٩٤] وذكر أنه قام في حق في وقت الغدوات، فنُقم عليه وشهد عليه أنه قذف السلطان، فحُبس بعض يوم، ورُميت عليه خمسون دينارًا، قال لي: يا بني: فقمت في السجن وصليت ركعتين ودعوت الله عزّ وجلّ فقلت: اللّهم إن كنت تعلم أنما حبستُ على إحياء حق فيك فخلصني، فلا والله ما تم دعائي حتى نودي بي، فخرجت بلا غرم والحمد لله.

[٦٩٥] قال أبو الحسن علي بن محمد الدباغ: أنشدني حسن المؤدب هذا:

اعمل وأنتَ من الدنيا على حذر ... واعلم بأنك بعد الموت مبعوثُ

واعلم بأنك ما قدَّمتَ من عمل ... محصًى عليك وما خلَّفتَ موروثُ

---

(١) قد سبق تعليقي على مثل هذا وأن النبي ﷺ كان يسأل الله - تعالى - العافية ولم يكن يطلب المصائب، والله أعلم.

(٢) وقت الظهيرة.

ثم كانت سنة تسع وعشرين وثلاثمائة

وفيها توفي:

-**أبو عبد الله محمد بن العباس بن الوليد، الفقيه المعروف بالهذليّ،**

وهو ابن تسعين سنة:

كان عالمًا بمذهب أهل المدينة، حافظًا للمسائل.

[٦٩٦] ضربه القاضي النفطي[١] بالدِرّة[٢]، وذلك أن قومًا من المشارقة[٣] رفعوا إلى محمد بن عمران القاضي النفطي -لعنه الله- أن الفقيه الهذلي يفتي بمذهب مالك ﷺ، ويطعن على مذهب أمير المشارقة، ولا يرى إمامته، فأمر بضربه عريانًا حتى سال الدم من رأسه، ثم أُركب عريانًا على حمار وشُق به جميع أسواق مدينة القيروان، وحبسه.

***

(١) قال المحقق: هو محمد بن إبراهيم بن عمران النفطي. فقيه شيعي، تولى القضاء للمهدي على طرابلس ثم نقله سنة ٣١١ إلى قضاء القيروان، فأقام قاضيًا نحو السنة ثم توفي.

(٢) أي العصا القصيرة.

(٣) أي الشيعة.

ثم كانت سنة ثلاثين وثلاثمائة

وفيها توفي:

-أبو القاسم عبد الوهاب بن نصر المتعبد:

[٦٩٧] قال الخراط:

كان مجاب الدعوة، وكان ممن علم وعمل، وكان سند عمله موت النفس والتواضع، لا يكاد يُرَى في مسجد أو جنازة إلا وهو قائم يصلي، مع حسن خلق، له ملاحة في العباد، وحلاوة في النساك، يخدم الأرامل والأيتام والفقراء، كثير الرباط والسياحة.

[٦٩٨] كانت له ختمتان بين ليله ونهاره.

[٦٩٩] قال أبو الربيع سليمان بن محمد:

كنتُ أدخل المسجد فأجد عبد الوهاب يركع الضحى، فإذا ركعت إلى جانبه وسلّم يقول لي: يا بني أخاف أن يُحَلَّق[1] على اسمي؟

فقلت له: يا سيدي كيف يحلق على اسمك؟

قال: انظر إلى السلطان إذا بدأ بالعرض فقال: أين فلان بن فلان؟ فيقال له: هذا هو، فيقول له: يا مولاي أنا لازم بالباب وقائم بالخدمة، فيعده بالإحسان، فإذا نادى أين فلان بن فلان؟ فيقال له: ما رأيناه، فيقول: ما لنا فيه خير، حلِّقوا على اسمه، اطردوه، فأنا أخاف أن يُحلَّق على اسمي وأُطرد، فأسمع مني يا بني يا أبا الربيع: إذا مشيتَ فاذكر الله، تعالى، وإذا قعدتَ فاذكر الله، تعالى، واذكر الله في الليل، فإن ذكرته ذكرك، وإن تاجرته ربحك، وإن خدمته أعزَّك، وإن قرعت الباب فتح لك، وإن رجعت إليه قبلك، ولا يضيع أجرك إنه لا يخلف الميعاد.

---

(١) قال المحقق: في المعجم الوسيط (حلق)، حلّق على اسم فلان جعل حوله حلقة فأبطل رزقه.

[٧٠٠] وكان -رحمه الله تعالى- يومًا بباب سلم ينتظر جنازة، فقام يركع حسب عادته إذا خلا، وكان أبو بكر بن اللباد -رحمه الله- في موضع جالس ينتظر الجنازة، فقال ابن اللباد: إن من الرجال رجالًا يرفع الله -عزّ وجلّ- عنهم الرياء لا يغيرهم ما عملوا، وعبد الوهاب منهم.

قال أبو الحسن بن الخلاف: وهذه أمور لا يستوي الناس فيها، ولا تستوي مقاصدهم، وكلّ إنسان له شأن هو أعلم به، فإذا صح له فلا دَرَكَ[1] عليه ولا يعنف أحد يعلم صحته وحسن مقصده، إنما يعنف الذي لا يصحّ مقصده، ويتزين لما يرتفع به عند الناس، وهذا الرياء والهلاك.

❊❊❊

---

(١) أي فلا تبعة عليه.

ثم كانت سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة

وفيها توفي:

-أبو بكر محمد بن محمد بن وشاح، المعروف بابن اللباد:

قال أبو عبد الله الخراط:

كان أبو بكر بن اللباد رجلًا صالحًا، فقيهًا جليل القدر، عالمًا باختلاف أهل المدينة واجتماعهم، مهيبًا مطاعًا.

سمع منه خلق عظيم من كثير من البلدان، أفلج في آخر عمره، سنة ثلاثين، وكان من الحفاظ المعدودين والفقهاء المبرزين.

[٧٠١] قال أبو الحسن علي بن إسماعيل المؤدب: كنت يومًا عند أبي بكر ابن اللّباد بعد أن أفلج فقال لأبي: يا أبا إسماعيل أقعدني.

فقال لي أبي: تعالَ أعني عليه يا بني، فقمنا إليه جميعًا فأجلسناه، فنظر إلى رجليه وهما ممدوتان وقد تغيّرتا ودخلتهما نفخة، فبكى وجرت دموعه على شيبته ثم قال: اللّهم ثبتهما على جواز الصراط يوم تزلّ الأقدام، فأنتَ العالم بهما والشاهد عليهما أنهما ما مشتا في معصية قط.

[٧٠٢] وقد كان مجاب الدعاء، قال أبو بكر -أيضًا- حدثني أبي قال:

كنّا عنده نقرأ عليه، حتى سمعنا فوق البيت حركة فصاح الشيخ بخادمه مارية وقال لها: انظري مَن هذا الذي فوق السطح، فرجعت إليه وقالت: ابن الثوام يطارد حمامًا.

فقال الشيخ: اللّهم أصلحه، فما كان إلا يوم أو يومين[1] حتى ضرب علينا الباب، فقال الشيخ للخادم: انظري من هذا؟ فقالت: جعفر بن الثوام.

فقال لها: افتحي له، فدخل فجلس في الحلقة والقارئ يقرأ، فكان يواظب معنا سماع

(١) كذا وردت.

العلم ويحضر معنا حلقة السبائي، ثم بلغ في العبادة مبلغًا عظيمًا.

[٧٠٣] وذُكر أيضًا أنه دعا على ثلاثة فأجيبت دعوته فيهم، فأما أحدهم فدعا عليه بالجنون، فكان يمشي في أزقة القيروان والصبيان يرمونه بالحجارة، وقد ذهب عقله، والثاني دعا عليه بالجلاء فمات في بلد السودان، والثالث دعا عليه بالعمى فعمي بعد ذلك.

[٧٠٤] وكان رحمه الله متقلِّلًا من الدنيا:

ذُكر أنه كان عنده زيت فأمر ببيعه أبا الحكم الزيات وكان قد اشتراه شراء رخيصًا، اشترى كل مائة وستين قفيزًا بدينار، فباعه له بثلاثين دينارًا عيونًا وأتى بها إليه، فبسط رجليه وأقبل وهو يصبّها من يد إلى يد وفرح بها ثم دفعها إلينا وقال: زكوها عليَّ، فوالله ما زكَّيت قبلها قط، قال: فزكيناها.

[٧٠٥] وكان كثير الصبر:

كانت له امرأة سليطة تؤذيه بلسانها ويقاسي منها أمرًا عظيمًا، فقال له الطلبة: طلِّقها ونحن نؤدي عنك صداقها. فقال لهم: حفظتها في والدها وذلك أني خطبت إلى جماعة من الناس فردوني، وقالوا: لا نزوج صاحب محبرة وقلم، فخطبت إلى هذا الرجل فلم يردني وزوجني ابنته لله - عزّ وجلّ - وكان يفعل معي جميلًا كثيرًا ويُرْفقني بما يقدر عليه، أفتكون مكافأتي لهذا الرجل طلاقي ابنته؟

[٧٠٦] وكان يقول: لكل مؤمن محنة وهذه محنتي.

[٧٠٧] وذكر أنها قالت له يومًا: يا زان.

فقال: سلوها بمن زنيتُ؟

فسألوها فقالت: زنى بالخادم.

فقال لهم: سلوها: لمن الخادم، لي أو لها؟

فسألوها فقالت: له.

فسأله الطلبة في طلاقها وتحمل صداقها فأبى وقال: أخشى إن طلقتها أن يُبتلى بها مسلم، ولعل الله -عزّ وجلّ- دفع عني بمقاساتي لها بلاء عظيمًا.

[٧٠٨] وكان ربما مضى إلى مسجد السبت للفرجة والراحة، وكان المسجد في ذلك الزمان بخلاف ما هو عليه في هذا الوقت، كان يحضره في هذا الوقت أهل الفضل والعبادة والنسك والإرادة، وكانوا يقولون فيه أشعار أبي معدان، وهي أشعار حسنة في الزهد والمواعظ، فكان في ذلك الوقت الذي كان ممنوعًا فيه من دخول الناس إليه يمضي إلى مسجد السبت، فلقيه رجل وهو سائر إلى المسجد فقال له -بعد أن سلّم عليه-:

إلى أين تمضي، أصلحك الله؟

فقال له: إلى مسجد السبت.

فقال له: وكيف -أصلحك الله- تمضي إليه وتخالف معلمك يحيى بن عمر، وقد كان ينهى عن حضوره، وألّف في ذلك كتابًا شدّد فيه النكير على من يحضره.

فقال له أبو بكر: وإذا فعل ذلك يحيى بن عمر فغلامه أنا لا أقدر أن أخالفه؟ ثم قال له: نحن قوم محبوسون نأتي إلى هذا المسجد للراحة والفرجة ونقترح عليهم أشعار أبي معدان فإن فيها الزهد، فسكت عنه الرجل.

[٧٠٩] وفي رواية: أنه رآه يخوض الطين، متوجهًا إلى مسجد السبت، وقد شمّر ثيابه فقال له: أصلحك الله، في هذا الطين، يعز على يحيى بن عمر لو رآك؟

فقال له أبو بكر: بس وأيش غلام يحيى بن عمر أنا؟ قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ﴾ [التوبة: ١٢٠].

وحضور هذا المسجد يغيظ بني عبيد، لعنهم الله.

[٧١٠] ولم يزل ممنوعًا من الفتوى والسماع واجتماع الطلبة حوله إلى أن توفي ﷺ.

وكان أبو محمد بن أبي زيد وأبو محمد بن التبان الفقيهان وغيرهما يأتون إليه في خفية، وكانوا ربما جعلوا الكتب في أوساطهم وحُجُرهم حتى تبتل بعرقهم خوفًا منهم على أنفسهم من بني عبيد أن ينالوهم بمكروه ﷺ.

[٧١١] قال أبو بكر محمد بن محمد بن إدريس عن أبيه قال: كنت جالسًا مع أبي بكر ابن اللباد على باب داره، فخرج رجل من جيرانه فنظر إلينا وانصرف ولم يسلّم على الشيخ، فأقبلت وأنا أنظر إليه، فلما رآني أنظر إليه قال لي: يا أبا عبد الله: دعه؛ فإن أزهد الناس في العالم قرابته وجيرانه.

[٧١٢] وقال مرة أخرى في مثل ذلك: ما قرب الخير قط من قوم إلا زهدوا فيه.

وفيها استشهد:

-أبو الفضل عبّاس بن عيسى بن العباس الممسي:

[٧١٣] الفقيه ﷺ واستشهد معه خمسة وثمانون رجلًا كلهم فاضل خَيِّر في حرب بني عبيد -لعنهم الله- مع أبي يزيد[1]، فالتقوا بالوادي المالح فقتل في التحام القتال، ولم توجد له جثة.

كان فاضلًا، عالمًا، صوامًا، قوامًا، وكان معه ورع كثير.

[٧١٤] قال أبو الأزهر: حدثنا عبد الوهاب بن حسين بن معتب قال:

كنت بسوسة في شهر رمضان، وكان معي رجل أندلسي، فأرسل إليَّ كعكًا معجونًا بالسكر من القيروان، وكان أبو الفضل نازلًا في الموضع الذي نحن فيه، فبعثت إليه من ذلك الكعك مع الأندلسي، فردّه على الأندلسي وقال له: يعزُّ عليَّ لست آكل سكر صقلية.

قال الأندلسي: فقلتُ له: أصلحك الله لم؟

فقال: لأني أُخبرت أنه يُعمل من ضياع اقتطعها السلطان.

[٧١٥] قال أبو الفضل الفقيه رحمه الله تعالى:

(١) هو أحد الخوارج لكن قام الفقهاء والعباد معه لأنه كان يقاتل العبيدين الباطنيين.

ينبغي لمن أراد أن يتصدق بثلث ماله أن ينوي بذلك أداء التَبِعات التي عليه التي لا يعلم أهلها ويقدّم النية فإنه أولى من إخراجها مطلقًا.

[٧١٦] قال أبو الحسن بن الخلاف: وقلت أنا: وكذلك من أراد صلاة نافلة ينبغي له -على هذا- أن يصلّي صلاة يوم ينوي بذلك الصلوات الخمس فتكون هذه قضاء عن صلاة فائتة، أو صلاة صلاّها بتخفيف لا تجزئ، أو يكون قد نسيها.

[٧١٧] قال: وختم الله -تعالى- الكريم له بالشهادة بعد هذه الفضائل في جهاد بني عبيد، لعنهم الله.

[٧١٨] حدثنا أبو الحسن علي بن عبد الله القطان قال: سمعت أبا الفضل يقول، وقد جاءه بنو أبي سلاس في أيام أبي يزيد فخرج إليهم من داره حافيًا، فسمعته يقول لهم في كلام جرى بينهم: قد برح الخفاء، قتال هؤلاء القوم أفضل من قتال المشركين.

قال أبو عبد الله الفقيه الأجدابي: قلت لأبي الحسن:

أنتَ سمعتَ أبا الفضل يقول هذا؟

فقال: نعم؛ وأوصاني أبو الحسن - حينئذٍ- بطيّ هذا.

[٧١٩] واستنهضه الناس في الخروج مع أبي يزيد[1]، فقال لهم: أمهلوني الليلة.

فلما أصبح أتوا إليه فقال لهم:

اعزموا على عون الله -تعالى- فقد قرأتُ القرآن من أوله إلى آخره فما وجدتُ فيه ما يوجب القعود.

ورأى ﷺ أن الخروج مع أبي يزيد الخارجي وقطع دولة بني عبيد فرض لازم؛ لأن الخوارج من أهل القبلة لا يزول عنهم اسم الإسلام ويورثون ويَرِثون، وبنو عبيد ليسوا كذلك لأنهم مجوس زال عنهم اسم الإسلام، فلا يُتوارث معهم ولا يُنسب إليهم.

---

(١) هو أبو يزيد الخارجي الذي خرج على بني عبيد.

واختلف كيف كان سبب موت أبي الفضل - رحمه الله تعالى- فقيل: إنه سقط من على دابته في وقت الهزيمة فانكسر وركه، ثم مات بعد ذلك من دوس الدواب في وقت الهزيمة.

وقيل: بل وقعت فيه جراح في وقت القتال فأثخنته، فسقط إلى الأرض.

[٧٢٠] حدثنا الشيخ الفقيه أبو بكر بن عبد الرحمن عن بعض شيوخه قال:

حكى لي رجل من قرابة أبي الفضل، وكان ممن شهد المعركة، قال: لما انهزم الناس وقُتل منهم من قتل، أقبلتُ وأنا أمشي بين القتلى فإذا بأبي الفضل الممسي -رحمه الله- صريعًا مقتولًا، قال: فلما رأيته غلبتني العبرة وأقبلت وأنا أبكي، وكان بنو عبيد - لعنهم الله- تطلبوا جثته ليتشفوا منه، فبينا أنا كذلك إذا بجندي راكب على فرس، فلما رآني أبكي قال: من هذا الذي تبكي عليه؟

فقلت: رجل من قرابتي، فمضى عني وكفاني الله -عزّ وجلّ- شرّه، فلما غاب عني أخذت أبا الفضل -رحمه الله تعالى- فرميته في جرف وردمته عليه خوفًا أن يظهروا عليه فيتشفوا منه.

[٧٢١] وذُكر أنه لما سقط وقع ظهره إلى ناحية المهدية فمرَّ به رجل فقال له: تفضل وردّ وجهي إلى ناحية هذه المدينة لئلا ألقى الله -عزّ وجلّ- وأنا مُوَلٍّ ظهري إليهم.

[٧٢٢] وقال الحزامي البناء:

اعترض الناس في أيام أبي يزيد في الخروج معه إلى المهدية فاعترضت مع أبي الفضل، ثم بدا لي في الخروج وخفت فقعدت، فبلغنا بعد ذلك أن أبا الفضل وربيع القطان استشهدا فقلت: ماذا عوفيت منه؟ كِدْت أُقتل ويبقى أولادي يتامى، فرأيتُ في المنام كأنَّ نُجُبًا [١] عليها عماريات[٢] وعليها حلل تأخذ بالأبصار، فأقبلت وأنا أنظر إليها وأتعجب منها فإذا بأبي الفضل - رحمه الله تعالى- وهو في عمارية منها على نجيب وعليها حلل تخطف بالأبصار وهي تطير في الهواء، فناداني وقال لي: يا فلان: لو كنت معنا لنلت ما نلنا ولكنك تقول: ماذا

---

(١) النُجُب: جمع نجيب، وهو الجيد من الإبل.

(٢) كأنها الهوادج التي كانت توضع لأغنياء الناس على الإبل فيستريحون فيها.

سلمت منه؟ كدت أقتل ويبقى أولادي يتامى.

وفيها توفي:

- أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم بن تمام:

كانت أوصافه أوسع من أن يحملها كتاب، وكان جده أبو الجهم ولي إفريقية.

[٧٢٣] وسبب طلب أبي العرب العلم وملازمته له وتركه ما كان فيه آباؤه، قال:

أتيت يومًا وأنا حدث إلى دار يحي بن محمد بن السلام فرأيت عنده الطلبة، ورأيتُ أمرًا أعجبني وركنت إليه نفسي فعاودت الموضع، وكنت آتي إليه والطرطور على رأسي، ونعل أحمر في رجلي، في زيّ أبناء السلاطين، وكان الطلبة ينقبضون عني من أجل ذلك الزي، فقال لي رجل يومًا بجواري:

لا تتزيّ بهذا الزي فليس هو زي طلبة العلم وأهله، ورفق بي فرجعت إلى أمي، فقلت لها: نلبس الرداء وثيابًا تشاكل لباس أهل العلم والتجار، فأبت عليَّ من ذلك وقالت: إنما تكون مثل آبائك وأعمامك.

قال أبو العرب: فاحتلت حتى اشتريت ثيابًا وجعلتها عند صباغ في باب أبي الربيع، فكنت إذا أتيت من القصر القديم أتيتُ بذلك الزي الذي تحبه أمي ووالدي، فإذا وصلت إلى باب أبي الربيع ودخلت حانوت الصبّاغ خلعتها ولبست الأُخَر المرفوعة عنده، ومضيت إلى دار يحيى بن محمد بن السلام، فإذا انصرفت من عنده ووصلت إلى حانوت الصباغ رفعتها ولبست الثياب التي جئت بها.

[٧٢٤] ثم قال لي رجل من أصحابي: أراك تلازم هذا المجلس وتسمع فيه العلم ولا تكتب شيئًا مما تسمع بيدك يكون عندك، ما هذا حقيقة طلب العلم.

فقلت له: والداي رغبا عن هذا وعن المعونة عليه، وما مكناني من شيء أشتري به الرَّق[1].

فقال لي: أنا أعطيك جلدًا تكتبه لنفسك، وتكتب لي جلدًا عوضًا منه، فرضيت له بذلك،

---

(١) أي الورق.

فكنت أكتب لنفسي ما شئت وأكتب له في جلوده ما يحب، حتى يسر الله -عزّ وجلّ- لي ما اشتريت به الرَّق وما قويت به على طلب العلم.

[٧٢٥] وكتب -رضي الله عنه- بيده كتبًا كثيرة، أكثر من ثلاثة آلاف كتاب.

وكان ضابطًا كثير التقييد لكتبه، عالمًا بما فيها.

[٧٢٦] وكان -رحمه الله تعالى- أحد من عقد الخروج على بني عبيد في أيام أبي يزيد، قال أبو عبد الله الحسين بن سعيد الخراط:

لما بلغني أن الفقهاء اجتمعوا في الجامع في تدبير الخروج مع أبي يزيد إلى المهدية بكَّرت إلى الجامع فأصبت أبا العرب بن تميم، وأبا الفضل الممسي وأبا سليمان ربيع بن سليمان القطان، وأبا عبد الملك مروان، وأبا إسحاق السبائي وغيرهم، فتكلموا في الخروج وتناظروا حتى قال أبو العرب: اسكتوا اسكتوا... فسكت الناس فقال: حدثني عيسى بن مسكين عن محمد بن عبد الله بن سنجر يرفعه إلى النبي ﷺ أنه قال: **«يكون في آخر الزمان قوم يسمون الرافضة فإن أدركتموهم فاقتلوهم فإنهم كفار»**[1]، فلما تم الحديث كبَّر الناس وارتفعت أصواتهم، ثم خرجوا وابن القصطلية المُعَبِّر يقرأ: ﴿ **مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ** ﴾ [التوبة: ١٢٠] الآية.

[٧٢٧] ولما حاصروا المهدية سمع الناس على أبي العرب ﷺ في الموضع كتابي الإمامة لمحمد بن سحنون ﷺ فقال أبو العرب عند ذلك:

كتبت بيدي هذه ثلاثة آلاف كتاب وخمسمائة كتاب فوالله الذي لا إله إلا هو لقراءة هذين الكتابين عليَّ في هذا الموضع أفضل عندي من جميع ما كتبت.

[٧٢٨] وكان -رحمه الله تعالى- يصنع الشعر ويجيده، فمن ذلك قوله:

فما تُنسني الأيام لم أنس جِبَّتي ... ومجلسنا والشمل لم يتبددِ

---

(١) قال المحقق: لم نعثر على نص هذا الحديث في كتب الحديث المعتمدة، وقد روى الإمام أحمد في مسنده ج١ ص: ١٠٣، حديثًا قريبًا من هذا قال علي بن أبي طالب: قال رسول الله ﷺ يظهر في آخر الزمان قوم يسمون الرافضة يرفضون الإسلام.

ولما رأيتُ الشيب عمّم مفرقي ففكرت فعل الخائف المتزهد
وأقصرت عن ذكر الصِّبا وهجرته وصرتُ فريدًا لا أبالك أوحد

[٧٢٩] وقال أيضًا:

ضعفت حيلتي وقلَّ اصطباري وإلى الله أشتكي كل ما بي
وهن العظم بعد أن كان صلبًا وفقدت الشباب أي شباب
ولقد كنت والشباب لباسي أسحب الذيل عابثًا في الثياب
وتراني أميس كالغصن حسنًا وقذالي كمثل ريش الغراب(١)
وترى الغانيات نحوي صورًا يتراءين مرجعي وذهابي(٢)
ولقد كنَّ يشتهين حديثي فأدعهن خشية للعقاب

***

(١) القذال هو الشعر على مؤخر الرأس فوق القفا، وانظر «المعجم الوسيط»: ق ذ ل.
(٢) قال المحقق: الصور -بالتحريك- الميل.

ثم كانت سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة

وفيها توفي:

-أبو عبد الله محمد بن الفتح المؤدب المرجي:

كانت له أوصاف جليلة.

[٧٣٠] وكان أحد من عقد الخروج في الجامع على بني عبيد لكنه لم يخرج لزمانته وضعفه.

[٧٣١] كان يخرج إلى مقبرة باب سلم فيستتر خلف حائط، فيقرأ هنالك على أصحابه للخوف من بني عبيد والوجل منهم، لأنهم -لعنهم الله- منعوا من بث العلم وسجنوا أهل العلم في ديارهم.

[٧٣٢] وكان -رحمة الله عليه- من أهل التحقيق في التصديق بكرامات الأولياء، وكان يقول: من أنكر الكرامات فليس من أهل المدينة[1] ولا كرامة، لأنها زيادة في الإيمان وجمال للمذهب، والقول بها رد على المعتزلة وبغض فيهم، وما أدركت أحدًا أقتدي به في ديني بالمشرق ولا بالمغرب إلا وهو يقول بالكرامات ويتزين بذكرها في كل الأوقات.

-أبو إسحاق إبراهيم بن محمد القصري المتعبد، رحمه الله تعالى:

أوصافه جميلة حسنة.

[٧٣٣] ذكر ابن التبان الفقيه عنه أنه قال: رأيت النبي ﷺ في المنام ستين مرة.

[٧٣٤] وكان كثير النياحة والبكاء إذا جن الليل، وكان مستجاب الدعاء.

[٧٣٥] قال أبو الربيع سليمان بن محمد: كنت أدخل إلى إبراهيم القصري، ويده مبسوطة وهو يقول:

---

(١) أي ليس على مذهب مالك.

اللّٰهم أنزل بقلبي منك فرحة لا تنقضي، ومحبة لا تنجلي، واكشف الغطاء عن قلبي حتى يرى من عظمتك وسلطانك ما تعتقني به من رِقّ الدنيا، اللّٰهم عظم قدرتك في قلبي حتى إذا هممت بذنب أو أردته كانت هيبتك وعظمتك والحياء منك يمنعي من ذلك.

[٧٣٦] وكان يقول:

إليك أسندت ظهري الضعيف، وبك تتم آمالي، وإليك ترفع أعمالي، وقد رفعت خبري إليك، وقد قصرت آمالي كلها إلا فيك، وماذا عاديت فيك، وماذا أبغضت فيك، وماذا أحببت فيك، وماذا واليت فيك.

اللّٰهم احشرني مع أحبائك وأوليائك، ولا تحشرني مع أعدائك يا أرحم الراحمين.

[٧٣٧] قال أبو الحسن الزعفراني:

بينا أنا ليلة مع أصحاب لي ومعنا أبو إسحاق القصري، وكان معنا قارئ فقرأ، ثم اندفع بعد القراءة يقول:

من كان يرجو بأن يلقى سلامته ... يوم الحساب ولا يفزعه مورده
فليحفظ الله في أسرار خلوته ... ولا يغيب عن الإجلال مشهده

فقام أبو إسحاق، فجثا على ركبتيه بين يدي ذلك القارئ، وقال للقوَّال: أعد، فوالله ما زال ذلك القوَّال يردّد وأبو إسحاق جاث على ركبتيه بين يدي القارئ يبكي وينتحب وينوح حتى هجم الصبح.

[٧٣٨] قال أبو الحسن: فما شبَّهت ليلتنا هذه إلا بحكاية حكاها لي ابن سلم -وكان ابن سلم هذا رجلًا يحسن القول، وكان ساكنًا بسوسة- قال: كان عندنا بسوسة رجال صالحون من أهل الرقة، فاجتمعوا ذات ليلة وحضرتُ معهم، فأنشأت أقول:

طوبى لمن سبقت له دار الرضى ... وجرى له قدر بها مقدور
فغدا غداةَ الحشر من ظُلَم الثرى ... وكتابه بيمينه منشور

فأخذوا في النياحة والبكاء وأنا أردّد البيتين حتى هجم الصبح.

وفيها توفي:

-أبو يحيى حشيش بن يحيى بن محمد بن حشيش:

[٧٣٩] كانت أوصافه جميلة وله صدقة ومعروف، وكان كثير المال، له آبار مُسَبّلة لوجه الله -عزّ وجلّ- على ساحل البحر، ومساجد كثيرة بالقيروان، وكان بزازًا.

[٧٤٠] ذُكر أن شيبة بن زنون مرّ بمنزل حشيش الأكبر ليلة فسمعه وهو يقول:

والله يا ملعون لأخرجنها على رغم أنفك، وغلامي فلان حرّ، وغلامي فلان حر، وغلامي فلان حر لوجه الله، فأعتق أربعة مماليك.

وأصبحت بكرة فقلت له:

أكرمك الله يا أبا يحيى، إني مررت بمنزلك ثم قص عليه القصة وما سمع منه.

فقال له: هذا وقت زكاتي، فأخرجت ما يجب لله -عزّ وجلّ- علي، فكرّه إليَّ إبليس، ووسوس لي من كل وجه، فأعانني الله -عزّ وجلّ- عليه حتى كان ما سمعت.

[٧٤١] وكان الذي أخرج في تلك السنة ألفي دينار زكاة ثمانين ألفًا، وكان ذلك كله من كسبه وفائدته، ولم يرث من مال أبيه شيئًا لقربه من السلطان؛ لأن أباه رضيع الأمير إبراهيم بن الأغلب، ولي بعض معادن إفريقية.

[٧٤٢] حدثنا أبو يحيى حشيش بن يحيى الأموي قال: كان عندنا ببلد قبودة ديماس[1]، فإذا هبت الريح كان لها فيه دوي وصوت، فهبت ريح عاصف، ذات يوم، فانهدم من الكوة التي تدخل منها الريح فتح كبير إلى بيت كالأزج فأصيب فيه شيء مكتوب في لوح من حجارة بالمسند[2]، فبعد دهر طويل أصابوا من عبّره لهم، فكان فيه:

---

(١) الديماس هو السرب المظلم والحمام والكِنّ، أي مطلق ما يُكنّ الإنسان من الحر والبرد والمطر: وانظر «المعجم الوسيط» د م س.

(٢) قال المحقق: بناء مستطيل مقوس السقف. المسند: خط لحمير باليمن مخالف لخطنا هذا.

إن الملوك بلاء حيث ما حلوا ... فلا يكن لك في أكنافهم ظلّ

ماذا تؤمل من قوم إذا سخطوا ... جاروا عليك وإن أرضيتهم ملّوا

فاستغن بالله عن إتيانهم أبدًا ... إن الوقوف على أبوابهم ذلّ

ومن صلحاء القيروان:

-أبو مالك سعد بن مالك الدباغ:

[٧٤٣] قال عبدالرحمن بن محمد: سمعت أبا مالك سعد بن مالك يقول:

إن الله – عزّ وجلّ – أنعم على العباد على قدره، وطلب منهم الشكر على أقدارهم.

[٧٤٤] قال وسمعته يقول:

من ظن أنه ببذل المجهود يصل فمتمنٍّ، كلاً ولكن يكون الجهد مبذولًا والله -عزّ وجلّ- مرجوًا.

وفيها توفي:

-ربيع، أبو سليمان، بن سليمان بن عطاء الله القرشي النوفلي:

ذكر شيء من أوصافه ومناقبه، رحمه الله تعالى:

[٧٤٥] كان حافظًا لكتاب الله عزّ وجلّ، قارئًا له بالروايات، عالمًا بتفسيره ومعانيه وغريبه، حافظًا لحديث رسول الله ﷺ عالمًا بمعانيه وعلله وغريبه، وأسماء رجاله وكناهم وقويهم من ضعيفهم.

[٧٤٦] قال ربيع:

كنت في حلقة الدينوري يوم الجمعةْ حتى همّت الشمس بالغروب، فقام لينصرف فقلت في نفسي: ليته لو قعد حتى يصلي المغرب في جماعة ثم ينصرف وهو يعلم ما جاء في فضل الجماعة، فوقف وقفة ثم قال: نعم يا بني أنا أخبرك لأي شيء انصرفت ولم أصل المغرب؛ لأن هؤلاء الباعة ينصبون هذه السُّرُج في طريق المسلمين في موضع لا يجوز لهم أن ينصبوها فيه، فأنا أكره أن أستضيء بسراج نصبه إنسان في موضع لا يجوز له نصبه فيه.

[٧٤٧] وكان لربيع أربعة إخوة كلهم صالحون فضلاء، وكان سليمان والد ربيع يجلس في الليل مع أولاده فإذا خطر في نفسه شيء يسأل عنه من العلم يقوم من مكانه ويجثو على ركبتيه بين يديه، فيقوم إليه ربيع ويقول: يا والدي: لم فعلت هذا؟

فيقول له: إنما أردتُ أن أعطي العلم حقه فيسأله عما يجب، فيجيبه ثم يرجع إلى مكانه، رضي الله عنه.

[٧٤٨] وكان ربيع القطان في أول عمره شديد الطلب للعلم، كثير الحرص، فلمّا تفقه أقبل على العبادة وترك دراسة العلم.

[٧٤٩] وكان قد نحل جسمه ورق عظمه حتى صار كالعود اليابس من صيام النهار وقيام الليل.

[٧٥٠] قال أحمد: وسمعتُ أخي ربيعًا يقول: إني لأستغفر الله -عزّ وجلّ- من ليال كنت أدرس فيها لأخطِّئ أبا الفضل الممسي.

[٧٥١] وكان قد جعل على نفسه ألا يشبع من طعام ولا نوم حتى يقطع الله -عزّ وجلّ- دولة بني عبيد، فختم الله تعالى له بالشهادة في قتالهم.

[٧٥٢] قال أبو محمد عبد الله بن يوسف الجبي المتعبد بالمنستير:

كنت يومًا جالسًا عند ربيع القطان والمجلس محتفل، فوقع بقلبي شيء فأقلقني، فتربصت لينصرف الناس فلم أقدر، وقمتُ قائمًا وقلت: أصلحك الله -عزّ وجلّ- مسألة.

فنظر إليَّ وقال لي: اجلس، فجلست ساعة، فاحترق قلبي فقمت فأعدت الكلام.

فنترني وقال: اجلس.

فغضبت وقلت له: ويحك: يحل لك تكتم العلم؟

ثم خرجت، فأقمت أيامًا ثم قلت لنفسي: حيث قطعت حظك من ربيع فلن يبالي هو بك، مضيت إليه أم تأخرت عنه، إنما وقع الضرر بك لما يفوتك منه من الخير.

[٧٥٣] قال: فمضيت إليه، فوجدت الباب مردودًا بلا حديدة، وكانت علامةَ جلوسه،

فدخلت إليه ولم أستأذن، فوجدته جالسًا على رجليه، وقد أخذته حالة وهو يبكي ويقول في بكائه:

أنـــت دائـــي ودوائـــي　　أنـــت عـــزّي ومُنـــاي

أنـت فخـري، أنـت ذخـري　　أنـــت كنـــزي وغِنـــاي

قال: فبقيت أنظر إليه وقد هاج في حاله، فسلّمت عليه، فانتبه من حاله وقال:

مرحبًا بك، ثم قام إليَّ، فأخذ بأطواقي فجمعها عليّ، ثم جلس بي في وسط البيت وقال لي: صارت لك نفس تغضب وتَنْزق[1].

فقلت له: أصلحك الله: أي شيء أعملُ، وقع بقلبي شيء فاحترقت، فقمت إليك أرجو الفرج وأنت تُجلسني؟

[٧٥٤] فقال لي: قد رأيتك وحسست بك، فما مسألتك؟

فأخبرته بها، فقال لي: فتلومني على نزقي عليك، فهذه مسألة ينبغي أن لا تُذكر قدَّام الناس، الجواب فيها كذا كذا.

قال أبو عبد الله الأجدابي الفقيه: المسألة التي أنشأها أبو محمد الجبي هي أنه سأله عن الوسوسة.

قلت له: إن العدو قد آذاني.

فقال لي: إنّ العدو إنما هو سارق، والسارق لا يدخل بيتًا خاليًا لا شيء فيه، إنما يدخل بيتًا عامرًا، ولكن إذا قال لك هكذا -وأشار بيده إليه كأنه يتناول شيئًا- فقل له أنت هكذا: ورفع رأسه إلى السماء ومدّ يديه داعيًا إلى الله سبحانه، فالجأ إلى الله -عزّ وجلّ- في كشف ما طرأ عليك منه فإنه يذهب.

[٧٥٥] وكان -رحمة الله عليه- يتكلم على الأحوال:

لقد ذكر أبو علي حسن بن فتحون الخراز قال: كنت كثيرًا ما أغشى مجلس أبي سليمان ربيع القطان أريد سؤاله عن أشياء تختلج في صدري، فأُجله فما أقوم من مجلسه حتى يتكلم

---

(١) قال المحقق: نزق: طاش وخَفّ عند الغضب.

عن شيء أردت سؤاله عنه، فأنصرف بعلم ما أردت بلا مسألة دارت بيني وبينه.

[٧٥٦] ولقد كنت عنده يومًا حتى ذكر من بعض كرامات الأولياء ما هالني ذكره وتردد في قلبي خطره، فنطق وقال: ﴿ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ ﴾ [هود: ٧٣]، فأزال الله ما كان بقلبي وقلت: نعم، الملك واسع والقدرة أعظم.

[٧٥٧] ومن براهينه وفضائله أيضًا ما ذكره أخوه أبو جعفر أحمد بن سليمان القطان بخطه، قال: أخبرني أخي ربيع قال:

رأيتُ في المنام كأني أمشي في الهواء كالمشي على الأرض، وإذا بقباب مضروبة وحشم وجمع كثير مثل اجتماع العساكر، فوقع في قلبي أن الله -عزّ وجلّ- في ذلك المكان، فبينا أنا أتأمل من ذلك الجمع وأتهيبه جاءني آتٍ فقال لي: إنك تُدعى للدخول، فمضى بي حتى وقف عند الحُجُب، فأحضرت ذهني وعدّلت أموري وعلمت أني أدخل على ملك عظيم، ثم رفع الحجاب وقال لي: قد أذن لك بأن تدخل، فدخلت فرأيت الله -عزّ وجلّ- جالسًا على سرير كهيئة جلوس الملك، فلمّا دنوت منه قال لي:

ربيع بن سليمان؟

قلت: نعم يا رب.

فقال لي: سل يا ربيع سل.

فقلت: نعم يا رب، أسألك من خزائن علمك علمًا ينفعني.

ثم قال لي: انظر إلى الأرض، فانبطحت على صدري في الهواء بمنزلة ما يعوم المرء في الماء، فنظرت إلى الأرض فرأيت الناس وهم في هيئة الذر يمشون، فقال لي: كيف تراهم؟

فقلت: نعم يا رب منهم مَن عليه ضياء ونور، ومنهم مَن لا نور عليه.

فقال لي: أتدري من أولئك الذين عليهم الضياء والنور؟ فقلت: لا يا رب.

فقال: أولئك أراذيّنا[1] في الدار، فميّزت منهم يسيرًا.

[٧٥٨] وكان -رحمه الله- قد تحقق عنده أنه لا بدّ له من الشهادة، فكان ذلك يجري على

(١) قال المحقق: الرذيّ: الضعيف من كل شيء.

لسانه، وإنما ذلك لرؤيا رآها، قال أحمد بن سليمان -رضي الله عنه-:

دخلت على أخي ربيع -رحمه الله- مرة فأصبته جالسًا في البيت نصف النهار، وهو ساكت متفكر، فقلت له: مالي أراك يا أخي متفكرًا؟

فقال لي: تفكّرت في أمري وفيما يراد بي.

فقلت له: في ماذا؟

فقال لي: يُراد بي وبرأسي هذا أمر عظيم!

فقلت له: وكيف ذلك؟

فقال لي: رأيت رؤيا لها مقدار عظيم.

فقلت له: وما هي يا أخي؟ وأقسمت عليه.

قال: رأيت الحق -جلَّ ذكره- في المنام فأمرني أن أدنو منه، فدنوت منه، فشرّف موضعًا من رأسي وعظَّمه، وهو ما بين صدغي وأذني من الجانب الأيسر، وأشار بيده إلى ذلك المكان.

فكانت الوالدة -رحمها الله تعالى- سألته إذا حلق الحجَّام ذلك المكان أن تأخذ ما اجتمع فيه من الشعر، فاجتمع لنا من ذلك شيء كثير، فلما ماتت أوصت أن يدفن معها لتتبرك به، فَضُرِب في ذلك الموضع بالسيف حين جهاده لبني عبيد، فحصلت له الشهادة بتلك الضربة، رضي الله عنه وأرضاه.

قال حسن بن فتحون الخرَّاز: قال لي ربيع:

يا حسن ليُدَارنَّ بهذا الرأس - وأشار إلى رأسه- فشاء الله تعالى أن دِير برأسه بطرابلس.

[٧٥٩] وعوتب -رحمه الله تعالى- في خروجه مع أبي يزيد إلى حرب بني عبيد[١]، فقال:

وكيف لا أخرج وقد سمعتُ الكفر بأذني، فمن ذلك أني حضرت يومًا إشهادًا، وكان فيه جمع كثير، أهل سنة ومشارقة[٢]، وكان بالقرب مني أبو قضاعة الداعي، فأتى رجل مشرقي من أعظم المشارقة، فقام إليه رجل من المشارقة

---

(١) وذلك لأن أبا يزيد كان خارجيًا.

(٢) أي الشيعة الباطنية.

وقال له: إلى ها هنا يا سيدي ارتفع إلى جانب رسول الله ﷺ -يعني أبا قضاعة، ويشير بيده إليه - فما أنكر أحد منهم شيئًا من هذا، فكيف يسعني أن أترك القيام عليهم؟

[٧٦٠] وروي بخطه -رحمه الله تعالى- قال:

لما كان في رجب سنة إحدى وثلاثين[١] قام الصبي المكوكب يقذف الصحابة ويطعن على النبي ﷺ، وعُلقت عظام رؤوس أكباش وحمير وغيرها على أبواب الحوانيت والدروب عليها قراطيس معلقة مكتوب فيها أسماء رءوس الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- فلما رأى ذلك ربيع لم يسعه التأخر عن الخروج عليهم لما أن وجد رجلًا من أهل القبلة قام عليهم[٢]، وكذلك كان جميع الشيوخ يتأولون.

[٧٦١] قال الشيخ الفقيه أبو بكر بن عبدالرحمن الخولاني: حدثنا أبو الحسن الفقيه -رحمه الله تعالى- قال:

خرج الشيخ أبو إسحاق السبائي -رحمه الله تعالى- مع شيوخ إفريقية إلى حرب بني عدوّ الله مع أبي يزيد، فكان أبو إسحاق يقول -ويشير بيده إلى عسكر أبي يزيد-: هؤلاء من أهل القبلة، وهؤلاء ليسوا من أهل القبلة -يريد عسكر بني عدو الله- فعلينا أن نخرج مع هذا الذي من أهل القبلة لقتال مَن هو على غير القبلة -وهم بنو عدوّ الله- فإن ظفرنا بهم لم ندخل تحت طاعة أبي يزيد، لأنه خارجي، والله -عزّ وجلّ- يسلّط عليه إمامًا عادلًا فيخرجه من بين أظهرنا ويقطع أمره عنّا.

والذين خرجوا معه من الفقهاء والعبّاد: أبو العرب بن تميم، وأبو عبد الملك مروان بن نصرون، وأبو إسحاق السبائي، وأبو الفضل الممسي، وأبو سليمان ربيع القطان مع جماعة من العراقيين.

[٧٦٢] وقيل لأبي الحسن بن الخلاف: ما الذي عاق أبا ميسرة عمّا فعل أصحابه؟

قال: ذهاب بصره، ولكنه قد أخرج محمدًا ابنه وقال: أدخلني الله -تعالى- في شفاعة

---

(١) أي وثلاثمائة.

(٢) أي أبا يزيد الخارجي.

أسود رمى على هؤلاء القوم حجرًا، وشهق الشيخ أبو الحسن بالبكاء.

[٧٦٣] فقيل لأبي الحسن: إن أبا سعيد ابن أخي هشام لم يخرج؟

فقال: قد شهر أبو سعيد السيف وحمله على عاتقه مُصْلتًا، وهذا غاية في أنه يقول بقول الشيوخ في الخروج عليهم، فقال له بعض من حضر: كان أبو سعيد يذكر أن الجبن منعه من حضور الحرب.

[٧٦٤] ويذكر أن أبا الفضل الممسي تكلم في أمر الجهاد للمشاركة مع الشيوخ، وكان من بعض خطابه أَنْ قال لهم:

إن كنتم تعزمون عزيمة رجل واحد وتجتهدون في هذا الأمر فإني لا أضن بنفسي عنكم.

فقال له أبو إسحاق السبائي: جازاك الله يا أبا الفضل عن الإسلام وأهله خيرًا، أي والله نشمّر ونجد في قتال اللّعين المبدّل للدين، فلعل الله أن يكفّر عنا بجهادنا تفريطنا وتقصيرنا عمّا يجب علينا من جهادهم.

فكلّمهم أبو الفضل واحدًا واحدًا فقال ربيع القطان: أنا أول من يَشْرَعُ في هذا الأمر ويخرج فيه، ويندب الناس إليه ويحضّهم عليه.

وتسارع جميع الفقهاء والعباد، فلما كان الغد خرج أبو العرب، وخرج جميع الفقهاء ووجوه التجار إلى المصلّى بالسلاح الشاك[1] والعدّة العجيبة التي لم يُرَ مثلُها، وضاق بهم الفضاء.

وتواعد الناس أن ينظروا في الزاد وآلة السفر إلى يوم السبت، وذلك يوم الاثنين، وركب بعض الشيوخ إلى الجامع بالسلاح، وشقّوا سماط القيروان، وزادوا في استنهاض الناس.

فلما كان يوم الجمعة اجتمعوا في الجامع، وركبوا بالسلاح الكامل، وعملوا البنود والطبول، وأتوا بالبنود فركزوها قبالة باب المسجد الجامع، وهو المعروف بالحدّادين، وكانت سبعة بنود:

(١) أي التام.

- بند أصفر لربيع بن سليمان القطان ﷺ مكتوب عليه:

البسملة ومعها لا إله إلا الله محمد رسول الله.

- وفي الثاني، وهو لربيع أصفر أيضًا:

﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ١٣] على يد أبي يزيد، اللّهم انصره على مَن سبّ نبيك.

- وفي الثالث، وهو أصفر، لأبي العرب بعد البسملة:

﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢].

- وفي الرابع، وهو بند أحمر، لعباس الممّسي: لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

- وفي الخامس، وهو بند أخضر، لمروان المتزهد، بعد البسملة:

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤].

- وفي السادس، وهو بند أبيض، للسبائي، بعد البسملة:

لا إله إلا الله محمد رسول الله، أبو بكر الصديق، عمر الفاروق.

- وكان ثَمّ بند سابع، وهو لإبراهيم بن العمشاء، وكان أكبر البنود، لونه أبيض، فيه: لا إله الله محمد رسول الله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.

[التوبة: ٤٠]

[٧٦٥] فلما اجتمع الناس وحضرت صلاة الجمعة طلع الإمام على المنبر، وهو أحمد بن محمد بن أبي الوليد -وكان الممّسي هو الذي أشار به- وخطب خطبة أبلغ فيها، حرض الناس على الجهاد وأعلمهم بما لهم فيه من الثواب، وتلا هذه الآية: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ [النساء: ٩٥] الآية. وقال:

يا أيها الناس جاهدوا من كفر بالله، وزعم أنه رب من دون الله -تعالى- وغيّر أحكام الله، عزّ وجلّ، وسب نبيه وأصحاب نبيه وأزواج نبيه.

فبكى الناس بكاء شديدًا، وقال في خطبته:

اللّهم إن هذا القرمطي الكافر الصنعاني المعروف بابن عبيد الله المدعي الربوبية من دون الله، جاحدًا لنعمك، كافرًا بربوبيتك، طاعنًا على أنبيائك ورسلك، مكذّبًا لمحمد ﷺ نبيك وخيرتك من خلقك، سابًا لأصحاب نبيّك وأزواج نبيّك، أمهات المؤمنين، سافكًا لدماء أمته، منتهكًا لمحارم أهل ملّته، افتراء عليك، واغترارًا بحلمك.

اللّهمّ فالعنه لعنًا وبيلًا، واخزه خزيًا طويلًا، واغضب عليه بكرة وأصيلًا، واصله جهنم وساءت مصيرًا، بعد أن تجعله في دنياه عبرة للسائلين، وأحاديث في الغابرين، وأهلك اللّهم شيعته، وشتّت كلمته، وفرّق جماعته، واكسر شوكته، واشف صدور قوم مؤمنين منه.

ونزل فصلّى الجمعة ركعتين وسلّم، وقال: ألا إنّ الخروج غدًا يوم السبت، إن شاء الله تعالى.

[٧٦٦] وركب ربيع القطان فرسه وعليه آلة الحرب وفي عنقه المصحف، وحوله جمع من الناس من أهل القيروان متأهبون معدّون لجهاد أعداء الله، عليهم آلة الحرب، فنظر إليهم ربيع القطان، فسُرّ بهم وقال: الحمد لله الذي أحياني حتى أدركت عصابة من المؤمنين اجتمعوا لجهاد أعدائك، وإعزاز دينك، يا رب بأي عمل وبأي سبب وصلتُ إلى هذا؟ ثم أخذ في البكاء حتى جرت دموعه على لحيته، ثم قال لهم: والله لو رآكم محمد رسول الله ﷺ لَسُرَّ بكم.

[٧٦٧] وقال في موطن آخر بعد أن أنصت الناس:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣].

ثم قال: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾

﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٣-١٥].

ثم أشار بيده وقال: اذكروا الله يذكركم، فكبّر الناس، ومشى حتى بلغ الجامع، وأبو سعيد بن أخي هشام الفقيه تحت ركابه، فاستشهد ربيع القطان -رحمه الله تعالى- في قتال أعداء الله يوم الاثنين في صفر من سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة.

[٧٦٨] وكان غرض المجوس بني عبيد - لعنهم الله- وشهوتهم أخذ ربيع حيًّا ليتشفوا منه، قال الشيخ الفقيه أبو الحسن بن القابسي -رحمه الله-: فلما تلاقوا في القتال أقبل ربيع وهو يطعن فيهم ويضرب وهم يتوقفون عن طعنه طمعًا أن يأخذوه حيًّا، فلما أثخنهم بالضرب والطعن حمل عليه جماعة منهم فقتلوه، وما ولّى دُبرًا - رحمة الله عليه ورضوانه-.

[٧٦٩] واستشهد معه فضلاء وأئمة وعباد وصالحون، ذكر أبو القاسم اللبيدي -رضي الله عنه- قال:

قال لنا الشيخ أبو الحسن علي بن محمد الفقيه -رضي الله عنه- أخبرنا شيوخنا الذين أدركناهم: أن الذين ماتوا في دار البحر بالمهدية من حين دخل عبيد الله إلى الآن أربعة آلاف رجل، في العذاب، ما بين عالم وعابد ورجل صالح، ولذلك يقول سهل الورّاق -رضي الله عنه-:

وأَحَـلّ دار البحـر في أغلالـه ... مـن كـان ذا تقـوى وذا صـلوات

[٧٧٠] وقال بعض الشعراء في هجو بني عبيد الله - لعنهم الله تعالى-:

المـاكر الغـادر الغـاوي لشيعته ... شرّ الزنـاديق مـن صـحب وتُبّـاع
النـاكثين عهـودَ الله كلهـم ... قـوم إلى سـفه في النـاس أوضـاع
العابـدين إذا عجـل يخـاطبهم ... بسـحر هـاروتٍ مـن كفـر وتبـداع
لـو قيـل للروم أنتم مثلهم لبكـوا ... أو اليهـود لسـدّوا صـمْخَ أسـماع
ولـو عزينـا إلى إبلـيس مـا مكـروا ... لقـال إبلـيس: مـا هـذا مـن اطبـاعي

ولقد رئي لربيع، بعد وفاته، رؤى كثيرة مما يدل على شهادته وصدق نيته.

- **محمود أخو ربيع القطان:**

وكان له أخ اسمه محمود -رحمة الله عليه- كان ذا أوصاف جليلة وظهرت له إجابات وكرامات.

[٧٧١] قال مكي بن يوسف الأبزاري:

رابطنا ومحمود معنا، ونحن على الساحل، فأصابني عطش، فشكوت ذلك وقلت: لا أستطيع أن أصبر.

فقال لي: تعالَ، فدخل البحر فوقف فيه ثم غرف بيديه جميعًا فشرب من ماء البحر، ثم غرف ثانية وقال لي: اشرب، فشربت من يديه حتى ارتويت وزال عطشي، فغرفت أنا بيدي لأشرب فوجدت ماء البحر، فألقيته من فمي، وعلمت فضله، ثم مشينا.

وكان ﷺ حُبّب إليه في صباه حضور الجنائز والصلاة عليها، والصلاة في الخلوة، والمشي بين المقابر والمواضع الخالية من الناس.

[٧٧٢] وكانت والدته عملت له قميصًا فلبسها، ثم إنها رأته يلبس قميصًا مرقعة بعد ذلك، فسألته عن القميص التي عملت له، فقال لها: ذهبت، فاستقصت الوالدة على خبرها، فأُخبرت أنه باعها واشترى بثمنها قمحًا وتصدّق به على الفقراء في دار حجَّاج الزقاق، وتولى إعطاءه لمساكين حجاج، فلما صحّ عندها الخبر قامت إليه فضربته ضربًا شديدًا، وأغاظها ذلك من فعله وقالت له: عملتها لك بيدي لتفرح بها فنزعتها عن بدنك وبقيت في خُلقان[1]، أخبرني ما كان سبب بيعها وأنت تأكل مع إخوتك كلما يأكلون، ولم تحتج إلى نفقة، ولا عسر بك أمر؟

فقال لها: نعم، هو كما قلت، ولكن تفكرت أن عليّ أيمانًا بالله -تعالى- وجبت عليّ فيها الكفارة، فلم أُرِد أن آخذ من شيء لم يؤذن لي فيه، وقميصي هي ملك لي ولا يقبل الله -سبحانه- إلا ما كان طيبًا، فما رأيت شيئًا طيبًا ليس لأخوتي فيه ملك ولا شركة غيرها فبعتها، وكفرت الأيمان التي وجبت عليّ قبل أن أموت، ولقد شق علي غضبك، وشغل سرّك،

---

(١) أي ثياب بالية.

فاجعليني في حل، فوالله ما أردت بفعلي هذا إلا مرضاة الله -تعالى- فتغلغلت الدموع في عيني والدته، ثم سألته أن يجعلها في حلّ من ضربها له، ففعل.

وكانت قبل ذلك تؤذيه بلسانها وتصيح عليه وتؤنبه، فلما رأت صدق نيته في طلب ما يقرّب إلى الله -تعالى- أمسكت عنه وعطفت عليه، ولاطفته في أموره وسارعت إلى ما يسره من الخير.

[٧٧٣] وكان له -رحمه الله تعالى- دعاء وكلام من الحكمة، فمن دعائه أنه كان يقول:

اللّهم آنسني بك في الخلوة، واحفظ عليَّ أسباب العزلة، وسلّمني في المجالسة والمخالطة.

[٧٧٤] وكان يقول: ألا أخبركم بالحازم العازم، الذي قال:

﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾[الحاقة: ١٩، ٢٠].

***

ثم كانت سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة

وفيها توفي:

-أبو محمد الأوساني، المتعبد بالمنستير ﷺ:

[٧٧٥] كان مشهورًا بالعبادة، كان إذا صلى بكى، وإذا تحدث بكى، حتى عَمِشَتْ عيناه.

[٧٧٦] كان صاحب أقوات معلومة: يخيّر نفسه عند إفطاره في نصف المد فإن اختارت دقيقًا أو سويقًا أو زبيبًا أو تمرًا أو تينًا، لم يطعم غيره إلى مثلها من الليلة القابلة.

[٧٧٧] وكان هِجِّيره[1]:

ما أبعد الطريقَ على مَن لم تكن دليله، وأوحشَها على مَن لم تكن أنيسه.

[٧٧٨] إلهي وأيُّ دهر لم يعصك فيه أهله فكنت أنت العوّادَ عليهم بالمغفرة.

وكان كثيرًا ما يقول:

يـــا أيهـــا الظـــالم في فعلـــه	والظلـم مـردودٌ عـلى مـن ظلـم
إلى متـــى أنـــت وحتـــى متـــى	تشـكو المصـيبات وتنسـى الـنعم

ومنهم:

-أبو إبراهيم ابن العربي، المتعبد ﷺ:

مذكور بالخير والدّين والحقائق، من أجلاء عبّاد الجزيرة، كان أبو العباس الإبياني يجله ويعظمه ويذكر مناقبه.

[٧٨٠] وكان من شأن عُباد الجزيرة إذا أرادوا التوجه إلى الحصون للرباط أتوا إليه وسألوه أن يمضي معهم رغبةً في صحبته، فيقول لهم: حتى أشاور والدتي -وكان بَرًّا بها، مطيعًا لها، مؤديًا لحقها- فيدخل إليها فيشاورها، فإن أذنت له مضى معهم، وإن أبت جلس وتركهم.

---

(١) أي الكلام الذي يلزمه.

فقالوا له يومًا: في مثل السير إلى الرباط وأبواب البر تشاور والدتك؟

فقال لهم: نترك ما هو أفضل لي من طاعة الوالدة ونخرج في ما هو أتعب لي وأشق عليّ وأقل أجرًا، بل أجري في طاعتها أكبرمن أجري في المواضع التي نتوجه إليها معكم، وذُكر عنه من إبرارها شيء عظيم.

[٧٨١] ولما قرأ كتاب آداب المعلمين[١] لمحمد بن سحنون -رضي الله عنهم- ترك التعليم وقال:

لله -عزّ وجلّ- عليّ لا علّمت أبدًا؛ وذلك أنه خاف أن يضعف عن القيام بالشرائط التي فيه، فتركه تورعًا.

***

---

(١) وهو كتاب مطبوع متداول.

ثم كانت سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة

وفيها توفي:

- أبو عبد الله محمد بن أبي المنظور عبد الله بن حسان الأنصاري القاضي، رحمه الله تعالى:

[٧٨٢] أصله من الأندلس، له رحلة إلى العراق وإلى اليمن.

ولي قضاء القيروان لإسماعيل بن أبي القاسم بن عبيد الله[١] سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة.

وتوفي وهو قاضٍ.

[٧٨٣] وكانت له عند أهل البلد جلالة، وأغلق عن نفسه باب السماع واعتذر بأنه لزمته يمين غليظة أن لا يُسمِع أحدًا من أهل القيروان، وربما أسمع الرجل الغريب.

[٧٨٤] وحجّ في رحلته، وولي القضاء وقد ناف على التسعين سنة، ولم يشب شعره؛ كان غرابيًا[٢].

[٧٨٥] وذُكر أنه لما شدّ عليه إسماعيل[٣] في ولاية القضاء، وقال له: لا ألتزم لك هذا الأمر إلا على أن لا آخذ لكم صلة، ولا أركب لكم دابة، ولا أقبل شهادة لمن طاف بكم أو قاربكم، ولا أذممكم في شيء ولا أحدًا بسببكم، ولا أركب لكم مهنئًا ولا معزيًا، فأجابه إلى ذلك والتزم له ما شرط عليه، وقال له:

فإذا لم تأخذ صلة فمن أين تعيش؟

فقال: بها أعيش الآن.

فقال له: فعلى ماذا تركب وأنت شيخ كبير؟

---

(١) هو سلطان الدولة العبيدية الباطنية الضالة.

(٢) قال المحقق: أي سواد شعره كسواد لون الغراب لأن العرب تضرب به المثل في السواد. ومن أمثالهم: دون هذا شيب الغراب «المعجم الوسيط» غرب.

(٣) السلطان الشيعي العبيدي.

فقال: الجامع قريب من داري أستطيع المشي إليه.

[٧٨٦] وكان -رحمه الله- قد سار بالعدل في أقضيته وإيثار الحق، لا تأخذه في الله -عزّ وجلّ- لومة لائم.

ذكر الشيخ أبو الحسن بن القابسي - رحمه الله تعالى- قال:

سبّ يهودي النبي ﷺ فرُفع إلى القاضي ابن أبي المنظور، وشهدت عليه البيّنة، فقال: ما الذي أعمل لم أُعْطَ السيف، فأخرج من داره منبرًا وقعد عليه على باب داره في الشارع الأعظم، قال: وأحضر اليهودي، فعرض عليه الإسلام، فأبى أن يسلم، فأجلسه ومدّ رجليه وقال لرجاله: خذوا بيده واجذبوه إلى أنفسكم حتى يتقوس ظهره، وأمر حاجبه راشدًا - وكان ذا قوة في الضرب- أن يضرب ظهره من حذو قلبه، فضربه راشد حتى غشي عليه، ثم أمر غيره فابتدأ في ضربه، فلم يزل يضربه حتى مات تحت الضرب، فقالوا له: مات أصلحك الله، فقال: الحق قتله، ثم أمرهم بدفعه إلى أهل دينه.

وإنما فعل ذلك -رحمه الله تعالى- لأنه لو رفع أمره لم يقتله بسبب السبّ، فأظهر إنما يضربه ضرب الأدب ليصل بذلك إلى قتله، فإذا قيل له: قتلته، قال: مات من ألم الضرب.

[٧٨٧] وذكر الشيخ أبو الحسن القابسي قال:

قام القاضي ابن أبي المنظور من مجلسه في الجامع منصرفًا إلى داره، فلما دخل من باب داره أحس في الدار حركة وشمّ رائحة طيبة، فدخل إلى بيته، فلما جلس قال له أهله:

سلاف داية السلطان جاءت إليك -وكانت سلاف هذه لم يكن عند إسماعيل أعزّ منها- وكان القاضي قد حبس نائحة وقد اشتهرت بالفسق ومخالطة السفهاء وشُهد عليها عنده بألوان من الفسق، فضربها وسجنها في الفلقة، قال: فقالت له:

سلام على القاضي.

فقال لها: مالك يا هذه؟

فقالت له: قضيب جارية السلطان.

فقال لها: مالها؟

فقالت: تقول لك: المسكينة قد انتهيت منها إلى ضربها وسجنها، وانتهيت منها إلى ما رأيت أنه الحق عندك، فأحب أن تخرجها وتطلق سبيلها، فقال القاضي لسلاف: والله يا مُنيتنة لولا... لأوجعتك ضربًا ولجعلتك في مكانها، إيش تحبوا[1] أن تجعلوا ظهر الشيخ السوء قنطرة؟ اذهبي لعنك الله -تعالى- ولعن من أرسلك.

قال: فولوت وشقت ثيابها وكشفت رأسها وذهبت إلى قضيب قال -وكانت قضيب ليس عند السلطان إسماعيل أعزّ منها، حتى أنه كان يقول لها: الناس كلهم عبيدي وأنا عبدك، وكان قد شغف بها- فذكرت لها ما قال القاضي، فدخلت بها إلى إسماعيل، فقال لها: مالك؟ وشق عليه ما رآه منها، لأنه كان يجلها، فذكرت له ما جرى.

فقال لها: إيش نعمل له؟ ما أخذ لنا صلةً، ولا ركب لنا دابة، ولا نقدر على عزله، ونحن نحب صلاح البلد.

قال: فانصرفت مخزية هي وقضيب.

وفيها توفي:

-أبو ميسرة أحمد بن نزار الفقيه:

كنيته أبو جعفر.

[٧٨٨] أراد إسماعيل[2] أن يوليه قضاء القيروان فامتنع من ذلك.

[٧٨٩] وكان من المجتهدين في العبادة، وكان -رحمه الله تعالى- يختم كل ليلة ختمة في محراب مسجده، فبينا هو ليلة في تهجده وبكائه بعدما أتى على صلاته إذا بنور عظيم خرج له من حائط المحراب، وبوجه وكأنه البدر فقال له: تملأ من وجهي يا أبا ميسرة، فأنا ربك الأعلى، فبصق في وجهه وقال له: اذهب يا ملعون فعليك لعنة الله -تعالى- فَطُفِئ ذلك النور من ساعته كسراب بقيعة، وإذا به إبليس -

---

(١) كذا وردت.

(٢) هو سلطان الشيعة الباطنية المتغلبين على تونس.

لعنه الله- أراد أن يفتنه فحماه الله، تعالى، منه بمنّه وكرمه.

[٧٩٠] ووقع في عقل إسماعيل أن أبا ميسرة لم يكن يرى الخروج عليهم، فأراد أن يوليه القضاء، فقال له: كيف يلي القضاء رجل أعمى يبول تحته؟ وما علم به أحد أنه أعمى إلا ذاك اليوم، فقال له:

منذ كم عميت، أصلحك الله تعالى؟

فقال: منذ ثماني عشرة سنة.

[٧٩١] ثم قال: اللّهم إنك تعلم أني انقطعت إليك وأنا ابن ثماني عشرة سنة فلا تمكنهم مني، فما جاء العصر إلا وهو من أهل الآخرة، فغُسّل وكفن وخُرج به، فوجه إليه إسماعيل بالكفن والطيب، فوافاه الرسل على النعش، فأنزلوه في درب ابن دينار في المسجد وجعلوا عليه الكفن.

[٧٩٢] وكان ﷺ بجواره رجل أسود، فكان ينقب ويسرق ولا يبالي ما ارتكب، فمضى إليه الجيران وقالوا له: ارحل عنا، فشتمهم وسبهم، فلما صلوا العشاء الآخرة قالوا له:

يا أبا ميسرة ادعُ الله -تعالى- عليه.

فقال: اللّهم إنه عبد من عبيدك، ونحن نخافه لأنه لا يخافك فأصلحه، وإن لم يسبق في علمك إصلاحه فخذه بعلمك، وأزل عنه حلمك، وفاجئه بسطوتك ونقمتك.

قال: فلما أصبح الصبح جاء الشُّرَط فأخرجوه من داره ومضوا به فضربوا عنقه.

[٧٩٣] فقال أبو ميسرة بعد ذلك: بالدعاء يُتقرب إلى الله عزّ وجلّ، وبالدعاء يصرف البلاء، وبالدعاء يتنزّل الغيث من السماء؛ لأن الله -عزّ وجلّ- أمر به ووعد بالإجابة.

ذكر صنوف من كراماته وفضائله:

[٧٩٤] قال الشيخ أبو بكر بن عبد الرحمن الفقيه -رضي الله عنه-: خرج أبو ميسرة

ليصلي على جنازة بباب سلم، فشق الجَبّانة[1] فإذا بامرأة مع رجل قد أمكنته من نفسها، وهو يحل سراويله، فصاح أبو ميسرة: لا حول ولا قوة إلا بالله، وأقبل وهو يريد السير إلى ناحيتهما، فتركها الرجل وهرب، فأقبلت المرأة إلى أبي ميسرة فضربت بيدها على أطواقه وصاحت بأعلى صوتها: معاشر المسلمين: هذا الرجل راودني عن نفسي، وأبو ميسرة ساكت، فلما رأت ما هو فيه من قلة المقدرة تركته وقالت له: إياك أن تغير المنكر إلا ومعك غيرك، فانصرف أبو ميسرة وهو يقول: بين مصدق ومكذب، بين مصدق ومكذب، وأقبل وهو يكرر هذا الكلام حتى انتهى إلى منزله.

[٧٩٥] قال أبو بكر أحمد بن سفيان الداودي:

أتيت أبا ميسرة فدخلت عليه وسألته عن حاله، وكان ضعيف البصر، وكنت حدثًا ليس لي لحية، فقال لي: ما معك أحد؟

فقلت: لا.

فقال لي: قم فاخرج فإذا جاء أصحابك دخلت معهم[2].

[٧٩٦] قال ابن الخلاف: وأتت إليه امرأة تسأله عن شيء، فقال لها: يا هذه ارفعي صوتك، فقيل له في ذلك، فقال: خفت أن تُمَرِّضَ لي كلامها.

[٧٩٧] وقال له رجل: ادعُ الله -تعالى- أن يكفيني الهم كله.

فقال له: أما ما دمت في الدنيا فلا بد من الهم فيها.

[٧٩٨] وشكا إليه رجل أنه لا يقوم الليل، فقال له:

إذا استيقظت فتوضأ وصلّ ركعتين، فإذا نودي يوم القيامة: أين قوّام الليل؟ قمت معهم بتلك الركعتين.

قال أبو الحسن بن الخلاف ﷺ:

---

(١) أي القبور

(٢) هذا من ورعه لأن الفتى أمرد فلم يُرد أن يختلي به.

لقد أعجبني هذا من قول أبي ميسرة وهكذا يكون الأَدِلّاء.

[٧٩٩] وكان يقول: معرفة الصالحين تورث الفردوس الأعلى.

[٨٠٠] وشكا إليه بُعد عهده به، فقال له:

يا أخي إنما فائدة الاجتماع الدعاء، فإذا ذكرتني دعوت لي، وإذا ذكرتك دعوت لك، فنكون كأنا التقينا وإن لم نلتقِ.

[٨٠١] وقال ابن الخلاف: كنت عنده يومًا أقرأ عليه رقعة، فوقف بالباب سائل فقلت له: فتح الله -عزّ وجلّ- لك.

فقال لي أبو ميسرة -رحمه الله تعالى-: قل فتح الله -تعالى- لنا ولك، فلعلها ساعة توافق إجابة.

[٨٠٢] وذكر -رحمه الله تعالى- قال:

رمتني والدتي عند رجل من الرهادنة[1]، وأنا صبي، وكان عنده صبيان، فكان يعطيهم سلع الناس يبيعونها، ولا يعطيني أنا من تلك السلع شيئًا، فكان هذا دأبه معي في يوم وثانٍ وثالث، فلما رأيت ذلك منه قلت لرجل من جيراننا: ما علّة هذا الرجل في دفعه لصبيانه ما يبيعونه دوني؟

فقال لي: أنت إذا بعت استقصيت، وهؤلاء لا يستقصون في البيع؛ يبيعون ذلك ليأخذه من تحت يده، فينفعونه بذلك.

فتركت ذلك ورجعت أكتب في البركة[2]، فباعوا رأسًا وشرطوا فيه عيوبًا، فأبى المشتري أن يقبله بتلك العيوب، فلما كان آخر النهار باعوه من رجل ولم يذكروا له العيوب التي ذكروها للرجل الأول، فقلت لهم:

غدوةً ذكرتم أن به عيوبًا، والساعة تبيعونه بلا عيب.

---

(١) قال المحقق: سوق لبيع أقمشة الصوف والكتان.

(٢) قال المحقق: سوق لشراء وبيع العبيد.

فقال بعضهم: من أين جئتم لنا بهذا؟

قال: فتركت البركة ورجعت أكتب في باب الغنم، قال: فأتاني صاحب القُنْية يومًا، فقال لي: اقرأ ما على فلان.

فقلت له: على فلان كذا وكذا.

فقال لي: أرأيت لو قال لك ليس عليّ إلا كذا وكذا ما الذي تقول له؟

فقلت له: أقول له: ما عندك إلا كذا وكذا.

فقال لي: أرأيت لو قال لك امرأتي طالق كذا وكذا، وما عندي صدقة، ما عندي شيء من ذلك، ما الذي تقول له؟

فقلت له: أقول له ما عندك إلا كذا وكذا.

فقال لي: اترك الدفتر من يدك، وكان أراد مني أن أقول له: امرأتي طالق وأحلف كما حلف ما عندك إلا كذا وكذا.

فتركت ذلك ولزمت الدار، وكانت خربة، فضرب عليّ عباس الزيات الباب، فخرجت إليه، فسألني وقال لي: قم اعجن لي الطين وأنا أبني لك، فعجنت له الطين وكان يبني حتى بنى لي غرفة، فلزمت طلب العلم والعبادة من حينئذٍ.

* * *

ثم كانت سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة

وفيها توفي:

-أبو محمد عبد الله بن فطيس المتعبد ﷺ:

أوصافه جميلة.

وكان أحد المشيخة الذين عقدوا الخروج في الجامع على بني عبيد الله.

[٨٠٣] وقال بعضهم: مرّ ابن فطيس بجماعة نساء وهنّ يبكين، قال: فدخل وسطهن يبكي وينوح، فقيل له: أصلحك الله تعالى: إنهن نساء، فقال: والله ما حسبتهن إلا رجالًا اجتمعوا يبكون على الذنوب.

[٨٠٤] قال: وكان إذا سمع نواح النساء في مقبرة باب نافع -وهو في بيته- ينوح وينتحب ويندب نفسه.

[٨٠٥] وكان مستجاب الدعوة: بينما هو يؤذن إذ مرّ به رجل - كان معروفًا بالأذى - متعلقًا بحدث، فاستغاث الحدث بأبي محمد وقال له: يا عمّ خلصني منه.

فقال له: دعه يا فاسق.

فعطف عليه الرجل، وبيده سكين، وقال له: والله يا شيخ كذا وكذا، وشتمه بأقبح الشتم، لئن لم تربح عافيتك لخضبتها من دمك.

فقال: اللّهم عاجله، فما هو إلا أن بلغ كسر ركن المسجد، إذا بالصبي قد أقبل وهو يقول: يا عم: انظر والله ما معي سكين.

فقال: مالك يا بني؟

فقال: لما عطف بي الركن خرج إليه رجل وبيده خطر[1]، فضربه به الرأس فصرعه وها هو ميت.

---

(١) قال المحقق: الخطر: الغصن.

فقال له: انصرف، فقد عافاك الله، عزّ وجلّ.

[٨٠٦] ولما وصل أبو يزيد[1] إلى القيروان، وقد هجم أصحابه في أبوابها، وعاث عسكره في البلد، وانتهب وأفسد، قال: فحملنا أبا محمد ابن فطيس على أيدينا ووقفنا به إلى أبي يزيد، وسلمنا عليه، فخاطبه أبو محمد وقال له: أيها الأمير: إني إذا ذكرت الآية التي في سورة محمد ﷺ تذكرتك.

فقال أبو يزيد: وما هذه الآية؟

قال: قول الله تبارك وتعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد، ٧، ٨].

فقال له أبو يزيد: هذا جزاء وشرط، وقد قال الله عز وجل في كتابه العزيز ما هو آكد من ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

فقال له أبو محمد: إن العسكر هجم القيروان وقد عاث وأفسد.

فقال له: ما يحلّ لي أن أمنعهم ما أباح الله -تعالى- لهم؛ لأن بلدكم هذا قد أخذته بلا عهد ولا عقد، ألم يُشتم النبي ﷺ وأصحابه وعائشة أم المؤمنين وأنتم تسمعون ولا تغيرون؟

فقال له أبو محمد: كنّا مستضعفين.

فقال له: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧] ما أحد أضعف مني ومن صاحبي، أنا أعرج وصاحبي أعمى، وقد قمنا بما يجب علينا من حق.

فقال له: أيها الأمير: أحسن إلى أهل هذه البلدة.

فقال له أبو عبد الله محمد بن سعيد الخشاب المؤدب: أتيناك بمديح.

فقال: إني امرؤ لا أقبل المديح.

---

(١) هو الخارجي الذي خرج على الشيعة الباطنية وقاتل معه فقهاء تونس وعبادها نصرةً لدين الله تعالى.

فقلنا له: في الدين.

فقال: هاتِ، فتكلم كلامًا بالبربرية أظنه قال: اسكتوا، فصاح العسكر صيحة عظيمة حتى ظننا أن الدنيا قد انطبقت، ثم سكتوا حتى لا يسمع صوت أحد، وأصغى إلى أن أنشدته إياها، وأولها:

ألا يا عباد الله قوموا فجاهدوا

فلما أتممتها صاح بقوم فقال لهم:

نادوا في القيروان بأن لا يبقى أحد فيها من العسكر، ففعل ذلك، فخرجوا في الوقت.

وفيها توفي:

-أبو محمد عبد الله بن أبي المهزول المتعبد:

كان -رحمه الله تعالى- من كبار الشيوخ، كان له علم بالله - تعالى - ومعرفة ويقين.

كان ساكنًا مرسى الياقوتة بناحية بنزرت.

[٨٠٧] كانت له روايات عن شيوخه، فمن ذلك ما رواه عن محمد بن عبد الله بن بشير عن منصور بن عمار قال: كنت بمكة فنمت في المسجد الحرام، إذ رأيت كأنّ امرأة تطوف بالبيت عليها ثياب خضر تتبختر فيها، فقمت كالمنكر عليها، فقلت لها:

من أنت يا هذه تطوفين بالتكبر والتجبر حول بيت الله -تعالى- الحرام؟

فقالت لي: أنا زبيدة.

فقلت لها: أنت أم الخليفة محمد الأمين، زوجة الرشيد أمير المؤمنين، وابنة الخلائف؟

فقالت: تعس الخلائف، وددت لو أني كنت راعية بعدن أعيش بالبقل والحنظل.

فقلت لها: قد كانت لك أفعال حسنة في تسهيل العقاب وسَقْي الماء بالاستنباط يروي القريب والبعيد ووفد الله -تعالى- من الحجيج، وبناء المساجد والحصون.

فقالت: قد جاء ذلك من حيث جاءوا، وأحصاه الله عددًا، وأوقف الأباعد والأقارب

كلاًّ على حقه، ولقد رأيت زنة الذَرّة تصير إلى ميزان صاحبها، وطفت مع الرشيد أمير المؤمنين، فإذا امرأة أرملة معها أيتام، فأهويت إلى خاتم فألقيته إليها وله فصّ يساوي أربعين ألفًا أعنتها به، وكان ميراثي من آبائي قبل الخلافة، فوهب الله -عزّ وجلّ- لي نفسي، فلم أرَ شيئًا -يا منصور- عند الله تبارك وتعالى أفضل من الصدقة على الأيتام.

[٨٠٨] قال الفقيه أبو عبد الله الأجدابي: رأيت بخط ربيع القطان قال: كان ابن أبي المهزول لا يقرأ البسملة في صلاته، وكان مؤذن مسجده لا يقول في أذانه: حي على خير العمل[1]، فانتشر ذلك عنه وفشا حتى انتهى الأمر إلى السلطان فوردت الكتب إلى عامل الموضع أن يأمرهما أن يرجعا عن ذلك، فأمرهما، فلم يفعلا، وراجعه العامل غير مرّة فلم يفعل.

فبعث ابنَ زريق ليشهد على فعلهما ويعاتبهما، فقدم ابن زريق إلى الموضع، فقال للشيخ ابن أبي المهزول: إلى ها هنا.

فقال له: لا.

فقام ابن زريق وقال له: إن لم تنته عن هذا أعلمت السلطان، فلم يجاوبه الشيخ بشيء، ثم كرر عليه القول فلم يجبه بشيء، فذهب ابن زريق، فقال المؤذن لابن أبي المهزول: نترك الأذان؟

فقال له الشيخ: لا تفعل؛ فإني سألت الله -عزّ وجلّ- أن يميتني وإياك قبل أن يبتلينا بأمر من عندهم.

قال: فأتى كتاب من الملعون السلطان بقتلهما والناس منصرفون من جنازة أحدهما، وقد دفنا جميعًا أحدهما بعد الآخر.

[٨٠٩] وذكر -رحمه الله- أن كتامة أرادوا قتله والدخول عليه في المسجد، فنظروا فيه وداروا ثم خرجوا، وأنا أراهم، فمنعني الله -تعالى- منهم أن يروني وسلمت.

---

(١) وهذا كان من شعار العبيديين الذين استولوا على تونس.

[٨١٠] قال مكي بن يوسف الهمداني: سمعت أبا إسحاق السبائي يقول:

سقط ولد ابن أبي المهزول من فوق القصر إلى أسفل، فقام ابن أبي المهزول إلى الصلاة لما سمع بخبره، فسلِم الصبي من وقعته وقام يمشي على رجليه وقام يجبذ بثوب أبيه ويقول: يا أبي هذا أنا.

[٨١١] قال الشيخ أبو الحسن الفقيه بن القابسي -رحمه الله تعالى-: سمعت الشيخ أبا إسحاق السبائي يقول:

خرجنا مرة نزور ابن أبي المهزول وكان معنا سبعة أنفس، فما أخذت عليهم شيئًا أنكرته إلا أنهم كانوا إذا دخلوا الخلاء للاستنجاء يدخلون بركاهم[1]، ثم يتوضئون منها ثم يحملونها على أكتافهم، فيقطر الماء من أسافلها على ثيابهم، فهذا وحده أخذته عليهم.

وكان فيهم شيخ فيه مزح، فإذا قال أصحابه: ميلوا بنا إلي هذا القصر فإن فيه رجلًا صالحًا نسلّم عليه، يقول: صلاحه لنفسه، فلما قربنا إلى منزل ابن أبي المهزول صبروا حتى يجدّدوا الوضوء، وكنت بوضوء، فسبقتهم، فدخلت المسجد، وركعت تحية المسجد إلى أن دخلوا المسجد، فلما رآهم الشيخ قال: -وأنا أسمعه- إلى أين يدخل هؤلاء المسجد وهم أنجاس؟ فجلسوا بين يدي الشيخ وسلّموا عليه، فأقبل يشير بإصبعه إلى الشيخ الذي من جملتهم ويقول: هذا شيخ هو أو صبي، هذا شيخ هو أو صبي؟

قال: ثم حَيّانا.

[٨١٢] قال إبراهيم بن سعيد بِخطِّهِ: ذهب عبد الله وعيسى، يُعرفان بابني الصقلي من تونس إلى حصن ابن أبي المهزول، وكان من شأنهما الإقامة عنده أربعين يومًا فورد عليهما كتاب أبيهما: أن زوجة عيسى على سبيل، وما أراكما تلحقانها، فأخبر الشيخ بالقضية، فقال: ما عزمكما؟

قالا: على الرحيل.

فقال لهما: تمّما ما جئتما له: أنت يا عيسى تجد زوجتك قد قامت، وتحمل منك وتلد ولدًا

---

(١) جمع ركوة، وهي مثل الوعاء.

وتسميه موسى، وهو ولدك حقًّا، فقعدا ولم يخالفاه وأتما أربعين يومًا ثم قدما، فوجد عيسى زوجته في عافية وحملت وولدت له ولدًا سمّاه موسى، وعاش أربعين يومًا ثم توفي.

قال عيسى: فلما انصرفت من دفنه ذهبت إلى ابن أبي المهزول فقلت: يا أبا محمد، كل شيء عرفناه منك غير أن علم الغيب من أين؟.

فتبسّم وقال: استغفر الله، تعالى، لست أعلم الغيب، ولكني أسأل الله -عزّ وجلّ- في الأمر، فإذا سكنت نفسي واستقرّ عليَّ قلبي علمت أنه يكون، وربما هُتف بي في المنام: إن الله -تعالى- قد أجاب دعوتك في كذا وكذا.

ومنهم: عمرون الأسود الحامي المتعبد بحصن الحامة:

[٨١٣] ظهرت له براهين وكرامات: حدثنا أبو بكر محمد بن اللباد قال:

لما استقرّ عند إبراهيم بن أحمد الأمير أمر عمرون أراد أن ينظر إليه، فقيل له: إنه ليس يظهر إلا يوم الجمعة، ويظهر ساعة من النهار ثم لا يظهر إلى الجمعة الأخرى، يملأ جرّته بالماء ثم يعود، فلا يزال يشرب منها ويتوضأ سائر جمعته، فركب إبراهيم بن أحمد يوم الجمعة وكمن له في طريقه حتّى أقبل عمرون وجرّته على عنقه، فبدر إليه الحُجّاب فقالوا له: الأمير يا أبا حفص يريد أن يسلّم عليك، فلما نظر عمرون إليه رمى بجرته عن عنقه وسلّم عليه، فنزل الأمير إبراهيم إليه وصافحه وقال:

ألك حاجة في خاصّتك أو في عامة بلدك نأتي عليها؟

فقال له: ليست لي حاجة ولكن: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

قال أبو ميسرة الفقيه: حدثني سهلون الفقيه قال: سألته، فقلت له:

[٨١٤] إن الناس يقولون إنك تشرب ماء البحر؟

فقال لي: إذا أُحوِجْتُ إليه شربته.

[٨١٥] قال عبد الله بن نصر الصوّاف:

اغتممت يومًا، فأتيت إلى أبي عبد الملك مروان لأتسلى برؤيته، فجرت عنده حكايات.

فقلت له: أصلحك الله: أحبّ أن تخبرني بما رأيته من براهين الأولياء.

فقال: نعم، كنت ليلة نازلًا عند عمرون الحامي فإني لجالس معه على سطح القصر وقد أشرق القمر، إذ جرى بيني وبينه كلام في مثل هذا المعنى، فقلت له:

أصلحك الله: إنه قد ذكر لي عنك أهل الحصن أنهم ربما غلّقوا باب الحصن، وأنت بالجبل، فيجدونك قبل فتح الباب بالحصن، وربما غلّقوه وأنت فيه فيجدونك بالغداة في الجبل، فأحب أن توقفني من ذلك على ما أزداد به يقينًا.

فقال لي: يا مروان إذا أريتك شيئًا أتوقن أن الله -عزّ وجلّ- يعطي أولياءه ما هو أكثر من ذلك؟

فقلت له: نعم.

قال: فنظر فإذا في أسفل القصر ثوران: أحمر قائم، وأبلق رابض، فقال: أيّ هذين الثورين تريد أن أحرك لك؟

قلت: الأبلق.

قال: فمدّ رجله حتى بلغ بها الثور، فأقامه من مربضه، ثم قبضها إليه.

قال مروان: فكأنها -والله يا ابن أخي- عمامة أو كرزية سوداء أسالها إنسان ثم قبضها.

[٨١٦] وذكر الشيخ أبو علي حسن بن حمّود التونسي المعروف بالفوني ﷺ قال:

ونزل بالقصر رجل غريب محتار ومعه زوجته، وهي حامل، فأتى الرجل إلى جماعة حول القصر وقال لهم: إن لي امرأة حاملًا قد اشتهت حوتًا، وليس عندي ما أشتريه به، فعسى تُسْلِفوني ربع درهم أشتري لها به شهوتها، فلم يُقَدّر له منا بشيء، فجاء عمرون المتعبد، فأخبروه الخبر، فدعا بالرجل ونزل معه، حتى إذا بلغا ذلك السهار[1] الذي بين البحر والقصر

---

(١) كأن المعنى أنه وعاء كبير.

قطعا سمارتين ومضيا إلى البحر -ونحن ننظر- فما كان بأوشك من أن طلع الرجل وفي كل سمارة حوت كبير يثقل الإنسان، قال: فكشفنا عن خبره، فقال: إن في أمر هذا الرجل لعجبًا: لما حاذينا السمار، الذي بين القصر والبحر، أمرني فقطعت سمارتين، ومشينا حتى دخلنا إلى موضع من البحر ينتهي إلى نصف الساق، قال: فأقبل إليه من الحيتان ما لا يوصف، فتناول منها حوتًا وقال: اجعل هذا في سمارة، ثم تناول آخر وقال: اجعل هذا في الأخرى، ثم قال: انصرف بنا، فإن في هذا كفاية.

-ومنهم: زهرون بن حسنون الحمّال:

[٨١٧] كان شيخًا صالحًا متعبدًا، ناسكًا مجتهدًا، ظهرت له براهين وكرامات، أصله من القيروان -رحمه الله تعالى- وحجّ حججًا على طريق الوحدة ولا يحمل معه زادًا، وكان يأكل من المناهل[1]، من أتاه بشيء أكله.

[٨١٨] وذكر عنه أنه أصابه المطر يومًا، فآوى إلى كهف في جبل، فلم يلبث إلا قليلًا، فإذا بأسد عظيم يزأر قد سدّ عليه باب المغارة، فمدّ يديه، وحرّك أذنيه وجعل يبصبص إلى زهرون ويلعقه بلسانه، قال زهرون: فكان الأسد في ناحية وأنا في ناحية حتى أتيت على حزبي من الليل وتهجدي، ولا والله ما عدا عليّ بمكروه وأنه معي كالخروف.

[٨١٩] فلما كان في اليوم الثاني مررتُ ببعض القرى، فإذا بامرأة ما رأيت قط أجمل منها ولا أبهى، وقد خرجت من دار، فجعلتُ أنظر إلى شكلها، حتى حاذيت كلبًا فهرّ نحوي ونبح عليّ وقام كالأسد العظيم وكبش عليّ فخرق لحمي ومزّقه، فرجعت على نفسي باللوم والعتاب، وقلت في نفسي: يا نفس كنت البارحة مع الأسد لم يعد عليك وقد أنس بك، فلمّا عصيت الله -عزّ وجلّ- في يومي هذا، ورميت ببصري إلى ما نهاني عنه سلّط عليّ هذا الكلب، اللّهمّ إني تائب إليك، وبكيت على نظري إليها زمانًا.

---

(١) قال المحقق: جمع منهل وهو المنزل في المفازة على طريق السُّفّار لأن فيه ماء: «المعجم الوسيط»: نهل.

ومنهم:

-أبو عبد الله محمد بن أبي حميد:

شيخ متعبد طرابلسي، فضله مشهور.

قال أبو عبد الله مكي بن يوسف:

[٨٢٠] نزلتُ بطرابلس حين انصرافي من الحج، فكنت أُكثر الاختلاف إليه[١]، فإني لجالس عنده ذات يوم إذ أتته امرأة بصبي قد احدَوْدَب ظهره، فلا يقدر أن يمشي، ولا يرفع رأسه، فأجلسته بين يدي الشيخ، فقال له الشيخ:

يا بني ارفع رأسك؟ فما قدر، ثم قال له: امشِ؟ فما قدر، فالتفت إليّ وقال:

يا أبا عبد الله أما ترى هذا الصبي ما استطاع المشي ولا قدر أن يرفع رأسه؟

فقلت له: نعم يا سيدي.

فأمرّ بيده على ظهره ثم كتب بإصبعه ثلاثة أسطر لم أقف على ما فيها، ثم قال للصبي: ارفع رأسك، فرفع رأسه، ثم قال له: امشِ، فمشى.

[٨٢١] قال: وإني لعنده ذات يوم ومعنا رجل جالس، إذ قام الشيخ لحاجة الإنسان، فالتفت إليّ الذي كان معي، فأقبل يذكر من فضل الشيخ، فقلت: نعم هو كما تذكر.

قال: وأخبرك بشيء رأيته منه، سألته ليلة أن أبيت عنده، تبركًا بذلك وطلبًا للفائدة فيه فقال لي:

يا أخي: ما عندنا إلا كسرة يابسة.

فقلت: يا سيدي إنما سروري الاجتماع بك.

قال: فصلّيت معه العشاء الآخرة وما فتح الله بعدها وأوتر، ثم صعد على سدّة له ورمي إليّ جلدًا ذا صوف لأنام عليه، ثم أقبل عليّ، فقال: كنت أشتهي الساعة أن آكل معك لحمًا

(١) أي المجيء إليه.

مطبوخًا بلفت وبعده سنبوسقًا، قال الرجل: فما استتم الكلام حتى سمعنا قرع الباب.

فقال: ويحك: انظر من هذا؟

فقمت، فإذا بخادم، فأعلمته بها، فخرج إليها، فقالت:

يا سيدي: سيدي يقرأ عليك السلام ويقول لك: يا سيدي هذا شيء عملنا لك فلم يتمّ إلا الآن، فاقبله.

قال الرجل: فإذا هو -والله- لحم مطبوخ بلفت، وسنبوسق.

وكان في عصره رجل يقال له:

-أبو العباس التنمزيلي:

[٨٢٢] اختصم مرة بمدينة طرابلس قوم من المسلمين مع قوم من النصارى على حجر، فزعم المسلمون أنه كان بمسجد قد انهدم وأن النصارى قد أدخلوه في ركن من أركان كنيستهم عِمادًا له، وزعم النصارى أن الحجر لهم قديمًا، وأن المسلمين ادّعوا عليهم فيه.

فقال أبو العباس: اذهبوا بنا إلى موضع الحجر، فساروا حتى حاذوا المكان، فوقف أبو العباس ووقف الناس معه ﷺ، فقال:

أيها الحجر: إن كنت كما قال المسلمون فقع بإذن الله -تعالى- وقدرته، وإن كنت كما قال النصارى فاثبت في مكانك، فمال الحجر حتى سقط بالأرض وانهدم ركن الكنيسة الذي كان معتمدًا عليه، قال: فقال للمسلمين: ارفعوا حجركم، وقال للنصارى: ابنوا أنتم كنيستكم.

***

ثم كانت سنة إحدى أربعين وثلاثمائة

وفيها توفي:

- أبو علي الحسن بن نصر السوسي:

[٨٢٣] الفقيه، مولى امرأة من أهل قصطيلية، صُلِّيَ عليه بمدينة سوسة ودفن بها، وخرج إلى حضور جنازته خلق كثير من أهل القيروان، وكان في فضله وورعه وصلابته في الحق وفقهه، وتصحيح كتبه وسماعاته وتقييده، وتلاوته لكتاب الله -عزّ وجلّ- وقيام ليله وصيام نهاره، ما لا يحمله كتاب.

[٨٢٤] وذُكر عنه أنه قال لولده محمد: يا بني اربط لي حبلًا في السقف لعلّي أقدر أصلّي قائمًا -وكان ذلك في علّته التي مات فيها- قال محمد: فربطت له الحبل وحملناه حتى وقف على نفسه وأمسك الحبل، فَغُلِب ولم يستطع القيام كما كان، فبكى وقال: واغوثاه! يالله! حِيلَ بيني وبين طاعة ربي.

فقلت له: يا أبي صلّ جالسًا، وأنت تعلم أن الفرض يُصلّى جالسًا مع الضرورة فكيف النفل؟

فقال لي: يا بني: العمر قصير والعمل قليل، وإنما أردتُ أن أعمل أكثر مما عملتُ، فالحمد لله على ما قضى وقدّر.

[٨٢٥] قال محمد: ولما طالت بأبي العلّة قال لوالدتي: يا عائشة طالت علّتي وتولّيتِ منّي خيرًا وتعبتِ معي تعبًا كثيرًا، وأنت في ذلك مأجورة مثابة، لا تملّي ولا تزهدي في خدمتي واصبري، فإني ما أشك أن أجلي قد قرب، فيذهب أجرك بقلّة الصبر، سمعتُ هاتفًا يقول لي من هذا الطاق: ياحسن غداة صلاة الظهر تنفرج عنك، فما أشك أني بالغداة أموت، فكان كذلك، رحمة الله عليه.

[٨٢٦] وكان -رحمه الله تعالى- متوقفًا عن الشبهات طيب المكسب، ذُكر عن حسنة بنت البندوني -الرجل الصالح- وهي زوجة محمد بن الحسن، وكانت صالحة، وكانت تسكن مع الحسن في داره، أنها قالت:

لما كان يوم من الأيام، بعد صلاة العصر والشيخ في المسجد، قُرع علينا الباب، ففتحنا فإذا بثلاثة من الخدم على رؤوسهم طيافير[1] مغطاة، فقلنا لهم ما هذا؟ فذكروا أن ذلك من عند رجل من فقهاء سوسة جليل القدر، قال: فأخذنا الأطباق وتركناها على حالها مغطاة حتى دخل الشيخ من المسجد وقت إفطاره، فقدّمنا له فطره الذي يفطر عليه ثم قدمنا له الأطباق، وكشفناها له فإذا فيها: قُبّاط[2] وفالوذج ومشاش[3]، فقال لزوجته:

من أين هذا؟ أليس قد قلتُ لكِ: لا تقبلي من أحد شيئًا ولا هدية.

فقالت له زوجته: وجّه به إليك فلان الفقيه.

فقال لها: فلان الفقيه متولّي أحباس سوسة؟ وإن كنت أعلم أنه من أهل الدين والفضل والعلم، فأنا ممن لا آكل له طعامًا ولا لغيره، وغضِب على زوجته غضبًا شديدًا إذ عصته وقبلت الهدية.

فقالت له زوجته: فادفعها لولدك محمد يأكله هو وعياله.

فقال لها: سبحان الله! وتستفتيني لِمَن أعطيه وتدخل عليّ الدواخل[4]، أنت أولى به وبحسابه غدًا، اعملي به ما شئت.

فأبت من ذلك زوجته وتورّعت وأخذت الأطباق بما فيها ومضت بنفسها إلى دار الرجل، واعتذرت له عن الشيخ، فأخذها منها وغضب لذلك وقال لها: قولي له: يا أبا علي أتعلم في أموالنا حرامًا؟ وغضب على الشيخ مدّة ثم رجع إليه بعد ذلك.

---

(١) أي أطباق كبيرة.

(٢) قال المحقق: نوع من الحلويات.

(٣) قال المحقق: نوع من الحلويات.

(٤) قال المحقق: الدخل: الريبة والفساد.

[٨٢٧] وكان إذا صب المطر يقرأ هذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٤١] خوفًا على داره أن تقع من وهاها(١).

[٨٢٨] قالت حسنة زوجة ولده محمد:

بينما هو ليلة في صلاته إذ سمعته زوجته عائشة -رضي الله عنها- وهو يصيح بها، قالت عائشة: فطلعت إليه وأنا مذعورة -إذ ليس من عادته أن يصيح بعد أخذه في الصلاة- فقال: كأني أسمع صرير مزمار.

فقلت له: ومزمار في سوسة من أين وأين؟ وأنت قد قطعتَ منها الملاهي وكسرتَ ما في دار الخمر من أواني الخمر.

فقال لي: تسمعي.

قالت: فسمعت حس مزمار من ناحية قصر طارق فأخبرته بذلك، فلما تيقنه، قطع ما هو فيه ونزل إلى باب داره، ففتحه وصاح إلى بعض جيرانه، وقال:

التمسوا لي هذا المزمار في أي دار هو وعرّفوني بذلك.

فمضوا حتى وصلوا إلى قصر طارق فسألوا أهل القصر عمّن نزل بالمسكن الذي بنى طارق في غربي قصره.

فقالوا: نزل به رجل من هؤلاء القوم يقال له: الأمير طاهر جاء من المهدية وهو ابن عم إسماعيل السلطان، أتى معه بالمسكر والملاهي.

فرجعوا إلى الشيخ وعرّفوه بذلك، فقال لهم: اجمعوا الناس.

فلما جمعوهم قال لهم: تصلون إلى هذا الفاسق وتقولون له: أتيتَ بالمنكرات إلى رباط المسلمين وثغر من ثغورهم، اخرج عنّا وإلا جاهدناك حتى تخرج.

قال: فذهبوا إليه وعَرَّفوه ما قال الحسن -رحمه الله تعالى- فقال لهم: أنا منصرف عنكم

(١) أي من ضعفها.

بالغداة، وقطع التي كانت عنده، ولم يُسمع منه بعد النكير عليه شيء، فلما أصبح رحل عنهم.

[٨٢٩] ولما كان بعد فتنة أبي يزيد جاء إسماعيل السلطان إلى مدينة سوسة، فنزل في الملعب وقال لعبده جوهر: تمضي إلى الحسن بن نصر فتأتيني به بعدما ينام الناس عند الرقدة، فركب جوهر وأتى دار الحسن، فاستأذن وقال: يخرج إليّ الشيخ، فطلع ولده إليه، فوجده يتهجّد، فقال له:

اقصر في صلاتك، فإن جوهر رسول الأمير إسماعيل بالباب.

قال: فنظر إليه نظرة منكرة كراهة منه لذلك، فخرج إلى جوهر فاعتذر له عن الشيخ بأعذار، فلم يقبل ذلك منه جوهر وقال له: لستُ أنصرف من ها هنا حتى أجتمع به، فأما أن يمضي معي أو يعتذر بعذر يظهر لي صوابه مما يزيل عنه العتب.

فرجع إلى أبيه، فقال له: إن جوهر قال: لا يمضي إلا بك ولا يزول من على الباب حتى يجتمع بك، فوالله ما نظر إليّ ولا اشتغل بكلامي حتى فرغ من حزبه، ونحن والجيران تحت خوف عظيم من وقوف جوهر على الباب، فلما قضى صلاته التفتَ إليّ وقال لي:

أما استحييت من الله -عزّ وجلّ- أنا قائم بين يديه وتقول لي: جوهر واقف بالباب، وعزم الشيخ على الخروج، وكان عليه فرو مقلوب، قلبه من جرّاء إصابة فيه فقلت له: بهذا الفرو المقلوب تخرج إلى جوهر؟

فقال لي: ما أقلّ حياءك من الله -تعالى- قمت به بين يدي الله، عزّ وجلّ، وتقول لي أخرج بغيره إلى جوهر، ثم خرج إلى جوهر واجتمع به واعتذر له بأعذار كثيرة وجرت بينهما مراجعات طويلة، فقبل جوهر أعذاره وقال له: أنا أجتمع بمولاي وأحمل عنك هذا الأمر، وأرجع إليك بما يكون في ذلك.

فلما كان عند السحر عاد إليه وقال له: قد اجتمعت بمولاي وأخبرته بأعذارك، فعذرك وشقّ عليه إذ لم يجتمع بك، وهو يقرأ عليك السلام ويسألك في الدعاء، فقال له: قل له: أصلحك الله للمسلمين وأصلح جميع قضاتك، ولم يزده على ذلك.

[٨٣٠] وقيل إنه إذ كان حاكمًا[1] فكان في أيام الموسم وقدوم أهل القيروان إلى الرباط يجلس في القبة التي فيها، في جامع سوسة، وكانت تشرف على أبواب البحر، فإذا رأى رجلًا معه حدَث أمر بأن يُؤتى به، فإن كان الصبي من الرجل مثل أبيه أو قرابته تركه، وإن استرابه منعه من التصرف به.

وفيها صُلِب:

- محمد بن إسحاق الحبلي:

[٨٣١] قاضي مدينة برقة، وكان السبب في ذلك، أنه أتاه عامل برقة المعروف بابن كافي فقال له:

إن غدًا العيد.

فقال له: إن رُئيَ الهلال الليلة كان ما قلت، وإن لم يُر لا أخرج لأنه لا يمكنني أن أفطر الناس يومًا من رمضان وأتقلّد ذنوب الخلق.

فقال له: بهذا وصل كتاب مولاي.

فالتمس الناس الهلال تلك الليلة فلم يروه، فأصبح العامل إلى القاضي بالطّبول والبنود وهيئة العيد، فقال له:

لا والله، لا أخرج ولا أخطب ولا أصلي العيد ولا أتقلّد أن أفطر الناس يومًا من رمضان ولو علّقت بيدي، فمضى العامل، فجعل من خطب وصلّى وكتب بما جرى إلى مولاه[2]، فلما وصل إليه الخبر أمر برفعه إليه، فلما وصل قال له:

إما أن تتنصّل وأعفو عنك، وإلا فعلت بك ما قلت.

فامتنع من الدخول في دعوته، وقال له: افعل ما شئت.

---

(١) أي قاضيًا.

(٢) قال المحقق: إن الخليفة الذي جرت محنة هذا القاضي على يديه هو إسماعيل المنصور بن القائم وذلك في أواخر رمضان سنة ٣٤١هـ.

قلت: وهو أحد الشيعة العبيدين.

فنصب له صاريًا عند الباب الأخير من أبواب الجامع الذي يلي درب المهدي وعُلِّق بيده إليه في الشمس، فأقام كذلك ضاحيًا للشمس في شدة الحر يومه ذلك، فلما كان بالعشي مات، رحمه الله.

وكان يطلب من يسقيه الماء في ذلك الحال، فلا يجسر أحد من الناس يسقيه لأنه خافوا، فلما مات أخذوه ومضوا به فصلبوه على خشبة، رحمه الله تعالى ورضي عنه، وكان الله -عزّ وجلّ- حسيب الظالمين والمنتقم منهم يوم الجزاء والدّين.

***

ثم كانت سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة

وفيها توفي:

-أبو علي المكفوف، وهو الحسن بن علي النحوي الزاهد:

كان -رحمه الله- ذا أوصاف جميلة، معروفًا بالإجابة، متقللًا من الدنيا، من المؤثرين على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

وكان عالمًا باختلاف العلماء واتفاقهم، مع المعرفة الواسعة بالنحو واللغة وعلوم القرآن الكريم، وكان يحسن التعبير ووُلد أكمه[1]، انتفع به خلق كثير من الناس.

[٨٣٢] قال عبد الله بن نصر الخياط:

كنت جالسًا عنده حتى دخل عليه رجل، فشكا إليه فاقة، فنزع جبّته، فرمى بها إليه، وبقي عريانًا في مئزر خَلِق[2] من صوف، فقلت له: هذا مرفوع عنك، أنت في فاقة وليس لك من الدنيا شيء.

فقال: اجلس يا خيّاط ليس نصلّي حتى يأتي ما هو خير - إن شاء الله تعالى - فبعد ساعة دخل عليه رجل ومعه غلامه يحمل رزمة فيها جبّة رفيعة، ومنديلًا جديدًا ومئزرًا جديدًا، ودفع إليه صرّة فيها نفقة، فقال له الرجل: يا سيدي: أحب أن تقوم على رجليك حتى ألبسك بيدي، ففعل ذلك وكساه الجبَّة، وجعل المنديل على رأسه، وشد المئزر في وسطه، ثم انصرف.

فقال لي: يا خيّاط: أعطيناه جبّة خَلِقة فعوضنا جبة جديدة ومنديلًا ومئزرًا ونفقة كثيرة.

[٨٣٣] قال:

---

(١) أي أعمى.

(٢) أي بالٍ.

ورأيت مرة الجوع في وجهه، وقد أقام ثلاثة أيام لم يطعم شيئًا، فأردت الانصراف، فقال لي: اجلس حتى نتغدى، فما كان بأوشك من أن دخل أبو عبد الله الرُعَيْني المتعبد بسِكْباج[1] وخبز فرني، فأكلنا، فلما انصرف أبو عبد الله قلت له: أكنت معه تحت وعد؟

فقال: لا والله، ولكن أقمتُ ثلاثًا لم أطعم، فسألت الله -تعالى- أن يسد جوعتي ويرزقني من حيث لا أحتسب.

قال أبو عبد الله: ثم اجتمع بي أبو محمد الخياط فقال لي: أكنت مع الشيخ في وعد؟

فقلت: لا والله إلا أن عِجْلَةً جاءتنا من القرية، فذبحناها وعملنا منها للشيخ ما يأكل.

***

(١) هو لحم مع أبازير وتوابل: «المعجم الوسيط»: سكبج.

ثم كانت سنة أربع وأربعين وثلاثمائة

وفيها توفي:

-أبو بكر محمد بن سعدون الجزيري التميمي:

المتعبد رحمه الله تعالى، آثاره وآدابه ومروءاته كثيرة، وحج حججًا مع كثرة الرباط.

حسن الصوت بالقرآن.

[٨٣٤] وجال بالشام، وغزا به غزوات، وكان يقوم في جموع المسلمين فيُحرضهم على الجهاد بمقامات كانت عنده، وبشعر، وبها يُشوق ويُبكي، فكانت النيات تنبعث معه.

[٨٣٥] قال أبو الربيع سليمان بن محمد: لما قدمنا من الحج سنة تسع وعشرين وثلاثمائة وصلنا إلى مصر، فمضينا إلى الجبل المعروف بالمقطم، إلى المسجد الذي فيه ليلة الجمعة، وكان معنا أبو بكر بن سعدون الجزيري، والحسن بن أبي سراح، والرجل الصالح أبو عبد الله، وحملنا معنا طعامًا، فأصبنا أبا عبد الله الرجل الصالح يقرأ حديثًا للنبي ﷺ ورغائب فصلّينا معه العصر ثم المغرب، وكنّا صُيَّامًا، ثم قدّمنا الطعام، فدخل علينا أسود طوال يسمى عَلِيًّا، عليه مرقعات، من سكان الجبل، فقال أبو عبد الله: هذا ولي من أولياء الله تعالى -يعني الأسود- لي مدّة ما رأيته إلا في هذه الليلة، قوموا بنا إليه.

فقام إليه أبو بكر بن سعدون فركع وركعنا ثم رقدنا، فلما أصبح صلّينا الصبح، ثم نزلنا إلى القبور، ونحن معه، ثم وقف إلى قبر بُنَان[1]، فقال: رحمك الله -عزّ وجلّ- يا أبا الحسن فلقد سلم لك دينك وقدمتَ على من يهون عليه غفران ذنبك، ثم وقف إلى قبور قوم صالحين.

---

(١) هو بنان الحمال الزاهد المصري المشهور، رحمه الله تعالى.

فقلت له: يا سيدي: ادعُ لنا.

فقال لي: أتحبّ الدراهم؟

قلت: إي والله.

قال: ليس يصلح حبّ الله وحب الدراهم، إنما بحبّ الله وحده.

فقال ابن سعدون: لنا عيال.

فقال له: العيال عيال الله -عزّ وجلّ- أنت تنفق عليهم؟ ليس هذا حجة، ثم عطف علينا فقال:

لا جعل الله الدنيا أكبر همكم، ولا جعل فكركم إلا في لقائه ورضاه، ومنّ عليكم بالعمل الصالح، والورع الحاجز، وجعلكم ممن يتقيه ويخافه سرًّا وعلانية، واستعملكم بأعمال طيبة تحظون بها عنده وتتقربون بها إليه.

فقال له ابن سعدون: من بلاد مَنْ أنت؟

فقال: أنا من بلاد القيروان من تربية رجل صالح نفعني الله -تبارك وتعالى- به، ثم ودّعنا وطلع الجبل.

[٨٣٦] ذكر الشيخ أبو الحسن الفقيه أنه سمع ابن سعدون يقول:

صليت بمصر اثنتي عشرة ركعة، ثم نمت فرأيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله إن مالكًا والليث ﷺ اختلفا في الضحى، فمالك يقول: اثنتا عشرة ركعة، والليث يقول: ثمان، قال: فضرب بيده بين وركي وقال: رأي مالك -رضي الله عنه- هو الصواب، ثلاث مرات.

قال أبو بكر: وكان في وركي وجع فمن تلك الليلة زال عني.

[٨٣٧] وهو أحد الشيوخ الذين عقدوا الخروج على بني عبيد الله، وكان من دعائه إذا فرغ من صلاته في أيام أبي يزيد يقول:

اللّهم من أرادنا فِرْده، ومن كادنا فكِدْه، اللّهم اكسِر عنّا حدّ من أقام لنا حدَّه، واطفىء عنا نار مَن أوقد لنا وقدة، واعمِ عنّا أعين الكفرة، وأنزل علينا السكينة، واكسنا درعك الحصينة.

[٨٣٨] قال أبو الحسن الزعفراني:

حضرنا مسجد السبت، ومعنا أبو بكر ابن اللباد وأبو بكر بن سعدون، فافتتح بعض القوالين فقال:

لا يشغلنّك عن حبيبك شاغل فإذا فعلتَ فإن حبّك باطل

فتحرّك محمد بن أبي سهل الصوفي، ثم استغرقه الحال، فما بقي أحد في المسجد إلا بكى لصدق ذلك الرجل في حركته، ولقد نظرت إلى ابن اللباد وإن دموعه لتنحدر على لحيته، وابن سعدون وقد علا نحيبه.

[٨٣٩] وأنشد:

إذا القوت تَأتّى لك والصحة والأمن

وأصبحت أخا حزن فلا فارقك الحزن

[٨٤٠] وأنشد أيضًا:

سجن اللسان هو السلامة للفتى من كل نازلة لها استئصال

إن اللسان إذا حللتَ عِقاله ألقاك في شنعاءَ ليس تُقال

-**أبو بكر بن الفتح المؤدب**:

[٨٤١] قال محمد بن الفتح الرجل الصالح الفاضل:

خرجت يوم العيد إلى المصلى في سنة مجاعة، فإذا بشيخ يصيح: أشبعوني فإني ومَن عندي جياع، ومَن أشبعنا أشبعه الله من ثمار الجنة، فأخذت قيراطًا كان بقي معي فاشتريت به خبزتين وأعطيتهما له، فأخذهما منّي وضمّهما إلى صدره وقال لي: فرحتني فرحك الله بالجنة وأطعمك من ثمارها التي لا تقطع ولا تمنع، ثم زُلْتُ عنه، فحسستُ لذة كلامه وإجابة دعائه في قلبي، فمضيت إلى المصلى، ثم انصرفت إلى داري، فأخذتني نومة، فأتاني آت فقال لي: يا محمد بالخبزتين تُرحم.

ثم كانت سنة ست وأربعين وثلاثمائة

وفيها توفي:

-أبو محمد عبد الله بن أبي هاشم مسرور التجيبي:

الفقيه، مولى بني عبيدة التجيبيين المعروف بابن الحجّام.

فضائله -رحمه الله تعالى- مشهورة، وأوصافه جميلة، وهو أحد الأئمة، مهاب في نفسه لا يكاد أحد ينطق في مجلسه بغير الصواب، سمع من جماعة، وانتفع به عالم كثير.

[٨٤٢] توفي شهيدًا بحرق النار، قيل: إنه اصطلى عند كبره فنعس فالتهبت النار في ثيابه وأفرطت فيها حتى احترق هو نفسه وشعره ووجهه إلا موضع السجود.

وكان مولده سنة ثلاث وستين ومائتين.

[٨٤٣] كانت له تأليفات ومصنفات في أنواع من العلوم، واقتنى كتبًا كثيرة كلها بخط يده.

قال الشيخ أبوالحسن بن القابسي -رحمه الله-:

[٨٤٤] ترك أبو محمد سبعة قناطير كتب كلها بخط يده، زاد غيره: إنه لما توفي رُفع جميعها إلى سلطان الوقت، فأخذها ووضعها في القصر، ومنع الناس منها كيدًا للإسلام وبغضًا فيه.

[٨٤٥] وفي رواية: إنه لما اشتد به المرض قال له بعض أصحابه: نخشى أن يأخذ السلطان كتبك إن قدر الله - تعالى- عليك بالموت ويمنع الانتفاع بها، وأنت قد تعبت فيها وضبطتها، فحبِّسها على المسلمين، ووجِّه ثلثها إلى أبي محمد بن أبي زيد، وثلثها إلى موضع آخر، والثلث الآخر إلى موضع آخر، ففعل ما أمروه، فلما كان الغد قال لهم: لم أقدر البارحة أن أنام لما فقدت كتبي فردُّوها عليَّ، فردّوا

عليه ثلثيها وتركوا الثلث الآخر عند ابن أبي زيد، فتوفي حينئذٍ، فوجه السلطان في الوقت فأخذ كل ما كان عنده من الكتب، ولم يسلم منها إلا الثلث الذي كان عند ابن أبي زيد.

[٨٤٦] قيل: إن أهله اشتروا له جارية وزينوها وأدخلوها عليه، فلما كان الليل أخذ في الكتاب، فكتب اللّيل كله ولم يلتفت إليها، وأقام على ذلك نحوًا من شهر، فلما طال ذلك على الجارية، قالت له: إن كنتَ لا تصل إليَّ وليس لك فيَّ غرض فبعني.

فقال لها: من أنت؟

قالت: أنا جاريتك فلانة.

فقال لها: أنا ما اشتريت جارية، ولكن امضي إلى الذين اشتروك يبيعونك، ففعلت ذلك، فلم يتزوج ولم يتسرّ إلى أن مات.

❊❊❊

ثم كانت سنة سبع وأربعين وثلاثمائة

وفيها توفي:

-أبو بكر يحيى بن خلفون المؤدب الهواري:

كان من أقرأ أهل زمانه، وكان فاضلًا، رحمه الله.

[٨٤٧] وكان قد ابتلي برجل مشرقي[١] يقف بإزاء كُتَّابه فيسبّ أبابكر وعمر -رضي الله عنهما- ليُنكِيه بذلك ويغيظه، فلما أكثر عليه من ذلك قال لصبيانه: إذا أقبل فأخبروني، فلما أقبل أخبروه، فقام فاستخفى في زاوية من زوايا الكتّاب وقال لهم: إذا وقف وسبّ فابتدروه وأدخلوه الكتاب، فلما أقبل على العادة وثب عليه الصبيان، فأدخلوه الكتاب وجعلوا رجليه في الفلقة، فلما فعلوا ذلك قال لهم الهواري: ارفعوا أصواتكم بالقراءة، وقِفوا بالباب وارفعوا ألواحكم، ففعل ذلك الصبيان وأقبلوا يصيحون لكيلا يعرف أحد بذلك، ثم ضربه المؤدب ضربًا عظيمًا حتى أدماه وضربه الرأسَ والظهر، فلما أعيا وكلَّ قام إليه الصبيان فقالوا له:

يا مؤدب: قد نلتَ أنت سهمك من ضربه فدعنا نحن ننال من ضربه مثل ما نلتَ أنت.

فقال لهم: دونكم.

فقاموا إليه، فضربه كل واحد منهم ما قدر عليه، فلما لم يبقَ منه مفصل صحيح أخذوه بيد ورجل فرموه في الزّقاق، فمرّ به حمّال، فسألوه أن يحمله في القفة، فأتى الناس إلى الهواري فقالوا له: هو عند السلطان من حاله ومن شأنه كذا وكذا، فنخشى أن تُمتحن على يديه، ولكن امض إلى فلانة الحرة[٢]، ولاسيما ابنها عندك في الكتاب، فقال لهم: أحسنتم وأصبتم، فصاح بالصبي ولد الحرّة وقال له: كلما أقول لأمك شيئًا فصدّقني عليه، فقال: نعم.

---

(١) أي من الشيعة الباطنية.

(٢) قال المحقق: يعني زوجة السلطان.

فمضى بعكازه إلى دار الحرة، فضرب الباب، وقال: الهواري، فخرج إليه والد الصبي فقال له: ما قصتك يا مؤدب؟

فقال له: الحرّة لا بدّ لي منها، فأذن له في الدخول، فدخل عليها، فقالت له:

ما شأنك يا مؤدب؟

فقال لها: أتى فلان إلى كتّابي فعارض الصبيان في الفساد، فإن كنت لم تصدقيني فيما قلت لك فسلي الصبي بخبرك، فقال الصبي: نعم سألني في الفساد، فقالت: هذا الفاعل الضائع عليّ به، فأُتِيَ به إليها، فأمرت بضربه، فضرب حتى أشرف على الموت والهلكة وبقي مطروحًا، فأخذ الهواري عصاه وأتى إليه فضربه برجله وقال له: أنا الهواري يا خنزير يا مشرقي.

[٨٤٨] قال الشيخ أبو الحسن الفقيه رحمه الله تعالى: انتهى إلى أبي ذميم[١] -لعنه الله- ما يتولى منه المؤدب الهواري من الشتم واللعن، فبعث في طلبه فوصل إليه صاحب المحرس فدخل عليه وقال له:

يا مؤدب: المعلم نصر يدعوك.

فقال: من نصر؟

فقال له: السجّان.

قال: فأردت التحيل في الانفلات فما وجدت، ومضيت معه إلى سجن نصر، فأدخلوني فيه، وأتوا بي إلى غرفة في عتبتها حبل معلّق، فقالوا: يا مؤدب: اطلع هنا، فقلت في نفسي: إنما أرادوا مني أن أتعلق بالحبل فينقطع بي فأسقط إلى الأرض فأنكسر وأنا شيخ كبير، فجعلتُ يدي في العتبة وثرتُ[٢]، فصرتُ في الغرفة، فلمّا أن جلستُ دخل عليّ نصر وأعوانه ومعه قفة فيها الأنكال والأغلال، فقال:

مدّ رجليك يا مؤدب.

فقلت: لماذا؟

(١) قال المحقق: يعني، أبا تميم معد بن إسماعيل المنصور الملقب بـالمعز لدين الله رابع خلفاء الدولة الفاطمية بإفريقية وأول خلفائها بمصر، توفي سنة ٣٦٥، الكامل ٨ :٦٦٣.

(٢) قال المحقق: ثار إليه ثورًا: وثب.

فقال: أُمرنا بتقييدك.

فمددتُ رجليّ، فلما أن قُربت مني الأنكال دخل عليّ فتى جميل الوجه طيب الرائحة وقال: تنحوا عن الشيخ، وصاح عليهم، فقلت له: من تكون؟

فقال: أنا جوهر.

فقلت له: أنت جوهر المذكور في مجالس العلماء والصالحين، وقلت في نفسي: باللعنة.

فقال: نعم.

فزالوا عني، ومضى بي، فأدخلني عند مؤدب ولده، ومضى يستأذن علي، ثم أقبل فأخذ بيدي وأدخلني على ابن بادية، وهو معد، وكذلك كان يسميه المؤدب، فلما أن دخلت عليه في إيوانه وهو جالس على سرير مُلكه ورأيته أقبلتُ وأنا ألعنه.

فلما أن قربتُ منه قال لي:

يا مؤدب: بما استحققنا الشتم منك تشتمنا وتلعننا.

فقلت له: على ابن خيرون قرأته، وتصاممت له[1]، وأريته إنما سألني على من قرأتُ.

قال: فكرّر عليّ الكلام ورفع صوته وقال لي: بلغنا أنك تشتمنا وتطعن علينا.

فقلت له: القرآن قائل هذا، وحوّلت ظهري وقلت له: من ها هنا يؤخذ الحد.

ثم أمر لي بعشرة دنانير وصرفني وقال لي: يا مؤدب لا تعود.

فقلت له: القرآن قلت لك القائل هذا.

فانصرف معي جوهر ودفع إليّ الدنانير.

قال: فلما صِرتُ في سقيفة القصر قام إليّ البوابون وأرادوا أن يأخذوا مني مما أعطاني، فلما رأيتهم ضيقوا عليّ صحتُ: يا أبا الحسن جوهرًا، فجرى إليّ وقال لي: مالك يا مؤدب، وزجر البوابين عني، فخرجت بها.

[٨٤٩] قال الشيخ أبو الحسن الفقيه: فصرّ الدنانير في صرّة وقال لنا: هذه إنما أخذتها لأستعين بها على هدم قصرهم، نعطي لكل رجل ربع درهم.

---

(١) أي أريته أني أصم لا أسمع.

قال: فكان يسأل عن الصرف فإذا أخبروه أنه زاد ربع درهم فرح وقال: زادني في الهدّامين رجلًا، فلما أن توفي -رحمه الله- وُجدت الصرّة في صندوقه على حالها وعليها مكتوب: هذه دنانير أخذتها من ابن بادية تصرف أرباعًا ويعطى لكل رجل ربع درهم لهدم قصرهم، ولم يمس منها شيئًا.

[٨٥٠] قال الشيخ أبو الحسن رحمه الله: وكنا عنده يومًا في مسجد ابن خيرون ونحن نقرأ عليه حتى وثب قائمًا وقال: قوموا معي، قال الشيخ أبو الحسن: فخرجتُ أنا وأبو الحسن ابن الجزيري وأبو عبد الله بن الأندلسي ومن كان معنا، فوقف وقال: إذا قلت قولًا وفرغتُ منه فقولوا: آمين، ولا تختلف أصواتكم.

فقلنا نعم.

فصاح بأعلى صوته وحوّل وجهه إلى جهة صبرة[١] وقال: اللّهم العن ذا الأمير الصنعاني[٢]، ثم قال: قولوا: آمين.

قال: فعالجنا أن تتفق أصواتنا فلم نقدر، فنزق علينا[٣].

ثم قال: اللّهم العن ذا الأمير الدَّيْصاني[٤] فما اتفقت أصواتنا إلا عن جهد وشدة.

ثم أخذ عصاه وجاء إلى العمود فأقبل يطعن فيه بعصاه وهو يقول: ابن باديّة[٥] هذه في قلبك، هذه في بطنك، هذه في عينك، وهو في جهد حتى عرق عرقًا عظيمًا، ثم دخل إلى المسجد فجلس وجلسنا حوله وهو يلهث ويقول: الحمد لله، الحمد لله.

[٨٥١] قال الشيخ أبو الحسن: ومرض مرضة شديدة أشفى فيها على الموت، فأريناه لابن الجزار الطبيب -وكان ابن الجزار على خلاف السنة- فلما رآه قال:

---

(١) أي جهة قصر الأمير الشيعي الباطني.

(٢) لأن أصله من اليمن.

(٣) أي فغضب منا.

(٤) قال المحقق: يشير إلى ما يرويه مؤرخو السنة وعلماؤهم عن أصل عُبيدالله المهدي وإرجاعهم له إلى ميمون بن ديصان، أحد كبار الزنادقة في صدر الدولة العباسية.

(٥) أي الأمير، وكان يدعوه بذلك احتقارًا له.

ليس يغلق الخمسة أبدًا، هو ميّت.

فلما رجع الرسول من عنده قال له المؤدب:

ما قال لك ابن الجزار؟ فسكت الرسول.

فقال له: أقال لك إني أموت من هذه العلة؟

فقال له: يا مؤدب: لا تسأل عن هذا.

فقال لهم: اشتروا لي لحم بقر وباذنجانًا وقرعًا واعملوا لي سكباجًا محكمًا، واشتروا لي خبزًا نقيًا، فعملوا له ذلك، ثم أكل الجميع مع الخبز، ثم قال لهم: دثّروني، فدثّروه، فعرق عرقًا عظيمًا، فلما كان بعد العصر أفاق من غمرته ووجد الراحة فمضى إلى دار ابن الجزار، فقال لي أبي: فأخبرني بعض من كان جالسًا عنده قال: بينما نحن جلوس معه تلك العشية حتى سمع حس قرق[1]، قال: فوثب ابن الجزّار وقال: هذا حسّ قرق الهواري وطلع الدرج وردّ الباب على نفسه ووقف خلف الباب حتى طلع الهواري فقال:

أين هذا الجزّار ابن الجزار الذي يقطع في حكم الله -عزّ وجلّ- ويقطع علي بالموت؟ وحقِّ هذه القبلة لو وجدته جالسًا لجعلتُ عصاي هذه بين أذنيه، قولوا له:

يا كذاب هذا أنا صحيح سويّ، بهذه العصا أحارب الدجال، ثم مضى.

وفيها توفي:

-سالم الفوّال المتعبد، رحمة الله عليه:

[٨٥٢] قال الشيخ أبو الحسن الفقيه: جاء سالم إلى أبي بكر بن اللّباد فوجده مخليًّا، فقال له: لي مدة أشتهي أن أسألك عن مسألة في خلوة فلم أجد فهذا وقتها.

فقال له: ما هي؟

فقال له: أصلحك الله تعالى: أنا أحفظ القرآن، وحُبّب إليّ قراءته في الليل في الصلاة.

فقال له الشيخ أبو بكر: نعم ما تعمل، والقرآن هادٍ إلى كل خير، والقرآن في الصلاة من أفضل أعمال البر.

(١) صوت حذاء.

فقال له سالم: غير إني -أصلحك الله تعالى- إذا افتتحت القرآن فقلت: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]: ثم غلب على سالم البكاء والشهيق، فكلما ابتدأ صورة المسألة غلبه البكاء حتى ظن الشيخ أبا بكر أنه إنما يسأل عن وسوسة الشيطان وعن حديث نفسه، فقال له: كلما وسوس إليك الشيطان ولم تعتقده فإن الله -تعالى- لا يؤاخذك به، هذا وسالم في بكائه، حتى قال الشيخ:

يا هذا: إن الخلوة لا تدوم لك، فاذكر ما تحدّث به نفسك.

فقال له: إذا افتتحت القراءة غلبتني العبرة وخنقني البكاء، فأحاول أن أتمادى في القرآن فلا أقدر، وخفت أن يكون هذا عقوبة، فأعرض عنه الشيخ أبو بكر، وأقبل ينوح ويبكي، حتى إذا ذهب ذلك عنه وسكن ردّ وجهه إلى سالم فقال له: يا بني: دم على ما أنت عليه، فقد أنعم الله عليك، وأُعطيتَ الخشية من الله، تعالى، فاحمد الله -عزّ وجلّ- على ما أعطاك، واشكره على ما أولاك وأنعم به عليك، الذي يطلبه الناس فبعد حين يصبح لهم وجدته أنت في أول أمرك.

وفيها توفي:

-أبو جعفر أحمد الأطرابلسي:

[٨٥٣] كان فاضلًا مجتهدًا، أقام مرابطًا أربعين سنة.

[٨٥٤] وكان ينام على الأرض لا حصير ولا وسادة ولا كانون ولا سراج ولا بُرْمة[١]، سوى قدح كان يتوضأ فيه للصلاة.

[٨٥٥] وكان أحمد هذا من المستجابين في الدعاء، قال أبو عبد الله الجزيري:

كانت لي امرأة صالحة، وكانت أُقعدت وامتنعت عن الصيام والقيام واحتاجت إلى القَصْرِيّة[٢]، فقالت لي يومًا: سألتك بالله سل لي سيدي أبا الحسين الكانشي يسأل الله -تعالى- أن يريحني من هذا الحال، فأتيت الشيخ أبا الحسين فلم أجده، فإذا بأحمد الأطرابلسي

---

(١) أي قِدْر.

(٢) معروفة عند العوام، يقضي فيها الأطفال حاجتهم.

ماشيًا، فسلّم عليّ وقال لي: إيش خبرك؟

فقلت له: هل رأيت الشيخ أبا الحسن؟

فأشار إلى جرف على شاطئ البحر وقال لي: هو تحته يصلي.

ثم قال لي: ما خبرك؟

فذكرت له أمر الزوجة وذكرت له أنها امرأة ذات دين وعفاف.

فقال لي: فرّج الله عنها وأتاها بالفرج من حيث لا تدري ولا تشعر، ثم مضى.

ومضيت أنا حتى جئت إلى الشيخ أبي الحسين الكانشي، فوجدته قائمًا يصلي، فجلست أنتظره، فطوّل في صلاته وذلك من الضحى إلى أن حانت صلاة الظهر، فلما حانت صلاة الظهر حركت طرفه وقلت له: أصلحك الله تعالى: حانت صلاة الظهر، فأوجز في صلاته وسلّم، فلما سلّم ردّ وجهه إليّ وقال لي: الأمر الذي جئتني فيه قضى فيه ذمام الأطرابلسي.

فقلت له: وما هو أصلحك الله؟

فقال: جئتَ في أمر المرأة؟

فقلت له: نعم.

قال: ولقيتَ أحمد الأطرابلسي فدعا لها؟

فقلت له: نعم.

فقال: قد عُوفِيتْ في ذمام أحمد.

ثم مضينا فصلينا الظهر، ثم مضيت إلى عند زوجتي، وقد تركتها مقعدة، فوجدتها قائمة تصلي، فعجبت -والله- من هذا عجبًا عظيمًا.

ثم أصبحت فأتيت إلى الشيخ أبي الحسين، فقلت له: سألتك بالله – تعالى – وتقدّس ما هذا؟ وكيف كان الأمر؟

فقال لي: يا هذا: إنما هو نور يجعله الله -تعالى- في القلوب فيُنطق مَن يشاء كما يشاء، ويُسكت مَن يشاء كيف يشاء.

***

ثم كانت سنة تسع وأربعين وثلاثمائة

وفيها توفي:

- أبو الفضل العباس بن محمد الصوّاف الغدامسي:

المتعبد بالمنستير، وهو ابن ست وتسعين سنة.

وكان ما افترق في غيره من الأوصاف الجميلة اجتمع فيه.

[٨٥٦] وكان يعجن لصالحي الموضع ويخبز لهم، يقوم في الليل في الشتاء فيسخن الماء لمن أراد منهم غسلًا أو وضوءًا، وكان يقول: خدمت المرابطين ثلاثين سنة، وخدموني ثلاثًا وثلاثين سنة، فلهم عليّ الفضل.

[٨٥٧] وانتفع الشيخ أبو الفضل الغدامسي بشيخ جليل متعبد يعرف بالباجي، على يديه تعلم القرآن، وبعد موته رأى أبو الفضل رؤيا، قال: رأيتُ معلمي الباجي في المنام، فسألته عن حاله، فذكر خيرًا.

فقلت له: فكيف كان موتك وكيف كان خبرك؟

فقال: لما متُّ رُدّت إليّ نفسي فكنت أعرف كل ما تصنعون بي حتى أخرجتموني وغسلتموني وكفّنتموني، وصليتم عليّ، فلما دفنتموني وانصرفتم عنّي، صاحب بي صائح: يا رجل، يا رجل، فما علمتُ أنه يريدني، فصاح بي: يا هذا الذي نزل عندنا الساعة.

فقلت له: ما تريد مني؟

فقال لي: اقرأ، أما ترى ما جاءك؟

قال: فانطلق لساني في سورة يس، قال: وأتاني الملكان فقال أحدهما للآخر: سله، فقال له: كيف أسأله أما تسمعه يقرأ قلب القرآن، فمضيا عني وما سألاني.

[٨٥٨] ومن ذلك ما رأى محمود المتعبّد، رأى النبي ﷺ في المنام وهو يقول له: اجمع الفول الأخضر من جنانك واحمله إلى الغدامسي فإنه اشتهاه، قال: فاستيقظت

فخرجت إلى الجنان، فجمعت الفول الأخضر ومضيت به إلى الشيخ الغدامسي، فقال له: من أخبرك أني اشتهيت الفول؟

فقال له: النبي ﷺ أخبرني في المنام.

وكان يتكلم على الخاطر:

[٨٥٩] ذكر أبو بكر بن سعدون قال: كنتُ يومًا عند أبي الفضل الغدامسي، فجال في سرّي أن أسأله عن شيء من أمر الدنيا، فلمّا هممت بالاستفتاح في السؤال عن ذلك عطف عليّ فقال: يا أبا بكر.

قلت: لبيك.

قال: والله ما معي من الدنيا قيراط واحد وأنا أختار ذلك وأريده.

[٨٦٠] قال أبو الفضل الغدامسي: سألت الله - عزّ وجلّ- في شيئين فأعطانيهما، سألته أن ينزع من قلبي حب غدامس[١] فنزعه، وسألته أن يكفيني مؤنة البراغيث فكفاني.

قال أبو محمد الجبي: فكان يجلس ونحن حوله نتفلّى من البراغيث وهو لا يحس شيئًا.

[٨٦١] قال الفقيه أبو بكر بن عبدالرحمان: حدثني والدي عبدالرحمن قال: مضيتُ لزيارة أبي الفضل وحملتُ له معي تمرًا، دفعته لإنسان دفعه إليه، قال: ثم دخلتُ عليه، فسلّمتُ وجلستُ، فقال للرجل:

من أتى بهذا التمر؟

فقال له: أصلحك الله – تعالى - هذا الشاب، وأشار إليّ.

فقال لي: من أين موضعك؟

فقلت له: من أهل القيروان.

فأقبل وهو يمدح أهل القيروان، ويذكر ما أنعم الله -تعالى- به عليهم ويدعو لهم.

---

(١) مدينة في ليبيا.

فقلت له: أصلحك الله تعالى: أحبّ أن تدعو لهم بالغيث فإنهم تحت عطش عظيم.

فأخذ في الدعاء فدعا بدعاء عظيم.

قال فوصل إلينا الخبر من القيروان أن الوادي(١) أتى إلى الماجل(٢) في الوقت الذي دعا فيه أبو الفضل، فملأ المواجل من غير مطر أصاب القيروان، إنما مطرت البوادي فأتى السيل إلى المواجل فملأها.

[٨٦٢] وأتاه رجل يستغيث به وهو يبكي فقال له:

أصلحك الله تعالى: أُخِذَ أخي على لُبُود(٣) أتى بها من الأندلس -وكانت اللّبود محظرة لا يخرج بها أحد- وقد سجن في المهدية على أن تُقَبَّل(٤)، وهو يتضرّع.

فرقَّ له الشيخ أبو الفضل وقال له: أمضي معك.

فخرج الشيخ أبو الفضل معه، فلما مشى عن القصر يسيرًا استيقظ وقال للرجل:

لا حول ولا قوّة إلا بالله أخطأنا الطريق.

فقال له أصلحك الله تعالى: نحن على الطريق.

فقال له: لا يا مبارك قد أخطأنا الطريق.

فرجع الشيخ أبو الفضل إلى ناحية فركع ركعتين وسأل الله -عزّ وجلّ- في حاجة الرجل، فما أصبح الصبح حتى وصل الرجل المسجون إلى أبي الفضل، فقال له: كيف كان خبرك؟

فقال له: ما أدري - أصلحك الله تعالى- إلا أني كنت جالسًا في الليل أنتظر ما يصنع بي حتى فُتح باب السجن وحُلَّت قيودي وقيل لي: اخرج الساعة إلى المنستير.

[٨٦٣] قال أبو محمد الجبي:

---

(١) أي السيل.

(٢) الخزانات التي يُحفظ فيها الماء.

(٣) قال المحقق: جمع لبد، وهو ضرب من البُسط، وما يوضع تحت السرج.

(٤) قال المحقق: أي يؤدى عليها القبالة، وهو نوع من المكوس (الضرائب) والأداءات.

جاء مرة السلطان معدّ -لعنة الله عليه- جائزًا بالمنستير فنزل بها، فأرسل إلى الشيخ الغدامسي يسأله في الخروج إليه ليراه، فصعب ذلك على الشيخ، والرسل تأتي وراءه، فأسبغ الوضوء وركع ركعتين، فجاء رسول يجري وراء الرسل يخبرهم أن السلطان رحل، فقالوا له: إيش الخبر؟

فقال لهم: بينما السلطان جالس حتى دبَّت عليه عقرب، فقال لهم: ارحلوا الساعة من هذا المكان، فمضى ولم يجتمع به.

[٨٦٤] وأما سخاؤه ومروءته وكثرة صدقته ومعروفه فكثير، وإيثاره على نفسه وإشفاقه ورقة قلبه، وسلامة صدره، قال أبو محمد الجبي:

ما رأيت أهون من الدنيا عند أبي الفضل ولا أقل وزنًا، وذلك أن رجلًا أتى إليه وهو يجري ويلهث حتى سال عرقه، فقال له أبو الفضل: ما دهاك؟

فقال: أتيت لأبشرك بوصول لوح[1] مشحون أُرسل به إليك.

فقال له: وهذا الذي صيرك بهذه الحالة؟

فقال له: نعم.

فقال له: اذهب، فبارك الله لك في اللوح بما فيه.

[٨٦٥] قال أبو محمد بن أبي زيد الفقيه: بلغني أن ابن عمّ له بغدامس توفي وليس له وارث غيره، وترك جنانًا وغلامًا فيه محافظًا على صلواته من الأتقياء، فقال: أشهدكم أنه حرّ وأن الجنان عليه صدقة.

[٨٦٦] قال أبو محمد الجبي: أتى ليلة أبو محمد بن التبان الفقيه إلى أبي الفضل الغدامسي ليبيت عنده، فصاح بابن مؤنس ورشيد وقال لهما: الفقيه بات عندنا الليلة وليس عندنا ما نعشّيه وما يصلح له، الحقوني.

فمضى ابن مؤنس في الوقت إلى القصر فوجد سبع حَجَلات[2] مع بدوي فاشتراهم

---

(١) أشار المحقق إلى أن المعنى ربما يكون: سفينة.

(٢) نوع من الطيور.

وأتى بهم[1]، فلما رآهم الشيخ سُرَّ بهم سرورًا عظيمًا، ودخل إلى بيته وأخرج نعلًا طائفيًا جديدًا مما أهدي إليه، وقطائع وأشياء مما يساوي دنانير، فدفع جميع ذلك إلى ابن مؤنس وقال له: خُذ هذا فَبِعْه وابعث به إلى صبيانك ينفقونه كما أدخلت على قلبي السرور في هذه الليلة.

[٨٦٧] وذُكر عنه أنه أقام يشتهي غسّانية[2] سنين عدة، فقال للذي يخدمه: قد تاقت نفسي إلى هذه الشهوة، الغد أغدو ومعي ديناران ورثتهما من أمي فخذهما وامض إلى سوسة فاشترِ لنا سميذا طيبًا وعسلًا وما يصلح وتأتي معك بطبّاخ يتولى لنا طبخها.

فقال له خادمه: إن الذي ذكرته يقوم بدار عرس ويأكل منه ثلاثمائة رجل، وأنت إنما تكسر شهوتك على ربع مد سميذ وربع قَفِيز عسل، وربع درهم زعفران وتأكل مع هذا منه ليالي.

فقال له: يابني: قد علمت هذا الذي تقول ولكن آكل الغسّانية وحدي دون المرابطين؟ إنما أردت أن أعمّهم كلهم بأكلها، فمضى الخادم إلى سوسة فأتى معه بالطباخ وبكل ما يحتاج إليه، فلما صُنعت الغسانية وأُحكمت قال لخادمه:

اذهب إلى كل رجل في القصر فأتِ بصَحْفة من عنده نبعث فيها إليه بسهمه.

قال: فأتى بصحاف كل مَن في القصر - القصبة والربض- وجعل صحفته بين الصحاف حتى عمّهم وفرّقها عليهم، ولم يبق في بيته إلا صحفته فيها سهمه وسهم خادمه فقط، ثم قال أبو الفضل لخادمه:

قد بقي علينا الشيخ المسنّ الكبير الذي في موضع كذا وكذا من القصر، وهو شيخ صالح قديم الخير لا يؤبه له، فكيف لم تأتِ بصحفته؟

فقال: قد - والله- أُنسيته.

فقال: لم يبقَ إلا صحفتي وفيها سهمي وسهمك فامضِ إليه بسهمي.

---

(١) كذا وردت.

(٢) نوع من الحلوى.

فقال له خادمه: أصلحك الله تعالى لك مدّة تشتهي هذه الغسّانية وتحرمها نفسك الساعة؟ أنا أمضي إليه بسهمي وأترك أنت سهمك تُفطر عليه.

فقال: لا بد أن تمضي إليه بسهمي.

فقال له: نمضي بسهمك وسهمي إليه.

فقال: ذلك إليك.

فمضى الخادم بجميع ما في الصحفة، وتنكّد عليه من أجل ما حُرِمه الشيخ من شهوته، فلم يمشِ إلا قليلًا وإذا بغلام أسود على كتفه خُرج كبير فيه أزيار[1] كثيرة وعليها قراطيس مشدودة مملوءة إلى أفواهها بالغسّانية المحكمة الصنعة، والقباط الأبيض[2] النضيج ملوّز وغير ملوّز، وفالوذج، وثردة حلوى بماء الورد والمسك والكافور، وأقبل وهو يقبّل رأسه ويديه ورجليه ويتضرّع إليه أن يأكل منه شيئًا ولو وزنَ درهمين، فقال له الشيخ:

من أنت يا هذا؟

فقال: أنا عبد، وأظنه قال: مولاي أبو بكر بن أبي عقبة.

فقال: مالك؟

فقال له: مولاي يطهر الليلة أولاده وقد صنع طعامًا واسعًا للناس وبعث بجميع ما في هذا الخُرج إليك وقال لي - وأشهد الله تعالى عليه وكل مَن حضر عنده من العلماء والصالحين- إن أكل أبو الفضل الليلة من هذا الطعام شيئًا فأنت حر وزوجتك وأولادك أحرار لوجه الله الكريم وابتغاء ثوابه العظيم، فسرّ أبو الفضل بعتق الغلام وأولاده وزوجته، وازداد إيمانًا ويقينًا حين آتاه الله -عزّ وجلّ- في الساعة التي آثر فيها على نفسه هؤلاء المرابطين ﷺ بما لم يكن في ظنه ولا في يقينه، ثم بالعتق للغلام وأولاده وزوجته.

[٨٦٨] وكان أبو إسحاق السبائي إذا ذكر أبا الفضل يقول:

ذلك سيّد العابدين، أخبرني بشيء ما اطلع عليه إلا الله عزّ وجلّ.

---

(١) جمع زير، وهو الوعاء الكبير المعروف.

(٢) نوع من الحلوى.

قال أبو محمد الحسن: قلت لأبي محمد الجبي: ما هو؟

قال: زعموا أن أبا إسحاق السبائي أراد الرحيل من القيروان ولم يخبر أحدًا، هروبًا من سلاطين البلد في ذلك الوقت، وكان ذلك في نفسه، فأرسل إليه الغدامسي من المنستير: لا تتحرك فليس للقوم إليك طريق.

[٨٦٩] قال أبو الربيع سليمان بن خلف التجيبي: سمعت رجلًا في مجلس الغدامسي وهو يقول:

بمنّك القديم وفضلك العظيم إلا ما غفرت لنا.

فقال له الغدامسي: أتدري ما منّه القديم وفضله العظيم؟

فقال له الرجل: أخبرني، أصلحك الله تعالى.

فقال: سمعتُ أبا جعفر أحمد بن أبي خالد الدباغ يقول: سمعتُ عيسى بن مسكين، أو عنه، الشك من أبي الربيع، وهو يقول: منّه القديم: أن جعلك في اللّوح المحفوظ مسلمًا، وفضله العظيم: أن جعلك من أمة محمد عليه الصلاة والسلام.

[٨٧٠] قال عبدالرحمان بن محمد: سمعتُ أبا الفضل يقول:

ثلاث تُنبت النفاق في القلب كما ينبت الزرع على شط الفرات: المنكر[1]، والاختلاف إلى أبواب السلاطين، واستماع الغناء.

[٨٧١] وكان - رحمه الله تعالى- من أرق الناس قلبًا، وأغزرهم دمعة، سليم القلب من غائلة كلّ مسلم، يرى أن أكثر الناس عيوبًا وذنوبًا أفضل منه عند الله، تبارك وتعالى.

[٨٧٢] ولقد ذُكر عنه أنه خرج من بيته ليلة من الليالي إلى المسجد، فنظر إلى شاب من جيرانه يقبّل حدثًا، فأوهمهما أنه لم يرهما وتمادى إلى المسجد فصلى بالناس وعاد إلى بيته، فضاق القصر بأقطاره على الفتى، وطالت عليه ليلته، وجزع جزعًا

---

(١) ذكر المحقق أنه في نسخة أخرى: المسكر، وأظنه الأقرب للصواب، والله أعلم.

شديدًا، وتوهم أنا أبا الفضل يحكي عنه للمرابطين ما رآه، وودّ أنه لم يُخلق حياء وحشمة، فهرب إلى سوسة وترك جميع ما في بيته، فأقام بها مدة يتوقع ما يكون، فأتى قوم من المنستير، فسأل رجلًا منهم: هل أحدث الغدامسي من بعدي حدثًا أو ذكر عني شيئًا؟

قال: ما سمعت ولا رأيت.

ثم سأل غيره فلم يسمع شيئًا يسوؤه، وقال له المسئول: قال أبو الفضل:

لقد أوحشتنا من غيبتك، وافتقدنا قراءتك وأذانك، فلم يصدّقهم فيما بينه وبين نفسه وقال: أحتال في الرجوع إلى بيتي، وآخذ ما كان لي فيه، وأنتقل إلى حصن من الحصون، فدخل الحصن مساء، فأُخبِر بدخوله الشيخ أبو الفضل، فقال: عليّ به.

فأتاه جماعة من المرابطين وقالوا له: الشيخ يدعوك، فقام إليه وهو لا يشك أنه أخبرهم بقصته مع الحدث، وهو يقول في نفسه: بأيّ وجه ألقاه، وأيّ حرمة تكون لي إذا أمر بضربي وأهانني، فقام كأنه يساق إلى الموت بالسيف صبرًا، وليس في وجهه نقطة من دم، فلمّا رآه الشيخ أبو الفضل قام إليه وسلّم عليه وعانقه وتبسّم في وجهه وقال له:

ما هذه الغيبة؟ والله لقد أوحشتنا في غيبتك هذه، امض فصلّ بالناس فإني قد ضعفتُ الليلة عن القراءة، وأخذ بيده فمضى به وأدخله المحراب، فلم يصلّ بالناس حتى كادت نفسه تخرج من بين جنبيه حياء وحشمة، فلما انصرف الناس عدل إلى بيته فقال له الشيخ:

سبحان الله العظيم! أنت الليلة ضيفنا وضيافتك واجبة علينا، فأفطر الليلة عندنا، فأفطر الغدامسي والفتى معه على طعامه، فلمّا كان عند طلوع الفجر مرّ به الغدامسي وهو يضم قُشاشه[1]، وقد عظم في نفسه الأمر، وقال في نفسه: مالي وجه أنظر به إلى وجه الغدامسي بعد هذا كله، فعدل إليه الغدامسي وسأله عما يريده؟

فقال له: أزمعت الانتقال إلى قصر شقانص أو قصر الطوب.

فقال له: والله لا برحت ولا خرجت مع الناس شبرًا واحدًا: اجلس يا بني ومدّ بكفيك

---

(١) أي متاعه.

إلى الله -تعالى- معي، ونعتقد توبة نصوحًا من ذنوبنا، ونرغب جميعًا إلى الله -تعالى- فيها، فما رأيتُ في هذه الحصون أكثر ذنوبًا مني، وافتتح في الدعاء لنفسه وللفتى، واجتهد في التضرّع والبكاء، وعادت على الفتى بركة ذلك الدعاء، فحسن منه الحال، وصار إلى غاية التصوّن والكمال.

[٨٧٣] ولما احتضر -رحمة الله عليه- وأُغمي عليه أفاق من ذلك وأقبل يقول لمن حوله: أين أنا؟

فقيل له: في بيتك.

فيقول: ليس هذا بيتي، هذا بيت من فوقه غرف، ثم أغمي عليه بعد ذلك، ثم أفاق وهو يقول: لمثل هذا فليعمل العاملون، ثم احتضر وهو على ذلك، رحمة الله عليه.

وفيها توفي:

-أبو حفص عمر بن عبد الله بن يزيد الصدفي:

الإمام المتعبد، رحمه الله تعالى، توفي بمدينة سوسة.

[٨٧٤] كان ممن طلب العلم وجالس العلماء، ثم اعتزل ولزم العبادة، وكانت له في كل ليلة ختمة، ثم زاد فهمه فكان لا يكاد يبلغ النصف حتى ينفجر الصبح، تأوهًا وتدبرًا وحنينًا وغِزَرَ دمعة.

[٨٧٥] وكان مجاب الدعوة:

ذُكر عنه أنه رأى ليلة القدر، وكان قد عرض له في ركبته داء منعه من المشي إلا بالعصا، وإذا وقف في الصلاة كانت[1] معلّقة عن الأرض، وكان الناس يخوفونه منها، قال: فخررتُ ساجدًا في تلك الليلة وسألت الله -عزّ وجلّ- أن يهب لي العافية فيها، فبرئت وزال منها الألم.

[٨٧٦] ورُئي في النوم فقيل له: ما فعل الله عزّ وجلّ بك؟

فقال: خيرًا، انتفعنا بفرّوج كان عندنا.

---

(١) أي رجله.

فسئلت امرأته -وكانت ذات دين وتقى-: ما سبب الفروج الذي كان عندك وما قصته؟

قالت: كان خصيًّا سمناه في عيد فطر قَرُب منا، فلما كانت ليلة العيد ذبحناه وأصلحنا له جميع ما يُحتاج إليه، فلما صلّينا المغرب قربته إليه، فلمّا نظر إليه قال:

أحب أن أسألك في حاجة؟

فقلت: وما هذه الحاجة التي تسألني فيها؟

فقال: أحب أن تؤثريني بنصيبك في هذه الصَّحْفَة في هذه الليلة.

فقلت له: أتسألني فيما كان لك أن أهبه لك؟

فقال: أحببتُ ذلك.

فقلت له: أفعل وكرامة.

فأخذ الصحفة وحملها على يده وخرج ولم يعلمني من أمرها بشيء، فأتى إلى أرملة من جيراننا لها بنون وبنات أيتام فقرع عليها الباب فخرجت إليه، فوقف خلف الباب، فسلّم عليها ثم قال لها: وأين الصبية؟

فقالت: هم نيام.

فقال لها: وما أوجب نومهم في هذا الوقت؟

فقالت له: اصطنع جيراننا أطعمة، وفوّحوا أبازير فخفت أن يتشوفوا إلى ذلك وليس عندنا شيء فنومتهم.

فقال لها: ولم لا أرى عندك سراجًا؟

فقالت له: ما عندنا زيت ولا طعام.

فقال لها: خذي هذه الصفحة فأنبهيهم فليجتمعوا عليها، ثم أخذ كوزًا مملوءة بالزيت وأتى به إليها وقال لها: اسرجي لهم السراج.

فهذا الذي أوجب ذكر الفروج في المنام ﷺ.

***

ثم كانت سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة

وفيها توفي:

-أبو بكر عطية بن محمد بن رهبون الجزري الجماجري المتعبد:

قال أبو الحسن الدينوري: ما قدم إلينا من إفريقية أكثر جدًّا واجتهادًا من عطية.

حجّ حججًا كثيرة، وكان مستجاب الدعوة.

[٨٧٧] ذكر أبو جعفر أحمد الحداد الجزيري -وكان من خاصة عطية- قال:

توجّه عطية إلى الحج سنة من السنين، فوصل إلى تَرُوجة[١]، فدخل المسجد، وكان جائعًا فاجتاز به شاب، فلما رآه قال له - وهو خارج من المسجد- امض معي فمضى معه، فأدخله بيتًا وأتاه بخبز وشراب - يعني لبنًا رائبًا- فأكل، فبعد فراغه من الأكل أخبره أنه نصراني.

فقال له: ما اسمك؟

قال: خلف.

فقال له: جعلك الله -عزّ وجلّ- يا خلف مؤذنًا في هذا المسجد.

فلما رجع من مكة أتى إلى ذلك المسجد، فوجده قد أسلم وهو يؤذن في المسجد واستجاب الله -عزّ وجلّ- دعوة عطية.

[٨٧٨] وكان عطية هذا قد وفقه الله -تعالى- في ابتداء أمره إلى أفضل الأعمال ببرّه بوالديه، فكان يُضرب به المثل في ذلك.

---

(١) قال المحقق: قرية بمصر من أعمال الإسكندرية.

ثم كانت سنة أربع وخمسين وثلاثمائة

وفيها توفي:

- أبو سعيد خلفون النوفلي:

المتعبد بالمنستير وهو ابن ثلاث وتسعين سنة، رحمه الله تعالى.

[٨٧٩] كان لا يخرج من بيته إلا لصلاة الفرض أو مجلس تُرجى بركته، وكان إذا سلّم عليه أحد ينظر إليه فإذا رأى لله -عزّ وجلّ- فيه وديعة جلس وانبسط، وإن رأى غير ذلك قال: علينا شغل، ودخل بيته.

وكان كثيرًا ما يقول: إني أعرف بالناس من البيطار بالدواب.

[٨٨٠] وكان يقول: من يعمل أيامًا بعدد ينعم أبد الأبد.

[٨٨١] من خلا بربه لم يعدم النور في قلبه، ومن خلا بغيره لم يعدم الزيادة في ذنبه.

[٨٨٢] وكان يقول: إن هذا الموت قد أفسد على أهل النعيم نعيمهم، فاطلبوا نعيمًا لا موت فيه.

قال: بلغنا أن الإنسان إذا كان يدعو في الرخاء ثم نزل به البلاء فدعا قالت الملائكة: صوت معروف ودعوة مستجابة، إن شاء الله تبارك وتعالى، وإن كان لا يدعو في الرخاء ونزل به البلاء فدعا قالت الملائكة: صوت غير معروف ودعوة غير مستجابة.

[٨٨٣] قال: وإذا دعا العبد بظهر الغيب لأخيه قبل نفسه يقول الله عزّ وجلّ: عبدي بك أبدأ ثم بأخيك.

[٨٨٤] وأما استجابة دعوته، فذُكر عنه أنه أفلج وهو ابن تسعين سنة إلا سنة وأقام تسعة أشهر يصلّي على ظهره بالإيماء، وقد جفّ نصفه، انحل الفالج بعد ذلك وزالت العلّة بأسرها وعاش بعد ذلك نحوًا من أربع سنين، ومات بعلّة أخرى بحرارة، فسئل عن سبب زوال الفالج فقال: لما رأيتُ أسري وطول علّتي قلت:

اللّهم إني أسألك بقدر القرآن ومكانه منك إلا رددت عليّ يديّ ورجليّ، فقمت كما ترى صحيحًا.

[٨٨٥] وقال له رجل من أصحابه -عندما رآه وما قد بلغ إليه من الخير-:

هل تحب الموت أو الحياة؟

فقال: ما أحبّ هذا ولا هذا، ولكن أحب الذي أحبّ الله - عزّ وجلّ- لي، إن أحب مولاي حياتي أحببتُ ذلك.

قال عبد الله[1]: وهذه طريقة أهل الرضى والتسليم، وهي درجة رفيعة.

[٨٨٦] وكان يقول: يحق لمن لم يدر في اللوح المحفوظ ما اسمه أن لا يزال بقلب قريح مكروب.

[٨٨٧] وذكروا له رجلًا يملك عشرة آلاف دينار، فقال لهم: والله إن عندي ما هو خير منها وأنفع.

قلنا له: وما هو؟

قال: هذا الحجر الذي عليه هذه القلة لا أحاسب عليه، ولا أسأل عنه إلا أن يكون صاحب هذه الدنانير التي ذكرتم ينفقها في سبيل الله، فإنها أنفع من هذا الحجر.

***

(١) وهو المالكي، مؤلف هذا السِّفر النفيس.

ثم كانت سنة خمس وخمسين وثلاثمائة

وفيها توفي:

-أبو عبد الله محمد بن نظيف البزاز الفقيه -رحمه الله تعالى- بمصر:

كان من الفقهاء البارعين والأئمة المعدودين.

[٨٨٨] ذُكر عنه -رحمه الله تعالى- أنه دخل إلى موضع تباع فيه الكتب، وقد حضر ذلك المكان جماعة من العلماء والصالحين، فلما دخل قاموا كلهم على أرجلهم، إجلالًا له وهيبة، لأنه كانت له هيبة لم تكن لأحد من أهل وقته، وكان في ذلك المجلس السكاكيني الشاعر، فلما رأى تعظيمهم له وقيامهم هاله ذلك وقال:

لقد أُعطي هذا الرجل أمرًا كبيرًا والله لأختبرنه، فألقى عليه مسائل من معاني القرآن للزجاج فوجده بحرًا لا تُكَدِّره الدِّلاء، وكأنه إنما يجيب من الكتاب لا يتلعثم في حرف منه، فلمّا رأى ذلك السكاكيني قال لنفسه: لو قام الناس لهذا على رؤوسهم لكان قليلًا.

[٨٨٩] تخلى عن الدنيا وانقطع إلى الله -عزّ وجلّ- وآثر ما يبقى على ما يفنى، ولما اشتهرت إمامته خرج إلى المشرق من افريقية هربًا من الرئاسة، ولما ظهر فيها من سب السلف عند اشتداد أمر بني عبيد، لعنهم الله تعالى.

[٨٩٠] وكانت صفته كما قال بعض الحكماء: طلبوا حتى علموا، فلما عَلِموا عملوا، فلما عملوا عُرفوا، فلما عُرفوا طُلبوا، فلما طُلبوا هربوا.

[٨٩١] وكان الشيخ أبو محمد بن أبي زيد يقول: لو كان أبو عبد الله ابن نظيف مقيمًا بالقيروان لم يسعني أن أجلس هذا المجلس لأنه أولى به مني، لحفظه وفهمه وفقهه ودينه وورعه.

[٨٩٢] وكان يحضر مجلس أبي إسحاق السبائي وأصحابه للمذاكرة، فتخلف مرة، فسأله أبو إسحاق عن سبب تخلفه، فقال له: اغتيب في مجلسك رجل مسلم فلذلك تخلفت. فقال له: فإني تائب.

وكان له إخوة صالحون، ممن يُعنى بالعلم، رحمة الله تعالى عليهم.

ثم كانت سنة ستّ وخمسين وثلاثمائة

وفيها توفي:

-أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد السبائي المتعبد:

مولده سنة سبعين ومائتين، أجداده من أطرابلس.

[٨٩٣] قال الشيخ أبو إسحاق السبائي:

أبطأ عليّ الرزق مرة، فقالت لي نفسي: امض فادخل فيما يدخل فيه الناس وتعرّض للرزق فيما يمكنك، فخرجت من موضعي إلى موضع ألتمس فيه الرزق، فسمعت معلمًا يقرأ في هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧] فانتبهت لذلك ورجعت إلى بيتي وجلست، فدخل علي بعد ذلك رجل من إخواني فقال لي: هذا دينار فخذه سلفًا، فأخذته ومضيت به إلى الإبراهيمية فاشتريت به أبدانًا(١)، فكنت أقصرها(٢) في داري على البئر، فكنت أربح في البدن قيراطًا أو نحوه، فقام لي من ذلك معاش كثير.

ذكر شيء من أوصافه -رضي الله تعالى عنه- وثناء العلماء عليه وذكرهم لفضائله:

كان وقافًا عن الشبهات، مشهورًا بالعبادة، لا يدانيه أحد في ذلك من أهل وقته.

[٨٩٤] شديد الغلظة على أهل البدع، كثير التنبيه على أحوالهم وزندقتهم.

وثق بالله فحماه، وتوكّل عليه فكفاه.

[٨٩٥] وكان لا يُغتاب عنده أحد من المسلمين إلا مبتدع أو ملحد.

وكان وليًا لله - عزّ وجلّ- من الذين ينزل بدعائهم القَطْر، وتظهر عليهم البراهين والعجائب والكرامات بالدعاء والرُّقى.

---

(١) أي ثيابًا بلا أكمام.

(٢) قال المحقق: قصرت الثوب قصرًا: بَيضته، والقصارة، بالكسر: الصناعة.

[٨٩٦] ولقد كان مَن بالقيروان من أهل الدين والعلم إنما ينظرون إذا نزلت المعضلات إلى ما يفعل إن أغلق بابه فعلوا مثله، وإن فتح بابه فتحوا أبوابهم، وإن تكلم ونطق تكلموا مثل كلامه لتقدمه عندهم ومكانه من الفضل والعلم مع المعرفة بمحنة الوقت وكيف تُلقى الحوادث.

[٨٩٧] وكان الفقيه أبو محمد بن أبي زيد يصفه بكثرة الفضل والعقل ويقول: ما هذا الذي نحن فيه إلا من بركته ودعائه.

[٩٩٨] قال أبو الحسن الفقيه:

ما انتفعت إلا بدعاء أبي إسحاق فإنه قال لي: أعلى الله تعالى قدرك في الدنيا والآخرة.

وسُئل أبو محمد بن أبي زيد فقيل له:

[٨٩٩] أصلحك الله -تعالى- هل تعلم أحدًا في أقطار الأرض يشبه أبا إسحاق السبائي؟

فقال: أما في إيمانه فما علمت أحدًا يشبهه فيه، يعني في وقته.

[٩٠٠] قال الأجدابي: بلغني عن بعض العلماء أنه كان يقول:

بالقيروان رجلان يُدعى كل واحد منهما باسم صاحبه وهما: أبو الحسن الدباغ، وأبو إسحاق السبائي، يقال: الدباغ عالم، وهو أولى بأن يُسمى عابدًا لكثرة حيائه وصمته وسكونه ولينه ووطائه وعلمه، وأبو إسحاق السبائي يسمّى عابدًا وهو أولى بأن يسمى عالمًا لأنه كان يدري العلم ويعرفه ويتذاكر العلماء بحضرته وفي مجلسه، كل من يعرف مسألة كان يحضر مجلسه، فإذا تنازعوا فصل بينهم بأمر يرجعون كلهم فيه إليه، كانوا إذا نزل بهم أمر من المهمات يفزعون إليه ويستشيرونه في جميع أمورهم، وكان موفقًا، فهو أولى بأن يسمى عالمًا من أبي الحسن الدباغ.

[٩٠١] قال أبو الحسن الفقيه -رحمه الله تعالى-:

وصل موت أبي إسحاق إلى مصر في تسعة عشر يومًا[1] لعظمه في صدور القوم ومحلّه

(١) يريد أن خبر موته وصل سريعًا !!

من الإسلام، وكان لموته بمصر وَجْبة[1] في قلوب أهل الجلالة من العلماء والصالحين، ولقد عزّاني فيه كل جليل كأبي بكر محمد بن بكر النعالي الفقيه، وكانت حلقته تدور على سبعة عشر عمودًا، لعظمها وكبرها، وكان النعالي يقول: لقد كان يطرقني ما يمنعني من النوم وأسهر عامة ليلي إما لهمّ وغم، وإما لوجع، فأكابد المعيشة في ليلي والتعب والسهر حتى إذا كان آخر الليل، وهو الوقت الذي كان يقوم فيه أبو إسحاق للتهجد - وكان قد أرسل لي وعقد لي على نفسه أنه يذكرني ويدعو لي - فإذا جاء وقت ذكره إياي أُلْقيت عليَّ الراحة وذهبت عنّي المشقَّة التي كنت أكابدها في أوّل الليل، وانتقلتُ إلى حال الراحة فأهدأ وأنام ويذهب عنّي الوجع أو التعب أو الهمّ الذي كنت مكروبًا به من أول الليل إلى ذلك الوقت.

فهذا النعالي على جلالته كان يبيت في خفارته، ويسكن إلى دعائه، ويفرح بمودته وصداقته.

[٩٠٢] كان أبو إسحاق منزويًا عن الناس هاربًا منهم، وكان أبو عبد الملك مروان في ذلك مشهورًا، فكان الناس يختلفون إليه ويزورونه، فهو الذي ستر على أبي إسحاق، فلما توفي انكشف أبو إسحاق فرجع الناس إليه، قال محمد ابن أخي مروان: لما أخبرتُ أبا إسحاق بموت عمّي مروان قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، كشفني أبو عبدالملك.

[٩٠٣] ولما شغله الناس كان يقول:

إذا كان الأمر هكذا فمتى يعمل الإنسان؟ فكان يقول: هذا أمر قد نزل -يعني اختلاف الناس إليه- لا يزيله إلا الموت.

[٩٠٤] قال أبو عبد الله الأجدابي: قلت لأبي علي حسان بن محمد:

هل خرج أبو إسحاق للصلاة على مروان؟

فقال لي: ما علمتُ أنه خرج من باب داره متصرفًا من أيام أبي يزيد [2] حتى توفي، بَلى إنه

---

(١) أي له وقع شديد.

(٢) أي الخارجي، الذي حارب الشيعة العبيديين.

كان يخلو في مسجد أبي الحكم قبل أن يُعرف، أقام فيه عشرين سنة يخلو للعبادة.

[٩٠٥] قال أبو سعيد القلال: وما رقد أبو إسحاق على عود قط -يعني: سُدّة ولا سريرًا-.

[٩٠٦] وكان إذا دخل في الصلاة لم يكن قلبه إلا فيها، قال علي بن حمود -وكان خصيصًا بأبي إسحاق-:

دخلتُ يومًا على أبي إسحاق في بيته فوجدته قائمًا يصلي فجلست، ثم دخل شخص آخر فجلس إلى جنبي، فلما سلّم من صلاته أقبل علينا وقال: متى دخلتما؟

فقلنا له: منذ ساعة.

قال: ما عرفت بكما في وقت دخولكما ولا رأيتكما إلا الساعة.

قال أبو الحسن: إنما ذلك من شدة خوفه.

[٩٠٧] وكان إذا أراد أن يتوضأ يتلو قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾ [المائدة: ٦] ثم يقول: نعم يا رب، نعم يارب، ويكرر ذلك، ثم يغسل وجهه وذراعيه وهو تحت خوف عظيم ووَلَه، يفعل ذلك في كل عضو حتى يفرغ من وضوئه.

[٩٠٨] وكان يحب سماع القرآن مِمَّن له صوت حسن، قال الشيخ أبو الحسن: فعاتبتُ أبا القاسم ابن أخت الغسّاني في قلّة دخوله إليه، وأخذت بيده ومضيتُ به إلى دار أبي إسحاق فدخلنا عليه، فوجدنا عنده أبا القاسم الفزاري الشاعر، فسلّمنا على الشيخ وقلتُ له:

هذا أبو القاسم جارك، ثم قلت له: يا أبا القاسم اقرأ.

فقال: هيبة الشيخ تمنعني أن أقرأ، ولكن اقرأ معي.

قال الشيخ أبو الحسن: فابتدأ في سورة الواقعة وابتدأت معه بصوت منخفض، حتى

انتهى إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ [الواقعة: ٧] فرفع بها صوته وغلق عينيه وسكت أنا، ورجع فابتدأ من أول السورة، فعهدي بالشيخ أبي إسحاق وقد انضم بعضه إلى بعض وهو يتنهد ويتأوه، وكأني أحس أن أضلاعه تختلف، فقلت: الساعة يموت وندمت في مجيئي إليه، وطال عليّ تمام السورة، فلما فرغ منها وأنا آمن على الشيخ، فقمنا وتركناه في غيبته تلك.

[٩٠٩] وكان ابن أخت الغساني هذا قويًا في الدين، قليل المبالاة بمن خالف الشريعة، لقد دخل النعمان[1] إلى الجامع وهو جالس في حلقته، وإنسان يقرأ عليه، فقالوا له -أصلحك الله تعالى-: النعمان دخل من الباب، فقال للذي يقرأ بين يديه: ارجع، ورفع صوته وهو يقول: ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧٢] فتخيّل النعمان في مشيته، فلما أراد الخروج قالوا له -أصلحك الله تعالى-: ها هوذا خارج، فقال للذي يقرأ بين يديه: مالك ارجع اعرف ما تقول وتقرأ، ورفع صوته وهو يقول: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ [المائدة: ٦١].

فدهش النعمان، وعثر في حصير من حُصُر الجامع ووقع على وجهه، وقام من سقطته وهو مدهوش، وأمر بخياطة حصر الجامع فمن ذلك اليوم خِيطت حصر الجامع.

[٩١٠] وحقد عليه النعمان فأمر بطلبه، وسجنه في حبس الزيادة مدة، فكان إذا قرأ في السجن اجتمع الناس في الأزقة خارج السجن، فخاف النعمان فأخرجه، فخرج أبو القاسم إلى الأندلس، فوصل إلى الحكم، فرفع به وأدناه.

[٩١١] ذُكر أنه قرأ عند الحكم[2] أمير المؤمنين -رحمه الله تعالى- في إيوانه في سورة

---

(١) قال المحقق: هو النعمان بن محمد بن حيون، أبو حنيفة المغربي، القيرواني، فقيه وأديب ومؤرخ شيعي. كان يتولى للفاطميين مدة المنصور والمعز خطة داعي الدعاة وقاضي القضاة، له تآليف مهمة في فقه الطائفة الإمامية الإسماعيلية وأخبار أئمتها وتطور دعوتها، توفي بالقاهرة سنة ٣٦٣.

(٢) قال المحقق: الحكم بن عبد الرحمن بن محمد الأموي، ولقب بأمير المؤمنين المستنصر بالله، تاسع ملوك بني أمية بالأندلس. ولي سنة ٣٥٠ وتوفي سنة ٣٦٦.

إبراهيم ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [إبراهيم: ٤٢] فلما انتهى إلى قوله عزّ وجلّ ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [إبراهيم: ٤٥] نزل الحكم من فوق سريره -رحمة الله عليه- وهو يبكي وينتحب، وجثا بين يديه.

[٩١٢] وكان الحكم يقول: ليس أشتهي من دولة الشيعيّ إلا أربعة: أبو القاسم ابن أخت الغساني المقرئ، وابن الصّيقل الشاعر، وابن الجزّار الطبيب، وابن القصطلية المغبِّر[1]، فأما أبو القاسم بن أخت الغساني وابن الصّيقل فقد وصلا إليه وأقاما عنده حتى ماتا، وأما ابن القصطلية وابن الجزّار فلم يصِلا إليه.

[٩١٣] وأما ورعه ونزاهته وحمايته من الشبهات فحدّث أبو سعيد قال: قال لي أبو إسحاق: يا أبا سعيد: أيصاب الفقوس[2]؟ فقلت له: نعم.

قال: فخذ لنا منه.

فخرجت من عنده، وجئت إلى الذي أعرفه بالثقة، ممّن لا يشتري شيئًا فيه شبهة، فسلّمت عليه ثم قلت له: ثم من ذاك شيء؟ وهي علامة بيني وبينه، فأخذ اللوح الذي فيه بيع يومه ونظر فيه ثم قال لي: نعم.

فقلت له: أحبّ أن آخذ منه، فترك حانوته وقام معي حتى انتهى إلى الذي باع منه ذلك الحلال الذي عرفه هو، فسلّم عليه ثم قال له: أين الذي بعتُ منك؟

فقال: ها هو ذا معزول.

فاخترت منه بحضرته وإذن المشتري بثمن درهم، ثم أخذته ومضيت به إلي دار أبي إسحاق فدخلت فسلّمت عليه ثم دفعته له وخرجت، فناقرني سري وقلت: والله لأخبرنه ولا تقلّدت ذلك له، وذلك أنه قلدني في ذلك وأنا المطلوب، والرجل الذي قلّدته أنا ذلك لم

---

(١) أي المنشد.

(٢) قال المحقق: الفقوس: اسم لما يُعرف بـ القثاء.

قلت : ومعنى كلامه : هل يوجد الفقوس ؟

يفسر لي من أين هو، ولا من أملاك مَن هو، ولا بيَّن لي كيفية المِلك فيه، فسكتُّ ذلك اليوم إذ لم أجد من الشيخ فراغًا، فلمَّا عدتُ إليه قلت له:

أصلحك الله عزّ وجلّ: إني قد حصلت في عتاب بيني وبين نفسي؛ وذلك أنك على طريق وقد ألقيتَ في عنقي قلادة، وكلّفتني حملًا ثقيلًا، فلما تذكَّرت أن الأمر الذي أتولاه عظيم لا أقدر عليه، قلت: والله لأخبرته ولا تقلّدت هذا الأمر العظيم حتى أستأذنه.

فتبسّم الشيخ أبو إسحاق ثم قال: يا أبا سعيد لو كان فيه شيء ما جاز، عنايةً من الله سبحانه.

[٩١٤] ومثل هذه الحكاية كثير، فمن براهينه في قميص لبسها فوجدها على جلده كالشوك، فاستقصى مشتريها على بائعها فوجدها فاسدة الأصل.

[٩١٥] قال أبو سعيد القلال:

كان عندي زوج فراخ فسُمنا حتى كانا كالزبدة فذبحتهما، ومضيت بهما إلى الشيخ أبي إسحاق فأخذهما مني وقلّبهما في يده وتعجّب منها، ثم قال لي: خذهما يا أبا سعيد ما طابت نفسي عليهما، فأتيتُ إلى الدار، فسألت زوجتي وولدي: ما كانا يأكلان؟

فقالا: كنا نطعمهما حبّ الزبيب الذي يطرحه النبّاذون.

[٩١٦] قال أبو الحسن علي بن محمد الفقيه:

أتى رجل بتين أخضر إلى الشيخ أبي إسحاق فقال له:

أنت تعرف -أصلحك الله تعالى- طيب اكتسابنا، وأصل رباعنا، وقد أتيت بهذا التين فأحب أن تقبله، فأبى عليه من ذلك.

فقال له: أصلحك الله تعالى قد كان أبي يهدي إليك منه وتقبله منه، وهو قد صار لي ميراثًا من قِبَل أبي والله ما غيرتُ وما بدلت، فأبى من قبوله ألبتة، فلما رأى الرجل ذلك بكى، فلما رآه أبو إسحاق قد بكى قال له: يا هذا: الزيت الذي دهنتَ به التين من أين هو؟ فقال له: أصلحك الله عزّ وجلّ: اشتريته من السوق.

فقال له: ارفع تينك، ولم يمنعه من قبوله إلا سبب الزيت الذي دُهِن به.

[٩١٧] قال أبو الفضل عبّاس الزيات -وكان صالحًا- قال لي أبو إسحاق: قد فرغ الزيت فأحب أن تشتري لي حلالًا، فأقمتُ أيامًا ألتمس له حتى أتى رجل براوية زيت له أصل فأتيت له بالراوية وبصاحبها وقلت له: هذا زيت له أصل، فقال لي: فأين صاحبه؟

فقلت له: بالباب.

فقال: أدخله إليّ.

فدخل الرجل، فقال له أبو إسحاق: من أين هذا الزيت لك؟ قال: ميراث من أبي ورثناه منه أنا وأختان لي أخذ كلّ واحد منّا حقه.

ثم سأله عن أبيه من أين صار له؟ فقال: ورثه من أبيه.

ثم سأله من أين كان لجدّه؟ فتوقف ولم يجبه بشيء.

قال أبو الفضل فقلت لأبي إسحاق: تكتاله -أصلحك الله تعالى-؟ فسكت عني أبو إسحاق ساعة، ثم رفع رأسه إلى صاحب الزيت وقال له: المعصرة التي عصرت فيها هذا الزيت أهل القرية بأجمعهم يعصرون فيها؟

قال: نعم . قال: وفي القرية الطيّب وغير الطيّب؟

قال: نعم.

فقال له: يا أخي قم فلا سبيل إلى أخذ الزيت، فأخذ الرجل زيته ومضى.[1]

[٩١٨] واشترى الشيخ أبو الحسن بن الخلاف زيتًا مع الشيخ أبي إسحاق، أظنه اقتساه، فبعد مدّة قال له أبو إسحاق: بقي عندك شيء من ذلك الزيت؟

فقال له: نعم -أصلحك الله تعالى- بقيت عندي منه بطة[2]، فقال له: أحب أن تُوَلِّينها.

---

(١) هذا الورع الشديد لا يجب على المسلم لكنه منهج اختاره بعض من السلف لمطاعمهم، حرصًا على أن تكون في غاية من الحل.

(٢) قال المحقق: البطة: مكيال معروف يسع ما يقارب ٢٢,٥ لتر = ١٧,٥ كغم : «المكاييل والأوزان الإسلامية» ص ٦٠.

قال أبو الحسن فتدبّرت ذلك، وقالت لي نفسي: هو أقدر على طلب الحلال منك لاشتهاره، وأدركني منه حياء، فقلت له: أصلحك الله تعالى: ما تحضرني نية.

فقال: نعم يا أخي لا تعطنا شيئًا حتى تحضرك النيّة، ثم عرقتُ عرقًا عظيمًا حياء من الشيخ، وأقبل أهل المجلس ينظرون إليّ تعجبًا من إبائي على الشيخ، ثم خرجت وأنا مشغول السرّ، فأخذت في طلب الزيت لنفسي فوجدت زيتًا عند قوم من أصول في أيديهم من أكساب طيبة، وهم يزكون، فاشتريت منهم، وأصبحت بالبطة التي سألني فيها الشيخ أبو إسحاق، فدخلت عليه، فلما رآها قال: حضرت النيّة؟

قلت: نعم.

قال: فكيف ذلك؟

قلت: وجدت زيتًا يصلح لي ولا يصلح لك.

قال: كيف يصلح لك ولا يصلح لي؟

قلت: وجدت الورع درجات، فسلكتَ أنت أعلاها، أنت تسأل عن الأصول وعن إخراج الزكاة، ثم تسأل عن المواريث كيف كانت في أصولها، لأنه من حين دخل القوم غيّروا على الناس أكسابهم، فوجدت أنا زيتًا عند قوم أعرفهم من أهل الخير والزكاة فاشتريته ولم أسأل عمّا وراء ذلك، فأخذ البطة وفرغها ووزن ثمنها على حساب ما كنا اشترينا.

[٩١٩] ولما وقعت الهزيمة على أبي يزيد أتى إنسان إلى الشيخ أبي إسحاق فقال له: اركب هذا الحمار -أصلحك الله تعالى- فإني أخاف عليك.

فقال له أبو إسحاق: ومن أين أصل هذا الحمار حتى أركب عليه؟ فقال له: أصلحك الله تعالى: هذا وقت السؤال؟ أنت ترى السيف في إثرنا وأنت تسأل عن هذا، اركب أصلحك الله تعالى.

فقال له: لا سبيل إلى الركوب، فمضى الرجل بحماره وتركه.

[٩٢٠] قال الشيخ أبو الحسن الفقيه:

كان الشيخ أبو إسحاق يحب الماء البارد حتى لقد كان يشرب الماء المبرّد في الليالي[١]، فقال لأصحابه: أي شيء يبرّد الماء؟

قالوا له: الأزقاق[٢] السودانية.

فقال له أبو محمد ابن أبي زيد الفقيه عندي واحدة آتيك بها.

فقال له: كم ثمنها؟

فغضب أبو محمد وقال: والله ما كانت إلا مرمية في المخزن تقول إيش ثمنها؟

فردّها عليه الشيخ أبو إسحاق.

فقال أبو محمد عند ذلك: شيخ مبارك كلّما قلنا إنّا قربنا منه لم نزدد منه إلا بعدًا.

[٩٢١] قال أبو الحسن:

ولم يكن أحد عند أبي إسحاق مثل ابن أبي زيد ولا أعزّ منه، لكنه قد سدّ باب القبول عن نفسه، فما كان يقبل من أحد شيئًا، وكان يقول: ما تركت سائر القبول -يعني الهدية- إلا خوفًا من شغل القلب؛ إذ لا بد لكل من قبل هدية من المكافأة، وترك ذلك عندي أسلم.

فقيل له: فإن النبي ﷺ كان يقبل الهدية.

فغضب عند ذلك وقال: لا نشبه نحن النبي ﷺ لو فعلنا نحن هذا لَتَمَنْدَلُونَنا.

[٩٢٢] قال الشيخ أبو الحسن الفقيه: دخل عبد العزيز بن أيوب يومًا على الشيخ أبي إسحاق السبائي -وكان يحبّه- فقال له:

أصلحك الله تعالى: جئتُ إليك فلما وصلتُ إلى رحبة ابن أبي داود إذا بشيخ لم أر أجمل منه هيبة ولحية وهو يزمر بالزق[٣]، فبقيت أتعجّب منه وأنظر إلى بياض لحيته وجمالها على الزق.

---

(١) قال المحقق: والمقصود بالليالي: ما يعرف عند عامة التونسيين - والفلاحين منهم خاصة- بالليالي البيض والليالي السود، وهي أشدّ أيام الشتاء بردًا وتمتد مدّة أربعين يومًا من ١٢ ديسمبر الأعجمي إلى ٢٠ من يناير الأعجمي وتقسم بينهما أنصافًا، وتكون الأولى في ديسمبر والثانية في يناير، ينظر الرزنامة التونسية س٤ (١٣٢٢) ص: ٢٢.

(٢) قال المحقق: جمع زِق، وهو وعاء من جلد يجز شعره ولا ينتف يتخذ للشراب وغيره. المعجم الوسيط: زقق.

(٣) قال المحقق: هو هنا كآلة موسيقية وما زالت مستعملة في الأوساط الشعبية وتعرف بـ المزود. انظر «الأغاني التونسية» ص: ٣٦٦.

فبدر الشيخ إليه وقال له: ايه يا عبد العزيز إياك أن تقول لك نفسك إنك خير منه، لأنه مسلم ما بينك وبينه إلا أن يتوب ويراجع أمر الله -تعالى- إياك أن تحدثك نفسك أنك خير منه، وأقبل يكرر ذلك عليه وقد صال عليه وتغيّظ، ثم قال أبو إسحاق: والله ما أرى لي فضلًا على أهل الكبائر من المسلمين، فإذا رأيتم أهل البلاء فاحمدوا الله -تعالى- على العافية.

[٩٢٣] قال عبد الله: فذُكر عن رجل كان في مجلس أبي إسحاق في ذلك اليوم أنه قال: خرجت إلى مكة في العام المقبل فبينا أنا عند الطواف إذا بالرجل الزامر يطوف بالبيت، فقلت له: ألست فلانًا؟

قال: نعم.

فقلت: ما سبب توبتك وحجّك؟

قال: لا أدري إلا أنه أُلقي في قلبي التوبة فتبتُ، ثم خرجت إلى ها هنا فحججت كما ترى، فحسن حاله ونفعه الله -عزّ وجلّ- بدعاء الشيخ أبي إسحاق.

[٩٢٤] وكان يقول لمن تاب: هنيئًا لك يا أخي، ويقرأ الآيات التي في سورة غافر من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾ [غافر: ٧] إلى آخرها، ثم يقول: فهذا يا أخي لمن تاب، فهنيئًا لك.

[٩٢٥] وكانت امرأة فرحون امرأة صالحة، قالت:

كنست للشيخ أبي إسحاق البيت، واستقيت له الماء، وملأت القلّة والأزيار، قالت: فمدّ يده فأخرج قيراطًا من جيبه ودفعه إليّ وقال لي: ادعي الله تعالى لي.

فقلتُ له: أنقى الله -عزّ وجلّ- قلبك من الصدا والردى، وجعل فيه الصبر والتقى.

فقال لي: ادعي لي.

فقلت له ما قلت أولًا.

فنظر إليّ وقال: ما هو إلا شيء يجري على لسانك.

[٩٢٦] قال أبو سعيد خلف القلال، خادم الشيخ أبي إسحاق السبائي:

كنت ليلة عند الشيخ فجعل يحدثني، وتلذَّذت بحديثه حتى أذن المؤذن في الجامع للعشاء الآخرة وانقطع مشي الناس من الأزقة، وضُرِبَ البُوق، وكرهت أن أقطع عليه حديثه، وكان البُوق إذا ضُرب فمشى أحد بعد ضربه ضربوا عنقه لأنه لا يمشي حينئذ إلا من يسرق أو يخرج لضرب من الفساد، وكان مَعَدّ[١] قد ثقف البلد تثقيفًا شديدًا بالعسس[٢] والحرس والرصد الشديد، فلما فرغ الشيخ من حديثه وسلّمت عليه لأخرج قالت امرأته: إلى أين تخرج؟

فقلت لها: إلى الدار.

فقالت: البوق قد ضُرِب منذ ساعة.

فقال لي الشيخ: اقعد، تبيتُ عندنا الليلة؟

فقلت له: أصلحك الله تعالى: تتحيّر الوالدة وتظنّ أني أصِبْت بمصيبة أو دُهِيتُ بداهية.

فقال لي الشيخ: اصبر يا أخي يا أبا سعيد، فَوقفني بين يديه وأقبل يشير عن يميني وعن شمالي، فسمعته آخرًا وهو يقول: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] إلى آخر السورة، فإذا به إنما قرأ عليّ وعوّذني بـ يس، ثم أخذ في الدعاء فدعا بدعاء عظيم، ثم قال لي:

مر يا أخي يا أبا سعيد حفظك الله -تعالى- من بين يديك ومن خلفك، وعن يمينك وعن شمالك، ومن فوقك ومن تحتك.

فخرجت من داره فمررت برحبة ابن أبي داود، فإذا رابطة وعساسة وكلاب، فما كلّمني أحد بكلمة ولا نبح عليّ كلب، ثم تماديت في طريقي فمررتُ بالسماط على دار ابن أسود الداعي، فوجدت رابطة وعساسة وكلابًا، فما كلّمني منهم أحد ولا نبح عليّ كلب، ثم تماديت إلى ناحية سوق ابن هشام وعنده رصد وكلاب فما كلّمني منهم أحد، فلما وصلتُ إلى بئر أم عياض وجدتُ أيضًا عندها مثل ذلك، فتماديت حتى انتهيت إلى الدرب، فداخلني الهم

(١) سلطان العبيدية الباطنية.

(٢) هم الحرس الليليون ومعنى ثقف البلد: ضبطها.

والفزع، قلت: هم صَلُّوا وغلَّقُوا الأبواب فمن يفتح لي؟ فهزرت الباب فانفتح لي، فأصبتُ أمي واقفة خلف باب الدار، فلما رأتني قالت: خلف، قلت: خلف، فدخلت وحمدت الله تعالى على السلامة.

فلما كان الغداة مضيت إلى دار الشيخ فسلّمت عليه فما قال لي: كيف كان وصولك؟ ولا سألني عن شيء من ذلك ثقة منه بالله -عزّ وجلّ- أنه لا يضيعني ولا يسلمني.

[٩٢٧] ومن دعائه وإجاباته: أنه كان يدعو لمن عمي فيبصر، وعلى من ظلمه وآذاه فيهلك من يومه، وإذا ضغطه أمر فدعا فرّج الله تعالى عنه، ويدعو على من سبّ النبي ﷺ وأصحابه فيهلك.

[٩٢٨] قال أبو عبد الله محمد بن عبد الله الربعي عن أبيه: كان أبو إسحاق ﵁ قد سأل الله - عزّ وجلّ - أن يُنسي مَعَدًا اسمه؛ قال عبد الله بن هاشم: فكان معدّ إذا اجتمعتُ معه يقول لي: ذلك الشيخ الذي يسكن بباب الريح، فأقول له: السبائي؟ فيقول: نعم.

[٩٢٩] ومن إجابة دعوته: أن أبا القاسم الفزاري الشاعر، رحمه الله، كان قد هجا بني عبيد - لعنهم الله- في أيام أبي يزيد، فبعد قتله طلبه السلطان ليقتله، فلجأ إلى السبائي وهو فزع خائف، وقال له: أنت تعلم ما يُراد بي، فقام الشيخ أبو إسحاق فدخل خزانته وأقبل يدعو ويقول كلامًا بعضه يُفهم وبعضه لا يُفهم ثم قال لأبي القاسم: امض اشترِ غذاءك وادخل الحمام، ثم امض إليه فلن ترى شيئًا تكرهه، قال أبو القاسم: فخرجتُ من عنده ففعلت ما أمرني به من الغذاء ودخول الحمام ووثقت نفسي بقوله ودعائه.

[٩٣٠] ثم مضيتُ إلى السلطان، فدخلتُ عليه فقال بعض من في مجلسه: يأمرك السلطان أن تنشده ما قلت في أيام أبي يزيد، فتوقفت عن ذلك وخفتُ، فقال: أنشدها ولك الأمان، قال: فأنشدته القصيدة الرائية وهي[1]:

(١) تخيرت بعض أبياتها فهي طويلة.

وليس يؤدب الإنسانَ شيءٌ كتأديب الحوادث إذ تدورُ
وإنّ ببابك اللّهمّ عبدًا من الخذلان أصبح يستجيرُ
دعاك وقد رجاك فصنه مِمَّا يحاذر ذو المراقبة الحذورُ
ولا تُسلمه للدنيا فتهوِي به منها بطون أو ظهورُ
سلامتها، وإن دامت سِقام ونعمتها، وإن راقَت غرورُ
تسرُّ المرءَ يومًا ثم تَغدُو فتسلب ما أتاح له السرورُ
وإن واتتك إقبالًا ونُعمَى فعُقباها الفجائع والقبورُ
وكلّ الخير فيها مُستعار وسوف يردّ ذاك المستعيرُ
وإن عزيزها عمّا قليلٍ ذَليلٌ، والغني بها فقيرُ
وكلّ مؤمّل أمل طويل[1] وعمْرٌ لو تأمّله قصيرُ
وبعد الموت أهوال عظام يشيبُ لبعضها الطفل الصّغيرُ
وبعد الموت للأرواح إمّا نعيم في الكرامة أو سعيرُ
عجبتُ لفتنة أعمتْ وعَمَّتْ يقوم بها دعيّ أو كفورُ
تزلزلت المدائن والبوادي لها وتَلَوَّنَتْ منها الدّهورُ
سأهدي ما حييتُ له ثناء مع الركبان ينجد أو يغورُ

قالوا:

فلما فرغ من إنشادها لم يعرض له إسماعيل بسوء، فلما خرج من بين يديه قام أحد الجند من بين يدي إسماعيل فاخترط سيفه ليقتل أبا القاسم، فقال له إسماعيل: مالك؟

قال: أضربُ عنقه.

فقال له: قد أمنّاه، فألا كان هذا في حين نشيده إيّانا، فلمّا قام عنّا وانصرف قُمت إليه.

فعافاه الله تعالى من شرّه بدعاء الشيخ السبائي.

---

(١) كذا ورد، وله وجه.

قالوا: ومدح ابن قتار معدًا وإسماعيل بمدحة كفر فيها، فقال له:

[٩٣١] أيهما أشعر أنت أو سهل الورّاق؟

فقال له: أنا أشعر في مدحكم، وسهل أشعر في هجوكم.

فتغيظ لهذا، فخاف سهل لمّا بلغه خوفًا عظيمًا، ومضى إلى دار أبي إسحاق السبائي، فقرع الباب ودخل، وكانت للشيخ فراسة، فلما نظر إليه قال له: أنت سهل؟

قال: نعم.

فقام إليه وأجلسه بجواره وأقبل عليه وقال له: ما الذي جاء بك؟

فأخبره بما قال ابن قتار.

فقال له:

[٩٣٢] أنشدني واجعل إصبعيك في أذنيك وارفع صوتك بها ما استطعتَ، فأنشدها له، وهي:

هل أنت بعد الشيب ذو صبوات ... أم مرعو عنها مطيع نهاةِ[1]

يأبى مشيبك من سؤالك أربعا ... كانت محلَّ العِير والظبياتِ

يا صاحبيّ سَلا ذوي الرِدّاتِ ... ما بال وحي نبيّهم لم يات

ما كان عنه مُبَطِّئًا ناموسه ... من قبل في وقتٍ من الأوقات

فالآن لا وحي إليه، فأين ما ... زعموا من الإيهام والأبهات؟

غضب الإلاه على نبي لم يَزَلْ ... حيران مغرورًا أخا سكراتِ

مُنهمكًا في خمره وسماعه ... مُتردّدًا في الغيّ والشبهاتِ

متعللًا بالترهات، وتارة ... يتنفّس الصعداء بالزفراتِ

لا فرّج الرحمن كربك! إنّما ... فرجُ الورى أن تألف الكرباتِ

يا ابن الأراذل والمجوس، ويا ابن ... هتك الفروج وضيّع الصلواتِ

---

(١) النهى العقل.

أسْفَى عليك الخارجي بِصَيْلَمٍ[١] وَافَتْـكَ عنـد نهايـة الميقـاتِ
الله باعثه فمـن ذا صـارفٌ مـا الله باعثـه مـن النّقمـاتِ
فلتقـرعنّ عصـاه كـلّ مضلّل عـادى النبـيّ وحـرّف السـوراتِ
لتطهَّـرن الأرض مـن ذي ردّة بـالمقرنين وكـل طـاغ عـاتِ
حُـذِّرتم كيـد الإله ومكـره فـأبيتم والله ذو سـطواتِ
وأبيـتم إلا تمـادي مسرفٍ في ظلمـه، والظلـم ذو ظلـماتِ
نـاداكم ربُّ العبـاد برجفـةٍ فغـدت جـذوع النخـل منقعـراتِ
فلقـد كسـا طـول الـبلاد وعرضـها مـن جـوركم مـا فـاق كـل صـفاتِ
قـوم إسـاءتهم إليـك بقـدر مـا أحسـنتَ، لا بـل مثلـه مـرَّاتِ
مـا قـصَّ في التنـزيل سـوءة أُمّـة إلا وفـيهم ضـعفها سَـوْءاتِ
ومتـى تخـبرهم بسـيرة مـن مضى قـالوا: أتخبرنـا بِمُختَرقـاتِ
نكروا فما عرفوا الجميل ولا احتذَوْا فعـل الكـرام ولا اقتـدَوا بِقـدَاتِ[٢]
وإذا الأعانيت اصطفينك فاستمع تـأويلهم في محكـم الآيـاتِ
كتمـرّد المجّـان واسـتهزائهم في القـول مـن زور ومختلقـاتِ
أو كـانهمار موسـوس يعتـاده هذيانـه وخبالـه تـاراتِ
قـد ألّفـوه ومثّلـوا أمثالـه تـأليف بُـرد خرافـة القينـات؟
الطـاعنين عـلى النبـي محمـد والقـائلين بأسـخف القـالاتِ
إن الإمـام هـو النبـي وإنـه ربّ تعـالى الله ذو العظـماتِ
فُتنوا بـأحمق مـن عليهـا، كيف لـو عَلِقُـوا بـذي لُـبّ وذي إخبـاتِ؟
هـدم المسـاجد وابتناهـا مَنْزَهـا لمضـارب العيـدان والنايـاتِ
وأحـلّ دار البحـر في أغلالـه مـن كـان ذا تقـوى وذا صـلواتِ

(١) قال المحقق: الصَّيْلم: الداهية (المعجم الوسيط: صلم).
(٢) قال المحقق: جمع قدة. وهي القدوة أي المثال الذي يتشبّه به غيره فيعمل مثل ما يعمل. (المعجم الوسيط: قدو).

مستحمق بـادى العَـوَار مهـوَّس ... نكـدٌ قليـل الخـير والبركـاتِ

قـالِ حـديث الصـدق رافـض أهلـه ... راض عـن الكـذاب والقينـاتِ

مـا زلـت أبصر في سـفاهة رأيـه ... كـرّ الزمـان عليـه بالآفـاتِ

فعليـه، مـا لبـيَّ الحجـيج وطوّفـوا ... وعـلى ذويـه، خوالـد اللَّعنـاتِ

أبـدًا تُغـادِي أو تـراوح روحـة ... حَيّـاَ وبعـد المـوت مُعْتَـوِرَاتِ

[٩٣٣] فلما فرغ من إنشادها قال له أبو إسحاق: أخبرني ما أردتَ بهذه القصيدة؟

فقال له: أردت بها الله، عزّ وجلّ.

فقال: اللّٰهمَّ احمه واكفه وعافه.

فخرج من عنده وجاز بأبي القاسم الفزاري فقال له الفزاري: الدوّارة يبحثون عنك، فخاف سهل، فقال: منذ ثلاث ساعات وجّه إليكم السلطان بخلعة وصرّة، فقال له: ذلك الوقت الذي كنتُ فيه عند أبي إسحاق السبائي.

ويقال إن السلطان أحضره وقال له: لا بدّ لك أن تنشدني القصيدة التي هجوتنا فيها كلها.

فقال له: أنشدها ولي الأمان؟

فأعطاه الأمان، وأنشده القصيدة كلها، فلم يصل إليه بمكروه ووصله وأكرمه، وذلك كله بدعاء الشيخ، رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

[٩٣٤] قال الشيخ أبو الحسن الفقيه -رحمة الله تعالى عليه-:

دخل أبو العباس ابن أبي ثوبان -أخو صاحب المظالم- على أبي إسحاق، أراد أن يعاتبه ويَعْذِله، فوجده خاليًا فسلّم وجلس، ثم سأله سؤال منبسطٍ: كيف حالك يا أبا إسحاق؟ فأجابه الشيخ جواب منقبض، لأنه كان عارفًا به، ثم قال له: ما حَرَّكك يا مبارك؟ ما نحتاج أن تعيننا أو نحو هذا الكلام، فغضب وخرج وهو يقول: ليس العجب إلا منّي، فلقي أبا علي

حسنًا أخا أبي عبد الله الفقيه بن نظيف خارجًا من القاسمية ذاهبًا إلى داره وهو حَقِنٌ(١)، فقال له: يا أبا علي العجب من شيخكم هذا.

قال: أي شيخ؟

قال: هذا السبائي الذي تدخلون إليه.

فقال له: ما له؟

قال: مضيت إليه زعم على أني أعذله وأعاتبه، فأقبل وهو يقول: ما نحتاج ما نحتاج، قل له: في عاقبة سوف ترى.

قال أبو علي: فذهَبَ عنّي ما بي من الحَقَن وتَوجهت مسرعًا إلى الشيخ أبي إسحاق، فلما استأذنت بقرع الباب أذن، فدخلتُ فوجدته خاليًا، فقلت له:

أصلحك الله تعالى: مَن خرج من عندك الساعة؟

فقال الشيخ مبتسمًا: ليس إلا خيرًا، فأخبرته بما جرى لي معه وبما أدركني من خوف على الشيخ، وجعلت أسأله في أمر يلطف فيه مما يسكن به أبا العباس عما يصنعه مما يعقده مع أخيه الذي هو على المظالم في أمر يؤذي به الشيخ والمسلمين، وهو يقول: لا يا مبارك، ليس إلا خيرًا.

فقلت له: أصلحك الله تعالى: إنه قد قال: سوف ترى، وجعلتُ أكررها.

فقال لي الشيخ، بعد ساعة من المراجعة: يا مبارك قل له: سترى أنت.

فخرجت من عنده فدخلت داري فتخففت وتغديت ونمت ثم خرجت إلى حانوتي بعد زوال الشمس، فسمعت عند دار أبي العباس الواعية(٢)، فقلت ما هذا؟

قالوا: مات أبو العباس بن أبي ثوبان.

فجعلت أدفع ذلك وأدافع من يقوله لي حتى وافيتُ أخاه أبا سعيد صاحب المظالم خارجًا من دار الميت، فقلت له: ما هذا؟ وأنا كنت معه الساعة.

---

(١) الحَقِن: المحتاج إلى بيت الخلاء.

(٢) الصراخ على الميت: المعجم الوسيط: وعي.

فقال: إنما دخل الحمام ثم تغدّى ونام، وانتبه، فنخر مرّة أو مرتين ثم مات.

فانصرفت من ساعتي إلى الشيخ أبي إسحاق، فاستأذنت عليه، فقال: من هذا؟

فقلت: حسن، فأذن لي، فدخلت فسلمت عليه ثم قلت له: مات أبو العباس، ثم حكيتُ له كيف كان موته.

فقال لي: يا أخي يا أبا عليّ : قد كفيت ما تحذره، والحمد لله عزّ وجلّ.

قال الشيخ أبو الحسن وهذه حكاية مستفيضة أشهر من كثير من الأمور لا تكاد تخفى، ومثل هذا كثير.

[٩٣٥] قال الشيخ أبو محمد بن أبي زيد الفقيه -رضي الله تعالى عنه-:

كان الشيخ أبو إسحاق ﷺ مستجابًا، ولقد رأيت من استجابة دعوته أشياء كثيرة وذلك أنه كانت لي بنت فأصابها في عينها شيء وكرهتُ السير بها إلى عند ابن أعين[1]، وعند انصرافي من مجلس الشيخ أبي إسحاق ﷺ قلت له: ابنتي أصابها شيء في عينها أردتُ أن تدعو لها.

فقال لي: ولِمَ لَم تمض بها إلى ابن أعين؟

فقلت له: إني كرهتُ أن يراها.

فقال لي: ابعث بها إليّ أرقها، ثم رجع فقال: لا تمضِ بها إلى ابن أعين ولا تبعث بها إليّ، من ها هنا أرقيها لك، فلم يزل يرقيها حتى أفاقت.

[٩٣٦] قال أبو محمد: وكانت عندي طفلة، فلما بدأت تمشي استرخى وركها، فمضت بها امرأة إلى الشيخ أبي إسحاق -رحمه الله- فرقاها، فأتتني بها صحيحة.

[٩٣٧] قال أبو محمد أيضًا: كان موسى اليهودي[2] عند مَعَدّ، وعنده وجوه رجاله، فقال له معدّ: رجل في بيت من قصب يشتمنا وما قدرنا له على شيء.

---

(١) قال المحقق: هو أعين بن أعين، طبيب وكحّال قيرواني، انتقل مع المعز الفاطمي إلى مصر وبها توفي سنة ٣٨٥: «عيون الأنباء»: ٢: ٨٧.

(٢) قال المحقق: هو موسى بن العزار، اختلفت المصادر في ضبط لقبه، طبيب إسرائيلي خدم المنصور والمعز، وانتقل مع هذا الأخير إلى مصر وبها توفي بعد سنة ٣٦٣: «عيون الأنباء»: ٢: ٨٦، أخبار الحكماء ٢١٠.

فقال له ابن الإفرنجية: من هو يا مولاي؟ نقطع رأسه ونفعل به كذا وكذا.

فقال له معدّ: اسكت يا عبد السوء.

فقال موسى اليهودي لمعدّ: إنك لن تطيقه، فسكت عنه معد، فلمّا خلا المجلس قال معدّ لموسى اليهودي: ما ذاك الخطاب الذي خاطبتني به؟

فقال له: نعم، أنا أخبرك: كانت عندي ابنة وكان بعينها بياض، فما بقي شيء مما أمر به الأوائل إلا وقد عملته لها، فلم تنتفع بشيء منه حتى إني وجّهت إلى مصر فاشتريت لها مثقال توتية[1] بمائة مثقال ذهبًا، عملته لها، فما نفعها شيء وابيضّت عيناها، فكانت لا تبصر، وكانت تدخل إلينا امرأة فقيرة من المسلمات فقالت: أعطوني هذه الصبية أمضي بها عند السبائي، فمضت بها إليه فرقاها في جملة من يرقي، فجاءت وهي تبصر وزال ما بها في الوقت.

[٩٣٨] وذُكر عنه أنه كان يرقي الناس الذين يأتون إليه جملةً ويجرّ على كل إنسان منهم بيده على وجعه فيبرأ، فتحيّل رجل مشرقي ممن مرق عن الإسلام، بعينه وجع، فأرخى منديله على وجهه في جملة الناس خوفًا أن يُعرف، فرقى أبو إسحاق الجماعة وخرجوا، فبعد خروجهم عرَّفه بعض مَن حضر أن فيهم رجلًا مرق عن الإسلام، فقال: لِمَ لم تخبروني به؟ عليَّ به، فقام رجل وراءه وردّه إليه وهو فزع، فقال له أبو إسحاق: أجررتُ بيدي على وجعك؟ فقال له: نعم، فقال له: قال الله عزّ وجلّ: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢] اخرج فليس لك في القرآن شيء.

[٩٣٩] قال عبدالرحمان بن محمد: سمعت أبا إسحاق -رضي الله عنه- يقول: كلُّ الخلق يريدون الله -عزّ وجلّ- ولكن انظر من يريده الله، تعالى وتقدّس.

[٩٤٠] وقال له أندلسي: إن خبرك عندنا، فقال له أبو إسحاق: يا أخي الخَبَرُ غدًا.

[٩٤١] وسمعته يقول: الذي نؤمن به من الغيب هو أوثق عندنا من أعمالنا؛ لأن

---

(١) قال المحقق: في «المعجم الوسيط» توت التوتياء: حجر يكتحل بمسحوقه، معرب.

الأعمال تشوبها الآفات.

[٩٤٢] قال الفقيه أبو بكر بن اللّباد -رحمة الله عليه- في بعض تآليفه:

هذا ما انتهى إلينا من أخبار العلماء العقلاء المؤمنين الذي يُتلذذ بمجالستهم وأخبارهم، وتُطلب الفائدة منهم، ويشتدّ الاغتمام بمفارقتهم، ويطول الحزن والبكاء عند فقدهم، وتقرب القلوب منهم وإن نأت بهم ديارهم.

أخلاقهم جميلة، وقلوبهم سليمة، وأنفسهم كريمة.

قد عرفوا أزمانهم، وأقبلوا على شأنهم.

الناس منهم في راحة، وأنفسهم منهم في تعب، شغلهم بالله متصل، وعن غيره منفصل، فسلم الناس من ألسنتهم وأيديهم.

أخوة كما أمر الله - عزّ وجلّ - أمهاتهم شتّى وقلوبهم على الحق والخير مجتمعة.

فمن أحبّهم أفاد خيرًا كثيرًا، ومن حسدهم أو آذاهم فقد خسر خسرانًا مبينًا.

لا يرغب في مجالستهم إلا أديب عاقل، ولا يزهد في رؤيتهم إلا أحمق جاهل.

نفعنا الله سبحانه بهم، وأشركنا في صالح دعائهم، وغفر لنا ولهم، وجمع بيننا وبينهم في مستقر رحمته ودار كرامته، إنه غفور رحيم، فسل الله -سبحانه- التوفيق والرشاد والسداد، إنه الكريم الجواد.

وهذا آخر كتاب «رياض النفوس في طبقات علماء مدينة قيروان إفريقية وما يليها من بلدانها ومراسيها وحصونها وسواحلها وعبّادهم ونساكهم وأوصافهم وتاريخ وفاتهم» تأليف أبي بكر عبد الله بن محمد المالكي قدّس الله روحه ونوّر ضريحه.

ولنختم الكتاب بالصلاة على سيّد الأولين والآخرين والحمد لله رب العالمين.

***

فهرست الفوائد

صناعة فهرست لفوائد كتاب كهذا إنما هو عمل شائك، وربط لمتفرق ليعود أشبه بالمتشابك، ولا يخلو هذا العمل - إن شاء الله تعالى - من فائدة للباحثين، وتقريب مادة الكتاب للمطالعين، وأرجو أن يكون هذا الفهرست قد حوى جميع فوائد هذا التهذيب، وأحاط بما صنعه مهذبه من التشذيب، إلا ما كان من نقص لحقه أو سقط أصابه أو أمر نَدّ عنه، وهو نقص لا بد منه في عمل البشر، ولا يخلو منه إلا من جَلّ وقهر، سبحانه وتعالى.

طريقة الفهرست

إنه لمن الصعوبة بمكان ترتيب فهرست الفوائد ليبدو متسلسلًا تسلسلًا منطقيًا، آخذًا بعضه بحُجَز بعض، جاريًا على نسق مفهوم مترابط، وذلك لتشعبه وطوله، لكني حاولت أمرًا، واجتهدت حتى يستقيم هذا الفهرست على طريقة مقبولة، وذلك بعمل التالي:

١) جعلت بداية الفهرست الكلام عن الإيمان بالله تعالى، والتعلق به ودعائه، وإنما صنعت هذا لأنه الأصل الذي قامت عليه السماوات والأرض.

٢) ثم أردفته بالفوائد المتعلقة بالقرآن العظيم لأنه الأصل الأول للمسلم في شئونه كلها.

٣) ثم أوردت الفوائد المتعلقة بالكرامات لتعلقها نوع تعلق بما سبق.

٤) ثم أوردت فهرست فوائد العبادات؛ لأنها تجب على المسلم بعد معرفته ربه تعالى ودينه.

٥) ثم أوردت فهرست فوائد العلم والعلماء والفقه والقضاء، لأن كل ذلك مما تمس إليه حاجة المسلم الذي يريد تصحيح عقيدته وعبادته وسلوكه، وضبط علاقته بالآخرين.

٦) ثم أوردت فهرست فوائد الصفات والأخلاق الحسنة، وما يناقضها من صفات وأخلاق سيئة، ثم الصفات والأخلاق التي تؤخذ بقدر، ثم أردفت ذلك بفهرست الذنوب والمعاصي.

٧) ثم أوردت فهرست فوائد مجموعة متعلقة بما سبق تعلقًا أكيدًا وهي: الجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله تعالى.

٨) ثم أوردت فهرست فوائد علوم اللغة التي يحتاجها طلاب العلم والمشايخ والدعاة والخطباء وأمثالهم، وما يتعلق بذلك كالكتب.

٩) ثم أوردت فهرست فوائد صحة الجسد والعقل وما يتعلق بذلك من مال وطعام وشراب، وما يستتبع ذلك من نكاح وأولاد، والحقوق المتعلقة بالوالدين والأصحاب.

١٠) ثم أوردت فهرست فوائد الدنيا وما فيها من صالحين، وما فيها من أصدقاء وإخوة في الله، وما فيها من عجائب وغرائب، وما فيها من طرائف، وما يلحق بذلك كله من مباحث.

١١) ثم أوردت ما لا بد للمرء منه من البلاء ثم المرض والموت، ثم المراثي.

١٢) ثم ختمت بمتفرقات عدة، ألحقت بها بعض الفوائد التي لا أصل لها تندرج تحته، وما كان لها أصل تتعلق به بعض تعلق فإني أوردها في مكان أصلها، مجتهدًا في ذلك ما وسعني الاجتهاد.

- هذا الذي استطعته من الترتيب ليكون الفهرست مترابطًا على نحو ما، يأخذ بعضه بحجز بعض، ويسوق بعضه إلى بعض، وهو على كل حال اجتهاد مني ربما رآه غيري مرجوحًا، والله أعلم بالصواب.

كيفية البحث في هذا الفهرست

١- جعلت أرقامًا لأكثر ما أوردته في هذا التهذيب، وهذه الأرقام متسلسلة من رقم (١) إلى رقم (٩٤٢) وهذا يعني أن هناك ٩٤٢ فائدة في هذا التهذيب.

٢- اجتهدت في تقسيم هذه الفوائد على العناوين سابقة الذكر، ولطول هذه الفوائد فإني صنعت فهرست للفهارس، والرجوع إليه ليسهل الوقوع على الفائدة المبتغاة، إن شاء الله تعالى.

٣- فإن أراد الباحث استخراج الفوائد في الصلاة مثلًا، وعَسُر عليه البحث عنها مباشرة في

فهرست الفوائد لطوله، فعليه أن يعود إلى فهرست الفهارس، ثم ينظر في فهرست العبادات، وسيحيله الفهرست إلى فوائد الصلاة برقم الصفحة، فإذا وقف على الصفحة وجد فهرست فوائد الصلاة، ووجد بجوار كل فائدة رقمًا، وهذا الرقم يكشف عنه في الكتاب مباشرة بسهولة ويسر إن شاء الله تعالى.

- فإن وجد الناظر في هذا الفهرست نقصًا أو خللًا أو خطأً فلينبهني إليه مشكورًا، وليعلم أن هذا إنما جاء على الجادة، أي أنه خرج من مَعْدِنه، والشيء من مَعْدِنه لا يستغرب، وجاء على المظنون منه، فإني من جملة البشر أخطئ كما يخطئون، وأسأل الله تعالى العفو عن الخطأ والزلل، وأن يجبر سبحانه النقص والوهن، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

الله جل جلاله

ذكر الله تعالى

الدعاء

العقيدة

القرآن العظيم

السنة المشرفة المطهرة

الكرامات

الفراسة:

العبادة

الصلاة

الصيام

الحج

الإنفاق في سبيل الله تعالى

العلم والعلماء

الفقه والفقهاء

القضاء والقضاة

الصفات الحسنة والأخلاق

صفات تطلب بقدر

الصفات والأخلاق السيئة

الذنوب والمعاصي

الجهاد

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الدعوة إلى الله تعالى

الأدب واللغة

الكتب

الشهوات والشبهات

الشيطان

النساءوالزواج

الوالد والولد

الدنيا

الصالحون

الإخوان والأصدقاء والجلساء والجيران

لطائف ونوادر

البلاء والفتن والمصائب

وصايا

الموت والدار الآخرة

الرؤى

متفرقات

فهرست التراجم

رقم الصفحة

***

فهرست الفوائد

***